عبد اللّه السنّاوي

أخيل جريحًا

إرث جمال عبد الناصر

دار الشروق

أخيـــل جريحـًا

أخيل جريحًا

إرث جمال عبد الناصر

عبد الله السناوي

الطبعة الأولى ٢٠١٩

تصنيف الكتاب: سياسة

© دار الشروق

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقم الإيداع ١٥٢٠٥/ ٢٠١٩
ISBN 978-977-09-3577-4

تصميم الغلاف: هاني صالح

السناوي، عبد الله
أخيل جريحًا/ عبد الله السناوي
القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٩
٣٧٠ ص، ١٧ سم
تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٥٧٧٤
رقم الإيداع ١٥٢٠٥/ ٢٠١٩
١ - سياسة
أ. العنوان
٣٢٧

عبد الله السنّاوي

أخيـــل جريحـًا

إرث جمال عبد الناصر

دار الشروق

إهــــــداء

إلى الأجيال الجديدة

المحتويات

نظرة في المرآة ٩

الفصل الأول: نار تحت الرماد ١٥

الفصل الثاني: أين الرجل؟ ٣٤

الفصل الثالث: البحث عن طريق ٥٥

الفصل الرابع: أدوار وأثمان. ٨٤

الفصل الخامس: صندوق أحمد سعيد ١٠٤

الفصل السادس: أزمة المثقفين ١٣٣

الفصل السابع: المشروع والنظام ١٥٨

الفصل الثامن: نبوءات (٥) يونيو ١٧٦

الفصل التاسع: مواجهات ومراجعات. ١٩٦

الفصل العاشر: خلف الأبواب المغلقة ٢١٩

الفصل الحادي عشر: عواصف وانقلابات ٢٧٣

الفصل الثاني عشر: موعد مع القدر ٣٠١

الفصل الثالث عشر: رجال وتاريخ ٣٢٥

الفصل الرابع عشر: المتمردون الجدد. ٣٤٨

نظرة في المرآة

بأي تعريف كلاسيكي للانقلاب العسكري، فإن «يوليو» الانقلاب الوحيد في التاريخ المصري الحديث ـ تنظيم سري داخل الجيش ضم وجنّد وخطط قبل أن يتحرك بغتة ويمسك بمقاليد السلطة، بعد الإطاحة بالنظام الملكي.

وبأي تعريف كلاسيكي للثورة، فإن «يوليو» الثورة الوحيدة بحجم التغييرات الجذرية التي أحدثتها في بنية المجتمع الطبقية وطبيعة التوجهات الإستراتيجية، التي تبنتها وغيّرت بها معادلات القوة والنفوذ في الإقليم.

استدعاء الصفات من احتياجات مجتمعاتها.. وقد كانت مصر بحاجة ماسة إلى التغيير الجذري في بنية العلاقات الاجتماعية والتوجهات الإستراتيجية، حتى يمكنها تحقيق طلبيها الكبيرين في جلاء قوات الاحتلال البريطانية، ورفع المظالم الاجتماعية عن أغلبية شعبها.

ككل الثورات المصرية الأخرى جرى إجهاضها بالعمل العسكري ضدها أو بثغرات نظامها.

أجهضت الثورة العرابية، واحتلت مصر عام (١٨٨٢) وران صمت طويل بأثر الانكسار حتى ارتفع على المسرح السياسي صوت «مصطفى كامل».

أجهضت ثورة (١٩١٩) بالتلاعب بالدستور والحكومات وحرمان «الوفد»، حزب الأغلبية الشعبية بلا منازع، من حقه في الحكم باستثناء مرات معدودة، لكن آثارها في حركة المجتمع والاقتصاد والثقافة والفنون والتعليم جعلت مصر أكثر ثقة في نفسها ومستقبلها.

بروح نقد الثورة في أربعينيات القرن الماضي بزغت تيارات فكرية جديدة، مهدت الطريق لـ(٢٣) يوليو، التي حاربت وحوربت، أنجزت وانتكست.

وبروح النقد، التي تولدت بعد هزيمة يونيو (١٩٦٧)، تأكدت قيم المشاركة السياسية ودولة المؤسسات بجوار إعادة بناء القوات المسلحة من جديد على أسس علمية حديثة، وإبعادها عن أي تورط في السياسة الداخلية.

وقد كان إجهاض ثورة «يناير» عام ٢٠١١ حلقة جديدة في الظاهرة نفسها، لكن بصورة أفدح.

لماذا كان تراجع الثورات سمة عامة بعد فورة البدايات المبشرة؟

هذا سؤال في الحاضر وأزماته.

إن أسوأ اقتراب من ملفات التاريخ، الإعراض عن الحقائق والثأر بالتهجم.

باستثناء «يوليو»، فإن ثورة أخرى لم تحكم، وقد تعرضت لتحديات ومخاطر ومحاولات اغتيال زعيمها.

لماذا جمال عبد الناصر بالذات؟

في استهدافه حيًا وميتًا شهادة على قوة مشروعه وحجم تأثيره.

أي كلام يتجاهل الانقلابات الإستراتيجية والاجتماعية على مشروعه، أو يلحق به سياسات «أنور السادات» و«حسني مبارك» وما بعدهما، تجهيل بالتاريخ يستهدف الذاكرة العامة حتى يكفر المصريون بأي معنى حقيقي للثورة، وحقوقهم الطبيعية في التحرر والاستقلال والعدل، أو أي تطلعات للتصحيح والتصويب حتى يمكن بناء دولة مدنية ديمقراطية حديثة ـ كما طمحت «يناير» المجهضة.

بقوة الفعل التاريخي، لا الافتراضي، اكتسب شعبيته وامتد إرثه بكل ما فيه من أحلام أجهضت، وأخطاء ارتكبت حتى الآن.

حسب تعبير شهير للإمام «أحمد بن حنبل» عندما اشتدت محنته: «بيننا وبينكم الجنائز».

كانت جنازته بحجمها الاستثنائي والحزن العميق فيها شهادة لا تخطئ بعمق تجربته وإلهام مشروعه.

وكان مثيرًا طغيان صورته بعد الرحيل حيث مصداقية الرؤية في اختبار الزمن.

لكل ثورة سياقها التاريخي، وأي كلام خارج سياق زمنه تهاويم في الفضاء.

التاريخ ليس أسطورة، لكن بعض الرموز تلخص المعاني الكبرى وتستعصي على محاولات الهدم.

«يوليو» لعبت دورها في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية بقدر ما لعبت ثورة (١٩١٩) دورها في عالم ما بعد الحرب العالمية الأولى.

«يناير»، ثورة هذا الزمان، حيث طفرة الاتصالات والمعلومات، حتى لو بدا الميلاد عسيرًا والجنين مخطوفًا.

برغم أي محاولات لاصطناع القطيعة بين ثورات مصر، فإن كلًّا منها تتصل بما سبقها وتؤسس لما بعدها.

في سنوات يوليو أطلق «عبد الناصر» أوسع عملية حراك اجتماعي نقلت أغلبية المصريين من هامش الحياة إلى متنها، كما تصدر مشهد حركات التحرير الوطني في العالم العربي وإفريقيا ملهمًا العالم الثالث كله.

قد تتفق أو تختلف معه، لكنك لا بد أن تستشعر اتساقًا كبيرًا فيما يقول ويفعل.

قيمة «عبد الناصر» الحقيقية أنه كان يصدق نفسه ويصدقه الناس ونزاهته الشخصية كرّست صورته في التاريخ، غير أن التناقض كان فادحًا بين اتساع المشروع وضيق النظام.

ذلك يستدعي المراجعة بأكبر قدر من الموضوعية حتى تستبين الحقائق أمام أجيال جديدة يراد لها أن تُنكر تاريخها حين حاربت وانتصرت، أو تراجعت وهزمت، دون أن تُدرك ـ وهذا حقها: كيف.. ولماذا؟

راجع «عبد الناصر» أخطاء تجربته، التي أفضت إلى هزيمة يونيو (١٩٦٧)، في محاضر رسمية، وكان من بينها تغول مراكز القوى في بنية الدولة، وانحرافات جهاز المخابرات، وتدخل الجيش في غير مهامه الطبيعية مما أفقده احترافيته.

كما حاور بعض قيادات الحركة الطلابية الغاضبة في أسباب الهزيمة، داعيًا إلى المجتمع المفتوح ودولة المؤسسات، وأصدر بيان (٣٠) مارس وفق تطلعاتها للمشاركة في صناعة القرار السياسي.

كان ذلك ضروريًّا حتى يقف البلد على قدميه لتحرير أرضه المحتلة بقوة السلاح، ورفع منسوب الأمل في المستقبل من جديد.

وصف الشاعر السوداني «محمد الفيتوري» ما جرى في يونيو، وما بعده بـ«جلال الانكسار».

كان ذلك التعبير قريبًا في معناه ودلالته مما أطلقه الشاعر العراقي «محمد مهدي الجواهري» في وصف «عبد الناصر» بـ«عظيم المجد والأخطاء».

لا توجد ثورة واحدة في التاريخ بلا أخطاء جسيمة ارتكبتها، ولا ثورة هدمت قديمًا متهالكًا، وأسست لجديد يتطلبه عصره، جرت وقائعها في معامل كيمياء تتوافر لتفاعلاتها كل شروط الأمان.

كما لا توجد ثورات عابرة للعقود والقرون، وثورة «يوليو» بنت عصرها وتحدياته ومشروعها، كأي مشروع آخر، يجرى عليه التصحيح والتصويب بالنقد والإضافة، حتى يكتسب جدارته في الانتساب إلى المستقبل.

إرث الثورات لا يُدفن في مقابر الصدقة، فهو موضوع مراجعة تجارب وتراكم خبرة، وتأكيد على القيم السياسية التي رسختها، والأحلام التي أطلقتها حتى يبنى عليها دون الوقوع في الأخطاء التي أودت بها.

ذات مرة قال الزعيم الصيني «ماو تسي تونج»: «إننا نحترم تاريخ الآخرين الذين دفعوا ثمنه دمًا وعرقًا، ولكننا نحترم أكثر تاريخنا الذي دفعنا نحن ثمنه من دمنا وعرقنا».

لم يأتِ «عبد الناصر» إلى السلطة من خارج سياق الحركة الوطنية، ولا كانت أهدافه تتعدى مطالبها الرئيسة.

في اللحظة التي أمم فيها «الشركة العالمية لقناة السويس شركة مساهمة مصرية»، لامس عمق الوطنية المصرية وكبرياءها الجريحة.

وفي اللحظة التي أعلن فيها من الجامع الأزهر الشريف نداء المقاومة: «سنقاتل»، دخل التاريخ من أوسع أبوابه، وألهم حركات التحرير في العالم الثالث.

عندما ولدت زعامته في أتون حرب السويس مضى قدمًا في بلورة مشروعه، وأي ثورة بلا مشروع لا تقدر على أي مواجهة ولا تصنع أي إلهام.

بقوة مشروعه اكتسب مكانًا ضمن «آخر العمالقة» بتعبير الكاتب الأمريكي «سيروس سالزبرجر» في كتاب يحمل العنوان نفسه، يتناول الشخصيات الأكثر تأثيرًا وإلهامًا في الحرب العالمية الثانية وما بعدها.

قوة «عبد الناصر» الكامنة في مشروعه السياسي العريض لا في ثغرات نظامه القاتلة، كأنه صورة حديثة من «أخيل» البطل الملحمي في التراجيديا الإغريقية، قوته في مناعة جسده من ضربات السهام والرماح وضعفه في انكشاف كعبه لأي ضربات تصل إليه.

تقول الميثولوجيا الإغريقية، التي خلدها «هوميروس» في «الإلياذة»: إن والدته «ثيتيس» غمرت جسد وليدها في نهر مقدس، لكنها نسيت أن تغمر قدميه حيث حملته منهما فلم يمس كعبيه ماء.

في قصائد إغريقية أخرى لا توجد أي إشارة لمناعة في جسده ضد طعن السهام والرماح، أو نقطة ضعف في كعبيه، وأنه قد مات بإصابات سهام نالت أجزاء عديدة من الجسد الجريح.

التاريخ ليس تراجيديًّا، غير أنها موجودة فيه.

بأي نظر في تاريخ رجل «يوليو»، فهو شخصية تراجيدية غير أن تجربته عمل تاريخي يُقرأ في سياقه وتحدياته ـ بالوثائق لا بالأهواء.

لم يكن ممكنًا أن تأخذ هزيمة «يونيو» (١٩٦٧) مداها المروع لو لم تكن الأوضاع داخل المؤسسة العسكرية منكشفه بالتجاوزات وقلة الكفاءة، وتتفشى فيها مراكز قوى أضعفت درجة اليقظة لأي مخاطر على الحدود، أو أي استعداد لمواجهة عسكرية، وما لم يكن النظام كله مقفولًا ومنكشفًا لأخطاء جوهرية فيه أدانها «عبد الناصر» نفسه في محاضر رسمية بعد الهزيمة.

هناك من يقول دون سند من واقع: إن «عبد الناصر» مات يوم (٥) يونيو.

الحقيقة أن المسافة ما بين الهزيمة العسكرية (١٩٦٧) والرحيل المفاجئ (١٩٧٠) أفضل سنواته.

الهزيمة أثرت على صحته دون أن تنال من عزيمته.

لم يكن صريع الهزيمة لكنه جريحها.

بنظر تراجيدي فهو «أخيل جريحًا» لا «أخيل صريعًا».

في ظني، يلخص المشير «عبد الحكيم عامر» «كعب أخيل» الأول، فهو صديقه الأقرب، بل هو توأمه الإنساني وسنده في حسم صراعات السلطة، حتى أصبح هو نفسه مقتل التجربة بالطريقة التي كان يُدير بها القوات المسلحة في لحظة حرجة من التاريخ المصري.

ويلخص الرئيس الأسبق «أنور السادات» «كعب أخيل» الثاني، لم يكن له دور جوهري في سنوات «يوليو»، عاش في ظل المناصب، لكنه وجد نفسه في أعلاها بظروف الرحيل المفاجئ.

لم تكن القضية أن يعدِّل ويضيف وفق مستجدات الظروف، بقدر ما كانت في الانقلاب الكامل على مشروع «يوليو»، والرغبة الجامحة في التشهير بكل ما يُنتسب إليها.

تقويض التجربة بإنجازاتها وتوجهاتها الرئيسة جرى من داخل النظام.

لا يصح استبعاد استهداف «يوليو» من قوى خارجية بالتآمر عليها، والوثائق متوافرة طوع من يريد أن يقرأ ويعرف، لكنه لا يفسر وحده ما حدث من تقويض.

لم يكن نظام «يوليو» قادرًا على حمل مسئولية المشروع إلى مدى أبعد.

تقول رواية متواترة إن الطالب «جمال عبد الناصر» لعب دور «يوليوس قيصر» في مسرحية «وليام شكسبير»، التي تحمل الاسم نفسه على مسرح مدرسته الثانوية.

لم يكن ممكنًا لمن شاهدوا ذلك العرض المسرحي المدرسي أن يخطر ببالهم أن الطالب الذي يُمثل دور «يوليوس قيصر»، أو يصرخ متألمًا بعبارته الشهيرة: «حتى

أنت يا بروتس» سوف يلقى مصيرًا مماثلًا في مقبل الأيام، حين يتنكر له بعض رجاله ويطعنون فيه.

لماذا صعد مشروعه؟ وكيف خذله نظامه؟

السؤال ضروري بأي نظر جدي للمستقبل.

بصياغة أخرى لنفس السؤال: إلى أي حد يتحمل «عبد الناصر» مسئولية ما انتهت إليه تجربته، وما تبناه من آليات حكم ناقضت مشروعه؟

هذا الكتاب محاولة لإعادة قراءة التجربة مشروعًا ونظامًا وإرثًا وصراعًا، امتد عبر العقود حتى ثورة «يناير» وما بعدها إلى عقود أخرى لا يعرف أحد عددها.

قراءة وليست تأريخًا، رؤية لمستقبل وليست تحليقًا في ماضٍ.

التاريخ هو مادة المستقبل بقدر ما تساعد قراءته على بناء التصورات وإحكامها بأكبر قدر ممكن من الموضوعية دون تبرير لخطأ، أو اندفاع بمشاعر.

الموضوعية طريقة نظر تقدر وتنصف وفق حقائق العصر الذي جرت فيه الحوادث.

بالوثائق والشهادات وبعضها شبه مجهول، وبعضها الآخر ليس في العلم العام أنه موجود، حاولت بناء رؤية جديدة في عصر جديد لأهم تجربة عربية في التاريخ الحديث، وأكثرها إثارة للجدل ـ كأنه نظرة في المرآة لقوتها وتجاعيدها.

نظرة في مرآة التاريخ، فلا قيمة لأي رؤية إذا لم تسندها وثائق تثبت، أو إذا ما جافت حركة الحوادث.

ونظرة في مرآة الأدب رواية ومسرحًا وشعرًا ـ وهذه تعكس الروح العامة للمرحلة، أحلامها وتناقضاتها وانقلابات المشاعر والمواقف فيها، كما أن التوقف بالتأمل في الشخصيات الروائية التي صدرت في وقتها يساعد على اكتشاف ما هو باطن من تفاعلات ويفتح مغاليق التحليل السياسي.

ونظرة في مرآة المستقبل ترد اعتبار الثورات المصرية وتكاملها، وتحاول أن تُمسك بقدر الممكن ما يتبقى ملهمًا للأجيال الجديدة ـ المشروع الوطني المتجدد بحركة الزمن، واحتياجات العصور، ولا شيء غيره.

الفصل الأول: نار تحت الرماد

لم يكن بوسع الضابط الشاب، الذي تجاوز بالكاد الثلاثين من عمره، وهو يصل بقطار عسكري إلى غزة يوم (٣) يونيو (١٩٤٨) أن يتوقع، أو يمر بخاطره، أن تجربة الحرب في فلسطين سوف تحكم الخطوط العريضة لتوجهاته وتدفعه ـ بعد توقف معاركها والعودة للقاهرة ـ إلى إعادة بناء تنظيم «الضباط الأحرار» من جديد وتشكيل هيئته التأسيسية، التي أطلت على مسارح السياسة الملتهبة يوم (٢٣) يوليو (١٩٥٢).

تحت وهج النيران في فلسطين تغير مسار حياته مرة واحدة وإلى الأبد.

تلك حقيقة لا يمكن نفيها في ظل ما سجله «جمال عبد الناصر» رئيس أركان الكتيبة السادسة في دفتر يومياته الشخصية، التي كتبها على مكتب فوقه لمبة غاز في أثناء حرب فلسطين.

أصدق ما يُنسب لرجل ما يكتبه بخط يده تعبيرًا عن مشاعره ومشاهداته في لحظة الحدث دون توقع أن أحدًا سوف ينظر فيما كتب، ولو بعد عشرات السنين.

«الأخ والصديق العزيز..

الله يسامحك يا رجل لقد تسببت في عدم نومي ليلة كاملة، بدأت السادسة مساء الجمعة، وانتهت السادسة صباحًا عقب أذان فجر السبت واستأنفت القراءة بعد الصلاة وحتى منتصف النهار، لكن بعدما انتهيت من القراءة قلت: شكرًا... إنك فكرتنا بأيام خوالٍ حلوة.. وفكرتنا وهذا هو الأهم بأخوة سلاح وأخوة كفاح، ومنهم من كانوا قادة لنا وأساتذة سواء في الكلية الحربية، أو في مراحل متقدمة من عملنا في القوات المسلحة، أو في حياتنا العملية والسياسية فيما بعد الثورة.. وفكرتنا بقادة عسكريين وإن اختلفت فيهم الآراء ما بين قادة عظام وآخرين لم يكن بعضهم على مستوى المسئولية، خصوصًا أن تلك المرحلة كانت مجالًا لاختبار الرجال، وأعني بذلك ما حدث ما بين عامي ١٩٤٨ و١٩٤٩، التي سُميت بحرب فلسطين».

هكذا كتب «سامي شرف» سكرتيره للمعلومات ووزير شئون رئاسة الجمهورية الأسبق على صفحات جريدة «العربي» في (٢٠) يناير (٢٠٠٨) فور إزاحة الستار - لأول مرة - عن نصوص تلك اليوميات.

على مدى ستين سنة كاملة لم يتح لأحد من معاونيه ومقربيه وأسرته نفسها أن يدخل في علمه أنه كتب يوميات في أثناء الحرب، وأنها في عهدة الأستاذ «محمد حسنين هيكل»، منذ عام (١٩٥٣).

احتفظ «هيكل» بسره لخمس وخمسين سنة، حتى أودع لديَّ نسخة مصورة من اليوميات الشخصية التي لا تضاهيها أي أوراق أخرى منسوبة إلى «عبد الناصر» بقدر ما تكشف من انطباعات واستنتاجات تدخل في التكوين الإنساني والعسكري للضابط الشاب، الذي لم يكن يعرف مصيره، يعيش أو يستشهد، قبل أن يُقدر له أن يصبح رجل مصر القوي بعد أربع سنوات.

اليوميات أقرب إلى كشافات تضيء أجواء حرب فلسطين والتخبط فيها.

لم يكن هناك أي تهيؤ عسكري، أو تخطيط إستراتيجي لأوامر القتال، ولا أدنى استعداد في الجاهزية القتالية لدخول الجيوش العربية فلسطين.

بخط يده سجل انتقادات حادة ومتواصلة على درجة عالية من الحدة والغضب، فـ«لا يوجد احتياط مطلقًا من الفصيلة للواء... ولا توجد أسلاك أو أي تحصينات سوى الحفر».

كان التخبط يضرب القيادة واتهامات التقصير تلاحقها.

بعد أقل من شهر على التحاقه بميادين القتال - الثلاثاء (٢٩) يونيو - سجل وقائع مؤتمر عسكري بمقر كتيبته حضره «الشاذلي» وقد ذكر اسمه مجردًا من أي رتبة عسكرية، برغم أنه من ضمن الهياكل القيادية في حرب فلسطين، ولا أسبغ عليه رتبة مدنية مثل الـ«بك» حسب ما كان معتادًا عند الحديث عن القيادات الأقدم.

في ذلك المؤتمر أهان القائد الكبير ضباط الكتيبة قائلًا: «أي ضابط في المدفعية أحسن من بتوع المشاة».

كتب الضابط الشاب غاضبًا: «كان في منتهى الوقاحة».

استدعت العبارة المهينة: «ثورة من الجميع وصلت إلى أن نعمة الله بك رد عليه بالقول: إن عساكر وضباط المشاة بيهاجموا على المواقع اليهودية بالقميص، وبدون أي أسلحة مدرعة، الأمر الذي لم تسمع عنه».

في مثل هذه الأجواء المحبطة كان آلاف العسكريين اليهود من مختلف الرتب يتدفقون على فلسطين وبلغ ما استطاعت حشده الوكالة اليهودية (٨١) ألف مقاتل

سبق لمحمد حسنين هيكل نشرها فى كتاب "يوميات عبد الناصر عن حرب فلسطين" الصادر عام 1978 عن مؤسسة "الوطن العربى" للطباعة والنشر - باريس

معظمهم ضباط اكتسبوا خبرة عسكرية في سنوات الحرب العالمية الثانية، فيما كانت أعداد الجيوش العربية مجتمعة (٣٧) ألف ضابط وجندي.

وكانت أعداد الطائرات التي في حوزة القوات اليهودية (٧٨) طائرة عند بداية الحرب فيما لم تتجاوز الـ(٣٠) طائرة على الجانب العربي ـ حسب ما أورده «هيكل» في «العروش والجيوش»، وهو كتاب مرجعي من جزأين أهميته في قدر توثيقه، حيث يتضمن سجلًا كاملًا للبرقيات العسكرية المصرية في أثناء الحرب، حصل على نسخة مصورة منه عام (١٩٥٥) من العميد «حافظ إسماعيل»، مستشار الأمن القومي في أثناء حرب أكتوبر فيما بعد، بتعليمات من «جمال عبد الناصر».

«إن يومية الحرب هي في العادة أكمل مستند تاريخي لصورة ميدان القتال والخلفيات السياسية الواصلة إليه، ثم الاعتبارات الشخصية والإنسانية المتسربة بالضرورة إلى المواقف والتصرفات» كما كتب أستاذ الوثائق الأول بلا منازع.

«كانت الحرب في جوهرها صدامًا بين مشروعين؛ مشروع صهيوني استكمل عناصر قوته يعمل على إعادة رسم خرائط المنطقة؛ ومشروع قومي عربي تائه في كواليس الحكم وفوق مسارح الأحداث يبحث عمن يجسده لمواجهة طوارئ الأحداث المشتعلة بالنيران والمخاوف».

وكانت تلك رؤية حكمت قراءته فيها.

«يوميات الحرب»، تأخر نشرها لعقود طويلة حتى قرب نهاية القرن العشرين، كما حدث تمامًا في يوميات «جمال عبد الناصر» الخطية.

في المرتين احتفظ بودائعه قبل أن يقرر نشرها، المرة الأولى ـ بقرار منه حتى يضع وثائقها في عهدة التاريخ والباحثين.. والمرة الثانية ـ بإلحاح مني حتى تنجلي الصورة الكاملة.

وكان اعتقاده ـ كما قال لي: «لكل نشر وقته».

(١)

كان دخول الجيوش العربية حرب فلسطين بالطريقة التي جرت بها مقدمة هزيمة محققة.

لم يكن رئيس الحكومة المصرية «محمود فهمي النقراشي» موافقًا على التدخل العسكري مثل أغلب النخب الحاكمة.

كان رأي الحاج «أمين الحسيني» مفتي فلسطين والمتحدث الأول باسم شعبها ـ أن تُسند مهمة المواجهة العسكرية إلى جماعات المتطوعين ودعمها بالسلاح والمال، على أن تبقى الجيوش رابضة على الحدود متأهبة ومستعدة.

في المشهد العسكري نسبت إلى رجلين، أكثر من غيرهما، مسئولية النكبة.

الأول ـ اللواء المصري «أحمد المواوي»، قائد حملة فلسطين، وقد نالته انتقادات حادة من الضابط الشاب في دفتر يومياته.

بعد الحرب حاول «المواوي» أن يبرئ ساحته، كاشفًا عن مخاطبات كتبها لقياداته يحتج فيها على إرسال القوات دون تدريب كافٍ، أو أسلحة لازمة.

والثاني ـ الجنرال الإنجليزي «جون باجوب جالوب»، الذي أسندت إليه القيادة العامة للجيوش العربية، وكانت إدارته للحرب من عَمان، التزامًا كاملًا بالإستراتيجية البريطانية، لم يتجاوز خطوط التقسيم المنصوص عليها في قرار الأمم المتحدة، حين كان متاحًا التقدم وكسب الأرض، فيما كانت الدولة العبرية الوليدة تتوغل فيما تستطيع أن تصل إليه دون اعتبار لأي قرارات دولية.

كان وجوده على رأس القوات العربية نذير هزيمة مؤكدة.

وقد طرد من منصبه باحتجاجات شعبية في الأردن عند ذروة صعود التيار القومي عام (١٩٥٦) بقيادة «جمال عبد الناصر».

تكتسب يوميات رجل «يوليو» قيمة إضافية إذا ما قُرئت الأحداث التي توقف عندها وأبدى غضبه بسببها في سياق واحد مع ما تكشف من وثائق وشهادات إسرائيلية، على الجانب الآخر من المواجهة العسكرية التي جرت.

بقدر حجم الأثر، الذي خلفته حرب فلسطين، فإن مضاهاة الروايات بكل تقاطعاتها يكشف وينير ما غمض من شخصيته وتكوينه السياسي والإنساني، قبل أن يُطل على مسارح السياسة العاصفة في خمسينيات وستينيات القرن الماضي.

من هو؟ ومن أي زاوية نظر إلى عواصف النار حوله؟

بالنص كتب معترضًا على أمر انسحاب من الخليل تلقاه يوم الخميس (٢١) أكتوبر قبل أن يلغى.

«.. إن انسحابنا سيعرّض جميع السكان في عراق سويدان وبيت جبرين للتشريد، أو الوقوع في قبضة اليهود..

تصورت منظر الأطفال والنساء والعائلات عند انسحابنا..

وكيف سيحتل اليهود عراق المنشية والفالوجة..

وكيف إذا استمرت الحرب فسنحاول استعادة هذه البلاد التي حصنّاها..

عراق المنشية مثلًا التي وقفت أمام دبابات العدو وجموعه..
كل ذلك سيستولى عليه اليهود..
وسيكون من العسير..
بل من المحال استرجاعها».
«قيادة عاجزة وهزيلة» كما كتب في ذلك اليوم.
الأوصاف بنصها وحمولات غضبها تكررت بأكثر من موضع في يومياته.
«.. أخطرناهم أن الطريق إلى بيت جبرين محتل بالعدو..
ولا توجد ذخيرة منذ عشرة أيام..
ولكن برغم ذلك يتجاهلون ويصدرون أوامر..
هذه القيادة الهزيلة هي التي تسببت في كل هذه المصائب..
والحقيقة أنه لا توجد قيادة للجيش المصري في فلسطين.
نفس التقاليد العتيقة..
ونفس المظاهر والتمثيل بدون إنتاج..
لقد كوّن اليهود جيشًا به دبابات وقوة دافعة في أربعة أشهر..
واستطاعوا أن يقطعوا أوصال الجيش المصري..
ويعزلوه في جيوب متفرقة..
ويقطعوا خطوط مواصلاته في عملية استغرقت ثلاثة أيام».
«أما قياداتنا فعاجزة كل العجز..
لا يوجد عسكري واحد احتياطي ليستعيدوا به الموقف..
ففكروا في كل شيء، وهو الهرب والنجاة بأنفسهم..
كان المواوي عاجزًا..
فإنه قائد بدون جنود، وبدون جيش..
اللواء الثاني منعزل في أسدود..
واللواء الرابع منعزل في النقب..
واللواء الجديد في مصر منذ خمسة أشهر لم يكمل تدريبه..
أما اليهود فقد كوّنوا سلاح طيران سيطر على الجو طوال مدة العمليات».
برغم ذلك كله لم تكن الكتيبة السادسة المحاصرة مستعدة أن تستسلم، مؤكدة على القتال حتى آخر رجل - وفق البرقيات الرسمية التي تؤكد كل حرف كتبه.
ووصل غضبه ذروته يوم (٢٨) أكتوبر (١٩٤٨):
«.. قادتنا المنافقون يصدرون بلاغات كاذبة..

بعدما استولى اليهود على بئر سبع فعلًا برغم تكذيب النقراشي..
وبالرغم من طلبنا تعيينات وذخيرة بواسطة الطيران..
وبالرغم من أن طلباتنا لم تجب..
ولم يلتفت إليها..
فسنقاوم إلى آخر رجل..
لقد فقدنا الإيمان في قيادة الجيش..
وقيادة البلاد..
هؤلاء المضللون الممثلون..
ماذا عملوا بعد أن دخلنا الحرب..
لا شيء..
لم تصل أي إمدادات للأسلحة التي دخلنا بها».

في هذه اللحظة ولدت الثورة في قلب رجل واستقر عزمه على إعادة تأسيس تنظيم «الضباط الأحرار».

تكاد تكون تلك العبارات الصريحة لضابط في ميدان قتال ـ بدواعي غضبها ـ البداية الحقيقية لقصته كلها، كأنها نقطة تنوير مبكرة في نص روائي طويل.

لا شيء يولد في التاريخ من فراغ.

كانت حرب فلسطين ببطولاتها وتضحياتها وأوجاعها وما كشفته من أوضاع مختلة في قيادة الجيش وقيادة البلاد المحرك الأول لما جرى في مصر بعد أقل من أربع سنوات بإطاحة النظام كله.

لقد سرت في الجيش الجريح روح متمردة جديدة، بعد نحو سبعة عقود من هزيمة «أحمد عرابي» ونفيه خارج البلاد وإهانته على أوسع نطاق.

تملكت عقول وقلوب الضباط الشبان فكرة التمرد دون أن تكون صورة المستقبل واضحة أمامهم.

(٢)

بدت أولى يومياته غامضة وشفرتها يصعب فكها.

سجل أنه عرف فور وصوله إلى غزة أن «محمود بك لبيب» موجود في معسكر المتطوعين.

ذهب إلى المعسكر ليلتقيه، لم يجده، وفي الطريق قابله مع الشيخ «محمد فرغلي»؛ حيث اتفقوا أن يصلُّوا الجمعة معًا باليوم التالي (٤) يونيو (١٩٤٨).

برغم غموض طبيعة العلاقة، التي لم يُشر إليها من قريب ولا من بعيد، لا بالتصريح ولا بالإيحاء، فإن القصة المقتضبة بكلماتها وحروفها تكتسب قيمتها التاريخية من أن الرجلين من أبرز قيادات جماعة «الإخوان المسلمين».

الأول ـ أبرز قادتها العسكريين وأكثرهم نفوذًا وتأثيرًا داخل الجماعة.

والثاني ـ عضو مكتب الإرشاد وخازن سلاحها.

قبل الموعد المتفق عليه للحديث ـ ربما ـ عن أحوال المتطوعين وأوضاع القتال جرى تكليف «عبد الناصر» بمهمة استكشاف في «دير سنيد» و«المجدل» و«أسدود»؛ حيث قابل في المحطة الأخيرة «عبد الحكيم عامر».

حتى نهاية اليوميات مطلع (١٩٤٩) لم يأتِ على ذكر «محمود لبيب» والشيخ «فرغلي».

يسهل استنتاج أن هناك صلة سابقة مع الضابط المتقاعد «محمود لبيب»، وبدرجة أقل مع الشيخ «محمد فرغلي».

«لبيب» مات قبل ثورة يوليو.. و«فرغلي» من الذين ناهضوا التعاون مع «يوليو»، أو حل الجهاز الخاص، واتهم بالضلوع في محاولة اغتيال «عبد الناصر» عام (١٩٥٤) وحكم عليه بالإعدام.

وقد كان الصدام مروعًا.

السؤال ـ هنا: ما حجم ودور الجماعة في حرب فلسطين؟

كانت أعداد متطوعيها أول الحرب ـ حسب أرجح التقديرات ـ في حدود (١٢٣) رجلًا عملوا تحت قيادة الحاج «أمين الحسيني»، وتمركز نشاطهم في منطقة غزة؛ حيث قابل «عبد الناصر» القيادتين الإخوانيتين.

تولى مسئولية هؤلاء المتطوعين «محمود الشريف» شقيق «كامل الشريف»، وكلاهما حصل ـ فيما بعد ـ على الجنسية الأردنية.

لا يوجد إحصاء آخر لأي أعداد قد تكون التحقت بهم بعد بدء الحرب، ولا جرت دراسة مدققة في التكوين الرئيس للمتطوعين المصريين باختلاف توجهاتهم من عسكريين ومدنيين.

بأي قراءة في برقيات الحرب فإن ما قامت به الجماعة لا يُقارن على أي وجه بما قام به المتطوعون تحت قيادة البكباشي «أحمد عبد العزيز».

وقد كان حُزن اليوزباشي «جمال عبد الناصر»، الذي ترقى لرتبة الصاغ يوم الأربعاء (٢٨) يوليو، عميقًا على استشهاد «أحمد عبد العزيز».

«علمت اليوم ـ (٢٣) أغسطس ـ خبرًا لم أصدقه لأول وهلة أن أحمد عبد العزيز قتل أمس عند عودته من بيت لحم..

وتفصيل الأمر أن أحمد عبد العزيز وصلاح سالم والورداني عادوا بعد مؤتمر العرب واليهود بالقدس لمقابلة المواوي..

وعندما اقتربوا من عراق المنشية حوالي الساعة ٢٠٠٠ فتحت عليهم نيران من المواقع المصرية..

فكان أحمد عبد العزيز هو الضحية.

لقواتنا بعض العذر، فإن اليهود يخرقون الهدنة يوميًّا في هذا المكان..

محاولين العبور إلى المستعمرات الجنوبية..

قد تألمت جدًّا فإن أحمد عبد العزيز كان يحب أبناءه..

وكان في عز مجده الذي لم يجازَ عليه، ولم يره الشعب ولم يستقبله.

مات أحمد عبد العزيز وكله أمل في الحياة.

لقد تألمت جدًّا.. لهذه الآمال التي انهارت..».

كان ذلك البطل الذي رحل في ميادين القتال هو الملهم الحقيقي لمعاني التضحية وسط الضباط الشبان وأثره السياسي والإنساني يتعدى أي قائد عسكري آخر من رتب أعلى مثل الفريق «عزيز المصري»، الذي نسبت إليه أبوة «الضباط الأحرار».

تحت اختبار النار اقتنع «عبد الناصر» بصحة ما ذهب إليه «أحمد عبد العزيز» من أن التغيير يبدأ من القاهرة.

يستلفت الانتباه في يومياته أن أعدادًا كبيرة من الضباط والجنود الأقباط شاركوا في الحرب ودفعوا فواتير الدم.

بين هذه الأسماء الضابط «كمال بشارة»، وقد شارك «عبد الناصر» تجربة الحياة والموت والنوم فوق بطانية واحدة والتغطي بأخرى.

كانت ثقته به بلا حد والإعجاب بنسقه الأخلاقي والعسكري سجله بخط يده حين وبخ «بشارة» من تورطوا في التمثيل بجثث القتلى اليهود في منطقة المحجز يوم السبت (٢) أكتوبر.

لا توجد معلومات عن مصيره، أو ما إذا كان «عبد الناصر» قد فاتحه في الانضمام للضباط الأحرار.

كان خلو التنظيم من أي شخصية تنتمي إلى الديانة المسيحية مادة اتهام.

لم يكن الاتهام في موضعه بالنظر إلى ما كتبه قائد «الضباط الأحرار» عن الحرب وأبطالها وضحاياها.

«مات الشاويش جرجس» كما كتب متألمًا.

في اليوميات لا تُخفى إشارات مبطنة عن اتصالات ما وخطابات تُرسل إلى القاهرة فيما بين أعضاء التنظيم.

تكررت على نحو لافت أسماء قُدر لها أن تلعب أدوارًا محورية في المستقبل كـ«زكريا محيي الدين» و«خالد محيي الدين» و«صلاح سالم» و«ثروت عكاشة» و«حمدي عاشور» و«حسن إبراهيم» و«حسن التهامي» و«لطفي واكد».

كان الاسم الأكثر تكرارًا «عبد الحكيم عامر»، أو «حكيم» كما كان يكتب اسمه، بصورة تبدت فيها صداقة شخصية وعائلية حميمة.

لم يكن «عبد الناصر» وحده من كتب يوميات شخصية في أثناء حرب فلسطين.

عادة التدوين شملت ضباطًا آخرين من جيله، بينهم «زكريا محيي الدين»، الذي لم يتسنَّ نشر يومياته ومازالت مودعة في أرشيف عائلي بين أكوام ورق.

غاب تمامًا أي ذكر ـ من قريب أو من بعيد ـ للواء «محمد نجيب»، برغم أن الأخير ذُكر في شهادة منشورة أنه تعرف في أثناء حرب فلسطين على «جمال عبد الناصر» و«كمال الدين حسين» عن طريق «عبد الحكيم عامر».

بتحفظ واقتضاب أشار «عبد الناصر» يوم الثلاثاء (٦) يوليو إلى لقاء أول وأخير جمعه بالملك «فاروق».

«حضر صاحب الجلالة الملك للمرور على المواقع، ووصل إلى أقصى المواقع الأمامية».

لم يزد حرفًا واحدًا.

(٢)

تحت وهج النيران على الخط الفاصل بين الحياة والموت كاد أكثر من مرة أن يستشهد.

«كان الرصاص يمر فوق رءوسنا..

حاولنا معرفة مواقع العدو ولكنها كانت مختفية فاستترنا خلف إحدى الحمالات..».

«لاحظت أن هناك دمًا يتساقط على القميص..

فسألت الجاويش عبد الحكيم، الذي أخبرني أن هناك جرحًا بسيطًا في ذقني..»

«ثم قمت للعودة..

فقام العدو بإطلاق نيران شديدة على الحمالة فشعرت أنني أصبت في الصدر من الجهة اليسرى..

ونظرت فوجدت أن الدماء تبلل القميص حول الجيب الشمال، وأن القميص به خرم متسع..

وكان محل الإصابة يظهر في منتهى الخطورة.. فوق القلب».

أخبره الطبيب أنها شظية وليست رصاصة، وجرى نقله إلى مستشفى المجدل.

«في غرفة العمليات وُجدت شظيتان بالجرح».

«ارتفعت روحي المعنوية وحمدت الله، فأول ما خطر على بالي عند الإصابة كان الأولاد وأمهم..

والحقيقة أنه عندما عرفت محل الإصابة..

فقدت الأمل في النجاة ولكن الله كريم».

كان ذلك يوم الاثنين (١٢) يوليو.

ثم عاد يوم الأحد (١٢) سبتمبر ليروي قصة أخرى أطل فيه الموت على المكان.

«الحمد لله..

دخلت في حقل ألغام بنوع من الخطأ..

وخرجنا بعون الله..

وفي العودة اصطدمت بعربة من ك١..

ولكن الله سلم..».

لم يدَّعِ أي شجاعة وقابل قدره برضا وإيمان بأن هناك ما يستحق الموت من أجله.

الحربَ اختبار رجال أمام الموت المحتمل في أي لحظة، واختبار آخر للمعاني التي يقاتلون من أجلها.

وقد كانت المفاوضات التي دخلتها القوات المصرية المحاصرة مع القوات اليهودية ـ كما كان يطلق عليها في الأدبيات الرسمية ـ أهم المحطات السياسية والعسكرية، التي تعرض لها الضابط الشاب وعكست طبيعة نظرته للعدو الذي يقاتله.

روى يوم الأحد (٣١) أكتوبر:

«القائد اليهودي يحضر في عربة عليها علم أبيض..

ذهبت لمقابلته..

يطلب منا التسليم..

نرفض..

يطلب أخذ جثث قتلاه..».

في اليوم التالي كتب:

«جمع جثث قتلى اليهود حسب الاتفاق».

«العدو ينقض اتفاقية إيقاف القتال بعد استلام جثث القتلى بساعة..

في الأربعاء (٣) نوفمبر كتب بالحرف:

«نقاتل.. ولا نستسلم».

بعد ثماني سنوات استعاد نص تلك الجملة بحروفها ومشاعرها من فوق منبر الأزهر الشريف، حين أعلن مقاومة العدوان الثلاثي.

في الأربعاء التالي (١٠) نوفمبر كتب:

«حضرت الساعة ١٥٠٠ مصفحة يهودية من الشرق، عليها علم أبيض..

طلب الضابط الموجود في العربة أن يحدد ميعادًا ليتقابل فيه قائد الفرقة اليهودية مع قائد قواتنا» الأميرالاي «السيد طه»، الذي اشتُهر بـ«الضبع الأسود».

بعد يوم واحد:

«تقابلت مع الضابط اليهودي الساعة ١٠٠٠..

وبلغته أن القائد وافق على مقابلة القائد الصهيوني بين الساعة ١٥٠٠ والساعة ١٦٠٠..

فقال إنه يأسف لعدم اتفاقنا على المكان..

وإن هذا المكان بين الخطوط..

في الشمس غير مناسب..

إذ إن قائده يرغب في أن نتناول فنجانًا من الشاي معًا..

وهو يخيرنا بين جات وبيت جبرين..

واتفقنا على الاجتماع في جات..

وسيقابلنا منتصف الطريق الساعة ١٥١٥..

توجهنا السيد علي طه، ورزق الله الفسخاني، وجمال عبد الناصر، وإبراهيم بغدادي، وخليل إبراهيم إلى الجات.

قُوبلنا مقابلة حسنة..
وكان الفرق شاسعًا بين جات وعراق المنشية..
فإن الشخص يشعر بأنه بين قوم متمدنين..
الآلات الزراعية الميكانيكية والنظافة والنساء في ملابس زاهية يلبسن الشورت..
واجتمعنا مع اليهود..
تكلم القائد اليهودي..
وقال: إنه يرغب في أن يمنع سفك الدماء..
وأن موقفنا ميئوس منه..
وطلب أن نسلم..
فاعترض القائد المصري وطلب الانسحاب إلى غزة أو رفح..
فمانع اليهود..
وقالوا إنهم يوافقون على شرط أن يخرج الجيش المصري من كل فلسطين..
وطلبنا إجلاء الجرحى إلى غزة..
ولكن رفضوا ذلك..
وقالوا إنهم مستعدون أن يعطونا ما نرغب من أدوية..
وأخيرًا خرجنا..
وقد قدموا لنا عصير برتقال، وبرتقالًا، وسندوتشًا، وشوكولاتة، وملبسًا وبيتي فور وبسكويتًا..
أبلغتنا الرياسة أن قافلة ستحضر..
كلمة السر «حسان»..
وأن جلالة الملك أرسل تلغرافًا يشكر فيه الجميع، ويشجعهم..
وقد رقي السيد طه إلى أميرالاي مع رتبة البكوية».

جرت وقائع التفاوض في مستعمرة «جات»، تحت إشراف هيئة مراقبي الأمم المتحدة، ومَثّل الطرف اليهودي في المفاوضات البريجادير «ييجال آلون» قائد الجبهة الجنوبية، رئيس الأركان الإسرائيلي ونائب رئيس الوزراء فيما بعد.

لم تمنعه الحرب وأجواء التحدي حتى الموت من أن ينظر فيما يتمتع به عدوه من عوامل قوة والتحاق بالعصر في أسلوب حياته.

في اليوم التالي (١٢) نوفمبر اشتد الضرب على القوات المصرية المحاصرة.
«عرضت القيادة الانسحاب ولو بتكسير السلاح..
كان الرأي أن ذلك مستحيل فإن العدو من جهة الشرق يتحكم في كل الطرق».

بعد يوم واحد ـ السبت (١٣) نوفمبر كتب:

«كان من المنتظر وصول الصليب الأحمر، لكنه لم يصل.. علمنا في المساء أن اليهود منعوه من المرور عند التقاطعات وضربوا أعضاءه».

بعد يوم آخر كتب:

«وصلت الساعة ١١٠٠ عربة عليها بيرق أبيض..

وبلغنا الضابط اليهودي أنه مستعد لإعطائنا أدوية..

وأخذ الجرحى إلى مستشفياتهم على أن يكونوا أسرى حرب..

وافق القائد على أخذ الأدوية..

ولكنه قال: إنه مصمم على إخلاء الجرحى بواسطة الصليب الأحمر إلى خطوطنا..

واتفقنا على أن نتصل الساعة ١٩٠٠ باللاسلكي مع اليهود لأخذ الرد بعد أن استلموا كشف الأدوية..

المطر مستمر..

وقد تقابلت مع القائد اليهودي تحت المطر..

وتكلمنا في مواضيع عامة..

فقال إنه يرجو ألا نكون متعبين في المطر..

سأل.. هل بمصر الآن مطر بهذا الشكل...؟

وقال: إنه يرجو أن يسود السلام..

وأن نرجع آمنين سالمين..

وتكلم، فقال: إن بريطانيا هي التي زجت بنا لتحقيق أغراضها..

وإنهم قد تمكنوا من طرد الإنجليز من فلسطين..

ويرجون أن نطردهم كذلك..

وأن نتعاون معًا..

ما زال الضرب كالعادة..

عدو لا يحفظ العهد..».

روى قصة ذلك الحوار تحت المطر، وهو لا يتوقع أن يطلع عليها أحد ولو بعد عشرات السنين.

في رواية نشرها الأستاذ «محمد عودة»، نقلًا عن شهادات إسرائيلية، فإن الضابط اليهودي «يورهان كوهين» قال للصاغ «جمال عبد الناصر»:

«أريد الحديث معك كرجل عسكري. هذا موقعكم وهذه قواتنا وقوة نيراننا، فهل ترى أن لكم مخرجًا غير التسليم وسوف تخرجون بأسلحتكم وكرامتكم مكفولة».

«رد الصاغ المصري: كعسكري أوافقك، ولكن كمصري ليس التسليم على أجندتنا».

حسب يوميات «بن جوريون» فإن: «الهدف الرئيس من إسقاط جيب الفالوجا إطلاق قوات الجنوب، ولهذا أصدرت تعليمات إلى سلاح الجو بأن يركز القصف عليها، وقد أنجز هذا الأمر بنجاح قبل المساء» - (٥ نوفمبر).

غير أن قوة الفالوجة ظلت تقاوم برغم سقوط «عراق سويدان» والخرق الإسرائيلي لقرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار.

قرب نهاية الحرب، ورد تعبير «إسرائيل المزعومة» يوم الثلاثاء (٢١) ديسمبر (١٩٤٨) لأول مرة في يوميات «عبد الناصر».

كان يقينه ـ برغم خسارة الحرب ـ أنه سوف يعود مرة أخرى للقتال فيها، وحمل معه إلى القاهرة حفنة من تراب الفالوجة في «برطمان».

استوقف نظره في ذلك اليوم ما ورد من تصريحات لوزارة الخارجية الإسرائيلية من أن حكومتها تعتبر نفسها حرة التصرف بعد أن رفض المصريون الهدنة.

«إن أرادت مصر السلام فلها السلام.. وإن أرادت الحرب فلها الحرب».

لم يكن الضابط الشاب في وضع يسمح له بأن يطل على التفكير الإسرائيلي عند مركز صنع القرار، ولا أن يلم بأسباب ما جرى قبل شهور في (١٥) يوليو من إغارة طائرة يهودية على القاهرة، وإسقاط قنابلها بدائرة الدرب الأحمر وعابدين ـ وفق برقية من المخابرات الحربية إلى العمليات الحربية، أو أن يخطر بباله ما سوف يحدث بعد نحو عقدين في أثناء حرب الاستنزاف من استهداف مدرسة أطفال في «بحر البقر».

باعتراف «بن جوريون»، فإن الهدف من تلك الغارة «إشعار الشعب المصري أن جبهته في الداخل مكشوفة».

في وقت لاحق ـ ليل (١٨) أكتوبر ـ أغارت طائرات إسرائيلية فوق قصري عابدين والقبة، وكانت تلك رسالة إلى الملك أن سلامة حكمه رهن بالاعتراف بإسرائيل وعقد معاهدة سلام معها.

غير أنه لم يفعل، ولا فكر في مد خطوط اتصال خلفية مع الإسرائيليين، كما فعل الملك الأردني «عبد الله بن الحسين» شريكه في الحرب.

بأي حساب منصف فإن ذلك يُحسب له، غير أن مشكلته التي قوضت عرشه أنه لم يكن يصلح للحكم، وحماقاته في إدارة الدولة تراكمت إلى حدود الانفجار.

(٤)

عندما عاد الجيش مهزومًا وجريحًا اختلفت صورته في عين شعبه.

بقدر ما ضحى بدمائه في ظروف شبه مستحيلة، اكتسب وزنًا لم يكن له من قبل بتفاعلات مجتمعه بكل ما فيها من إحباطات وآمال في عالم جديد.

قبل تجربة الحرب بدت صورته أقرب إلى «التشريفات».

بتعبير «حسن كامل» الابن الأكبر في رواية «نجيب محفوظ» «بداية ونهاية»: «ضباط الجيش رجال أفراح، نراهم أمام المحفل وفي الاحتفالات الكبرى، أما ضباط البوليس فلا نراهم إلا عادين وراء خراب البيوت!».

كانت تلك نظرة رجل متورط في عوالم الجريمة وأعمال البلطجة إلى رجال الأمن الذين يتعقبونه.

وهي نظرة طبيعية ومفهومة بالنظر إلى الموقع الذي يقف فيه.

ما هو مثير ما قاله عن ضباط الجيش، وكيف كانت النظرة إليهم قبل حرب فلسطين.

من الناحية التاريخية أهمية الرواية في توقيتها ـ حيث نشرت لأول مرة عام (١٩٤٩) ـ والحرب تضع أوزارها، وكان «محفوظ» قد شرع في كتابتها قبل أن تدخل القوات المصرية فلسطين.

بحس الروائي العظيم التقط شخصية الملازم «حسنين»، الشقيق الأصغر في أسرة فقدت عائلها فجأة، وتدهورت أحوالها إلى حدود الفقر المدقع.

توافرت في شخصيته قوة الدراما، فهو تحت ضغط الحاجة والشعور بالحرمان حاول أن يجد خلاصه الفردي، لكن عبء عائلته حاصره حتى اضطر في النهاية إلى الانتحار، عندما وجد عالمه كله ينتهي.

دفع شقيقته «نفيسة»، التي تحبه وتوفر احتياجاته بقدر ما تستطيع، للانتحار بعد ضبطها في أعمال منافية للآداب.

لم يكن مستعدًا أن يتفهم الظروف القاسية التي دفعتها لهذا المصير البائس، ولا كان مستعدًا أن يضحي من أجل الآخرين، كما فعل شقيقه الأوسط «حسين»، الذي اضطر

للعمل بشهادة متوسطة وعدم مواصلة تعليمه الجامعي حتى يتسنى لعائلته أن تحفظ قدرتها على البقاء.

كان حانقًا على أحواله دون استعداد لأي عطاء.

«وما جدوى الحنق؟ لن نغير الدنيا» سأله شقيقه الأوسط «حسين».

«يجب أن نتغير.. من حقنا ولا شك أن ننعم بالسكن النظيف والأكل الصحي والمركز المرموق.. ألم يكلفك هذا التضحية بنفسك؟ إن لنا حقوقًا بدهية ولا يجوز أن يضيع شيء منها، فأين نحن من هذا؟ كيف نعيش؟ لماذا تكابد أمنا؟ أين أخونا حسن؟ كيف انقلبت أختنا خياطة؟».

لم تكن عائلة الملازم «حسنين» تعنيها السياسة من قريب أو من بعيد، فقد استغرقتها أزماتها «فلم تترك نصيبًا للوطنية».

«إن الأوطان تحيا بدم الأبطال».. قال «حسنين» لأمه المجزوعة من موت ضحايا المظاهرات من الطلبة، لكنه توقف عن حديثه الحماسي برمقة عين.

في الفيلم السينمائي المأخوذ عن رواية «بداية ونهاية» من إخراج «صلاح أبو سيف» عام (١٩٦٠) تكاد السياسة أن تكون قد فرغت تمامًا من مأساة الأسرة المنكوبة التي تلخص الخلل الفادح في بنية المجتمع المصري وتؤذن بالنهاية ـ نهاية العهد كله لا نهايات أبطالها وحدهم.

التقط «محفوظ» من حركة الحوادث وتداعياتها مادته التي جسدها في بشر من لحم ودم ودموع ونبوءات.

«ثم جدت أحداث فتكونت الجبهة الوطنية، وشرع في المفاوضات، وانتهت المفاوضات إلى الاتفاق، وسرى في البلد ارتياح..».

كانت تلك مقدمات دخول «حسنين» الكلية الحربية.

لم يكن ممكنًا من قبل لمن هم في وضعه الاجتماعي أن يخطر ببالهم دخولها.

برغم كل الانتقادات التي وجهت لمعاهدة (١٩٣٦)، التي وقعها زعيم «الوفد» «مصطفى النحاس»، وألغاها بنفسه عام (١٩٥١)، فإنها سمحت لأولاد المصريين من الطبقة الوسطى الالتحاق بالكلية الحربية.

«أرأيت أن الأرواح التي زهقت لم تذهب سُدى».

قال «حسنين» لوالدته.

«هيهات أن يُعوض شيء عن هلاك روح شابة».

«لقد عشت يا أماه نصف قرن في ظل الاحتلال، فلندعُ الله أن يمد لنا في عمرك نصف قرن آخر في كنف الاستقلال».

«احتلال، استقلال، لا أدري أي فرق بينهما، خير لنا أن ندعو الله أن يكشف لنا الغُمة، وأن يُبدلنا من عسرنا يسرًا».

«لو لم يكن الاحتلال ما تركت أسرتنا بعد موت أبي بلا معين».

مثل تلك المساجلات كانت شائعة في أربعينيات القرن الماضي، لكن الرواية أضفت عليها دراما الحياة وفلسفتها.

طلب «حسنين» واسطة «أحمد بك يسري»، الصديق الموسر للأب الراحل، للالتحاق بالكلية الحربية.

«يبدو لي يا سعادة البيك أنه توجد فرصة ذهبية هذا العام لم يوجد مثلها في السنين الماضية لما تعتزمه الحكومة من زيادة عدد الجيش».

كادت أوضاعه المادية المزرية أن تحول تمامًا دون ذلك الالتحاق، لولا مساعدة شقيقه «حسن» في دفع أول دفعة من المصروفات المطلوبة، فهو لم يفتقد برغم سجله الإجرامي عطفه على عائلته التي تركها خلفه تعاني العوز المفرط في «حارة نصر الله».

«عشرون جنيهًا؟.. إن جيشنا كله لا يساوي هذا المبلغ!.. هل تنوي الالتحاق بمدرسة اللواءات؟»

تلك النظرة السلبية لها جذور في التاريخين القديم والحديث معًا.

قديما كاد يُمتنع عن الفلاحين المصريين الالتحاق بخدمة الجيش.

وحديثًا لم يتم دمجهم مرة واحدة وتعرضوا للتهميش والتمييز.

كانت تلك الأوضاع على رأس الأسباب الجوهرية للثورة «العرابية»، أولى ثورات العصر الحديث، التي يُطلق عليها في بعض الأدبيات ثورة «الفلاحين».

عندما شرع «محمد علي» في تأسيس الدولة الحديثة عام (١٨٠٥)، استند على ركيزتين أساسيتين.

أولاهما - بناء جيش قوي يستطيع أن يُلبي طموحه في تثبيت حكمه، والتطلع إلى خارج الحدود منازعًا الخلافة العثمانية وربما وراثتها.

وثانيتهما - إرسال بعثات تعليمية تتلقى العلوم الحديثة من الجامعات الأوروبية؛ حتى يمكن التطلع إلى تحسين جوهري في أداء المهام العامة.

لم تحظَ الركيزة الأولى - في وقتها وظروفها - بأي شعبية بالنظر إلى أعمال السخرة، التي رافقت تجنيد أولاد الفلاحين؛ حيث أرسلوا في بعض الأحوال إلى مناطق بعيدة كالمكسيك دون أمل في عودة.

تعكس بعض الفلكلوريات الشعبية حالة القهر التي كان يعانيها الفلاحون المصريون مثل «يا عزيز عيني».. التي استلهمها فنان الشعب «سيد درويش» في واحدة من أخلد أغانيه.

«أنا بدي أروح بلدي والسلطة خدت ولدي»، عبارة واحدة تلخص أمل العودة من حروب عبثية وجبروت سلطة تذهب بأعزاء العيون إلى المجهول.

بفضل الثورة العرابية أخذت الجندية معنى مختلفًا؛ وطنيًّا ومقاومًا، بغض النظر عن الأخطاء التي ارتكبت.

عندما انكسر «عرابي»، واحتُلت مصر، لم يكن ممكنًا لعقود طويلة الحديث عن أي قوة عسكرية مصرية.

في كل الثورات والانتفاضات الحديثة تصدر الجيش مشاهدها بصورة أو بأخرى باستثناء ثورة (١٩١٩)؛ لأن مصر كانت تحكم بحراب الاحتلال البريطاني.

كانت معاهدة (١٩٣٦) نقطة تحول في الحياة العامة اكتسبت زخمها في ميادين القتال بفلسطين لا بمنطق نصوصها.

«هل حقًّا ما يُقال عن احتمال سقوط الوزارة؟».

وكان رد الملازم «حسنين»: «غير مسموح للضابط بالاشتغال بالسياسة».. و«لا شأن للجيش مع المظاهرات».

لم يكن الشأن السياسي العام من شواغل الملازم «حسنين»، وهو نفسه غير مستعد للتضحية من أجل أي قضية.

غير أن المؤلف الملهم أجرى على لسانه عبارة حكمت المستقبل البعيد في يناير (٢٠١١):

«إذا قامت ثورة فلا بد من تدخل الجيش».

لم يكن الملازم «حسنين» شريرًا بالفطرة ولا بطلًا بالتصرف، هو ابن ظروفه وضحيتها.

كانت الحرب زلزالًا أعاد الجيش وسط حممه اكتشاف هويته الوطنية وعقيدته القتالية.

تحت وهج النيران في فلسطين وُلد جيل جديد من الضباط الوطنيين وتوارت إلى حد كبير صورة الملازم «حسنين».

كانت تلك آخر رواية كتبها أديب العربية الأكبر قبل ثورة «يوليو»، وبدت بأبطالها وحوادثها أقرب إلى نبوءة تستمد من عنوانها: «بداية ونهاية».

بعد حرب فلسطين بدت النهايات قريبة، برغم أن هناك من تصور أن النار باتت رمادًا.

الفصل الثاني: أين الرجل؟

هكذا كتب «كامل الشناوي» صبيحة يوم (٢٣) يوليو (١٩٥٢) في صحيفة «الأخبار».

نفذت بصيرة الشاعر إلى خفايا ما وراء الغيوم الكثيفة، كأنه كان يعرف أن حركة الدبابات سوف تُحاصر قصر عابدين، أو أن بيانًا سوف يصدر باسم «الضباط الأحرار» من الإذاعة المصرية، في اللحظة التي يطالع فيها القراء ما كتب.

إلهام الأدب ـ في تلك الحالة ـ بتوقيت النشر لا بتوقع نهاية النظام.

كان كل شيء في مصر يُشير إلى ذلك التوقع.

لم تكن في طاقة الطبقة السياسية الحاكمة أن تضطلع بمسئولية طلب الجلاء، الذي تصاعدت نداءاته بأثر مبادئ حق تقرير المصير، التي سادت الخطاب العالمي بعد الحرب العالمية الثانية.

برزت على المشهد السياسي المضطرب قوى جديدة، تدعو للتغيير في بنية النظام الطبقي المجحف بالأغلبية الساحقة من المصريين، ووصلت رياح التغيير إلى قلب «الوفد» حزب الأغلبية الشعبية التقليدي ونشأت من بين صفوفه «الطليعة الوفدية» الأميل إلى اليسار برعاية زعيمه «مصطفى النحاس»، لكن القوى القديمة ظلت لها الكلمة العليا.

كان «النحاس» زعيمًا وطنيًّا حاز شعبية كبيرة تعرضت للتآكل الفادح بعد توقيعه معاهدة (١٩٣٦)، التي أفضت، برغم مثالبها، إلى دخول جيل جديد من أبناء الطبقة الوسطى والمزارعين وصغار الموظفين الكلية الحربية، من بينهم «جمال عبد الناصر» ورفاقه.

في اللحظة، التي ألغى فيها «النحاس» المعاهدة في أكتوبر (١٩٥١) «باسم الشعب» انتهت صفحة كاملة من التاريخ المصري قبل أن تتحرك دبابة واحدة صبيحة (٢٣) يوليو.

بتوصيف شيخ المؤرخين المعاصرين الدكتور «يونان لبيب رزق»، فإن إلغاء المعاهدة «أخرج المارد من القمقم، الذي أجهز على ما بقيَ من النظام القديم، ولم يكن بوسع أحد أن يُعيده حتى الوفد نفسه».

انفسح المجال واسعًا أمام القوى الوطنية الشابة لحمل السلاح في منطقة قناة السويس، وكان الضباط الأحرار في قلب المشهد التاريخي.

ساعدوا بقدر ما استطاعوا على تدريب الفدائيين، وشاركوا بأنفسهم بقدر ما هو متاح في قتال قوات الاحتلال واستهداف معسكراتها.

تسجل مذكرات «كمال رفعت»، أحد أبرز وجوه «يوليو»، تجربة الفدائيين ودور «الضباط الأحرار» تنظيمًا وتدريبًا وتسليحًا.

كان ذلك تطورًا جوْهريًّا في النظرة العامة داخل جيل الأربعينيات للقضية الوطنية، بعد أن بدا اليأس كاملًا من أي جلاء لقوات الاحتلال بالتفاوض.

تجاوزت العمليات الفدائية أي أعمال فردية سابقة شهدتها شوارع القاهرة من مهاجمة أفراد قوات الاحتلال، والاستيلاء على ما لديهم من أسلحة وذخائر.

حسب شهادة «كمال رفعت»: «شاركت في عمليات الفدائيين بمنطقة القناة بعد إلغاء المعاهدة، وكان ذلك بمعرفة رئاسة التنظيم» قاصدًا «جمال عبد الناصر»، الذي ربطته به علاقة وثيقة منذ مطلع شبابه حتى النهاية.

«دربنا طلبة متطوعين بمنطقة طريق القاهرة - الفيوم، وتولينا قيادة بعض العمليات في الإسماعيلية والقصاصين والتل الكبير ضد المعسكرات البريطانية.. وكانت رئاسة التنظيم تمدنا بما نحتاجه من سلاح وذخيرة».

«بعد حريق القاهرة قُبض على أفراد التنظيم الفدائي وصودرت أسلحته».

توقفت العمليات الفدائية بسبب تلك الاعتقالات، لكن بعد شهور قليلة كان الرد مدويًا بما جرى يوم (٢٣) يوليو.

شاركت في العمل الفدائي جماعات متباينة؛ من بينها «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني ـ حدتو»، أكبر تنظيمات الحركة الشيوعية، و«الإخوان المسلمون»، و«مصر الفتاة»، وحزب «الوفد» نفسه، وانتدب شبان غاضبون أنفسهم للتضحية بحياتهم بوازع وطنيتهم.

باستثناء أعمال أدبية شحيحة وشهادات متناثرة لم تكتب قصة هذا الجيل كما تستحق، ولا سجلت تجربة الفدائيين كما يجب.

أهم الأعمال الأدبية، التي سجلت روح التجربة، قصة قصيرة كتبها «يوسف إدريس»، ضمن مجموعة «جمهورية فرحات»، حملت اسم «قصة حب».

لم تكن قصة حب اعتيادية في وقت تقاربت فيه احتمالات الموت مع فرص النجاة.

عدّل «صلاح أبو سيف» ابن نفس الجيل والتوجه اسم الشريط السينمائي، الذي أخرجه عام (١٩٦٣) عن قصة «يوسف إدريس»، إلى «لا وقت للحب»، مجسدًا لحظة فارقة في التاريخ المصري بكل تضحياتها ومشاعرها.

القصة حقيقية وبطلها شاب كان يدرس الطب في جامعة الإسكندرية قبل تخرجه عام (١٩٥٣) اسمه «حمزة محمد البسيوني»، قُدر له أن يعيش إلى ما بعد التسعين من عمره، رحل في صمت ونعته أسرته في صفحة وفيات بكلمات مقتضبة.

لم يكن أبرز الأسماء التي ارتبطت بحرب الفدائيين، ولا سجلت له أدوارًا مهمة في الحياة العامة، لكن قوة الأدب والفن أسبغت على قصته إلهامًا يتحدى تجريف الذاكرة.

بصورة مشابهة لم تكن المناضلة الجزائرية «جميلة بو حيرد» أكثر من ضحت في سبيل استقلال بلادها بالقياس على مناضلات أخريات، لكنها جسدت بقوة الفن التضحيات كلها في فيلم أخرجه «يوسف شاهين».

قصة «حمزة»، هي قصة واحد من أفضل الأجيال المصرية في التاريخ الحديث ـ حلم وبذل وضحى دون أن ينتظر ثمنًا.

كاد أمير القصة العربية القصيرة أن يتماهى مع بطله، حين استمع إلى تجربته بأدق تفاصيلها السياسية والإنسانية داخل زنزانة واحدة ضمتهما في معتقل «أبو زعبل» عام (١٩٥٤) إثر الصدام بين ثورة «يوليو» وتنظيم «حدتو».

وقد أدخل المعتقلات مرات أخرى في عهد «أنور السادات».

قرب رحيله أدلى بتصريحات صحفية بدا لافتًا فيها ما قاله عن «جمال عبد الناصر»: «برغم اعتقالي لخمس سنوات في عهده فإنني مازلت أحبه».

في ظلال القصة تساؤلات عما إذا كان التقى «عبد الناصر» في أثناء تدريب الفدائيين، أو وصل إلى علمه ما وراء الضباط الشبان، الذين كانوا يشاركونهم عمليات القتال.

ذهب «حمزة» إلى المعتقل في عصر حلم به وقاتل من أجله ودافع عنه بعد أن انقضت أيامه.

عاش في الظل السياسي وتفرغ تقريبًا لقضيته كطبيب يعنيه الفقراء وحقوقهم في تأمين صحي حقيقي.

تُرى ماذا كان مصير «شكري»، الذي وشى في العمل الدرامي بـ«حمزة» ورفاقه من الفدائيين للبوليس السياسي؟

على الأغلب ـ دون أن تكون هناك معلومات ـ أنه صعد في سلطة جاءت بها ثورة خانها.

حدث ذلك كثيرًا، فـ«الثورات يصنعها الشجعان ويجنيها الجبناء» كما قال ذات مرة «أرنستو تشي جيفارا».

(١)

لم يكن «الضباط الأحرار» من قماشة سياسية واحدة، جاءوا من مشارب فكرية واجتماعية مختلفة.

بالتكوين السياسي تباينت الانتماءات بين ثلاثة توجهات رئيسة.

أولها ـ مستقلون لا علاقة لهم بأي حزب أو تنظيم، ولا يعرف عنهم أي انتماءات فكرية أو تنظيمية باستثناء التوجه الوطني العام والغضب على مستويات الأداء السياسي والعسكري وفساد النخب الحاكمة.

كان من بين هؤلاء «عبد الحكيم عامر» و«زكريا محيي الدين» و«صلاح سالم» و«جمال سالم» و«أمين هويدي» و«حلمي السعيد» و«ثروت عكاشة» و«كمال الدين رفعت».

وثانيها ـ ضباط منتمون إلى «حدتو»، من بينهم «خالد محيي الدين» و«يوسف صديق» قادمان من «الإخوان المسلمين»، و«أحمد حمروش» و«لطفي واكد» قادمان من «مصر الفتاة»، و«أحمد قدري» مسئول طباعة منشورات «الضباط الأحرار»، و«آمال المرصفي» أصغر «الضباط الأحرار» قادم من «إسكرا»، وهو تنظيم ماركسي أقرب إلى الصفوة المثقفة، و«أحمد فؤاد» رئيس مجلس إدارة بنك مصر فيما بعد.

وثالثها ـ متأثرون بجماعة «الإخوان المسلمين» مثل «أحمد أنور» قائد البوليس الحربي، الذي اتهمته الجماعة فيما بعد بتعذيب كوادرها في السجن الحربي، أو لهم اتصالات بها مثل «حسن إبراهيم» نائب رئيس الجمهورية فيما بعد و«أبو الفضل الجيزاوي»، الذي كان من أبرز معارضي «السادات» في سبعينيات القرن الماضي، أو انضموا إليها في بعض فترات حياتهم مثل «كمال الدين حسين» نائب رئيس الجمهورية فيما بعد و«عبد المنعم عبد الرءوف» عضو مجلس قيادة الثورة.

كذلك مر عليها «عبد اللطيف البغدادي» نائب رئيس الجمهورية تاليًا.

كما مرت بالتأثر أو الانضمام أعداد أخرى من «الضباط الأحرار».

ما موقع «عبد الناصر» من الجماعة قبل (٢٣) «يوليو» والصدام معها؟

حسب شهادة لـ«خالد محيي الدين» سجلها «أحمد حمروش» في كتابه «شهود يوليو»، فقد انضم إلى الجهاز الخاص برئاسة «عبد الرحمن السندي» مع «جمال عبد الناصر» و«كمال الدين حسين».

غير أن شهادة «كمال الدين حسين»، التي ضمها الكتاب نفسه، لم تُشر للجهاز الخاص أو «السندي»، وأكدت انضمامه للجماعة مع «جمال عبد الناصر» و«عبد المنعم عبد الرءوف»، دون أن تذكر اسم «خالد محيي الدين».

ذلك التضارب في المعلومات الأساسية «من انضم مع من؟» ألقى ظلالًا كثيفة على الحقيقة.

في شهادة لـ«فريد عبد الخالق»، أحد مؤسسي الجماعة وسكرتير مرشدها الأول «حسن البنا»، فإن «عبد الناصر» درب متطوعيها على محاربة الاحتلال دون أن يؤكد عضويته العاملة.

في شهادة للباحث الإسلامي «حسام تمام»، فقد ربطت صداقة وثيقة «عبد الناصر» و«حسن العشماوي» عضو مكتب الإرشاد.

عندما عاد الأخير إلى مصر في السبعينيات بصفقة بين الجماعة والرئيس الجديد «أنور السادات» سمع نجله متأثرًا بكراهية «عبد الناصر» يشتمه بأقذع الألفاظ فصفعه قائلًا: «لا تشتم عمك مرة أخرى».

في ظلال القصة شيء إنساني عميق بين رجلين تصادمت خياراتهما وافترقت طرقهما، وفيما يبدو أن «عبد الناصر» لحظة الصدام لعب دورًا غير معلن في حماية صديقه القديم.

ليس بوسع أحد أن يجرد البشر من مشاعرهم الإنسانية، حتى في لحظات الصدام المروع.

غير أن ذلك لا يجيب عن السؤال اللغز: إلى أي حد ارتبط «عبد الناصر» بالجماعة؟

بشهادة لـ«سامي شرف» تعبيرًا عن اعتقاد كل من اقترب من رجل «يوليو» في مرحلة مبكرة من تجربته، فإنه لم يكن إخوانيًّا ولو للحظة واحدة، وإن كان قد اقترب من بعض قيادات الجماعة.

في شهادة غير منشورة، حصلت على مسودتها، يؤكد اللواء «عبد الرحمن فريد»، مدير المباحث الجنائية العسكرية في أيام الثورة الأولى، الذي ضم المشير فيما بعد «عبد الحليم أبو غزالة» إلى عضوية تنظيم «الضباط الأحرار»، أن «عبد الناصر» «لم يكن شيوعيًّا ولا إخوانيًّا».

ويروى أن الجماعة حاولت مبكرًا الانقلاب العسكري على نظام «يوليو»، لكنها أحبطت وجرى القبض على «عبد المنعم عبد الرءوف» وآخرين.

«هرّبه عبد الناصر؛ لأنه لا يستطيع أن ينسى دوره في دعم الثورة».

بشهادة لـ«محمد حسنين هيكل»، الذي تسنى له استقصاء الإجابة من «عبد الناصر» نفسه، فقد اقترب إلى حدود بعيدة من الجماعة في فترة من عمره، ولكن في إطار العمل الفدائي.. واقترب أكثر من «عبد المنعم عبد الرءوف»، وهو من قادة الجهاز السري.

في هذه المرحلة رأى «السندي» وبعض الذين كانوا في الجهاز الخاص.

بتوصيف «هيكل» لطبيعة العلاقة التي جمعت قائد «يوليو» مع الجماعة فإنها «كانت فوق السطح ولم تصل عميقًا» كما ورد في كتاب «عبد الناصر والمثقفون» لـ«يوسف القعيد».

وبشهادة لـ«عبد الناصر» مسجلة بصوته في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية مطلع ستينيات القرن الماضي: «.. انضممت إلى حزب مصر الفتاة لم أسترح فتركته، وانضممت إلى الوفد وكنت من أكثر الناس اتصالًا به، وأيضًا لم أسترح فاتصلت بالإخوان المسلمين، وكذلك لم أطمئن واتصلت بالشيوعيين واتصلت بكل الهيئات العاملة في هذا البلد، كما اتصلت بالأحرار الدستوريين والسعديين. كنت أبحث عن الحقيقة كشاب يريد أن يكافح من أجل بلده، ولكنني كنت تائهًا وكنت أعتقد أنه يمكن أن تكون هناك فائدة، وأخيرًا لم أجد أن هناك أي فائدة».

بصوته، وهو في موقع السلطة، اعترف بأنه كان شابًّا تائهًا يبحث عن طريق.

هناك فارق جوهري بين الحيرة والالتزام، بين ما داخل فكره وتكوينه من تأثير بالاتصال بقوى وتيارات متباينة بحثًا عن طريق والانخراط في عضويتها اقتناعًا بأفكارها.

الخلط تعسف مع التاريخ والحقيقة.

تنوعت التوجهات الرئيسة بين «الضباط الأحرار»، على نحو جعل التنظيم أقرب إلى جبهة لها أهداف مؤقتة وصراعاتها مؤجلة إلى حين.

بالنظر إلى طبيعة المرحلة وأولوياتها، تبدت درجة عالية من السيولة بين التيارات، برغم تناقض الأفكار.

ما بين التناقضات السائلة ظهرت توجهات رابعة وخامسة وسادسة أقل أهمية في البنية الفكرية والسياسية لـ«الضباط الأحرار» كأن يميل بعضهم بحكم الأصول العائلية إلى حزب «الوفد»، أو يحافظ آخرون على شيء من الولاء السياسي والنفسي لـ«مصر الفتاة»، أو أن يندفع مغامرون ـ مثل «أنور السادات» بالتورط في اغتيالات

ومحاولات اغتيالات نفذها «الحرس الحديدي»، الذي كان يقوده طبيب الملك الخاص «يوسف رشاد».

كان تأسيس «الضباط الأحرار» تعبيرًا عن أحوال غضب في الجيش، نشأت خلايا متفرقة تحت قيادات متعددة، لكل ضابط حر رواية تختلف عن الآخر بقدر ما رأى وعرف وشارك.

حسب الشهادات المنشورة لـ«الضباط الأحرار»، فإن غالبيتهم أدخلوا التنظيم عبر «جمال عبد الناصر»، الذي أحكم قبضته على كل الخيوط.

تجلت مواهبه التنظيمية في جمع أشلاء الخلايا المبعثرة داخل الجيش ودمج تناقضاتها السائلة داخل تنظيم سري محكم له أهداف عامة عُرفت بـ«المبادئ الستة».

حافظ على صلاته العامة مع جماعات سياسية متناقضة ووظفها لمقتضى أهدافه دون أن يسمح بالتداخل التنظيمي.

لم تكن لدى «عبد الناصر» ورفاقه خطة للإمساك بالسلطة، لكنها سقطت كاملة بسهولة لم يتوقعوها.

انهار النظام الملكي من داخله على دفعات وليس مرة واحدة، حتى بدا بنيانه كجدار متهالك ينتظر من يزيح ركامه.

(٢)

كان حادث (٤) فبراير (١٩٤٢)، قبل عشر سنوات من إطاحة الملك، نقطة تحول جوهرية في العلاقات بين قصور الحكم بكل تعقيداتها ـ قصر عابدين حيث يحكم الملك، وقصر لاظوغلي حيث الحكومة، وقصر الدوبارة حيث يملي السفير البريطاني الكلمة الأخيرة.

بصياغة أخرى، فهو اليوم المؤسس لكل ما جرى حتى (٢٣) يوليو.

في ذلك اليوم وجه السفير البريطاني السير «مايلز لامبسون» إنذارًا إلى الملك الشاب «فاروق»، الذي دأب على وصفه بـ«الولد»، وكان الوصف شائعًا على لسانه وسجله تكرارًا في مذكراته.

كان «فاروق» وقتها في الثانية والعشرين من عمره.

يقول نص الإنذار: «إذا لم أعلم قبل الساعة السادسة من مساء اليوم أن مصطفى النحاس دعيَ إلى تأليف الوزارة فإن الملك فاروق يتحمل تبعات ما يحدث».

كان النص، الذي أملاه السفير البريطاني على رئيس الديوان الملكي «أحمد حسنين»، مهينًا بأي معنى سياسي وكاشفًا لوهم «الاستقلال الصوري»، الذي حصلت عليه مصر بموجب تصريح (٢٨) فبراير (١٩٢٢) في أجواء ما بعد ثورة (١٩١٩).

بحقائق القوة المجردة لم يكن هناك محل لادعاء استقلال، أو سيادة، أو احترام لـ«مليك البلاد».

كان ذلك داعيًا لغضب واسع داخل مؤسسة الجيش وشعور بالإهانة البالغة.

سجل اللواء «محمد نجيب» تلك المشاعر في خطاب استقالة أرسله إلى الملك: «حيث إنني لم أستطع أن أحمي مليكي وقت الخطر فإنني لأخجل من ارتداء بذلتي العسكرية والسير بها بين المواطنين»، غير أن الملك رفض استقالته وأعادها إليه.

من مفارقات التاريخ الكبرى أن «الضباط الأحرار»، الذين تملكتهم مشاعر الإهانة في ذلك اليوم، هم من أطاحوه من فوق عرشه، وأن اللواء «نجيب» هو من تصدر مشهد طرده من مصر.

كانت عشر سنوات كافية لإهدار أي عطف على الملك «فاروق».

برغم صلافة السير «مايلز لامبسون»، كانت أسبابه واضحة في طلب إسناد رئاسة الوزارة إلى زعيم حزب «الوفد» صاحب الأغلبية الشعبية.

كان الجيش الألماني بقيادة «أروين روميل» يقترب من الإسكندرية ومصير الإمبراطورية البريطانية على محك مواجهة عسكرية حاسمة في الحرب العالمية الثانية.

كان تقدير «لامبسون» في لحظة معبأة بالمخاطر على الإمبراطورية أن الإسناد الإستراتيجي للقوات البريطانية المحاربة في صحراء العلمين بقيادة الفيلد مارشال «برنارد مونتجمري»، يتطلب حكومة قوية في القاهرة لها دعم شعبي وقادرة على التحكم في الموقف الصعب، وطالما أن الملك يُعادي الوفد ويرفض توليه الحكومة فإنه لا سبيل غير إنذاره قبل عزله مستندًا على تفويض مفتوح من رئيس الحكومة البريطانية «ونستون تشرشل» بحرية التصرف وفق ما يراه متسقًا مع المصالح البريطانية.

ثم إنه كانت لدى السفير البريطاني شكوك عميقة في أن للملك تعاطفًا مع القوات النازية وهتاف: «تقدم يا روميل» يدوي في تجمعات موالية له.

وكان «مصطفى النحاس» ضحية للتناقض بين ما رآه حقًّا أصيلًا للوفد باعتباره حزب الأغلبية الشعبية أيًّا كانت الملابسات والظروف وبين ما اعتقد فيه طيف واسع من المصريين من أنه تقبلها على «أسنة الحراب البريطانية».

الحادث بدلالاته وردات فعله سحب من «الحق» شرعيته السياسية والأخلاقية على نحو أثر بقسوة على سمعة حزب الأغلبية الشعبية.

كان مشهدًا مأساويًا، بالنسبة إلى حزب عريق قاد ثورة شعبية طلبًا لجلاء قوات الاحتلال البريطاني، أن يستقبل أنصاره السفير البريطاني في مقر الحكومة بعد إسناد رئاستها إلى زعيم الوفد بالهتاف محمولًا على الأكتاف.

بنظر الدكتور «يونان لبيب رزق» فإن «الوفد أخذ في التحول بعد خروج أحمد ماهر والنقراشي أواخر عام ١٩٣٧، ثم مكرم عبيد بعد ست سنوات، وما تبع ذلك من صعود فؤاد سراج الدين وفئات قوية من الأرستقراطية الزراعية، الذين قادوا الحزب الكبير بمكانة العمد لا منطق المجاهدين».

كان خروج «مكرم عبيد» بالذات ـ بالطريقة التي جرت والنتائج التي ترتبت زلزالًا حقيقيًا في قلب الحزب الكبير، فهو توأم «النحاس» وسكرتير عام حزب «الوفد» وقوته التنظيمية وخطيبه المبرز.

في الصدام بين الرجلين أفلتت كل الاعتبارات واستبيحت كل المحرمات.

دخل القصر على خط الصدام وزاده اشتعالًا طلبًا للانتقام من «النحاس».

طبع ووزع في السر «الكتاب الأسود»، الذي تضمن اتهامات تدين «النحاس» وحرمه «زينب الوكيل».

كان صاعقًا أن الرجل الذي أملى وقائع الإدانة توأمه القديم.

شملت الاتهامات استغلال أملاك الدولة والتستر على الفساد وتفشي الوساطة والرشوة والتلاعب في شئون الوظائف، فضلًا عن أمور أخرى تمس النزاهة الشخصية.

نالت المواجهة، التي زكاها القصر ونشرت فضائحها صحيفة «أخبار اليوم»، من هيبة زعيم «الوفد» وفصل الرجل الثاني من عضوية مجلس النواب.

بأثر الذعر الذي أصاب الملك يوم (٤) فبراير سادت كل تصرفاته رغبات الانتقام، التي أفلتت عن كل عقل أو حساب.

باسم حماية الملك وعقاب معارضيه أنشئ «الحرس الحديدي».

كان ذلك تطورًا خطيرًا في إدارة الشأن العام يليق بالعصابات المسلحة، لا بالملكيات الدستورية.

اغتال «الحرس الحديدي» الوزير الوفدي «أمين عثمان» مطلع يناير (١٩٤٦) خشية أي أدوار قد يلعبها بعلاقاته الوثيقة مع السفارة البريطانية على مستقبل الملك.

وكان اغتياله ـ بأمر ملكي ـ انتقامًا متأخرًا عدة سنوات على الدور الذي لعبه في حادث (٤) فبراير؛ حيث كان حلقة الوصل في التفاهمات المسبقة بين «مايلز لامبسون» و«مصطفى النحاس» قبل أن تتحرك الدبابات لتفرض كلمتها على الملك.

اتهم «أنور السادات» بالضلوع بدور أساسي في ذلك الاغتيال.

كما حاول «الحرس الحديدي» اغتيال «النحاس» مرتين فشلتا في النيل من حياته ـ بإطلاق رصاص على سيارته في أثناء مرورها بشارع «قصر العيني».. وتفجير سيارة مفخخة تحت غرفة نومه.

تردد اسم «السادات» من جديد في محاولتي الاغتيال.

عندما ينقلب أي حكم على قواعد الدولة والقانون ويسود اليأس العام فإن حركة الرصاص لا يحتكرها وحده.

وقد أشارت برقيات بريطانية لهذا التطور الخطير في النظام الملكي.

لحظة الحدث الكبير في «يوليو» أسندت برقيات أخرى القيادة الحقيقية من خلف اللواء «نجيب» إلى «مصطفى كمال صدقي» و«أنور السادات»، اللذين تزاملا في الحرس الحديدي، وكانت مهمته فداء الملك واغتيال خصومه.

عشية (٢٣) يوليو أخذ كل منهما مسارًا مختلفًا عن الآخر.

بدأ الرصاص يدوي في شوارع القاهرة من جهات مختلفة تتصور جميعًا أنه يسوي حسابات ويحسم صراعًا، لكنها صبت في طاحونة واحدة أخذت تدهس أي فرصة لبقاء النظام كله.

بعد اغتيال «أمين عثمان» جرى في العام التالي (١٩٤٧) اغتيال آخر بقنبلة يدوية ظل صاحبها مجهولًا ذهب ضحيته «سليم زكي» حكمدار القاهرة.

ثم دخل الإخوان على خط الاغتيالات في مارس (١٩٤٨) بالنيل من القاضي «أحمد الخازندار»، وكيل محكمة استئناف القاهرة، على خلفية حكم قضائي أصدره بحق متهمين ينتسبون إلى الجماعة.

عندما حل رئيس الحكومة «محمود فهمي النقراشي» الجماعة، على خلفية حوادث تفجير لبعض المؤسسات اليهودية في أثناء حرب فلسطين، قامت باغتياله في ديسمبر (١٩٤٨) وكانت الحرب تقترب من نهاياتها.

بعد شهرين في (١٢) فبراير (١٩٤٩) اغتيل «حسن البنا» مؤسسها ومرشدها العام بمعرفة الحكم وتخطيطه.

في تلك الأجواء العنيفة أقدم «جمال عبد الناصر» بنفسه على محاولة اغتيال «حسين سري عامر»، بعد حل مجلس إدارة نادي الضباط بقرار ملكي، وقد كان

يقف على الجانب الآخر من «الضباط الأحرار» ومرشحهم لرئاسة نادي الضباط اللواء «محمد نجيب».

شاركه تلك المحاولة «حسن إبراهيم» و«كمال رفعت» و«حسن التهامي»، والأخير شخصية مثيرة بتقلباتها وتهيؤاتها.

لم يستطع «عبد الناصر» النوم ليلتها، وصوت صراخ ملتاع في أثناء إطلاق الرصاص لا يغادره.

في اليوم التالي تنفس الصعداء، عندما عرف أن عدوه لم يمت.

زملاؤه في مجلس القيادة عاتبوه على تلك الخطوة، التي انفرد بها، وهو نفسه توصل إلى قناعة نهائية بأن الاغتيالات ليست حلًّا، وبدأ يستعد بصورة أكثر جدية لدراسة احتمالات التحرك العسكري لتصحيح الأوضاع المختلة.

(٢)

كانت واحدة من المآسي السياسية والإنسانية في قصة مصر قبل يوليو (١٩٥٢) أن الملك افتقد الحد الأدنى من الرشد في إدارة الشأن العام، استغرق في الانقلابات الدستورية، وافتقد نظام الحكم أي استقرار في لحظة قلق عامة بعد الحرب العالمية الثانية، والنار تحت الرماد بعد نكبة فلسطين.

تبدت مآسي «فاروق» في حياته الخاصة بقدر ما انعكست في إدارته العامة.

تفاقمت أزماته النفسية من جراء العلاقة السرية التي جمعت الملكة الأم «نازلي»، ورئيس ديوانه «أحمد حسنين».

تزوجا عرفيًّا دون علمه.

أفضى ذلك إلى شرخ عميق في شخصيته وتوازنه النفسي.

اتسع الشرخ عندما هاجرت الملكة الأم إلى أمريكا وتزوجت ابنتها «فتحية» من «رياض غالي».

كانت قصة الزواج بتفاصيلها وظلالها وتعقيداتها الاجتماعية والدينية سحبًا على المكشوف من هيبة الأسرة المالكة واحترامها، حتى إن «فاروق» طلب من مجلس البلاط الحجر على والدته، التي رعت ذلك الزواج، واتسع الشرخ إلى فالق.

كانت ذروة المأساة قتل الأميرة «فتحية» بخمس رصاصات من مسدس «رياض غالي»، بعد أن ووريت صفحة أسرة «محمد علي».

وجد «فاروق» نفسه رجلًا شبه محطم من توالي الفضائح العائلية عليه.

عندما صدر كتاب «فاروق الأول.. الملك الذي غدر به الجميع» لـ«عادل ثابت» أحد أقربائه، رد عليه الكاتب الصحفي «حلمي سلام» بمقال شرح فيه كيف غدر الملك بنفسه.

وأهمية شهادته في اقترابه من ثورة «يوليو» وقياداتها.

في مذكرات «كريم ثابت»، مستشار الملك الصحفي وأحد مقربيه، رصد لتناقضات شخصية «فاروق» حتى «خشيَ من أن يفضي طول شرحها بالإيضاح إلى أن يمل القارئ».

لم يكن «فاروق» على سبيل المثال ـ «زئر نساء، كما حاول أن يصور نفسه بمظاهر حرص بكل الوسائل على تحريض الناس على تصديقها».

كانت تلك عقدة نفسية استفاض في خلفياتها الطبية الذين اقتربوا منه، والذين عادوه وعاداهم.

بغض النظر عن مواطن الإثارة في مثل تلك القصص، إلا أنها حطمت هيبة الحكم بخروجها إلى العلن وشيوعها بين الناس.

عند ذروة حرب فلسطين كان الملك مشغولًا بترتيبات طلاقه من الملكة «فريدة»، وقد أعلن ذلك الطلاق في بيان واحد مع طلاق آخر لشقيقته الإمبراطورة «فوزية» من شاه إيران «محمد رضا بهلوي» يوم (٢١) نوفمبر (١٩٤٨).

الطلاقان المتزامنان أثرا بالسلب على صورة الأسرة المالكة، خصوصًا أن «فريدة» كانت تتمتع بشعبية في أوساط واسعة.

عندما تسقط الهيبة إلى هذا الدرك يصبح التغيير أمرًا محتملًا للغاية.

حسب روايات متواترة ومصدقة كان لدى الملك ولع باقتناء أملاك الغير مثل التحف والسيوف الأثرية إذا ما وقع عليها بصره، حتى قصة زواجه الثاني بالملكة «ناريمان» كانت عملية سطو بقوة ما يملكه من سلطة على خطيبة رجل آخر، الدكتور «زكي هاشم» المحامي الشهير ووزير السياحة فيما بعد؛ بظن أن مواصفاتها تنسجم مع ما كان يطلبه في شريكة حياته، كأن تكون جميلة ومطيعة ومن أسرة كريمة، بعد طلاقه من الملكة «فريدة»، الذي مثل شرخًا عميقًا في نفسيته المتعبة.

وسط كل هذه القصص المثيرة، وأغلبها تتضمنها الوثائق البريطانية عن تلك الفترة، تبدت قوة تأثير شخصية «أنطونيو بوللي» على الملك.

تجاوز دور «بوللي» في حياة «فاروق» طبيعة وظيفته وحجم خبرته إلى التدخل في أدق شئون حياته، حتى أصبح المستشار الأول لـ«مليك البلاد».

حسب رواية رجل أعمال مصري يعيش في العاصمة الإيطالية «روما» منذ عقود طويلة ـ في لقاء ضمنا بالمصادفة عام (٢٠٠٥)، فإن «بوللي» كتب مذكراته عن تلك الفترة المضطربة.

قال إنه يعرفه ويلتقيه على أوقات متباعدة وأحواله المالية مرتبكة للغاية، كاشفًا أنه يعرض مذكراته على دور نشر طالبًا أرقامًا مالية مبالغًا فيها، ولم يكن هناك من هو مستعد أن يدفعها لرجل بمواصفاته.

إذا صحت هذه الرواية فإنه سوف يكون مفيدًا من الناحية التاريخية الاطلاع على ما تركه «بوللي» من مذكرات.

وربما تساعد الأوراق التي تركها «حسين سري»، رئيس الوزراء عن أحداث (٤) فبراير (١٩٤٢) والذي تولى المنصب نفسه في الأيام الأخيرة للملك، في عهدة عائلته، على كشف كل خبايا تلك الواقعة المؤسسة لما حدث في مصر من تغييرات عميقة ببنية حكمها.

بما هو مؤكد هناك أوراق تركها خلفه، لكن يصعب الجزم بقيمتها ما لم تخضع لمراجعة مؤرخين يفحصون ويدققون.

إذا كان قد سجل كل ما لديه من شهادات على العصر فإنها تكتسب أهمية مضافة من درجة قرابته المباشرة للملكة «فريدة».

كان «فاروق» ضحية ما حوله وضحية نفسه.

لعل كتاب الدكتورة «لطيفة سالم» عن الملك «فاروق»، هو أدق رواية محكمة بمناهج التاريخ بعيدة بقدر ما هو ممكن عن التسطيح المنهجي الذي يحاول إقناعنا بأن ما قبل «يوليو» جنة على أرض.

(٤)

كان عام (١٩٥١) مشحونًا بإشارات النهاية.

كتب «إحسان عبد القدوس» في «روز اليوسف» (٨) مايو ـ مقالًا عنوانه «دولة الفشل».

جاء فيه بالحرف الواحد: «إننا في مصر نؤمن بالفشل ونعبد الفاشلين.. الفشل في كل مكان.. وأمام كل خطوة ووراء كل زعيم، وفي حنايا كل ملف وفي ظلام كل درج وفي طيات كل صوت.. والفاشلون هم الذين يحكمون مصر، وهم الذين يسوقونها من فشل إلى فشل ثم إلى فشل جديد».

أخطر ما في هذا المقال ما كتبه عن وزير الحربية، فهو «فاشل.. فشل حتى في الاحتفاظ باختصاصه وترك الجيش يخرج من بين يدي الحكومة والشعب، ليكون هيئة كهنوتية لها أسرارها، ولها سلطانها، ولها استقلالها، ولها قائد فاشل».

كان ذلك تلميحًا إلى أن هناك شيئًا قد يحدث من داخل الجيش لإنهاء دولة الفشل.

وكتب «خالد محمد خالد» في نفس المجلة يوم (٢١) أغسطس مقالًا عنوانه: «صاحب الجلالة الشعب»:

«إذا كان في مصر أحد جدير بأن تخشاه الحكومة وتجامله فهو نحن.. لأننا أصحاب البلد الذين نولي ونعزل.. ونضع ونرفع.. ونعز ونذل، وإذا جردتنا ظروف طارئة من سلطتنا يومًا أو بعض يوم، فمردها المحتوم إلينا.. وإلينا وحدنا، في يوم ترونه بعيدًا ونراه قريبًا».

وقد كان حريق القاهرة في (٢٦) يناير (١٩٥٢) إنذارًا أخيرًا بما هو آتٍ.

في اليوم السابق تصدى ضباط وجنود الشرطة في الإسماعيلية بأسلحة بدائية لقوات الاحتلال البريطانية رافضين تسليم مواقعهم.

أفضت الواقعة بما حملته من استهانة بريطانية وما عبّرت عنه من شجاعة مقاومة إلى إضراب عام في العاصمة لـ«بلوكات النظام».

تداعت الأحداث بعده إلى حرائق في قلبها.

أفلت النظام العام وسادت الفوضى وعمليات النهب والتخريب.

فرضت الطوارئ ونزل الجيش - لأول مرة في التاريخ المصري الحديث - لاستعادة السيطرة وفرض الهدوء على المدينة المروعة.

حتى الآن لا توجد إجابة لها صفة الفصل على سؤال: من حرق القاهرة؟

اعتقل زعيم «مصر الفتاة» «أحمد حسين» بتهمة تدبير الحريق، ووجهت التهمة إلى آخرين دون أن تثبت على أحد بعينه.

بنى «أحمد حسين» صيته على حملة في جريدة حزبه نشرت صورًا لمواطنين بؤساء تحت عنوان: «رعاياك يا مولاي».

ربما يتحمل جانبًا من مسئولية ما حدث يوم (٢٦) يناير، لكن الأقرب إلى الحقيقة أن مخزون الغضب وجد انفجاره في إضراب «بلوكات النظام» كأنه عود ثقاب ألقيَ على أرض مشبعة بالوقود.

بقدر تعدد الإجابات تتبدى حقيقة رئيسة أن النظام الملكي لم يعد قادرًا على البقاء، ولا مقنعًا بقدرته على تلبية احتياجات المصريين في عصور جديدة.

إثر حريق القاهرة شاعت في الأجواء العامة قصيدتان.

أولاهما ـ للشاعر «إسماعيل الحبروك»:

«سأنام حتى لا أرى .. وطني يُباع ويُشترى»

«سأنام عن عهد القتال .. حلم تحقق في القنال

أضحى الجهاد جريمة .. فلتسجدوا للاحتلال!!»

«برصاصهم صنعوا السلام .. فقل على مصر السلام».

وثانيتهما ـ للشاعر «مأمون الشناوي» دعا فيها الجيش بلا مواربة إلى إطاحة النظام الملكي:

«أنت إن تنصره ـ يا حارس ـ كنت المندحر

أنت أن تخذله ـ يا حارس ـ كنت المنتصر!»

«أترى يبقى طويلًا جالسًا فوق الرماح

لن يطول الليل.. بل لا بد أن يأتي الصباح».

وكانت ذروة دعوته لتدخل الجيش:

«غضبة من عزمك الجبار تمحو كل باطل».

في نفس توقيت تلك القصيدة التحريضية على قلب النظام الملكي فكر «الضباط الأحرار» في استغلال نزول الجيش إلى الشوارع للقيام بانقلاب عسكري، لكن «عبد الناصر» مال إلى كسب بعض الوقت، حتى يستكمل مثل هذا العمل فرص نجاحه.

لم تكن إطاحة النظام الملكي حدثًا مفاجئًا قفز من خارج سياق الحوادث، أو بعمل سري محض جرى في الظلام.

كان كل شيء فوق المسرح السياسي يُنذر بنهاية قريبة لم يكن بمقدور أحد أن يتكهن طبيعتها وصورتها وما بعدها.

في هذه الأحوال المضطربة علا طلب التغيير بأثر من تطورين جوهريين:

أولهما ـ تداعيات ما بعد الهزيمة العسكرية في حرب فلسطين، التي أفضت إلى مراجعات غاضبة لمستويات الكفاءة العسكرية وأهلية الملك «فاروق» للحكم، وتساؤلات حادة عن مدى مسئولية الفساد المتفشي حوله في الهزيمة، ونشوء دولة معادية على الحدود تهدف ـ فيما تهدف ـ إلى عزل مصر عن محيطها العربي.

كانت الحملة الصحفية على «الأسلحة الفاسدة» في حرب فلسطين، التي كتبها «إحسان عبد القدوس» على صفحات «روز اليوسف»، واحدة من علامات النهاية.

فقد عكست أزمة ثقة متفاقمة في نزاهة الحكم وقدرته على تحمل أمانة المسئولية.

وفق التحقيقات، التي أجريت بعد ثورة «يوليو»، فإنه قد تدفقت على مصر أسلحة وذخائر من مخلفات الحرب العالمية الثانية تلف بعضها بسوء التخزين لسنوات

طويلة، ووجدت من هو مستعد أن يشتريها بأسعار مبالغ فيها ونسب عمولات عالية من رجال ومصالح حول الملك دون علمه.

وثانيهما ـ حقائق ما بعد الحرب العالمية الثانية، فقد اختلفت موازين القوى الدولية، وبدا العالم كله في حالة سيولة؛ انتظارًا لنظام عالمي جديد.

ارتفعت نداءات التحرر الوطني وحق تقرير المصير والعدل الاجتماعي في أرجاء العالم، وكان ذلك ملهمًا للحركة الوطنية المصرية؛ للبحث عن طريق جديد وتبني أفكار جديدة.

كان «الضباط الأحرار» جزءًا من طاقة الغضب على كل ما هو تقليدي متهالك وموروث سقيم من أفكار وسياسات ومواقف.

خرجت «يوليو» من داخل الحركة الوطنية الشابة بأفكارها وأحلامها وإحباطاتها، والروح الراديكالية التي سادتها في طلب الجلاء والتغيير ـ من داخل السياق لا من خارجه.

(٥)

يصعب تلخيص ما جرى يوم (٢٣) يوليو في حركة الدبابات أمام قصر عابدين، واستيلاء «الضباط الأحرار» على قيادة الجيش وإذاعة البيان رقم (١) في صباح ذلك اليوم.

لم يكن ممكنًا للتحرك العسكري في (٢٣) يوليو أن ينجح وينال دعمًا شعبيًّا كبيرًا لو أن «الوفد» حافظ على مكانته، ولم تتدهور أحواله على النحو الذي انطوت به صفحته مع سقوط النظام الملكي.

في أجواء النهاية قاد القصر حملات ممنهجة ضد «الوفد» وزعيمه «مصطفى النحاس»، وتولت صحيفة «أخبار اليوم» كما هي العادة ـ مهمة التشهير.

بالمفارقة أمعنت نفس الصحيفة في التشهير بالملك ولياليه ومباذله بعد (٢٣) يوليو، وخلطت على نحو ذريع بين الحقائق والشائعات ـ كما كتب رئيس تحريرها «مصطفى أمين».

وبمفارقة ثانية حاول كُتاب صحفيون من نفس الجيل عارضوا الملك في عز قوته، أن يرووا بأكبر قدر ممكن من التوثيق والموضوعية قصته، وكيف وصل إلى النهاية ـ كما كتب «أحمد بهاء الدين» بحس فنان وعقل مؤرخ و«محمد عودة»، بما توافر لديه من وثائق وشهادات وقدرة على التأريخ.

بمناسبة مرور خمسين سنة على ثورة يوليو طرح «محمد حسنين هيكل» سؤالًا جوهريًّا، تضمنه كتابه «سقوط نظام»: «لماذا كانت ثورة يوليو ١٩٥٢ لازمة؟»

أتاحت له مجموعات الوثائق البريطانية والأمريكية ومذكرات وشهادات أبطال المرحلة أن يُعيد بناء القصة من جديد بأكبر قدر ممكن من التحري والتدقيق.

بأي نظر جاد فهو كتاب مرجعي لا غنى عنه في أي قراءة لما قبل يوليو.

الأكثر إثارة في ذلك الكتاب الموثق أنه تطرق موسعًا إلى خفايا ما كان يحدث في القصر الملكي، مسجلة على شرائط بصوت وكيل الديوان الملكي «حسن يوسف»، الذي عمل في مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بمؤسسة «الأهرام»، خلال رئاسة «هيكل» مسئولًا عن وحدة التاريخ الحديث.

كانت تلك شهادة مسجلة كـ«وديعة تُنشر بعد عدد من السنين»، حسب اتفاق بين الرجلين في حضور «عبد الفتاح عمرو»، وهو واحد من أقرب أصدقاء «فاروق» وسفيره فوق العادة في لندن.

قدر «هيكل» أن مرور خمسين سنة على ثورة «يوليو» تكفي وتزيد للبوح ببعض ما تضمنته الشهادة المسجلة، لكنه ترك الأصل بصوت وكيل الديوان الملكي للأجيال القادمة، قبل أن تلتهمه ـ ربما ـ حرائق برقاش.

كما كانت في حوزته تسجيلات أخرى حصل عليها بعد ثورة «يوليو»، تنال من سمعة عائلة «النحاس» رفض رئيس الحكومة في ذلك الوقت «محمود فهمي النقراشي» استخدام مادتها عبر النشر في الصحف تشهيرًا شخصيًّا.

التسجيلات الممنوعة أودعها «مصطفى أمين» في الأيام الأولى للثورة عند «جمال عبد الناصر»، الذي قال: «لن أفعل ما رفضه النقراشي».

بعد عقود طويلة قال «هيكل»: «لن أترك التسجيلات بعدي وسوف أحرقها».

بقية القصة تنطوي على مفارقة أخلاقية أخرى، حيث وصلت إلى «هيكل» مذكرات خطية لـ«مصطفى أمين» نفسه تدخل في أموره الشخصية، رفض الإفصاح عنها وأوصى بحرقها.

في مجموعات الوثائق والشهادات تبدت حقيقة واحدة أن النظام الملكي يتهاوى، ولم يبقَ غير أن يتقدم أحد لإزاحته.

فكر ـ ذات مرة ـ المؤلف المسرحي والسيناريست «محفوظ عبد الرحمن» أن يكتب قصة الأيام الأخيرة للملك من (١٨) حتى (٢٦) يوليو في مسلسل تلفزيوني طويل؛ حيث تتفاعل مشاعر وتضطرب أوضاع وتتغير دول.

حادث «هيكل» في مشروعه، ولم يكن ممانعًا.

من دواعي الدراما في تلك الفترة المتقلبة، أن الملك فكر في «انقلاب أبيض» يعلن بعده «دكتاتورية عسكرية» تحكم بمراسيم لها قوة القانون وتأجيل أي انتخابات برلمانية إلى أجل غير مسمى ـ كما تكشف البرقيات البريطانية.

أجهضت حركة «الضباط الأحرار» تفكيره وسبقته قبل أن تذهب به إلى المنفى.

في لحظة تصدع النظام الملكي تبدت قدرات «عبد الناصر» على إدارة المواقف الحرجة.

أطاح الحكومة ولم يكن يستهدف ذلك في البداية عندما رآها تترنح أمامه.

وأطاح الملك الذي لم يكن مخططًا مسبقًا عندما رآه يتهاوى أمام نظره.

هناك قصة ـ أوردها «هيكل» في كتابه «سقوط نظام» تكشف طبيعة الموقف في لحظة انهياره والحسابات المتغيرة، وكيف أديرت وحجم الدور الذي لعبه «عبد الناصر».

في اللحظات الأولى للحركة قبل أن تعلن بيانها الأول سأل رئيس الوزراء «نجيب الهلالي»، الذي تمكن من الوصول هاتفيًا إلى الصحفي الشاب المتواجد في مقر القيادة بغريزة الصحافة: «هل تستطيع سؤالهم إذا كانوا يريدون من الوزارة أن تستقيل؟».

التفت «هيكل» إلى اللواء «نجيب» ناقلًا السؤال فظهرت الحيرة على ملامحه من مفاجأة سؤال لم ينتظره، وتولى «عبد الناصر» الإجابة قائلًا: «له حق.. الأفضل أن تستقيل الوزارة».

«حاولت أن أتدخل برأيي لأول مرة فقلت ما معناه إن الهلالي رجل نزيه وقدير، وهو بالكاد عاد أمس الأول إلى رئاسة الوزارة بعد موقعة هائلة من أجل التطهير».

رد «عبد الناصر» بما مؤداه: «إن ذلك خارج الموضوع ـ قل له إن ذلك طلبنا، وقد وفر علينا أن نحرجه بأن نطلبه منه».

قلت للأستاذ «هيكل» والحوار يستفيض حول تلك القصة ودلالاتها: «إنها مؤسسة لما بعدها، كان يمكن ليوليو أن تأخذ مسارًا آخر لولا ما أبداه عبد الناصر من قدرة على اتخاذ القرار في لحظته، فلم يكن هناك وقت للتفكير، والصباح يوشك أن يطل على بلد جرت فيه حركة عسكرية».

قال: «أردت أن أقول إنه رجل مختلف وقدراته غير عادية منذ اليوم الأول الذي ظهر فيه على المسرح السياسي».

لم تكن الحركة مفاجئة تمامًا، فقد كان الجو العام يشي بأن شيئًا ما داخل الجيش يمكن أن يحدث فـ«هناك سخط منتشر بالجيش، ومن المحتمل أن يفضي إلى عملية

من نوع ما» حسب برقية الوزير البريطاني المفوض في القاهرة «مايكل كرسويل» إلى وزير خارجيته «أنتوني إيدن» يوم الأحد (٢٠) يوليو (١٩٥٢).

في برقية بريطانية أخرى أرسلت اليوم التالي إلى هيئة أركان الحرب الإمبراطورية في لندن: «المعلومات التي لدينا أن هناك توترًا على نطاق واسع في الوحدات العسكرية المصرية واحتمالات العصيان واردة».

كان نجاح الحركة في صبيحة (٢٣) يوليو ملغمًا باحتمال تدخل القوات البريطانية، التي تبلغ (١٢٠) ألف جندي في معسكرات قناة السويس لإجهاضها.

بدا كل احتمال مرتهنًا بمدى الدعم الشعبي الذي تحوزه الحركة.

إذا ما كان قويًّا فإنه قوة ردع لأي احتمال تدخل.

هذا ما حدث بالضبط.

بحكم الوثائق البريطانية كانت هناك خطة جاهزة يطلق عليها «روديو» لاحتلال القاهرة والدلتا والإسكندرية لدى أي طارئ مفاجئ وجرى الاستعداد لتنفيذها.

اعتمدت تلك الخطة على القوة المجردة بلا أي غطاء قانوني بعد إلغاء معاهدة (١٩٣٦).

بحكم نفس الوثائق فإن الملك «فاروق» طلب التدخل العسكري البريطاني لإجهاض التمرد عليه على نحو ما فعله عمه الخديو «توفيق» عام (١٨٨٢)، لكنه لم يتلقَّ إجابة.

بدا «فاروق» مذعورًا ـ وفق برقية للسفير الأمريكي «جيفرسون كافري»، الذي أخذ يهدئه دون جدوى.

لم تكن هناك أي معلومات لها قيمة عن توجهات الحركة، ولا من يمسكون بزمام الموقف فتبدت تناقضات في الاستنتاجات والتصرفات.

بقوة الوثائق الدامغة فإن أي حديث عن صلة ما ربطت «الضباط الأحرار» بالاستخبارات الأمريكية محض كلام فارغ.

غابت بالكامل أي إشارات إلى «جمال عبد الناصر»، أو أي أحد آخر من مجلس القيادة باستثناء «أنور السادات» واللواء «نجيب»، الذي صدر البيان الأول باسمه.

جرت اتصالات لضبط ردات فعل البريطانيين، ولم يكن الأمريكيون في وضع يسمح لهم بتقدير موقف على قاعدة معلومات واضحة.

وفق الوثائق الأمريكية والبريطانية لم تكن هناك أي معلومات ذات قيمة عن شخصية اللواء «نجيب» صبيحة (٢٣) يوليو، برغم أنه انتخب رئيسًا لنادي الضباط في مواجهة صريحة مع رجال الملك، ورشح مرتين وزيرًا للحربية في حكومتي

«حسين سري» و«نجيب الهلالي»، غير أن الملك لم يكن مستعدًّا لإسناد هذه المهمة إليه مبديًا غضبه كل مرة من مجرد ذكر اسمه.

كانت انتخابات نادي «الضباط» في ديسمبر (١٩٥١) اختبارًا للقوة والتأثير في صفوف الجيش من قبل «الضباط الأحرار»، وكان حل مجلس إدارته المنتخب إيذانًا بمواجهة محتملة تقترب مواقيتها.

وكان تغيير الوزارات بعد حريق القاهرة في (٢٦) يناير (١٩٥٢) حدثًا متوقعًا كل لحظة.

شهدت تلك الفترة إقالة وزارة «الوفد» برئاسة «مصطفى النحاس»، وتولي «علي ماهر» مقاليدها، ثم جاء الملك بـ«نجيب الهلالي» بعد شهر واحد قبل أن يقيله هو الآخر في ظروف مريبة بصفقة مالية بلغت مليون جنيه، دفعها «أحمد عبود» وسجلتها برقيات السفارة البريطانية، ثم كلف «حسين سري» بحكومة رابعة قبل أن يعود لـ«الهلالي»، لكن حكومته لم تتمكن من الاجتماع، فقد أطاحت «يوليو» باللعبة كلها.

جرى ذلك كله في أقل من سبعة أشهر.

بدا أن كل شيء يؤذن بالمغيب قبل أن تحل النهاية وتطوى صفحة حكم أسرة «محمد علي».

وصف «أحمد بهاء الدين» المشهد الأخير لـ«فاروق» بالتفصيل وختمه بالعبارة التالية:

«.. وتحركت المحروسة إلى عرض البحر.. والشمس تغرب.. وقال الذين سافروا معه.. إنه دخل مباشرة إلى حجرته.. وأخذ يبكي بكاءً حارًّا، طويلًا، مسموعًا.. ندم على خطايا وآثام لا تغسلها مياه البحر ولا يطمسها ظلام الليل الذي أطبق على المركب».

كان هناك اتجاه قوي لدى عدد من ضباط القيادة لإعدام الملك، اعترض «عبد الناصر»، وفي ذاكرته الحكمة التي انطوت عليها رواية «قصة مدينتين» لـ«تشارلز ديكنز» من أن الدم يجلب الدم.

راجت دعايات وظنون من أن طائرات حربية حاولت قتل الملك المعزول بعد مغادرته الإسكندرية، أو الاستيلاء على مجوهرات أسرة «محمد علي» التي كانت بحوزته.

لقد صاحبت الطائرات اليخت الملكي حتى آخر المياه الإقليمية المصرية كنوع من التوديع البروتوكولي والتأمين الضروري في الوقت نفسه.

بشهادة «حسين الشافعي» عضو مجلس القيادة ونائب رئيس الجمهورية الأسبق: «لقد تركنا له الفرصة من يوم ٢٣ يوليو إلى يوم ٢٦ يوليو ليأخذ ما يريده، ولم يتدخل أحد بأي صورة وغادر البلد دون تفتيش».

تساءل: «كيف كان يعيش فاروق في أوروبا بهذا المستوى من البذخ؟».. وكانت إجابته: «مما نهبه من الأرصدة التي كانت موجودة بالخارج.. أو مما أخذه معه وهو مطرود من مصر».

وراجت دعايات وظنون أخرى بعد رحيل الملك من «أن عبد الناصر نجح أخيرًا في أن يقتله بالسم» دون سند أو دليل.

حسب التقارير الغربية المتوافرة فإن «الأعراض كانت بالغة الوضوح لدرجة لا تستدعي أي إثبات، لقد كان فاروق يعاني من نوبة مرضية في المخ، كثيرًا ما توقع أطباؤه حدوثها، ولم يكن ذلك مستغربًا بالنسبة إلى رجل في وزنه وبضغط دمه المرتفع».

ذات مرة قال «فاروق» على مائدة قمار: «إن ملك الكوتشينة هو الملك الوحيد الذي سيبقى».

وقد كان.

عندما سقط «فاروق»، خرج رجل آخر من الظل إلى مقدمة المشهد ـ كأنه إجابة عن سؤال طرحه شاعر بإلهام الأدب صبيحة (٢٣) «يوليو»: أين الرجل؟

الفصل الثالث: البحث عن طريق

في اليوم الأول للثورة طرحت الأسئلة الجوهرية على قادتها بعد أن أمسكوا بمقاليد القوة.

كان السؤال الأول: من يُدير الدولة بينما النظام القديم يترنح والنظام الجديد لم تستبن ملامحه؟

لم تكن لدى «الضباط الأحرار» أي خبرة، أو دراية بإدارة شئون الدولة.

ولم تكن هناك حكومة بعد استقالة «نجيب الهلالي» بطلب منهم قبل أن يعلنوا بيانهم الأول.

باقتراح من «إحسان عبد القدوس» أسند المنصب إلى «علي ماهر» في لحظة حرجة احتاج أصحابها إلى كل رأي له معرفة بحقائق الدولة.

كان «إحسان عبد القدوس» قد هرع إلى مقر قيادة الجيش، شأن صحفيين شبان لامعين آخرين مثل «أحمد أبو الفتح» و«مصطفى أمين» و«حلمي سلام» و«محمد حسنين هيكل»، بغريزة الصحافة وعلاقات وصلات سبقت الحدث.

بدا اقتراح اسم «علي ماهر» في وقته وظروفه مناسبًا لمهمة إدارة الدولة دون هزات واضطرابات.

فهو رجل دولة محنك ومطلع على أحوالها ومغاليقها.

وهو بسجله كرئيس سابق للديوان الملكي ورئيس سابق للحكومة يُعطي رسالة للمجتمع والعالم، أن الزمام أحكم السيطرة عليه.

وهو بمواصفاته مناور طموح اتصالاته متسعة مع القوى والتيارات السياسية وله القدرة على التصرف أمام أي تحديات محتملة في لحظة انتقال سلطة.

كانت تلك حدود مهمته، لكنه تصور أنه يمكن السيطرة على الضباط الشبان قليلي الخبرة وتوظيف الحدث الكبير لمقتضى طموحاته.

كان ذلك وهمًا كبيرًا وقع فيه - كما وقع آخرون.

من بين الذين وقعوا تحت تأثير الوهم نفسه شخصيتان قانونيتان كبيرتان هما: الدكتور «عبد الرازق السنهوري»، رئيس مجلس الدولة والفقيه القانوني الأبرز في القرن العشرين، و«سليمان حافظ» نائبه، الذي أُسندت إليه أدوار جوهرية في أول حكومات «يوليو».

«السنهوري» تصدر من اقترحوا العمل بمقتضى «الشرعية الثورية».

كان ذلك ضروريًّا لهدم القديم وإفساح المجال للجديد كي يعلن عن نفسه بإجراءات راديكالية مثل قانون «الإصلاح الزراعي»، غير أنه أسس قانونيًّا في الوقت نفسه لحل الأحزاب.

و«حافظ»، حاول أن يفرض بخبرته القانونية هيمنته على القرار السياسي وتورط في صراعات داخلية بأكثر مما تقتضيه طبيعة مهمته.

الرجال الثلاثة «ماهر» و«السنهوري» و«حافظ»، لم يطل بقاؤهم في السلطة الجديدة.

لم يكن هناك طريق معروف بملامحه ورجاله وخياراته وتوجهاته تمضي فيه الأحداث، التي خضعت لصراعات وأزمات سرعان ما خرجت إلى العلن.

في ذلك الوقت تبدى مساران رئيسان يمكن أن تندفع في أيهما الأحداث التالية.

المسار الأول ـ العودة إلى الأساس الدستوري والبرلماني بعد التخلص من الملك «فاروق» وانقلاباته الدستورية، التي أفقرت الحياة النيابية من قدرتها على الاستجابة لأي قواعد ديمقراطية.

كانت تلك نزعة إصلاحية صريحة استندت إلى إرث ثورة (١٩١٩) وحياة شبه ليبرالية سادت مصر منذ دستور (١٩٢٣).

ما هو إصلاحي بدا دعوة لعودة القوى القديمة والعقليات القديمة والسياسات القديمة.

ولم يكن «الوفد» مهيئًا بتراجع شعبيته وسيطرة كبار ملاك الأراضي على قراره وتأثير تقدم سن زعيمه «مصطفى النحاس» على حركته لأي دور يرشحه لملء الفراغ والوفاء بمتطلبات التغيير الذي طال انتظاره.

المسار الثاني ـ المضي قدمًا في إطاحة ركائز النظام على نحو ينقل البلد إلى عصر جديد لم تكن خياراته قد تبلورت.

كانت تلك نزعة ثورية معلنة زكتها فكرة التغيير التي هيمنت على الفضاء العام.

ما هو ثوري افتقد بوصلته، وبدت كل خطوة محكومة بالتجربة والخطأ.

(١)

كان السؤال الثاني الذي داهم الحركة قبل أن تكتسب صفة الثورة:

أين الأولويات التي لا ينبغي تأجيل البت فيها حتى لا تنشأ أحوال تضرب في أي استقرار اقتصادي، أو يتولد إحباط عن مستوى الالتزام بتحسين الأحوال الاجتماعية وفق المبادئ المعلنة؟

بضغط السؤال بحثًا عن طريق جديد نشأت فكرة «مجلس الخدمات».

وبإرادة العمل بحثًا عن إنجاز ملموس شرع المجلس الجديد في تنفيذ ما هو مؤجل من مشروعات تبنتها خطابات العرش دون أن تجد طريقها للتنفيذ كـ«حديد أسوان» و«كهربة خزان أسوان» و«خط قطارات القاهرة ـ حلوان» قبل أن يشرع في مشروعات «الحديد والصلب» و«كيما» و«عربات السكك الحديد».

برز مبكرًا مشروع «السد العالي» في أثناء إعداد «مجلس الإنتاج» لدراسات وأبحاث حول المشروعات المقترحة ـ حسب «محمد صدقي سليمان» الرجل الذي أشرف على بنائه وترأس الحكومة في ستينيات القرن الماضي.

تصدر «مجلس الإنتاج» أفضل العقول الاقتصادية المصرية في ذلك الوقت من أبرزهم الدكتور «راشد البراوي» والدكتور «علي الجريتلي».

أفسح المجال بصلاحيات واسعة لمن يطلق عليهم «أهل الخبرة».

أهل الثقة، أم أهل الخبرة؟

الثوريون، أم البرجماتيون؟

المدنيون، أم العسكريون؟

السؤال بتنويعات صياغته يطرح نفسه حتى اليوم دون إجابة تنظر في أسماء من تولوا المهام العامة في سنوات «يوليو»، مدى الصلاحيات التي حازوها، ومستوى الكفاءة التي أبدوها.

لا يمكن الادعاء بأن المشروعات الكبرى أسندت إلى أهل الثقة على حساب أهل الخبرة، أو أن المدنيين استبعدوا لحساب العسكريين.

على سبيل المثال أسند ملف التصنيع إلى الدكتور «عزيز صدقي» وملف الزراعة إلى المهندس «سيد مرعي»، وملف تحديث شبكة الاتصالات والطرق والسكك الحديد إلى الدكتور «مصطفى خليل».

نجحت «يوليو» في استقطاب وتوظيف الكفاءات المتخصصة، وأغلبها حصلت على تعليم متقدم في الجامعات الغربية، داخل مشروع أخذ يكتسب بالوقت معالمه الواضحة وتوجهاته المحددة.

لأسباب تتعلق بطبيعة القوة، التي تولت التغيير في «يوليو»، اتسعت أدوار العسكريين في بنية مؤسسات الدولة، وزاد منسوب الأدوار الأمنية خشية انقضاض ما من الداخل أو من الخارج على الثورة الوليدة.

تبدت قوة المشروع في مدى الخبرات التي توافرت له وتصميمه السياسي على إحداث تحول جذري في بنية المجتمع المصري، غير أن ضرورات تأمينه تجاوزت في أحوال كثيرة حدود أدوارها إلى تغول وجد مأمنه في الأقبية السرية.

لا توجد ثورات مثالية في التاريخ.

أي كلام ينفي تجاوزاتها وأخطاءها تناقض صريح مع ما هو ثابت في كل التجارب الإنسانية.

(٢)

كان السؤال الثالث اختبارًا لجدية «يوليو» في التزام وعودها وإجابته أضفت عليها صفة الثورة.

ما العمل في المسألة الزراعية وما يعانيه الفلاحون من مظالم تكاد تخرجهم عن أي اعتبارات آدمية؟

لم تتأخر الإجابة.

بعد أقل من خمسين يومًا، في (٩) سبتمبر (١٩٥٢)، صدر قانون الإصلاح الزراعي الأول.

كانت المسألة الزراعية ضاغطة على تفكير الأجيال الجديدة، التي نشأت وتطورت فكريًّا وسياسيًّا في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، واستولت على مخيلتها قضية الفلاحين.

شهد صيف (١٩٥١) مواجهات وصدامات في الريف المصري مهدت لإطاحة النظام الملكي بكل مقوماته الاجتماعية.

«في البدء كان الجوع في بهوت.
كالذئب..
لا رويدكم..

فالذئب لا ينقض في النهار على القرى ويقيم في البيوت..
ليعلك الكبار والصغار..
لكنه يجيء في الظلام والناس في بيوتهم نيام لينثني ببطة أو شاه..
ولا يعود إلا عند جوع..
الذئب يخشى الناس والجوع من في الناس لا يخشاه».

كانت تلك القصيدة لـ«نجيب سرور»، إحدى أيقونات الغضب، التي سرت في أوساط واسعة تطلب العدل والإنسانية للفلاحين دون جدوى، أو أمل.

تحت وطأة ما حدث في قريته بهوت بمحافظة الدقهلية من عصيان غاضب لفلاحين مضطهدين، أعقبه تنكيل مفرط من كبار ملاك الأراضي كتب واحدة من أشهر قصائده.

استبيحت بهوت على نحو غير متخيل، ففلاحوها لا يستحقون أن يوصفوا بالبشر، حسبما ورد على صفحات مجلة «المصور» على لسان «عبد العزيز البدراوي»، الذي تربطه صلة مصاهرة مع سكرتير عام حزب «الوفد» ووزير الداخلية في ذلك الوقت «فؤاد سراج الدين».

بقوة الغضب أحرق الفلاحون أحد قصور عائلة «البدراوي عاشور»، وانتقلت نذر النار ـ لأسباب مماثلة ـ إلى مناطق أخرى في الريف المصري.

في صيف نفس العام جرت اعتقالات لفلاحين في «كفور نجم» بمحافظة الشرقية امتنعوا عن سداد إيجار الأرض المملوكة للأمير «محمد علي» ولي العهد وقتها قبل ميلاد نجل «فاروق» الأمير «أحمد فؤاد».

وضع فلاحون على خوازيق، واضطر آخرون ـ تحت قهر القوة ـ إلى ارتداء ملابس نساء.

لخصت رواية «الأرض» لـ«عبد الرحمن الشرقاوي»، التي صدرت عام (١٩٥٤)، الأوضاع التي كان عليها الفلاحون في سنوات ما قبل الإصلاح الزراعي.

لم تكن رواية «الشرقاوي» عملًا دعائيًا لـ«الإصلاح الزراعي»، فعالمها يعود إلى ثورة (١٩١٩) وأدوار فلاحيها وتضحياتهم فيها، والمؤلف نفسه لم يكن من المتحمسين لـ«يوليو» بحكم انتسابه في ذلك الوقت إلى تنظيم «حدتو» عند ذروة الصدام مع «يوليو».

تكتسب «الأرض» قيمتها من صدقها الفني والإنساني؛ تعبيرًا عن أزمة الفلاحين المصريين، وأبطالها من دم ولحم ومشاعر لبشر يعانون القهر.

«يموتوا لنا الأرض من العطش.... ياخدوا منا نص دور ليه.. ياخدوا منا خمسة أيام بريهم.. ليه.. ونروي الأرض إزاي!».

كانت تلك صرخة ألم وقهر واحتجاج لبطل الرواية «محمد أبو سويلم».

كتبت القرية عرائض تشتكي محنتها وكان الثمن تنكيلًا.

«كانت القرية كلها تعرف ما حدث للرجال، وكيف أكرهوا على شرب بول الخيل، وكيف حلقت شواربهم، وكيف هوت السياط على الوجوه والأبدان، وكيف كانوا يؤمرون بالجلوس على الخوازيق.. وكيف كان الواحد منهم يُضرب ويُضرب إلى أن يفقد الوعي.. ولا يبرح بعد هذا يضرب إلى أن يصيح إنه امرأة».

الصورة المزعجة تشبه بعض ما حدث في بهوت وكفور نجم وقرى مصرية أخرى في السنة التي استبقت «يوليو» مباشرة.

كان من بين مبادئ «يوليو» الستة القضاء على الإقطاع، وقد جاء وقت الالتزام بما تعهدت به قبل أن تصل إلى السلطة.

لم تطرأ فكرة تحديد الملكية الزراعية على ثوار «يوليو» من فراغ، فقد سبقتها دعوات أحبطت في أربعينيات القرن الماضي لرجال مثل «محمد خطاب» و«ميريت غالي» و«د. إبراهيم بيومي مدكور» و«إبراهيم شكري»، وهم ينتمون إلى طبقة كبار ملاك الأراضي.

«كان الهدف الفوري للإصلاح الزراعي توجيه ضربة قوية لطبقة كبار ملاك الأراضي وعناصر الأرستقراطية الزراعية، التي سيطرت على مراكز السلطة في العهد الملكي.. وكان الهدف الأبعد تحطيم العوائق الأساسية أمام تطوير علاقات اجتماعية واقتصادية جديدة في الريف المصري وتصفية العلاقات شبه الإقطاعية السائدة، التي تحجب عملية تحرير قوى الإنتاج في الريف المصري».

يكاد لا يختلف أحد من الباحثين الثقات مع ما أورده الدكتور «محمود عبد الفضيل»، عن هدفي الإصلاح الزراعي في دراسته الرائدة «عن تطور المسألة الزراعية في مصر»، التي شاركه فيها فريق بحثي بجامعة «كامبريدج».

وزع حوالي مليون فدان على صغار الفلاحين، وتوسعت قاعدة الملكية الصغيرة وتحسنت الأحوال الاجتماعية والمعيشية لحوالي (٣٤٢) ألف أسرة بصورة كبيرة.

كانت تلك ثورة بأي معيار وقياس.

«أعطيت الأولوية في توزيع الأرض للمستأجرين السابقين للأرض والعمال الزراعيين الدائمين والفلاحين، الذين يعولون أسرًا كبيرة العدد والأفقر من بين سكان القرى التي تقع في زمامها الأرض».

لاحظ الدكتور «عبد الفضيل» أن المعدمين، أو ما يطلق عليهم «عمال التراحيل»، لم يدخلوا في تلك الأولويات، لكن أحوالهم تحسنت بازدياد فرص العمالة والتوسع في مشروعات الأشغال العامة بالستينيات.

لم تكن هناك إحصاءات مدققة لأعدادهم، لكنه رجح بما توافر لدراسته من بيانات أنهم في حدود (٤٤) ألف أسرة عام (١٩٥٠).

بعد ثماني سنوات من قانون الإصلاح الزراعي الأول وقبل سنة واحدة من الثاني عكست رواية «الحرام» لـ«يوسف إدريس» (١٩٦٠) أحوال هؤلاء المعدمين.

أين الحرام؟

الحرام الأخلاقي، أم الحرام الاجتماعي؟

من هو اللقيط؟

رضيع السفاح الذي أخمدت عاملة التراحيل الضحية أنفاسه خشية الفضيحة دون أن تقصد قتله.. أم المجتمع الغليظ الذي حكم عليها بالعمل في أسوأ الظروف حتى لا يموت زوجها المريض وأولادها من الجوع؟

بقدر ما استطاعت تقدمت «يوليو» لتغيير المعادلات الظالمة، لكنها لم تستوفِ رفع كل المظالم، وحاولت أن تجد حلولًا لتفتيت ملكية الأراضي بإنشاء الجمعيات الزراعية والتسويق التعاوني.

كان الإصلاح الزراعي بروحه وأهدافه مقدمة أوسع حراك اجتماعي شهدته مصر في الستينيات، كما كان موضوعًا لأول صدام بين الثورة الوليدة وحزب «الوفد».

بتأكيدات قيادات عاصرت الحدث من داخل حزب «الوفد»، فإنه لم يتخذ قرارًا برفض مشروع الإصلاح الزراعي.

هذا ما حدث لكنه لا يمثل دعمًا ولا تأييدًا.

ربما كان الامتناع عن إعلان قرار تعبيرًا عن خشية ردات فعل الحكام الجدد.

حسب شهادة لـ«عبد الناصر» في أثناء أعمال المؤتمر الوطني للقوى الشعبية مطلع الستينيات فإنه التقى «فؤاد سراج الدين» أربع مرات من أجل موضوع الإصلاح الزراعي، و«اجتمع الوفد مرة واثنتين وثلاثًا وأربعًا لبحث ما طلبناه».

كان الخلاف جذريًا في زاوية النظر للمسألة الزراعية، فـ«الثورة تعتقد أن تحديد الملكية وتوزيع الأرض على الفلاحين الوسيلة الوحيدة التي تحرر الفلاح الذي نشأ في الأرض عبدًا في الأرض وملكًا لمالك الأرض».. و«كان الوفد يرى أن الضرائب التصاعدية كفيلة بزيادة موارد الخزانة دون حاجة إلى هذا القانون».. «لم تكن مسألة أموال تدخل الخزانة بقدر ما كانت قضية كرامة الفلاح المصري التي أهينت لقرون».

«كنا نفكر بعقلية، وهم يفكرون بعقلية أخرى».

«كنا نريد للفلاح أن يمتلك حتى يكون حرًّا ويستطيع أن يقول: أيوه ويستطيع أن يقول: لا».

اختلاف زوايا النظر بحكم تضاد المصالح الطبقية أسس لقطيعة بين «يوليو» و«الوفد».

لم تكن القطيعة التي جرت محض صراع سياسي على السلطة بقدر ما كانت تعبيرًا عن صراع اجتماعي.

كأي شيء اجتماعي عميق فإنه يجد تعبيره في الفن على النحو الذي لخصته فرقة «رضا» للفنون الشعبية في رقصتها الشهيرة «فدادين خمسة».

ما هو منتحل بالادعاء لا يعيش ولا يؤثر.

وما هو حقيقي بالواقع يمتد إلهامه عبر العقود.

في مايو (١٩٦٦) بدت حادثة اغتيال «صلاح حسين» بقرية «كمشيش» رسالة دامية بأن الصراع الطبقي في الريف المصري لم يخمد، وأنه مرشح لمواجهات عنيفة أخرى.

كما ثبتت تجاوزات فادحة في تطبيق قانون الإصلاح الزراعي.

كان اغتيال «صلاح حسين»، تعبيرًا عن ضراوة الصراع بين حركة فلاحية ناشئة، وإقطاع يطل من جديد بالرصاص.

أنشئت لجنة خاصة لـ«تصفية بقايا الإقطاع» ترأسها «عبد الحكيم عامر»، شابت أعمالها تجاوزات وانتهاكات أساءت إلى الثورة فيما قضيتها عادلة.

في ذلك الوقت ظهرت على مسرح الصراع الاجتماعي «شاهندة مقلد» أرملة «صلاح حسين» كرمز للفلاحة الجديدة.

حاورها الفيلسوف الفرنسي «جان بول سارتر» في تجربة «كمشيش»، التي ذهب إليها يسأل ويستقصي عما قرأ وسمع.

لعله فوجئ بالسيدة الريفية الشابة تسأله وتستقصي منه حقيقة موقفه من القضية الفلسطينية وعذابات شعبها.

أسئلتها كإجاباتها أوحت بأن هناك شيئًا جديدًا يولد في مصر وأعطت رسالة من عمق ريفها بوحدة المصير العربي.

لم يكن «سارتر» وحده من اهتم بقصة الصراع بين الفلاحين والإقطاع في «كمشيش»، فقد تدفق على تلك القرية المصرية صحفيون وسياسيون ومفكرون غربيون، يحاورون أهلها، ويحاولون أن يقرءوا فيها ما قد يحدث في مصر غدًا.

انحاز «جمال عبد الناصر» إلى فلاحي «كمشيش» وتحدث في خطاب علني عما جرى ودلالاته، مشيرًا أكثر من مرة إلى أن ذلك يحدث داخل دائرة «أنور السادات».

بعد رحيله انقلبت المعادلات بالكامل، نفيت «شاهندة» خارج قريتها مع فلاحين آخرين لثلاث سنوات كاملة، كما جرى هدم النصب التذكاري لـ«صلاح حسين» كأنه حذف من الذاكرة لأي معنى.

كان ذلك تعبيرًا عن خلل فادح في بنية «نظام يوليو» سمح بتقويضه من داخله.

في السبعينيات غنى باسمها «الشيخ إمام» من شعر «أحمد فؤاد نجم» «يا شاهندة وخبريني» على نسق «يا بهية وخبريني»؛ لطلب الحقيقة ممن يؤتمن ويوثق في روايته.

ترمز «بهية» «أم طرحة وجلابية» إلى مصر.

لم يكن السؤال لـ«شاهندة» عمن قتل «صلاح حسين»، فالقصة ليست غامضة كحال «بهية» و«ياسين» في الرواية الشعبية.

بين ما هو سياسي واجتماعي وبين ما هو تاريخي وشعبي تحركت الحوادث في الريف المصري من القنوط بالذل قبل «يوليو» إلى الأمل بالإصلاح الزراعي في إكساب الفلاحين كامل حقوقهم الإنسانية في الحياة، حتى جرى الانقلاب الاجتماعي المضاد في السبعينيات وما بعدها.

في تراجيديا التغيير الاجتماعي وتناقض المصالح الطبقية بدا مثيرًا أن بعض أبناء كبار ملاك الأراضي، الذين مستهم الأفكار الجديدة عن العدل الاجتماعي، أو أطلوا على حقائق العصر التي لا تعرف أقنان الأرض، انحازوا إلى «عبد الناصر» في إجراءاته، كالممثل القدير «جميل راتب» ابن تلك الطبقة.

بعد عقود طويلة من رحيل رجل «يوليو» قال في برنامج تلفزيوني: «لقد كان على حق».

قوة مشروع «يوليو» في تبنيه لما طمحت إليه الحركة الوطنية، وكان تحقيقه حلمًا مستبعدًا.

أبعد تلك الأحلام إلغاء مجتمع الـ«نصف في المائة»، الذي يستحوذ وحده على (٩٥٪) من ثروة البلاد.

كانت تلك ثورة بعيدة الأثر.

(٢)

وكان السؤال الرابع: ما طبيعة النظام الجديد؟

في الأيام الأولى لثورة «يوليو» بدا رجلها القوي «جمال عبد الناصر» مصدومًا وهو يرى أمامه وزراء وباشوات يتسابقون على حمل أطباق الطعام إلى أعضاء مجلس قيادة الثورة في أثناء غداء على الباخرة النيلية «محاسن» دعا إليه رئيس الحكومة «علي ماهر».

تساءل يومها: «هل هؤلاء باشوات، أم سفرجية؟».

القصة على ما استمعت إليها من الأستاذ «محمد حسنين هيكل» تكشف مدى الانهيار الأخلاقي والسياسي لما تبقى من نخب النظام الملكي.

كانت البنية السياسية قد تآكلت قواعدها، والطريق إلى المستقبل مغلقًا بالركام.

ضغط السؤال على «الضباط الأحرار» صبيحة (٢٣) يوليو، وهم يرون النظام يسقط بصورة لم يتوقعوها، والرأي العام يؤيد بصورة فاقت كل تصور.

لم تكن لديهم إجابة شبه متماسكة عن أسئلة السلطة، لا «دليل عمل» ولا خطة واضحة.

كانت المبادئ الستة، التي تضمنتها منشوراتهم، كافية للعمل التنظيمي السري تحت غطاء سياسي يوفر قدرًا لازمًا للتوافق بينهم على أهداف الحركة دون أن تصلح بذاتها لإدارة الموقف الصعب الذي وجدوا أنفسهم فيه بعد إطاحة النظام الملكي.

لم تكن السلطة من بين أهدافهم المعلنة أو المتفق عليها، ولا تصوروا لحظة حركة الدبابات أنهم بسبيلهم إلى عزل الملك بعد ثلاثة أيام.

تكاد تتلخص قيمة المبادئ الستة فيما عكسته من تصورات وأفكار ومثل عليا غلبت على الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الثانية ـ القضاء على الاستعمار والإقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم، وإقامة حياة ديمقراطية سليمة وجيش وطني قوي وعدالة اجتماعية.

حكمت المبادئ العامة توجهات وسياسات ثورة «يوليو» الاجتماعية والوطنية باستثناء هدف إقامة حياة ديمقراطية سليمة.

كأي توافقات ذات صبغة عمومية فإنها موضوع صراع مؤجل.

ما المقصود من كل مبدأ، مفهومه وحدوده؟

تأسست عوامل النزاع داخل رفاق الأمس، حتى تبدت صريحة في «أزمة مارس» (١٩٥٤) وما بعدها.

لا شيء يحدث خارج سياقه التاريخي، وأي أحكام بأثر رجعي ادعاء حكمة في غير موضعها.

«إذا كنا نتوقع سياسة الدولة على يدي أي تنظيم من أهدافه السياسية الاجتماعية الفكرية ونشاطه قبل تولي الحكم، فإننا يمكن أن نتوقع صورة الدولة على يديه، إن سيطر عليها من واقع بنائه التنظيمي ـ مهما كانت كلماته ودعواه ودعوته».

كانت تلك نظرة موضوعية ناقش من خلالها المستشار «طارق البشري» قضية «الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو».

كان طرد الملك بعد أربعة أيام انقلابًا كاملًا في بنية الدولة وقواعد إدارتها أفضى بقوة تداعياته لإلغاء النظام الملكي وإلغاء الرتب وإعلان الجمهورية في (١٨) يونيو (١٩٥٣).

وكان قانون الإصلاح الزراعي انقلابًا ثانيًا في ذات البنية أفضى بقوة أثره إلى تقويض الركائز الاجتماعية للقوى الحاكمة.

وكان صدور قانون العمل، الذي يمنع الفصل التعسفي للعمال، انقلابًا ثالثًا في علاقات العمل لعب دوره في حسم صراعات السلطة.

ثم إن النفوذ البريطاني أخذ في الانحسار بأثر النتائج العسكرية والسياسية للحرب العالمية الثانية.

كانت تلك إشارات جوهرية لتغيير كبير محتمل في بنية السلطة والصراع عليها.

كان من أهم الإجراءات، التي اتخذت وأثرت بعمق على حركة الأحداث التالية، تصعيد الصاغ ـ الرائد ـ «عبد الحكيم عامر» قائدًا عامًّا للقوات المسلحة.

استهدف التصعيد ـ في سياق ظروفه ـ تثبيت السلطة الجديدة وإبعاد الجيش بقدر ما هو ممكن بعد حركة عسكرية عن التدخل في الشأن العام.

كما دخلت ترقيته إلى رتبة «لواء» مرة واحدة في حسابات الضبط والربط داخل الجيش، الذي دأبت تقاليده على احترام الرتب الأعلى حتى إن لم تكن لها الأقدمية.

كان «عبد الناصر»، هو صاحب اقتراح تصعيده بالنظر إلى الصداقة الوثيقة التي جمعتهما قبل الثورة ـ كأنهما توأم.

الرهانات أخفقت في الحساب النهائي.

(٤)

كانت دعوة تطهير مؤسسات الدولة بعد خمسة أيام من طرد الملك اختبارًا فشلت فيه الأحزاب، التي شملتها الدعوة إلى تطهير نفسها.

لم تكن الدعوة جديدة أو مستحدثة، فقد كانت صلب برنامج حكومة «نجيب الهلالي»، آخر حكومات العهد الملكي.

«هل من سبب غير الحزبية يمكن أن يفسر لنا عزل وتعيين العمد؟».

«لتكن الحزبية هي السبب ألم تكن من مقومات حياتنا الماضية؟».

«والهدايا؟!».

«ثم استُدعيَ موظفون ممن عملوا معه على فترات متتابعة فأدلوا بأقوالهم وعرضت عليه توقيعات بخط يده لترقية موظفين بصفة استثنائية ولأداء خدمات في الري والزراعة، وبعضها يوصي بمجرمين ريفيين ممن تربطهم صلات الرعاية أو القربى بنواب سابقين وامتد الوقت حتى فقدت الأشياء ألوانها».

«دلوني على موظف واحد يستحق البقاء!».

هكذا خرج «عيسى الدباغ» من الخدمة الحكومية في رواية «نجيب محفوظ» «السمان والخريف»، التي نشرت عام (١٩٦٢).

في تلك الرواية بدا واضحًا أن «محفوظ»، وميوله «الوفدية» صريحة في أعماله وتصريحاته، دون أن يكون عضوًا فيه ولا بأي حزب، كان مقتنعًا بأن حزبه المفضل انتهى أمره.

«هذه هي النهاية والأمر لله!».

«ليس في كل ماضينا المجيد موقف كهذا!».

«بلى، كأيام سعد، ولكنها النهاية!».

بحس روائي تاريخي أدرك «محفوظ»، على لسان شيخ معمم لم يكن مقتنعًا بإفراط «عيسى الدباغ» في الحماس لإلغاء معاهدة (١٩٣٦)، أنه نذير نهاية برغم ما يحيطه من مجد.

بدا «الوفد» حزب الأغلبية الشعبية منذ ثورة (١٩١٩) ـ شبه عاجز عن التأثير في مجريات الأمور بعد ثورة «يوليو»، فقد زخمه وتراجعت هيبته، ونالته اضطرابات داخلية على خلفية الأوضاع الجديدة، حتى إن الحزب أسبغ على «النحاس» رئاسة شرفية وكتب الدكتور «طه حسين» مشروع خطاب تنحيه.

سقطت الأحزاب القديمة، وأولها حزب «الوفد» العريق، من داخلها لا بقانون حلها.

كان إلغاء الدستور في (١٠) ديسمبر قبل أن ينقضي عام (١٩٥٢) تطورًا طبيعيًّا، فقد سقطت ركائزه وأساساته، وأهمها النظام الملكي الذي صدر دستور (١٩٢٣)، أفضل إنجازات ثورة (١٩١٩) كمنحة منه.

كما أن التوازنات السياسية، التي عمل على إدارتها، قوضت نهائيًّا.

المشكلة لم تكن إلغاء الدستور بقدر الحاجة إلى دستور جديد ينقل البلد إلى الأمام وينهي الإجحاف بحقوق المصريين العاديين.

حسم حل الأحزاب في (١٦) يناير (١٩٥٣) ـ بتوقيع اللواء «محمد نجيب» الخطوط الأولى لبنية «يوليو» السياسية بكل ما فيها من قوة وضعف.

كان ذلك متوقعًا بالنظر إلى عدم ثقة «الضباط الأحرار» في الحياة الحزبية بحيثيات تكوينهم العسكري، الذي انعكس على «هيئة التحرير» أول تنظيمات «يوليو» وشعارها «الاتحاد والنظام والعمل».

كما أن جميع الأحزاب، عدا بعض الممانعات المحدودة من «الوفد» وبعض المعارضات من جماعات يسارية ـ بدت على وضع تهافت وتحلل وشبه انهيار أمام المتغيرات الجديدة؛ حيث اتبع الحكام الجدد أساليب لم يألفوها في العهد الملكي.

لم تنجح «هيئة التحرير» في الوفاء بمهامها الأساسية كتنظيم سياسي وحيد بشهادة «جمال عبد الناصر» نفسه وهو يراجع تجربتها: «لقد واجهتنا مشكلة أنه حين وصلنا إلى مرحلة كلنا هيئة التحرير دخلت الناس كلها، بينما لم تكن توجد العناصر القيادية التي تعمل وتوجه».

كانت المشكلة الأكبر ـ بنص كلامه في اجتماع قيادي بالاتحاد الاشتراكي ضمه كتيب صغير محدود التوزيع عنوانه «مفهوم العمل السياسي» أن «الثورة لم تقم على تنظيم شعبي لكنها قامت على عدد قليل من ضباط الجيش».

لم تكن «هيئة التحرير» بتكوينها وأهدافها مرشحة لاختراق يعتد به في العمل السياسي.

ضمت بعض الوجوه القديمة مثل «علي ماهر»، وبعض الوجوه صاحبة شعبية مثل الكاتب الصحفي «فكري أباظة»، أو لها هيبة مثل وزير الخارجية الوفدي «محمد صلاح الدين»، صاحب المواقف الصلبة في المفاوضات مع السلطات البريطانية.

غير أنهم سرعان ما خرجوا وحلت الهيئة ليأتي بعدها ثاني تنظيمات «يوليو» «الاتحاد القومي» عام (١٩٥٧)، الذي أخفق في الاضطلاع بأي أدوار لها قيمة وتأثير فترة المد الوحدوي.

لكل حدث سياق تاريخي يحكمه وأسباب تفضي إليه.

كانت فكرة «الحزب الواحد» في ذلك الوقت شائعة في العالم الثالث، الذي بدأ يطلب التحرر الوطني بعد أن صمتت مدافع الحرب العالمية الثانية، ونشأ نظام دولي جديد ثنائي القطبية وجرت استقطابات إستراتيجية وأيديولوجية على خلفية الانقسام بين معسكرين - غربي وشرقي، أو رأسمالي واشتراكي.

فكرة الحزب الواحد، أو الجبهة الوطنية الموحدة، ثقافة عصر بكل تحدياته وصراعاته واستقطاباته.

كان نصف البشرية - على الأقل - ينتهج هذه النظرة؛ طلبًا للتحرر الوطني، أو التحول الاجتماعي داخلًا فيها الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية في أوروبا الشرقية والتجربة الصينية الوليدة بعد انتصار ثورتها نهاية أربعينيات القرن الماضي، وحركات التحرير في القارة الإفريقية.

شاعت الفكرة في تجارب عربية أهمها جبهة التحرير الوطني الجزائري، التي قادت الثورة وأنجزت في الحكم قبل أن تتقوض بنيتها، كما تقوضت كل البنى المماثلة، تحت وطأة المتغيرات والحقائق الجديدة التي بدأت تطل على العالم كعواصف.

(٥)

بتداعيات الحوادث وصلت «يوليو» إلى أزمة مارس (١٩٥٤).

كان الصدام محتمًا ولا سبيل إلى تجنبه.

كأي أزمة بهذا الحجم والأثر تناقضت الروايات بين أبطالها حسب مواقعهم على حلبتها.

غابت - تقريبًا - أي قراءة تطلب أكبر قدر من الحقيقة وأقل قدر من الادعاء.

سؤال مارس ما زال يلقي بظلاله على السجال العام في مصر حتى الآن: إلى أي حد يتحمل «عبد الناصر» مسئولية ما أفضت إليه الحوادث على مدى عقود طويلة من تهميش للتنوع السياسي واستئثار بالسلطة، برغم اختلاف العصور والرئاسات التي حلت بعده؟

السؤال - بنصه - مشكلة في الحاضر.

والسؤال - بظلاله - تفسير للتاريخ خارج سياق ظروفه.

قيل إن أزمة مارس فرصة للديمقراطية أُجهضت.

لم يكن ذلك التوصيف صحيحًا ولا دقيقًا بالنظر إلى سياق وظروف وطبيعة الأزمة، التي تكاد تتلخص أساسًا وقبل أي شيء ـ في صراعات السلطة.

كان إعدام العاملين «خميس» و«البقري» يوم (١٣) أغسطس (١٩٥٢) إثر احتجاجات لحقتها اضطرابات في مصانع «كفر الدوار»، حكمًا جائرًا وافق على تنفيذه مجلس قيادة الثورة، فيما اعترض ثلاثة عليه ـ والتحديد هنا ضروري: «خالد محيي الدين» و«يوسف صديق» و«جمال عبد الناصر».

الأولان ينتميان تاريخيًّا إلى «حدتو»، التنظيم اليساري الذي نظم الإضراب، فيما كانت دوافع «عبد الناصر» سياسية وأخلاقية خشية أن تغرق الثورة في الدماء.

بالمعلومات الثابتة أقر اللواء «محمد نجيب» حكم إعدام «خميس» و«البقري» بغير حق، ووضع توقيعه على قرارات اعتقال بعضها بغير ضرورة، وأصدر باسمه قانون إلغاء الأحزاب بغير تردد، ووضع «مصطفى النحاس» زعيم الوفد قيد الإقامة الجبرية، وترأس «هيئة التحرير» التنظيم الواحد بغير ممانعة.

لم يكن وحده من أقر وأصدر مثل هذه القرارات، ولا «عبد الناصر» كان بعيدًا عنها.

لم تنشأ ذرائع الديمقراطية في إدارة صراع السلطة، إلا بعد أن جرى تهميش اللواء «نجيب»، والشروع في عزله.

استقال «نجيب» بتحريض من نائب رئيس الوزراء المستشار «سليمان حافظ»؛ حتى «توضع الأمور في نصابها».

تسرع مجلس القيادة في قبولها، وكان ذلك تقديرًا عصبيًّا أربك الوضع العام حتى اضطرته تداعياته إلى إعلان عودة «نجيب» إلى منصبه.

لا يمكن أن تحسب بعض القوى التي أيدت «نجيب» على أي توجه ديمقراطي مثل جماعة «الإخوان المسلمين»، التي استثنتها الثورة ـ لأسباب تكتيكية ـ من قرار حل الأحزاب دون أن تعترض على ذلك الحل، بل أيدته في بيان معلن.

بأثر تمرد ضباط سلاح الفرسان، و«خالد محيي الدين» على رأسه، أعلن مجلس قيادة الثورة قرارات (٥) مارس (١٩٥٤)، التي تقضي بالعودة إلى الحياة النيابية وانتخاب جمعية تأسيسية تضع دستورًا جديدًا، وإلغاء الأحكام العرفية والرقابة على الصحف.

لم تشر القرارات إلى عودة الأحزاب، بل استبعدتها من انتخابات الجمعية التأسيسية، كما تجنب التمرد العسكري في سلاح الفرسان أي إشارة إلى الأحزاب وعودتها خشية خسارة الجمهور العام، الذي فقد ثقته فيها.

ثم صدرت قرارات أخرى في (٢٥) مارس تقضي بإعادة الحياة النيابية، وإقامة جمهورية برلمانية، وعودة اللواء «نجيب» إلى رئاسة الجمهورية، وتشكيل حكومة انتقالية لمدة ستة أشهر برئاسة «خالد محيي الدين» تجرى انتخابات الجمعية التأسيسية.

أضاف «عبد الناصر» إلى تلك القرارات فقرة واحدة تعلن «حل» مجلس قيادة الثورة وعودة «الضباط الأحرار» إلى وحداتهم العسكرية.

كانت تلك الفقرة ـ مقصودة أو غير مقصودة ـ نقطة انقلاب حاسمة في مسار أزمة مارس، فقد استفزت أسلحة الجيش بأغلب قطاعاته وحسم الأمر نهائيًّا.

في شهادة لـ«خالد محيي الدين» عن الأخطاء التي ارتكبت وأفضت إلى هزيمة المعسكر الذي يقف فيه: «الإيحاء بعودة الأحزاب القديمة على حساب الثورة دون أن يكون هناك إيضاح بأن المطلوب ديمقراطية جديدة مغايرة تمامًا لما كان قبل يوليو»، و«الهجوم على الجيش ـ كجيش ـ بما أثار حفيظة الضباط ودعاهم للتكتل خلف جمال عبد الناصر».

بنظرة إلى ما كان يجري داخل الجيش من اعتصامات واحتجاجات على استئثار مجلس القيادة بكل السلطات، فإنه موضوع سلطة لا قضية ديمقراطية.

حسب ما هو ثابت تراجع الضبط والربط العسكريان، وارتفعت أصوات قبل تفاقم الأزمة داخل سلاح المدفعية تدعو إلى انتخاب القيادة بالتصويت داخل الجيش، وجرت اعتقالات استفزت رفاق سلاح، وبدا المشهد كله موحيًا بانقلابات عسكرية محتملة شرع بعضها في الحركة.

كان السيناريو الأخطر انجراف الجيش إلى اقتتالات داخلية.

بحكم طبيعة تكوين «الضباط الأحرار»، لم تندرج عضويته في رؤية سياسية وفكرية واحدة باستثناء مبادئ عامة تصلح للتجنيد والضم، لكنها لا تفي بمواجهة احتياجات إدارة الدولة على نحو يتسق مع طلب التغيير ولا طبيعته ومداه.

تشققت صفوف بدت موحدة ونشأت صراعات كانت مؤجلة.

لم تكن قيادة التنظيم مرشحة لإدارة كفؤة، وسادتها حالة ارتباك فادحة باستثناء «جمال عبد الناصر»، الذي أدار بثبات أعصاب الأزمة، قبل أن يدخل على خطها الصف الثاني من «الضباط الأحرار» بوازع الولاء لمؤسس التنظيم دون أن يطلب منهم، أو يوحي إليهم بأي تصرف.

حوصر سلاح الفرسان وحلقت طائرات حربية فوقه، ومنع إذاعة بيان باسم مجلس قيادة الثورة يعلن حله، وجرى توقيف اللواء «نجيب» وحسم الصراع بقوة السلاح، لكنه يجب ألا يغيب عن الذاكرة أنه سلاح مقابل سلاح.

وفق الوثائق المتاحة الآن كان رئيس الوزراء البريطاني «ونستون تشرشل» يتابع باهتمام ما يجري في مصر، ويسأل عن إحياء الخطة «روديو»، التي وضعت قواتها تحت التأهب والاستعداد للتدخل باحتلال الدلتا وصولًا إلى القاهرة.

وقد أغارت في (٢٨) فبراير قبل الأزمة بأيام القوات الإسرائيلية على قطاع غزة، التي كانت تقع وقتها تحت الإدارة المصرية.

كانت تلك إشارة أخرى لكنها معلنة إلى الخطر المحدق عند الحدود الشرقية.

أي قراءة لأزمة مارس خارج ظروفها وسياقها تهاويم في الفضاء.

(٦)

بتداعيات أزمة مارس خرج «خالد محيي الدين» من مجلس قيادة الثورة.

بتكوينه السياسي والإنساني شخصيته فريدة، «يساري» و«صوفي»، حارب في فلسطين وشارك في تأسيس «الضباط الأحرار»، اختلف مع «جمال عبد الناصر»، عاد ليعمل معه ودافع عن تجربته بعد رحيله، عارض «الانفتاح الاقتصادي» (١٩٧٤) ودعّم «انتفاضة الخبز» (١٩٧٧) وناهض اتفاقيتي «كامب ديفيد» (١٩٧٨) وقاوم التطبيع مع إسرائيل من موقعه في رئاسة حزب «التجمع»، ووصف نفسه في ذروة الصدام مع نظام «أنور السادات» في مؤتمر مفتوح بـ«أنا ناصري».

لا يمكن تلخيص «خالد محيي الدين»، آخر من رحل من قيادات ثورة «يوليو»، في مشهد واحد وسؤال واحد.

الأكثر إثارة أن «كمال الدين رفعت» الرجل الثاني في تأسيس حزب «التجمع» بجوار «خالد محيي الدين» كان على رأس الصف الثاني من «الضباط الأحرار»، الذين حسموا صراع السلطة لصالح «عبد الناصر».

لم يمنع اختلاف موقع الرجلين في «أزمة مارس» أن يجتمعا مرة أخرى؛ للدفاع عن ثورة «يوليو» وخياراتها الرئيسة.

في قصة أزمة مارس أسئلة مكتومة أهمها: هل راجع «خالد محيي الدين» موقفه؟ وكيف نظر إليها مع تعاقب العقود والأزمان واختلاف الرجال والسياسات؟

حسب نصوص مذكراته «الآن أتكلم» لم يحدث أي تعديل جوهري على موقفه، ولا أفصح عن إعادة نظر.

وحسب شهادته، التي تضمنها كتاب «أحمد حمروش» «شهود يوليو»، لم يشر إلى أي مراجعة.

غير أن هناك شهادات متواترة نسبت إليه مثل هذه المراجعة.

بين هذه الشهادات ما استمع إليه نائب رئيس الوزراء الأسبق الدكتور «حسام عيسى» عام (١٩٦٥) من حوار بين عضو مجلس قيادة ثورة يوليو «خالد محيي الدين» وعالم الاجتماع المرموق في «المركز القومي الفرنسي للبحوث العلمية» الدكتور «أنور عبد الملك» في أثناء تناول العشاء في بيت الأخير بالعاصمة الفرنسية باريس.

كان «حسام عيسى» يدرس درجة الدكتوراه في القانون بجامعة السوربون وأحد أقرب تلاميذ الدكتور «أنور عبد الملك»، الذي رأى أن يحضر معهما العشاء حتى يتسنى له التعرف على الزعيم اليساري القادم من القاهرة.

فيما كان «خالد» يتصفح مكتبة العالم الكبير ومضيفه يشرف على إعداد الطعام في المطبخ أخذ يروي على مسامعه رواية مثيرة حدثت في صباح ذلك اليوم، وكان «حسام عيسى» يتابع الحوار بين صديقين.

فيما رواه «خالد» أنه التقى «أحمد أبو الفتح» وهو صحفي مصري شهير مغضوب عليه أسس إذاعة «مصر الحرة» في أثناء حرب السويس عام (١٩٥٦) بتمويل فرنسي- بريطاني.

بادره «أبو الفتح»: «أنت من أبطال الديمقراطية في أزمة مارس».

رد عليه: «أريد أن أقول لك يا أحمد إن عبد الناصر اتخذ الموقف الصحيح وكنت أنا على خطأ».

لكل شهادة ظروفها وسياقها، وربما قال «خالد» ما قال خشية أن تؤول الواقعة على نحو يسيء إليه.

وربما كانت تلك قناعته فعلًا في الوقت الذي قيلت فيه بأثر ما أنجزته «يوليو» والتحولات التي أحدثتها والمعارك التي خاضتها.

وبين هذه الشهادات رواية تؤكد المعنى نفسه، حرفيًا تقريبًا كتبها الصحفي والإعلامي بالتلفزيون المصري «صلاح صابر»، العضو السابق في أمانة اتحاد الشباب التقدمي - الجناح الشبابي لحزب التجمع الذي أسسه وترأسه «خالد محيي الدين».

كان ذلك في إحدى ليالي صيف (١٩٩١)، وكانت قد مرت عقود طويلة على رحيل «عبد الناصر» واغتيال «السادات».

حسب الشهادة المكتوبة كان هناك في ذلك الوقت معسكر تنظيمي للقيادات الشابة في حزب «التجمع» بمدينة الإسماعيلية شارك فيه زعيم الحزب.

كان الموضوع الرئيس إقرار مشروع لائحة جديدة للاتحاد والنقاش في بعض بنودها المثيرة للاعتراضات.

في ذلك اللقاء ركز «خالد» على أهمية مراجعة المواقف السياسية بشكل نقدي، مستشهدًا بموقفه في أزمة مارس.

قال: «كان موقفي وقتها مبدئيًّا انحيازًا للديمقراطية غير أنه ثبت لي أن موقف عبد الناصر هو الأصح، ولو عاد بي الزمن ما اتخذته؛ فقد كان خاطئًا».

بنص الشهادة المكتوبة: «سألت عددًا من زملائي ممن شاركوني أمسية المعسكر في تلك الليلة، بعضهم اعتذر لنسيانه الأمر بسبب قدم الحدث، فيما وافقني آخرون».

بعض من ذكر أسماءهم تأكيدًا على دقة الرواية شخصيات عامة الآن تملك أن تتكلم وتروي.

هناك شهادات أخرى لشخصيات اقتربت من زعيم حزب التجمع واستمعت منه في جلسات خاصة لم يتسنَّ أن ينشر فحواها بالعلن.

لماذا لم يطرح «خالد محيي الدين» مراجعاته في مذكراته المعتمدة؟

ربما لأن الذي صاغها هو الدكتور «رفعت السعيد» أقرب معاونيه وخليفته المختار في رئاسة الحزب، وأنه قد غلب تقديره السياسي على اعتبار المراجعة.

أيًّا ما كانت الحقيقة فإن الموقف الذي اتخذه «عبد الناصر» كان انحيازًا لمشروع الثورة والمضي قدمًا في تغيير البيئة الطبقية والتوجهات الإستراتيجية في الإقليم.

للثورات منطقها وسياقاتها.

وهذا ما يجب ألا ننساه عند قراءة تاريخنا.

(٧)

فيما خرج «خالد محيي الدين» مبعدًا إلى سويسرا تعرض «يوسف صديق»، عضو مجلس قيادة الثورة لمحن إنسانية إبعادًا واعتقالًا ووضعًا قيد الإقامة الجبرية.

شخصيته تملكتها روح شاعر، «يساري» انضم إلى «حدتو» مثل «خالد»، وحكمته النظرة نفسها في أزمة مارس، استقال في سبتمبر (١٩٥٤) من مجلس قيادة الثورة.

في أثناء محنته الإنسانية هجا قائد «يوليو» بأقسى الأوصاف:

«لبست المسوخ وضللتنا

ولما حكمت كشفت الفتون».

عندما بدأ العدوان الثلاثي على مصر عام (١٩٥٦) التأمت الجراح بين رفاق افترقوا، وبدا القتال بشرف معنى الحياة نفسها.

هرع «يوسف صديق» إلى ارتداء ملابسه العسكرية للتطوع في الحرب وقرر «عبد الناصر» رفع الإقامة الجبرية عنه، ووضع تحت إمرته ضباطًا ومعلمين عسكريين وسلاحًا روسيًّا حديثًا لتدريب المتطوعين.

«الله أكبر يا جمال جمعتنا
والعهد دون الحق أن نستشهدا
فاضرب وراءك أمة إن تدعها
لتسابقت واستعذبت طعم الردى».

عند رحيل «عبد الناصر» كتب أجمل وآخر قصائده قبل أن يرحل بدوره عام (١٩٧٥):

«أبا الثوار هل سامحت دمعي
يفيض وصوت نعيك ملء سمعي؟
وكنا قد تعاهدنا قديمًا
على ترك الدموع لذات روعِ»
«بكتك عيون أهل الأرض حولي
فكيف أصون بين الناس دمعي؟».

من مفارقات «يوليو» أن الرجل الذي أنقذ الثورة من فشل محقق باقتحام قواته مقر القيادة في «كوبري القبة» ليلة (٢٣) يوليو قبل الموعد المحدد بساعة، والقبض على كل من فيه من قيادات، ذهب إلى ظل النسيان بلا إنصاف يستحقه، فيما صعد رجل آخر هو «أنور السادات» ارتاد تلك الليلة مع السيدة حرمه إحدى دور السينما واحتفظ معه بتذكرتي الدخول حتى يثبت إذا ما فشل التحرك العسكري أنه لم يكن طرفًا فيه.

مثل تلك المفارقات تحدث كثيرًا في الثورات والتحولات الكبرى.

من مصادفات القدر أن «يوسف صديق» ارتكب في تلك الليلة خطأً جسيمًا في موعد التحرك لأسباب تضاربت رواياتها، غير أن هذا الخطأ تسبب في نجاح الحركة، فقد تسربت معلومات إلى القصر الملكي عن انقلاب يوشك أن يبدأ، وهرعت الرتب العسكرية العليا إلى مقر القيادة لاتخاذ ما يلزم من إجراءات تُحبط أي تحرك وتقبض على المنضوين فيه.

بالنظر إلى ذلك الدور ضم «يوسف صديق» إلى مجلس قيادة الثورة.

إنصاف «يوسف صديق» أمر مستحق وقصته بكل تعرجاتها ومعاناتها وصدق مشاعرها واحدة من تراجيديات ثورة يوليو، وقد لخصها نجله اللواء «حسين صديق» في جملة واحدة بمقال منشور: «بطلي جمال عبد الناصر وأبي يوسف صديق».

تكاد صورته أن تقارب في ظروف وأزمان مختلفة صورة «محمود سامي البارودي»، رئيس حكومة الثورة العرابية المجهضة، الذي تعرض للنفي والمعاناة.

كلاهما ضابط وطني شارك في ثورة حقيقية وشاعر حالم بعالم جديد.

وكلاهما يستحق أن يوصف بـ«رب السيف والقلم».

في رواية «١٩٥٢» لـ«جميل عطية إبراهيم»، وهي تروي أجواء «يوليو» من حريق القاهرة إلى أزمة مارس من نظر «حدتو» لخص سؤال واحد وقع الصدام ومفارقاته: «هل طبع هذا المنشور على ذات الطباعة التي طبعت بها منشورات الضباط الأحرار؟».

وجه ذلك السؤال ضابط الاعتقال لأحد كوادر «حدتو»، وهو يمسك بيديه منشورًا يدين إعدام «خميس» و«البقري».

افترقت طرق وأودع حلفاء سابقون السجون لخمس سنوات متصلة، لكنهم فيما بعد، بمن فيهم مؤلف الرواية، دافعوا عن «عبد الناصر» وخياراته ومعاركه عندما شنت عليه حملات ضارية في السبعينيات.

(٨)

كانت قصة «أزمة مارس» بكل ما جرى فيها وما احتوته من صدامات ومفارقات، تعبيرًا عن مخاض عسير في بحث «يوليو» عن طريق.

ككل مخاض مماثل بدت الأحوال والمشاعر والتصرفات مضطربة.

في مثل تلك الأحوال جرت واقعتان لهما وقع ثقيل.

الأولى ـ حين نظمت «هيئة التحرير» إضرابًا للمواصلات العامة دعمًا للثورة، التي كانت قد ألغت الفصل التعسفي للعمال، وتحركت «حدتو» بوزن حضورها العمالي لمحاولة إجهاض ذلك الإضراب.

تواترت معلومات عن ضخ أموال في تنظيم إضراب المواصلات العامة حتى يعود مجلس قيادة الثورة عن قرارات (٢٥) مارس، التي حلته.

ضخمت أحجام الأموال حتى قيل ـ بمبالغة مفرطة ـ إنها خمسة ملايين جنيه، بينما أكد «إبراهيم الطحاوي» سكرتير عام مساعد «هيئة التحرير» أنها في حدود ألفي جنيه.

تفاوتت الأرقام بين شاهد وآخر.

يقال ـ عادة ـ في أزمات كسر العظام: إن كل شيء مباح، الضرب فوق الحزام وتحته.

كانت الناس مع الثورة بقدر ما أنجزت وبشرت بعالم أكثر عدلًا في مجتمع يطحنه الفقر المزمن، ولم تكن في حاجة لمثل هذه التصرفات.

والثانية ـ الاعتداء على الفقيه القانوني المستشار «عبد الرزاق السنهوري»، من متظاهرين حاصروا مجلس الدولة، الذي يترأسه.

تعددت الروايات، أغلبها يؤكد الاعتداء، وبعضها يقول إنه سقط بالتدافع حوله.

في الروايتين المتناقضتين كان ذلك مما لا يقبل بحق منصبه وقيمته كأهم قانوني عربي في التاريخ الحديث، فضلًا عن أنه ـ من حيث المعنى العام ـ لا يقبل بحق أي صاحب رأي مهما اختلف.

(٩)

إنصاف أدوار الرجال على مسارح الأحداث الكبرى قضية سياسية وأخلاقية تكتسب ضروراتها من سلامة الذاكرة العامة.

هذه مسألة تختلف جذريًا عن تصفية الحسابات بطلب الثأر لأهداف لا صلة لها بأي إنصاف.

لم تكن الحملات المتصلة على «جمال عبد الناصر» فرقعات إعلامية وسياسية في الهواء السياسي، بقدر ما كانت تسويغًا لما طلبته إدارات أمريكية متعاقبة من أن تكون «يوليو» آخر الثورات و«عبد الناصر» آخر الزعماء و«أكتوبر» آخر الحروب ــ والوثائق حاضرة لمن يريد أن يقرأ، ومن بينها ما كتبه وزير الخارجية الأمريكي الأسبق «هنري كيسنجر».

بأي نظر موضوعي فإن اللواء «محمد نجيب» ضابط وطني مصري، حارب في فلسطين وجُرح ثلاث مرات ونال أوسمة على شجاعته وتمتع بخصال شخصية أكسبته ثقة «الضباط الأحرار».

مما يحسب له تحمله مسئولية الموقف الصعب ليلة (٢٣) يوليو، الذي كان ممكنًا أن يدفع ثمنه حياته مع «عبد الناصر» ورفاقه.

لم يكن مؤسس تنظيم «الضباط الأحرار» ولا قائده، ولم يحضر اجتماعًا واحدًا لهيئته التأسيسية قبل الثورة، كما لم يكن صاحب خطة التحرك التي حددت ساعة الصفر، لكن اسمه على رأس الحركة ساعدها على اكتساب ثقة المجتمع بما يتمتع به من سمعة طيبة.

كانت معضلة «الضباط الأحرار»، الذين أطاحوا بالنظام الملكي المتهاوي، أن قائدهم «عبد الناصر» في الرابعة والثلاثين من عمره ورتبته «بكباشي»، وهو أمر يصعب تقبله من مجتمع تقليدي يضع للسن اعتبارها في تولي المسئولية العامة.

هذا كله صحيح وثابت ويستحق «نجيب» بمتقضى حقائقه إنصاف دوره، غير أن أي إنصاف له إطار وسياق، وإلا فإنه اعتداء على الحقائق ومبالغة فيما لا يصح أن يبالغ فيه.

كانت أزمة مارس صدامًا محتمًا بين رجلين وتوجهين، فـ«نجيب» واجهة الثورة، التي ضمنت نجاحها بالنظر إلى رتبته الكبيرة والشعبية التي حازها، وهو عسكري قبل أن يكون سياسيًّا ونظرته العامة محافظة، و«عبد الناصر» قائد «الضباط الأحرار»، وهو سياسي قبل أن يكون عسكريًّا ونزعته ثورية، برغم أنها لم تكن قد استكملت ملامحها.

لم يكن اللواء «نجيب» الاسم الوحيد الذي فكر فيه ثوار «يوليو» ليكون واجهتها، فقد جرى التفكير في قائد عسكري آخر من قيادات حرب فلسطين يتمتع بقوة الشخصية، هو اللواء «فؤاد صادق»، غير أنه أجفل عن قبول المهمة التي قد تكون نتائجها وخيمة.

بحسب رواية غير مؤكدة فإن الاقتراح نفسه عرض على الفريق «عزيز المصري»، لكنه اعتذر بسبب تقاعده منذ فترة طويلة.

كان «نجيب»، هو الخيار الأفضل بالنسبة إلى «عبد الناصر» والأكثر استعدادًا في الوقت نفسه لتصدر الحركة.

«عبد الناصر»، اختار و«نجيب» وافق ـ وتحددت مصائر اللعبة بعد ذلك على هذا الأساس.

القائد الحقيقي ليس هو القائد الواجهة والرجل القوي ليس هو الرئيس المعلن.

برواية الكاتب الفرنسي «جان لاكوتير»، الذي اقترب من «يوليو» وأحداثها، تابعها وأرّخ لبعض صفحاتها المجهولة:

«ها هما القائدان، الجنرال ذو البايب والكولونيل حزين النظرات، يتواجهان. فنجيب الذي لم يكن إلا عامل الساعة الحادية عشرة بلغت شعبيته حدًّا جعلته يفكر

في استخدامها.. كان يعتقد بأن الجيش يجب أن يلعب فقط دور الرافعة ليترك مكانه بعد ذلك للمدنيين.. أما بالنسبة إلى عبد الناصر وقد كان يقولها لنا بوضوح فإن الطبقة السياسية كانت بأكملها مهترئة والنظام الانتخابي لو أعيد لكان قد أدى إلى عودة الإقطاع».

في البحث عن طريق بدا الصدام محتمًا بين رجلين وخيارين.

لم يكن «عبد الناصر» متآمرًا، ولا كان «نجيب» ملاكًا.

وقد ورد في التحقيقات، التي أجريت مع المتورطين من جماعة الإخوان المسلمين في محاولة اغتيال «عبد الناصر» عام (١٩٥٤)، أن الرئيس «نجيب» كان على علم مسبق بما خطط له، لكنه طلب عدم ذكر اسمه إذا لم تنجح المحاولة خشية ردات الفعل.

أكد مسلسل «الجماعة ـ ٢»، للمؤلف «وحيد حامد» الواقعة التاريخية، وأهمية تأكيده ترجع أساسًا إلى ما أبداه من عدم تعاطف مع «عبد الناصر».

الوثائق الكاملة للتحقيقات، التي تثبت التورط، مودعة في أرشيف رئاسة الجمهورية ـ حسب تأكيدات «سامي شرف»، الرجل الذي كانت في عهدته تلك التحقيقات.

حسب شهادة للمؤرخ «جمال شقرة» فإن اللواء «نجيب» صارحه في لقاء بينهما: «كنت ساذجًا عندما صدقت الإخوان».

كما اعترف لنفس المؤرخ بأنه «أعطى تطمينات شفاهية للأمريكيين بالسلام مع إسرائيل».

بعض من كانوا حول «نجيب» في مكتبه ينفون قطعيًا أي تورط من هذا النوع.

لم تجرِ أي محاكمة له تقديرًا لدوره في تصدر مشاهد الثورة الأولى، ولا شُهر به على صفحات الجرائد.

طويت صفحته وغاب ذكره وأودع تحت الإقامة الجبرية في قصر بالمرج تملكه السيدة «زينب الوكيل»، حرم «مصطفى النحاس».

بنظرة منصفة فقد كان يستحق بعد مضي عدد من السنين عفوًا وتسامحًا ورد اعتبار في حدوده خصوصًا بعد اكتساب «عبد الناصر» شعبية لا مثيل لها في التاريخ الحديث، وتثبيت أركان حكمه إثر حرب السويس (١٩٥٦) وخروج مصر دولة كبرى في إقليمها وقارتها وعالمها بعد فشل العدوان الثلاثي عليها.

وكان «النحاس» يستحق تكريمًا لعطائه الوطني، الذي أكسبه شعبية لا شك فيها لعقود طويلة، بغض النظر عن افتراق الطرق.

لماذا لا تنشر الوثائق المودعة في أرشيف رئاسة الجمهورية، حتى يمكن قراءة التاريخ والحكم عليه بصورة موضوعية ودقيقة؟

هذا سؤال جوهري يدخل في صميم أغلب الملفات الملغومة والملتبسة والمعلقة على أهواء.

يتبدى ـ هنا ـ سؤال افتراضي: ما الذي كان يمكن أن يفعله اللواء «نجيب» بمجلس قيادة الثورة إذا ما قدر له حسم السلطة بدعم من الإخوان المسلمين؟

التاريخ لا يعرف الأسئلة الافتراضية وصراعات السلطة لا تعرف الرحمة.

الإجابة المرجحة: التنكيل المفرط.

هل كان يمكن أن تكون هناك ديمقراطية تعددية مع الأفكار الشائعة لجماعة «الإخوان المسلمين»، التي تناهض الفكرة من أصولها إذا ما قدر لـ«نجيب» أن ينتصر في صراع السلطة؟

أي إجابة مستخفة معبر إلى مجهول معتم.

بتلخيص ما لمجمل الصورة فإن دور «نجيب» كواجهة لـ«يوليو» يتوقف عند تحمل مسئولية الحركة في لحظة «الانقلاب».

عندما صدرت في بيروت الطبعة الأولى من مذكراته بدت انتقاداته بالغة الحدة للأخوين «مصطفى» و«علي أمين»، غير أنه في طبعتها المصرية حذف كل هذه الانتقادات، فقد تغيرت الظروف وصعد دور التوأم الصحفي الشهير بعد إطاحة رئيس تحرير «الأهرام» «محمد حسنين هيكل» كما قارن ودقق «صلاح عيسى» في كتابه «مثقفون وعسكر».

التاريخ لا يكتب بالهوى والاصطناع وذلك يسحب من قيمة المذكرات.

ما تحتاجه مصر أن تقرأ تاريخها بموضوعية، وأن تنصف نفسها أولًا بكل ما خاضته من معارك وبذلته من تضحيات؛ حتى تستحق أن يرتفع من جديد ذكرها.

(١٠)

وكان السؤال الخامس، الذي اعترض «يوليو» في أيامها الأولى: «الجلاء» متى؟ وكيف؟

لم تكن الإجابة تحتمل تسويفًا ولا تأجيلًا بالنظر إلا أن قضية الجلاء المحرك الأكثر جوهرية لما جرى من تغيير في بنية الحكم.

جرت اقترابات لجس النبض وطُرح على القيادة الجديدة مشروع دفاعي ضد الاتحاد السوفيتي من مسئولين أمريكيين.

كان من رأي «نجيب»: «لا يمكن أن نقبل ما رفضه الوفد».

وكان من رأي «عبد الناصر»: «لا نستطيع أن نفكر إطلاقًا في ذلك المشروع، فالاتحاد السوفيتي يبعد عنا خمسة آلاف ميل، بينما الاحتلال البريطاني قواعده موجودة وتهدد».

على مدى خمسة عشر عامًا هيمنت معاهدة (١٩٣٦) ونصوصها والتنازلات التي احتوتها على المجال العام المصري، الذي طلب الجلاء كاملًا دون أن يحصل عليه.

بموجب معاهدة (١٩٣٦) ألزمت مصر تقديم كل التسهيلات والمساعدات للقوات البريطانية في استخدام موانئها ومطاراتها وطرق المواصلات عند نشوب حرب.

برغم أن قوات الاحتلال انسحبت إلى معسكرات وقواعد بقناة السويس، فإنها احتفظت بحقوق السيادة، كما تجلى ذلك في حصار دباباتها عام (١٩٤٢) لقصر عابدين.

في تلك الأيام كتب أحد الصحفيين الكبار: «ألعن المعاهدة وأقبلها».

رد عليه صحفي كبير آخر: «إذا كنت تلعنها فلماذا تقبلها؟».

النصوص أُتيحت في وقتها والاعتراضات سجلت بلا إبطاء.

وهو ما جرى عند توقيع اتفاقيتين أخريين بين عامي (١٩٥٣) و(١٩٥٤) ـ اتفاقية تقرير مصير السودان واتفاقية الجلاء، وكلتاهما أثارت تحفظات وانتقادات وتساؤلات.

بموجب اتفاقية تقرير مصير السودان، التي وقعها اللواء «نجيب» مع السفير البريطاني في القاهرة السير «رالف ستيفنسون»، ولم يكن «جمال عبد الناصر» من ضمن فريقها المفاوض، تقرر انسحاب القوات المصرية والبريطانية فور صدور قرار من البرلمان السوداني برغبته في الشروع باتخاذ تدابير تقرير المصير.

كان أمام الجمعية التأسيسية السودانية الاختيار بين الارتباط بمصر على أي صورة، أو الاستقلال التام.

وكان استقلال السودان (١٩٥٦) صدمة كبيرة في مصر أسندت مسئوليتها إلى «جمال عبد الناصر» دون تدبر وإنصاف.

استقر لعقود طويلة في الخطاب العام مفهوم «السيادة المصرية على السودان»، دون التفات إلى أن العالم قد تغير، والسودان تغير، وحل محله مفهوم آخر هو «وحدة وادي النيل تحت التاج المصري» ترتيبًا على معاهدة (١٩٣٦).

كان السؤال الرئيس: ما الطريقة التي تتحقق بها الوحدة؟ هل من خلال المفاوضات بين دولتي الحكم الثنائي، وهو ما تمسك به المصريون، أم من خلال حق تقرير مصير السودانيين، وهو ما تمسك به البريطانيون؟

وفق الدكتور «يونان لبيب رزق»، فإن مصر سلمت عام (١٩٥٠) بحق تقرير المصير، حين كان الدكتور «محمد صلاح الدين» وزيرًا لخارجية حكومة «الوفد» الأخيرة، وهو رجل مشهود له بوطنيته وكفاءته.

الأسباب التي أفضت إلى استقلال السودان تتعدد وتتداخل، أهمها أن «الاتحاديين» الذين اكتسحوا انتخابات الجمعية التأسيسية صوتوا ضد الوحدة في اللحظة الأخيرة، على عكس كل التوقعات والرهانات، وحسموا الأمر في الجمعية التأسيسية دون انتظار موعد الاستفتاء الشعبي ـ حسبما نصت الاتفاقية.

وكان الدور البريطاني حاضرًا ومؤثرًا في التحريض على الاستقلال.

وقد كانت لأبهة السلطة تأثيرها على من آلت إليهم قيادة المرحلة الانتقالية على ما يؤكد ـ «يوسف الشريف» أكثر الصحفيين المصريين اقترابًا من «السودان وأهله» وفق عنوان أهم كتبه.

كما كان لحل الأحزاب وتحريض الشيوعيين الذين لم يبدوا حماسًا لحكم «الضباط الأحرار» و«الإخوان المسلمين» بعد المحاكمات التي جرت عقب محاولة اغتيال «جمال عبد الناصر» عام (١٩٥٤)، فضلًا عن أخطاء جسيمة في إدارة الملف ارتكبها «صلاح سالم» عضو مجلس قيادة الثورة أدوار فى الوصول إلى تلك النقطة غير المتوقعة.

هناك من يركز على أن عزل اللواء «نجيب»، ووالدته من أصول سودانية، هو السبب الجوهري للاستقلال.

حسب شهادته هو نفسه فإنه فوجئ عند زيارة الخرطوم في الأول من مارس (١٩٥٤) للمشاركة في افتتاح الجمعية التأسيسية بهتاف يستقبله: «لا مصري ولا بريطاني.. السودان للسوداني».

عزل «نجيب» أثر على اتجاهات القرار السوداني، لكنه لم يكن العنصر الأساسي فيه.

وقد تدخل في أسباب الاستقلال لغة التعالي التي يشتكي منها السودانيون حتى اليوم.

برغم أي أخطاء سياسية أفضت إلى تغليب خيار الاستقلال في الاستفتاء على تقرير مصير السودان، إلا أن الاستفتاء نفسه حق أصيل لا يمكن المنازعة فيه وتقبل نتائجه قيمة سياسية لا يصح التشكيك فيها.

دأبت أعداد كبيرة من السياسيين والصحفيين المصريين على وصف الاستقلال بـ«الانفصال» دون تدقيق في حمولات الأوصاف وتبعاتها؛ إذ قد ينظر إلى وصف الانفصال باعتباره إنكارًا على السودانيين أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم.

الأسوأ من ذلك كله ـ كما يلاحظ مؤرخ مدقق كالمستشار «طارق البشري»: «لم تكن للحركة الوطنية المصرية منذ مطلع القرن العشرين حركة وحدوية تستهدف توحيد مصر والسودان، لم يحاول حزب واحد أن يتكون على أساس جامع من مصريين وسودانيين، ولا حاول جادًّا أن ينشط بين السودانيين، كما ينشط بين المصريين، ولا أن يبني تشكيله من أهل البلدين معًا».

«حزب الوفد نفسه لم يدخله سوداني ولا نشط في السودان منذ نشأ حتى انتهى».

بعد استقلال السودان أطلق «عبد الناصر» جملة شاعت: «السودان المستقل قوة وسند لمصر، وهو خير من السودان الضعيف، الذي يختلف أهله حول وحدة وادي النيل».

كانت تلك الجملة تعبيرًا عن حقائق وصلات لا تحليقًا في نزعات هيمنة.

في وقت مقارب بدت اتفاقية الجلاء داعية إلى مساجلات في مصر لم تتوقف إلا بعد حرب السويس واكتسابها، لأول مرة في تاريخها الحديث، استقلالًا حقيقيًّا.

ككل الاتفاقيات التي تتعلق بالسيادة استخدمت الوثائق المصرية المتوافرة، أو التي جرى البحث عنها في الأرشيفات الدولية، لإثبات الحق.

لم تكن اتفاقية الجلاء مثالية وشابتها مثالب جوهرية.

وفق نصها: «تجلو حكومة المملكة المتحدة جلاء تامًّا عن الأراضي المصرية».. غير أنها اشترطت «في حالة وقوع هجوم مسلح على أي بلد يكون عند توقيع هذا الاتفاق طرفًا في معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية، أو على تركيا أن تقدم مصر من التسهيلات ما قد يكون لازمًا لتهيئة قاعدة قناة السويس للحرب وإدارتها إدارة فعالة».

ذلك النص استثار غضب قطاع لا يستهان به من النخب السياسية على الاتفاقية.

برغم رفع العلم المصري على قاعدة قناة السويس ونداء «ارفع رأسك يا أخي»، ظلت التساؤلات تطرح نفسها بإلحاح حتى أَمَّمَ «عبد الناصر» القناة ودخل في مواجهة عسكرية مفتوحة ضد العدوان الثلاثي.

الرجل الآخر في اتفاقية الجلاء السير «أنتوني ناتنج» وزير الدولة للشئون الخارجية البريطانية بدا ممزقًا بين مثله الأخلاقية والتزاماته الحكومية في أثناء حرب السويس فاستقال من منصبه احتجاجًا.

برغم أن مصر خرجت بعد الحرب قوة كبيرة لا يمكن تجاهلها في المعادلات الدولية، فإن بعض نتائجها بقيت غصة في الحلق، فيما يتعلق بالملاحة الإسرائيلية؛ حيث خليج «العقبة» و«تيران» و«صنافير».

انطوت معاهدة (١٩٣٦) واتفاقية (١٩٥٣) على إجراءات تنال من السيادة والفارق بينهما ـ بملاحظة ثاقبة للمستشار «طارق البشري» «لم تكن في النصوص بقدر ما كانت في الأرض، التي تحركت عليها النصوص، وفي الأيدي التي تحركها، وفي تغيير الأوضاع الاجتماعية والسياسية، على التحديد طرد الملك وإلغاء النظام الملكي وتحديد الملكية الزراعية».

وقعت اتفاقية الجلاء في (١٩) أكتوبر (١٩٥٤) بعد حسم الصراع على السلطة.

في (١٨) يونيو (١٩٥٦) أُجليَ آخر جندي بريطاني عن مصر غير أن الاستقلال الحقيقي لم تحصل عليه غير بالدماء التي بذلت في حرب السويس بعد تأميم الشركة العالمية لقناة السويس «شركة مساهمة مصرية» في (٢٦) يوليو من نفس العام بعد أسابيع معدودة من الجلاء.

في ذلك اليوم وجدت «يوليو» طريقها الذي كانت تبحث عنه، واكتسبت دون لبس شرعيتها الثورية.

الفصل الرابع: أدوار وأثمان

كان تأميم قناة السويس زلزالًا مدويًا في أرجاء العالم، بقدر أهميتها في التجارة الدولية وإستراتيجيات القوى الكبرى.

لم يعد هناك سر مخبوء في قصة السويس، فكل شهادات أبطالها وصناعها، وكل وثائقها ومحاضر اجتماعاتها، وكل تفاصيل الحرب التي شنت على مصر، متاحة لمن يريد أن يقرأ ويستوعب التاريخ كما هو قبل إصدار الأحكام بالتجهيل، أو التجاهل بالنسيان.

لم يكن بوسع أحد في العالم توقع تأميم قناة السويس قبل إعلانه من فوق منصة «ميدان المنشية» بالإسكندرية يوم (٢٦) يوليو (١٩٥٦)، ولا كان مطروحًا تسليم شركة قناة السويس إلى مصر بعد انتهاء عقد الامتياز عام (١٩٦٨).

لم تكن شركة تستثمر بقدر ما كانت دولة داخل الدولة.

بالوثائق المصرية والفرنسية قاد «فرديناند ديليسبس» أخطر عملية نصب في التاريخ الحديث؛ حيث امتلكت مصر (٤٤٪) من رأسمال الشركة دون أن يكون لها أي سيطرة على أمورها، فضلًا عن التضحيات الهائلة التي دفعها فلاحوها في أثناء حفر القناة تحت السخرة.

عملية النصب قننت في عقود، والتعبير نفسه استخدمه الدكتور «حسام عيسى» في أطروحته للدكتوراه من جامعة «السوربون» الفرنسية.

كان ذلك استنزافًا لموارد مصر وقدراتها المالية أسقطها في شرك الديون الخارجية، وأفضى إلى احتلالها عام (١٨٨٢) بالسلاح البريطاني.

لم تكن قناة السويس لمصر التي حفرتها على مدى ستة عشر عامًا متصلة، وفق نص التعاقد الذي أبرمه «فرديناند ديليسبس» مع الخديو «سعيد».

مات نحو مائة ألف مصري في عمليات الحفر، وهو رقم مهول بالنظر إلى عدد السكان في ذلك الوقت، نحو أربعة ملايين نسمة.

في عهد الخديو «إسماعيل» افتتحت القناة عام (١٨٦٩)، وبدا المصريون في الحفل الباذخ أقرب إلى الديكور الشعبي أمام ملوك أوروبا.

عندما يذكر تاريخ «إسماعيل» لا تبقى في الذاكرة العامة سوى الصورة الإمبراطورية التي كانت عليها احتفالات افتتاح قناة السويس.

وهذا إجحاف بحجم دوره.. فالقاهرة الحديثة هي «القاهرة الخديوية»، وإنجازاته الأخرى في البناء والتشييد لا تقل أهمية.

كانت قناة السويس أهم مشروع هندسي في العالم في القرن التاسع عشر قيدًا حديديًّا على المصير المصري، ومصر كلها رهينة للقناة حتى تمكنت من تأميمها منتصف القرن التالي.

بقرار التأميم رد اعتبار الوطنية المصرية، وتمكنت دولة من العالم الثالث من تحدي الإمبراطوريتين السابقتين البريطانية والفرنسية في صلب مصالحهما الإستراتيجية في الشرق الأوسط؛ حيث منابع النفط الذي تمر حمولاته عبر قناة السويس.

جسارة التحدي تأخذ معناها الحقيقي من سياقها في الصراع على الشرق الأوسط، فقد حاولت مصر بعد ثورة يوليو الخروج من دوائر النفوذ الاستعمارية، قاومت الأحلاف العسكرية وسياسات ملء الفراغ، كسرت احتكار التسليح بصفقة الأسلحة السوفيتية، أيدت حركات التحرير الوطني في العالم العربي، دعمت بالإعلام والسياسة والتمويل والسلاح الثورة الجزائرية، ولعبت دورًا جوهريًّا في تأسيس قوة دولية جديدة، خارج استقطاب الحرب الباردة، للدول المستقلة حديثًا في «باندونج».

السياق يشرح وينير حجم الأثر الذي خلّفه قرار تأميم قناة السويس في الحسابات الدولية والصراعات على المنطقة، ومدى دقة حساباته لمتغيرات عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية.

بالحساب التقليدي فإنه مغامرة بالمصير بعد أسابيع من جلاء آخر جندي بريطاني عن مصر قد تُفضي إلى إعادة احتلالها من جديد، أو إطاحة نظامها بانقلاب يشبه ما تعرض له قبل سنوات قليلة الزعيم الإيراني الدكتور «محمد مصدق»، بعد تأميمه بترول بلاده.

لم يكن ذلك الحساب التقليدي غائبًا عن «عبد الناصر»، وهو يُقدم على قرار يكاد يكون شبه مستحيل، لكنه قَبل «المخاطرة المحسوبة» وعرّض مستقبله وحياته للخطر الداهم؛ كسبًا لاستقلال وطني حقيقي، وأن تمتلك مصر مقاديرها وقرارها.

حسب ما هو مؤكد بالأوراق والمستندات والشهادات أخذ قرار التأميم وقته في الدراسة وجمع المعلومات، والتحضير لإدارتها بعد تأميمها.

إذا كان هناك من يعتقد أن استقلال القرار الوطني يُمنح ولا يُنتزع فهو واهم، فلكل استقلال تكاليفه وتضحياته ومعاركه.

اكتسبت مصر استقلالها الوطني الكامل في حرب السويس بفواتير الدم المبذولة وشجاعة أبنائها الذين هرعوا لحمل السلاح في مواجهة العدوان الثلاثي، البريطاني ـ الفرنسي ـ الإسرائيلي، لا بـ«اتفاقية الجلاء» التي وقّعها «عبد الناصر» نفسه عام (١٩٥٤) وانطوت على تنازلات تتيح للقوات البريطانية حق العودة لقاعدة قناة السويس، إذا ما تعرض بعض حلفائها للخطر.

تبلورت «يوليو»، وتأكدت شرعيتها الثورية في حرب السويس.

كانت الحرب نقطة الذروة في الصراع على المنطقة.

هناك من يتصور أن مصر كان يمكنها تجنب العدوان عليها، إن لم يُقدم «عبد الناصر» على قرار التأميم.

بالوثائق هذا استنتاج متعجل، فلم يكن مسموحًا لمصر بأن تتطلع لاكتساب قرارها الوطني بالتأميم، أو بغير التأميم.

بحسب تقرير استخباراتي أمريكي ـ ربيع (١٩٥٦) ـ كشف عنه «محمد حسنين هيكل» في كتابه «ملفات السويس»، فإن خطط الانقلاب والغزو وقتل «جمال عبد الناصر» سبقت قرار التأميم.

انطوى التقرير على دعوة بريطانية صريحة لاستخدام القوة المسلحة؛ لإسقاط الحكومة المصرية بالمشاركة مع إسرائيل.

لم يكن كلامًا في فضاء الاجتماعات السرية، بقدر ما كان شروعًا في تحديد الأدوار قبل التنفيذ.

كان الدور الإسرائيلي ـ وفق التصور البريطاني ـ الهجوم المباشر على غزة ومناطق الحدود الأخرى، والقيام بعمليات خاصة ضد مخزون مصر من إمدادات الذخيرة والطائرات والدبابات.

بصورة مقاربة هذا ما حدث في حرب السويس، بعد إضافة فرنسا إلى قوة العدوان، بدافع ثأرها من الدور المصري في ثورة الجزائر.

لم يكن رفض البنك الدولي تمويل مشروع بناء السد العالي، السبب الرئيس لتأميم قناة السويس بالفعل ورد الفعل.

منذ احتلال مصر وهي تتطلع إلى هذا اليوم، الذي تستعيد فيه الشعور بالكبرياء الوطنية، والقدرة على الدفاع عن حقوقها الأصلية.

فكرة التأميم لم يخترعها «جمال عبد الناصر»، ولا طرأت على رأسه فجأة.

قبل «يوليو»، ترددت دعوات متناثرة تضمنتها ـ أحيانًا ـ دراسات تتبنى هذه الخطوة، لكنها كانت أقرب إلى الأحلام البعيدة والتخيلات المحلقة.

لم يكن أحد يتصور أن يأتي هذا اليوم فعلًا، حتى إن أغلب الذين دعوا للتأميم قبل يوليو لم يحتملوا المفاجأة عندما صارحهم بها «عبد الناصر»، وهو يتأهب لإعلان قراره خشية ردات فعله.

بين الاقتراحات التي عُرضت عليه أن يقدم على «نصف تأميم» حتى لا يستثير القوى العظمى.

لم يكن مستعدًّا لأنصاف حلول وأنصاف تأميم «نأخذ حقنا كاملًا وليكن ما يكون».

الكلام عن استعادة قناة السويس دون تأميم، أو قتال، أقرب إلى الخزعبلات السياسية.

كان «شارل رو»، رئيس مجلس إدارة شركة قناة السويس واضحًا مع «شيمون بيريز» رجل «ديفيد بن جوريون»: «مطامع المصريين لا تقف عند حد، وجمال عبد الناصر هو العدو الحقيقي».

كان ذلك قبل تأميم القناة.

بعد تحدي السويس خرجت مصر قوة إقليمية عظمى، وتحولت عاصمتها القاهرة إلى أحد المراكز الدولية، التي لا يمكن تجاهلها.

بصياغة «طلال سلمان»، مؤسس صحيفة «السفير» اللبنانية: «كانت القاهرة عاصمتنا المركزية».

اكتسبت مصر أدوارها القيادية في إفريقيا بوضوح سياساتها وقدرتها على المبادرة والإسناد لتحرير القارة، كما اكتسبت أوزانًا استثنائية في عالمها الثالث بإلهام أن دولة نامية واجهت تحديًا شبه مستحيل وكسبته.

قبل التأميم وبعده لم يكف رئيس الوزراء البريطاني «أنتوني إيدن» بما يشبه الهستيريا عن طلب رأس «عبد الناصر»: «أريد أن أدمره تمامًا» «أريده جثة أمامي»، لكنه اضطر في النهاية لأن يستقيل من منصبه بعد فشله الذريع في أزمة السويس.

لم يكن «أنتوني إيدن» وحده من يطلب رأس «عبد الناصر» وتدميره كليًّا.

التقت مصالح وإستراتيجيات على نفس الهدف.

على الجانب الآخر نهضت دول العالم الثالث والقوى الحرة في الغرب لرفض العدوان وإدانته.

تحفظت الولايات المتحدة على العمل العسكري تخطيطًا وتنفيذًا من خلفها دون اعتبار أنها قد آلت إليها قيادة العالم الغربي بعد الحرب العالمية الثانية.

وكان الموقف السوفيتي حاسمًا إلى درجة التلويح برد قد لا تحتمله فرنسا وبريطانيا.

بدا العالم كله، لأسباب متناقضة، في جانب مصر.

تجلت في حرب السويس حسابات عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية وحقائق القوة فيه ومدى تأثير الحركات الاستقلالية.

بتعبير رئيس الوزراء الهندي «جواهر لال نهرو»، فالعدوان استهدف: «حرية بلد تحرر أخيرًا من الاستعمار، وهذا إلغاء للتاريخ لا يمكن التهاون معه».

في (٢٦) يوليو (١٩٥٦) ولدت زعامة «جمال عبد الناصر» بميدان المنشية، الذي تعرض فيه قبل عامين (١٩٥٤) لمحاولة اغتيال من جماعة «الإخوان المسلمين».

ألهمت صرخته من على منبر الأزهر الشريف: «الله أكبر.. سنقاتل ولن نستسلم أبدًا»، حركات التحرير في العالم الثالث.

لم تكن مصادفة أن مصر اكتسبت قيادتها للعالم العربي والقارة الإفريقية، وتقدمت لقيادة حركة عدم الانحياز بعد ملحمة الصمود في حرب السويس.

لا توجد أدوار بلا أثمان وتكاليف ومتطلبات، وأي زعم آخر تجديف في الوهم.

برغم آلاف الوثائق والشهادات والكتب التي نُشرت عن حرب السويس فإن هناك من يطلب نزع أي قيمة عن التضحيات التي بُذلت حتى يكون استقلال القرار الوطني مستحقًا.

جرى بناء السد العالي أكبر مشروع هندسي في العالم بالقرن العشرين، وبنت «يوليو» بقدر ما استطاعت مصانع ومدارس ومستشفيات وعمّرت الريف ونهضت بالطبقة الوسطى، انحازت إلى قوى الإنتاج والطبقات الأكثر حرمانًا.

المشروعات الكبرى تُقاس بنتائجها السياسية والاجتماعية كما أرقام عوائدها الاقتصادية.

هناك ما ينتقد في التجربة الاجتماعية والاقتصادية لثورة «يوليو»، فلا تجارب إنسانية تستعصي على الأخطاء.

كل نقد مشروع وطبيعي، طالما استند إلى معلومات مدققة وقراءة في الأرقام قبل إصدار الأحكام باجتهاد، غير أن تجربتها لا تضارعها أي تجربة مصرية أخرى من حيث التزامها قضية العدالة الاجتماعية وحجم الحراك الاجتماعي الذي أحدثته.

لم يكن تأميم القناة سوى خطوة في مشروع امتد إلى كل مناحي تحسين جودة الحياة، وإشاعة العدل الاجتماعي.

لم يكن هناك تخطيط اقتصادي مسبق لما بعد تأميم قناة السويس.

السياسات أخذت زخمها من قوة الفعل وحجم التطلع إلى تحسين أحوال المواطنين، وأخذت تتبلور من خطوة إلى أخرى حتى اكتسبت «يوليو» مشروعها.

(١)

لخص السيناريست «محفوظ عبد الرحمن» على لسان زعيم «يوليو» في الشريط السينمائي «ناصر ٥٦» معركة التأميم على أنها مسألة كرامة للمصريين العاديين، الذين كُتب عليهم أن يخسروا إذا لعبوا مع ابن العمدة.. وأن يضربوا إذا دخلوا في مشادات.. حتى إذا فكروا أن يمشوا بجوار الحائط لتجنب المشاكل فلن يتركوا في حالهم.

في لحظة مواجهة قرر واحد ممن أطلق عليهم كاتب السيناريو «أولاد عويس» أن يأخذ بثأر من ماتوا في أثناء حفر القناة، وأن يرفع رأسه دون أن يكون مضطرًّا أن يمشي بجوار الحائط.

تغيرت مصر تحت نيران العدوان الثلاثي.

برز بين المقاتلين شاب صغير تجاوز بالكاد السابعة عشرة من عمره، تطوع في الحرس الوطني، وتدرب على السلاح وقاد سرية صغيرة لحماية مطار الجميل في بورسعيد.

حاول بقدر ما يستطيع أن يوقف مع رفاقه المتطوعين هبوط المظليين البريطانيين بعد قصف كثيف للمطار، ألحقوا خسائر فادحة بقوات الغزو لكن لم يكن ممكنًا وقفه وسقط أسيرًا، وكان الانتقام مروعًا.

خضع لمحاكمة عسكرية ميدانية، وتقرر الحكم عليه بأغرب حكم في تاريخ الحروب، أن تنزع مقلتاه بزعم أنه تسبب بزخات رصاصه في إصابة ضابط بريطاني بالعمى حتى يمكن نقلهما إليه.

حملته طائرة حربية إلى قبرص حتى تتم تلك الجراحة، التي تخاصم القوانين الدولية على نحو فاحش في التعامل مع أسرى الحرب.

في المحاكمة الصورية قال: إنه لم يرتكب جرمًا، فقد كان يدافع عن بلده، وهذا واجبه، ورفض أن يسب «جمال عبد الناصر»، فهو رمز المقاومة الوطنية المصرية في تلك اللحظة الحاسمة، وسبه تنصل من أي معنى يجعله يحترم نفسه.

بشهامة «ابن البلد» تقبل مصيره وعاش باقي عمره ضريرًا يُطل على العالم من خلف نظارة سوداء.

فقد بصره بجريمة حرب، لكنه لم يفقد بصيرته بضمير إنسان.

«لا تصالح!
ولو منحوك الذهب
أترى حين أفقأ عينيك
ثم أثبت جوهرتين مكانهما
هل ترى..؟
هي أشياء لا تشترى».

لم يكن «أمل دنقل» حين كتب قصيدته «لا تصالح» يقصد «محمد مهران»، بقدر ما كان يطلب المعنى في عمومه أمام رياح «كامب ديفيد» التي بدأت تهب على مصر.

برغم ذلك يكاد «مهران» أن يلخص بتجربته الإنسانية ما قصده الشاعر ـ بالضبط ـ من معانٍ ورموز.

في الحرب اكتشفت مصر نفسها من جديد وبدت أمام «الباب المفتوح» وفق رواية الدكتورة «لطيفة الزيات» عن تلك الفترة والروح التي بثتها.

جرت أحداث الرواية بين عامي (١٩٤٦) حيث ولد جيل جديد صاغت تجربته حقائق ما بعد الحرب العالمية الثانية و(١٩٥٦) حيث ألهمت حرب السويس روحًا استقلالية وتحررية ونظرة مختلفة لقضية المرأة، كما لخصتها «ليلى» بطلة النص الروائي، التي تمردت على قيودها ونظرة المجتمع إلى دور المرأة، واكتسبت حقها في الحرية بالانضمام إلى الفدائيين في بورسعيد إسعافًا لجرحى وتضميدًا لآلام.

"أردت أن أقول إن طريق الخلاص هو بالارتباط بقضايا أكبر يجد الإنسان نفسه فيها» كما قالت المؤلفة.

في تجربة الحرب تأكدت حقيقة أساسية أن من يقاتلون ويدفعون فواتير الدم هم أصحاب الحق الأصيل في البلد، في الصحة والتعليم وحق العمل والترقي بالكفاءة دون تمييز بين امرأة ورجل.

عند منحنيات التاريخ الحادة قد تتلخص المعاني الكبرى في بعض الرجال.

ذات مرة قال الأديب الفرنسي «أندريه مالرو»: «إن كل فرنسي هو ديجولي في مرحلة من حياته على الأقل». المعنى أن الزعيم الفرنسي «شارل ديجول» لخص الوطنية الفرنسية في ذروة المواجهة الكبرى لتحرير فرنسا من الاحتلال النازي.

كذلك كان «عبد الناصر» في ذروة حرب السويس.

(٢)

ما معنى أن يكون هناك مشروع قومي؟

على مدى عقود اتصلت جرى تشويه ذلك المفهوم كأنه عقدة لكل من جلس على كرسي «جمال عبد الناصر».

هناك من تصوره محض مشروع اقتصادي، أو زراعي، أو صناعي كبير، تحشد من حوله الطاقات والقوى وتكتب وتلحن من أجله الأغاني ـ في طلب نفس الأثر الذي أحدثه مشروع «السد العالي» دون الخوض في معارك سياسية أو عسكرية، كالتي جرت بسببه ومن حوله.

لم يكن السد العالي سوى معركة في حرب حقيقية حول المنطقة ـ بند في مشروع، وليس كل المشروع!

كانت معركة شاملة دخل الفن طرفًا فيها.

معركة لم تصنعها «الأغاني»، بل هي التي صنعت أغانيها.

تصدر «صلاح جاهين» مشهد الأحلام الكبرى.

بقدر ما أخلص لاعتقاده أثرت أناشيده جيلًا بعد آخر، برغم ما ألَمَّ به من اكتئاب حاد بعد هزيمة «يونيو».

في أشعاره تبدت قدرات لا تتوافر لغيره تبسيطًا لأعقد الأفكار السياسية بلغة يفهمها الناس جميعهم على اختلاف ثقافتهم ومستوى تعليمهم.

«قنالنا في إيد غيرنا ومالنا ماهوش لنا
وقدامنا لسه معركة عمران
ولا تثبت الأحجار بلا موان
وكانت إرادتنا ونفذنا أمرنا
ولا همنا ساخط ولا زعلان».

أين الأحجار والموان؟

كان ذلك تحدي بناء السد العالي.

بدت «جوابات حراجي القط العامل في السد العالي وزوجته فاطنة أحمد عبد الغفار»، التي أبدعها باللهجة الصعيدية «عبد الرحمن الأبنودي»، نظرة عميقة في فلسفة الحياة والغربة والتحول داخل مجتمع مهمش وفقير إلى عالم جديد.

التحول في أساليب الإنتاج من «صاحب فأس» إلى «أسطى في السد العالي» ألهم الشعر وأضفى عليه إلهامه.

أي مشروع يكتسب قيمته من قدرته على صياغة إرادة التغيير في مجتمعه بما يتسق مع احتياجاته وفق رؤية للمكان والزمان والإنسان.

أسس السد العالي لعصر التصنيع الثقيل وتمصير الاقتصاد المصري وبناء قطاع عام قوي وقادر على التنمية والوفاء بمتطلبات الانتقال إلى عصر جديد أكثر عدلًا اجتماعيًّا.

ارتبط بتوليد الكهرباء إلى معدلات غير مسبوقة بحسابات زمانها وزيادة رقعة الأراضي الزراعية مع اتساع الخدمات الصحية والتعليمية.

اكتسب السد العالي رمزيته من سياق مشروعه.

أكثر ما يسيء لأي مشروع من هذا الحجم النظر إليه كنوع من «التوحيد» الإجباري وراء فكر واحد.. وزعيم واحد.

المشروع القومي هو مجموعة «القيم الأساسية»، التي تحكم الحركة إلى المستقبل وتمثل المشترك الأعظم بين جميع القوى والاتجاهات السياسية.

المشروع القومي لم يخترعه «عبد الناصر»، فهو لم يخترع الوحدة العربية ولا خلق من فراغ أحلامها وتطلعاتها، وهو لم يخترع مطلب الاستقلال الوطني والاستعداد للتضحية في سبيلها، لم يؤلف دور مصر في المنطقة؛ حيث حقائق الجغرافيا والتاريخ تدعو إليه، ولم يكتشف مقتضيات العدل الاجتماعي.

الأفكار الرئيسة لـ«جمال عبد الناصر» كلها ـ تقريبًا ـ كانت موجودة في الجو السياسي والثقافي العام قبل ثورة يوليو.

كأي مشروع بهذا الحجم فهو إرث وطني وقومي وإنساني عام بكل حمولاته من مغانم ومغارم.

مواريث السياسة ليست كلها مغانم، فالمغارم مما يورث أيضًا.

(٢)

بعد أقل من عامين على تأميم قناة السويس بدا العالم العربي يوم (٢٢) فبراير (١٩٥٨) على موعد مع حلم آخر شبه مستحيل.

كان يومًا فريدًا في التاريخ العربي.

المشاعر تدفقت كطوفان والأحلام لامست السماء في بناء دولة قوية وموحدة «تصون ولا تهدد.. تحمي ولا تبدد.. تصادق من يصادقها وتعادي من يعاديها».

لم يكن الوصول إلى هذا اليوم من أعمال المصادفات بقدر ما كان تعبيرًا عن حقائق جديدة تتحرك، طموحات وصلت ذروتها، وصراعات تصاعدت في المنطقة.

لا موضع ـ الآن ـ لحديث عن أي وحدة عربية وأقصى ما نتطلع إليه تجنب سيناريوهات التقسيم الماثلة في سوريا وبلدان أخرى.

بين حلم الوحدة وكابوس التقسيم قصة طويلة وأليمة أهدرت فيها كل القضايا، وارتكبت كل الخطايا واستبيحت كل المحرمات.

يقال عادة: «لا حرب بلا مصر، ولا سلام بلا سوريا».

وقد ثبتت صحته في مسار وتعرجات الصراع العربي ـ الإسرائيلي.

بحقائق الجغرافيا السياسية إذا ما سقطت سوريا تتقوض مصر ويخسر العالم العربي كله أي مناعة تحول دون تفكيك دوله والتلاعب بمصائره.

هذه واحدة من بدهيات نظرية الأمن القومي.

بعد حرب السويس عام (١٩٥٦) وفشل إخضاع مصر وضعت خطة أطلق عليها «استراجل».

كانت تقضي بأن إسقاط سوريا يفضي مباشرة إلى عزل مصر وبعثرة العالم العربي.

وقد كشف عنها ـ ربما لأول مرة ـ «محمد حسنين هيكل» عام (٢٠٠٧) في حديث تلفزيوني.

كانت سوريا مهددة في صميم وحدتها الداخلية ومكشوفة لضغوط إسرائيلية وتدخلات تركية، ومشروعات انقلابات عسكرية، أو غزو من الخارج، يقوده رئيس الوزراء العراقي «نوري السعيد»؛ الرجل الذي ارتبط أكثر من غيره بسياسة الأحلاف العسكرية في المنطقة.

بحكم موقعها الجغرافي لم يكن ممكنًا لسوريا أن تنغلق على نفسها تحت أي ادعاء، أو أن يكون لها مستقبل خارج عالمها العربي بأي ذريعة.

لم تكن مصادفة أن سوريا ـ بالذات ـ هي البلد الذي احتضن الفكرة العروبية في مواجهة «التتريك» ونشأت فيها ـ قبل غيرها ـ الحركات ذات التوجه القومي العربي.

كما لم تكن بلاغة تعبير أن توصف بـ«قلب العروبة النابض».

بحكم موضعها في المشرق العربي فهي عاصمته الطبيعية.

وبحكم اتصال الأمن القومي المصري بها فهي توأمته.

وبحكم حدودها مع الدولة العبرية فهي طرف في صراع وجودي.

وبحكم امتداد ساحلها على البحر المتوسط فهي مركز إستراتيجي.

وبحكم اتصالها بشبه الجزيرة العربية؛ حيث موارد النفط فهي تحت بصر المصالح الغربية.

أكدت الحقائق نفسها، لا عالم عربي بلا مصر، التي تمثل ثلث كتلته السكانية، ولا نهضة عربية بلا سوريا ـ مهما حسنت النوايا والتوجهات.

المصير السوري هو شأن كل بلد عربي وكل مواطن عربي يدرك حقائق ما حوله.

«انتصرت إرادة العرب.. لا فراغ في الشرق الأوسط، ولا مناطق نفوذ».

هكذا تحدث «عبد الناصر».

السياق التاريخي ضروري لفهم ما جرى من تدافع للحوادث وصلت ذروتها بإعلان الوحدة المصرية السورية.

كان يخوض حربًا مفتوحة ضد سياسات ملء الفراغ والأحلاف العسكرية بعد تقويض مكانة إمبراطوريتين سابقتين هما البريطانية والفرنسية بأثر النتائج السياسية لحرب السويس.

وكان العصر الأمريكي قد بدأ يطل على العالم العربي في ظروف حرب باردة أعقبت الحرب العالمية الثانية.

كانت الوحدة المصرية – السورية خطوة متقدمة أكدت قدرة العالم العربي على ملء الفراغ بنفسه دون حاجة إلى أحلاف تخضع لحسابات إستراتيجية ضد مصالحه ومستقبله.

كما كانت تطويرًا لنتائج حرب السويس، التي ألهمت حركات التحرر الوطني في العالم الثالث ـ كأن فوران غضب على الإرث الاستعماري اندلع فيه.

في ذلك اليوم الفريد تبدت حالة سياسية ووجدانية قد يساعد التوقف عندها على تلمس بعض ما يجري الآن تحت السطح العربي الساكن، أو المشتعل بالنار، من خلجات نفوس وأحلام محبطة.

إنها أمة واحدة كاشفت نفسها في لحظة أمل أنها تستطيع أن تصنع التاريخ وتبني دولة منيعة قادرة على مواجهة التحديات والمخاطر، وأن تأخذ أحلامها إلى أرض الواقع.

بعد إعلان الوحدة كانت دمشق تنتظر وفدًا مصريًا رفيعًا قادمًا إليها.

مالت توقعات رجل سوريا القوي ـ في ذلك الوقت ـ «عبد الحميد السراج» أن الوفد سوف يترأسه المشير «عبد الحكيم عامر».

عندما هبطت الطائرة المصرية في مطار دمشق كانت المفاجأة صاعقة وكاد «السراج» أن يغمى عليه، فالذي هبط منها هو «جمال عبد الناصر» نفسه.

صرخ المسئولون السوريون من هول الحدث: «يا خبر ـ دمشق لن تنام الليلة» حسبما نشرت صحيفة «الأهرام» في اليوم التالي.

كانت تلك أول مرة تطأ قدماه العاصمة السورية ـ وهو رئيسها وأملها في بناء دولة عربية كبرى في المنطقة.

كرجل أمن أدرك «السراج» أنه في مشكلة مستعصية، فالمشاعر جياشة، ولم تكن هناك احتياطات لازمة تستبق الزيارة وتؤمنها من أي اعتداءات على الرئيس، والتربص بحياته على أشده.

بدأ الزحف العظيم من المدن والقرى السورية لترى بالعين رئيس الجمهورية العربية المتحدة.

تدفقت على دمشق كتل شعبية أخرى عبر الحدود العربية المجاورة ـ خصوصًا من لبنان.

بدا كل شيء عفويًا ومحملًا بأحلام كبرى في مستقبل جديد.

حملت الحشود المتدافعة سيارة «عبد الناصر» على الأكتاف في مشهد تراجيدي تاريخي يكاد لا يصدق.

سهرت حتى الفجر بالمشاعل أمام قصر الضيافة.

من وقت لآخر ينادونه بلا كلل: «طل علينا يا جمال».

في فكرهم ووجدانهم تأميم قناة السويس وإحباط العدوان على مصر ومعارك التحرر الوطني ومحاربة الأحلاف الاستعمارية وتنويع مصادر السلاح والانحياز إلى الحق الفلسطيني ومبادئ باندونج.

شيء آخر عميق ومتوارث دعاهم إلى استدعاء الأمل بالهمة.

المعاني أهم من الرجال، والقضايا الكبرى تلهم الناس العاديين أنهم يمكن أن يصنعوا تاريخهم بأنفسهم، وأن يوقفوا أي امتداد جديد لقرون من الإذلال والتهميش.

بذات قدر الرهان عليه اقترب «عبد الناصر» من دخائل المجتمع السوري لتدارك أي أخطار محتملة على الوحدة، وقد بدأت تظهر على السطح السياسي.

كانت رحلته الأخيرة إلى دمشق، قبل الانفصال الذي قوضها، مثيرة في وقائعها وكاشفة في دلالاتها ـ كما رواها «أحمد بهاء الدين».

«كانت حقًّا رحلة شاقة، كان استقبال الشعب لجمال عبد الناصر كالعادة أسطوريًّا، ذهب إلى مناطق قال لنا أهلها إنه لم يسبق أن زارها وكيل وزارة من دمشق العاصمة، وكانت التسهيلات في بعض تلك المدن التي لم يدخلها مسئول واحد معدومة تمامًا، لم تكن هناك ببساطة أماكن أمام رئيس الجمهورية العربية المتحدة وصحبة من الوزراء والصحفيين المصريين والسوريين لا للمبيت ولا للمأكل ولا أي شيء على الإطلاق».

«في دير الزور ـ مثلًا ـ كان هناك بالمصادفة مبنى جديد لم يستعمل بعد لمكتب بريد وبتنا جميعًا فيه، بات جمال عبد الناصر في غرفة بالدور الثاني من المبنى لعلها حجرة مكتب مدير البريد.. وفي الدور الأرضي الذي يفصله عن الشارع حاجز زجاجي فقط غطوا الزجاج بالبطاطين ورصوا أسرة من القوات المسلحة، وكان الناس في مثل هذه الظروف يأتون متبرعين بالسراير والمراتب والأغطية التي سيستعملها جمال عبد الناصر وصحبته».

وقد شملت زيارته الأخيرة الحسكة وحلب ومناطق نائية.

كانت المشاعر تكفيه لتحمل مشقة التجوال فيها بلا خدمات ولا أي وسائل للراحة.

أهمية شهادة «بهاء» تتجاوز حجمه وأثره في تاريخ الصحافة المصرية إلى أفكاره واعتقاداته وخياراته السياسية.

في شبابه الباكر تأثر بأفكار «البعث» وارتبط بصلة حوار مع مؤسسه «ميشيل عفلق»، كلما مر على القاهرة.

وكان هناك شبان آخرون أخذوا التوجه نفسه مثل الدكتور «جلال أمين» المفكر الاقتصادي المعروف والناشر الدكتور «علي مختار» والسفير «أمين يسري»، لكنهم أخذوا مسارًا آخر مع حلم الوحدة وصدمة الانفصال، الذي تورطت فيه قيادات كبيرة مثل «صلاح البيطار» ثاني أهم شخصية في تأسيس «البعث».

ماجت سوريا بالغضب على الانفصاليين حتى أزاحت وصمته من تاريخها وعرضت الوحدة مرة أخرى على «جمال عبد الناصر» عام (١٩٦٣) لكنه طلب مزيدًا من الدراسة حتى لا يتكرر ما جرى.

عندما تشاهد على شرائط مسجلة مئات آلاف البشر تتدافع إليه في ذلك اليوم الفريد فلا بد من أن تنصت لصوت التاريخ، وتدرك بالعمق أنها كانت تهتف للمعنى قبل الشخص، وأن هذه لم تكن «انفعالات عواطف» بل حقائق تاريخ يجسدها رجال وأحلام سجلتها أغانٍ بأصوات «أم كلثوم» و«محمد عبد الوهاب» و«عبد الحليم حافظ» و«نجاح سلام» و«محمد قنديل» وآخرين.

في دمشق طلب «عبد الناصر» أن يرى بعينيه نهر «بردى»، الذي طالما استمع إلى «عبد الوهاب» يغني له.

مرة بعد أخرى يسأل، والوفود تتدفق إليه في قصر الضيافة: «متى أرى بردى؟».

عندما أوغل الليل وجد للرئيس طريقًا من قصر الضيافة إلى «بردى».

ذهبوا إليه على أضواء «المشاعل» وبوغت «عبد الناصر» أن النهر أصغر من تصوراته عنه، لكنه اكتشف أن للسوريين في قلبه ما لا قبل لعواطفه بأن تتحمله.

في (٢٨) سبتمبر (١٩٦١) جرى فصم الوحدة المصرية - السورية بانقلاب عسكري رعته الاستخبارات الأمريكية، ومولته المملكة العربية السعودية، وشاركت فيه الأردن، وآزرته تركيا، وهللت له إسرائيل.

سأل «عبد الناصر» الملك «سعود بن عبد العزيز»، بعد أن جاء للقاهرة لاجئًا سياسيًّا عقب إطاحته: «هل صحيح أنك دفعت ٧ ملايين جنيه إسترليني حتى يتم الانفصال؟».

أجابه: «طال عمرك.. ١٢ مليون جنيه إسترليني».

برغم الخطط والمؤامرات على الوحدة المصرية - السورية، وكلها ثابتة في وثائق وشهادات واعترافات، فإنها سقطت من داخلها قبل أي فعل خارجي، وتسببت أخطاء جوهرية بصميم التجربة على تسهيل الانقلاب.

حسب شهادة العقيد «جاسم علوان»، فإن «هاني الهندي الوزير في دولة الوحدة كتب مذكرة تفصيلية للمشير عبد الحكيم عامر كشفت عن انقلاب قريب والأسماء المتورطة فيه، وكان يتصدرهم مدير مكتبه عبد الكريم النحلاوي».

واجه المشير مدير مكتبه بما ورد في المذكرة فقال له «النحلاوي»: «إذا أردتم أن أنفذ شيئًا فسأفعله حتى لو أمرتني بإطلاق الرصاص على نفسي».

لم تمضِ أيام حتى وقع الانقلاب، وكان مهندسه «النحلاوي»، الذي استخدم موقعه في حركة تنقلات داخل الجيش سهّلت مهمة الانفصاليين.

فيما بعد هرب إلى الولايات المتحدة تحت رعاية استخباراتها؛ خشية أن يقع في يد الوحدويين.

بصورة أو بأخرى استخدم «النحلاوي» الصراع المحتدم بين نائبي رئيس الجمهورية العربية المتحدة «عبد الحكيم عامر» و«عبد الحميد السراج».

كان «السراج» يُمسك بمقاليد الأمن ويعرف دخائل الجيش، وقد سهّلت استقالته مهمة الانفصاليين.

في تلك الأجواء برز رجلان على مقدمة المسرح السوري الملتهب هما «السراج» نفسه والعقيد «جاسم علوان» سكرتير المجلس العسكري الذي مهد للوحدة، والذي حاول إعادتها بانقلاب مضاد.

بتقدير «هيكل» فإن الأول، «قد تختلف مع وسائله لكنك لا تشك في نياته»، وقد حمى سوريا من مؤامرات عديدة قبل الوحدة وبعدها.

والثاني، «في وقت من الأوقات كان مستقبل الشرق الأوسط في يد هذا الضابط الشاب».

بعد أن انقضت عقود طويلة على الوحدة والانفصال حاورتهما، ولكل حوار قصة لها معنى.

التقيت «السراج» لأول مرة - في مكتبه بقلب القاهرة عندما كان يترأس الشركة القابضة للتأمين في حضور شخصيات لبنانية لعبت أدوارًا تحت إشراف الزعيم اللبناني «كمال جنبلاط»، ومتابعة من القاهرة في تهريبه من سجن «المزة»، الذي أودع فيه معتقلًا بعد الانفصال.

امتنع عن الإدلاء بأي شهادة حتى لا يؤول أي حرف في الإساءة إلى الزعيم الراحل.. وقد بذلت صحف عديدة تصدر بالخارج عروضًا سخية لاستخدامها في الحملة عليه والتشهير بالوحدة.

على الجانب الآخر تحدث العقيد «علوان»، وأفاض عن الوحدة وتجربتها وأسباب انفصالها، مؤمنًا بأننا كنا دولة عظمى، وأن الوحدة كانت محتمة والانفصال جريمة تاريخية لا تغتفر.

تدخل «عبد الناصر» بكل ثقله للإفراج عنه وعاش في القاهرة حتى رحل.

من مفارقات التواريخ أن «عبد الناصر» نفسه رحل في (٢٨) سبتمبر (١٩٧٠)، وهو نفس يوم الانفصال قبل تسع سنوات.

وقد كان من رأي المفكر القومي «عبد الله الريماوي» أن أول دبابة تحركت للانقلاب على الوحدة، كانت أول دبابة إسرائيلية دخلت سيناء في حرب يونيو (١٩٦٧).

عندما استمع «عبد الناصر» إلى عبارة «الريماوي» بدا مقتنعًا بمنطقها وضرب بيده اليمنى على المكتب الذي يجلس عليه.

على مدى عقود طويلة نشرت آلاف الدراسات عن الوحدة وأسباب الانفصال.

باليقين فإن «عبد الناصر» يتحمل جانبًا من المسئولية، لم يكن «عامر» مؤهلًا لإدارة دولة الوحدة من دمشق والانقلاب حدث من داخل مكتبه.

كما أن عدم تغييره بعد الانفصال كان خطأ جسيمًا أفضى - ضمن أسباب أخرى - إلى الهزيمة العسكرية في يونيو بالحجم الذي حدثت به.

برغم ذلك تتبدى الوحدة في الذاكرة العامة كحلم يستعصي على محاولات الإجهاز عليه.

أجهزوا على تجربة «عبد الناصر» واصطادوها من ثغراتها، لكن للأحلام مناعة أكبر وعمرًا أطول.

قالوا إن الوحدة «وهم ناصري»، وإن مصر فرعونية، أو شرق أوسطية، أو أي شيء آخر غير أن تكون عربية، لكن الحقائق تغلب باستمرار.

فـ«مصر» بالثقافة والهوية والجغرافيا والتاريخ - مشدودة إلى محيطها العربي، المصائر مشتركة، والقضايا واحدة وعندما تنكرت مصر لأدوارها جرى ما جرى لها من تهميش وتراجع في المكانة.

يستلفت الانتباه في أداء «عبد الناصر» لحظة الانفصال مدى إدراكه للحقائق في سوريا وخشيته على مستقبلها.

بعد الانفصال بأسبوع قال في خطاب بثته الإذاعة المصرية، كأنه يقرأ طالع أيام لم تأتِ بعد: «إن الوحدة الوطنية في الوطن السوري تحتل المكانة الأولى.. إن قوة سوريا قوة للأمة العربية وعزة سوريا عزة للمستقبل العربي والوحدة الوطنية في سوريا دعامة للوحدة العربية وأسبابها الحقيقية».

«لست أريد أن أقيم حصارًا سياسيًّا أو دبلوماسيًّا من حول سوريا، فإن الشعب السوري في النهاية سوف يكون هو الذي يعاني من هذا الحصار القاسي».

وكان مما قال في ظروف الانفصال: «ليس مهمًّا أن تبقى الوحدة، المهم أن تبقى سوريا».

في لحظة الانكسار تبدت سلامة الرؤية.

أوقف التدخل العسكري المصري بعد أن أرسلت قوات إلى اللاذقية خشية إراقة الدماء.

وكان ذلك إجراء سليمًا، برغم صعوبته، فلا وحدة تتأسس على إراقة دماء.

كان للانفصال عواقب إستراتيجية أوصلتنا إلى الكوابيس المقيمة.

تراجع زخم حركة التحرر الوطني في العالم العربي وقوة حضور المشروع القومي.

برغم استقلال الجزائر بعد إعلان الانفصال والدخول في معارك مفتوحة أخرى مثل الحرب في اليمن لحماية نظامه الجمهوري والسيطرة على إستراتيجية البحر الأحمر لم يستعد ذلك المشروع زخمه، الذي تبدى ذات يوم في عاصمة الأمويين.

عندما تفاقمت الأزمة السورية وأفلتت بالسلاح من أي زمام واتسع نطاق التدخلات الأجنبية بدا أمام المحاور الأول لـ«جمال عبد الناصر» أن سوريا ومصيرها، لا «بشار الأسد» ومستقبل نظامه، صلب الموقف.

كان «محمد حسنين هيكل» متأثرًا في موقفه بنظرته إلى قضية الأمن القومي، وبما عاين من حوادث في أثناء الوحدة، وبما قرأ من وثائق لم تكن معروفة في أثناء التجربة خصوصًا الخطة «إستراجل».

في بدايات تفاقم الأزمة السورية حاور اثنين من أقرب أصدقائه، هما المبعوث الأممي إلى سوريا السفير «الأخضر الإبراهيمي» وزير الخارجية الجزائري الأسبق، والدكتور «نبيل العربي»، أمين عام الجامعة العربية في ذلك الوقت.

سجل أسباب اعتراضه، وقد كنت متابعًا، على تدويل الأزمة وإحالتها من الجامعة العربية إلى مجلس الأمن، وعلى تجميد السفارة السورية بالقاهرة على عهد الرئيس الأسبق «محمد مرسي» وإخلاء مقعدها في الجامعة العربية.

كان تقديره أن ذلك سوف يفضي إلى رفع درجة التدخلات الأجنبية، ويضع المصير السوري كدولة موحدة في مهب النيران دون سعي حقيقي لإخمادها.

أمام احتمالات التقسيم البادية الآن في مشاهد النار بالمشرق العربي ومناطق عربية أخرى فإن الأسئلة تطرح نفسها: لماذا انكسر العالم العربي وفقد ثقته في نفسه ومستقبله، بعد أن حلقت أحلامه في عنان السماء؟ كيف وصلنا إلى الكابوس؟ ثم إلى أين المصير؟

هناك مجموعتان من الإجابات.

الأولى ـ تدور حول الصراع على المنطقة ومستقبلها، فمشروع الوحدة موضوع صراع ضارٍ، وقد ناهضته قوى دولية وإقليمية ذهبت إلى استخدام السلاح والتآمر، وهذا ثابت بعشرات الوثائق.

والثانية ـ تعود إلى ثغرات جوهرية في تجربة الوحدة المصرية - السورية، التي مكنت من الانقضاض عليها وتصفيتها بالانفصال بعد ثلاث سنوات ونصف السنة، وهذه خضعت لمراجعات عديدة، لكنها لم تستقر على أي رؤية تؤسس لتجارب

أخرى أكثر نضجًا وقدرة على البقاء حتى داهمتنا بعد عقود احتمالات تقسيم سوريا والعراق وليبيا واليمن ودول عربية أخرى تطلعت ذات يوم للوحدة بينها.

كان من بين تلك الثغرات الاعتماد على رجال الأمن أكثر من رجال السياسة وضعف الاتحاد القومي، الذي أنشئ عام (١٩٥٧) على أنقاض «هيئة التحرير».

كان تنظيمًا وحدويًّا بلا وحدويين ـ بالمعنى الفكري.

كل عيوب «هيئة التحرير» انتقلت إليه بأمراض أحزاب السلطة.

كما أن البعثيين، الذين انضموا إليه بعد الوحدة المصرية - السورية، لم يعطوه ولاءهم، وظلوا يجتمعون خارجه حتى بدت النهايات محتمة.

إحدى المآسي الكبرى، التي نالت من مشروع الوحدة، الصراعات التي جرت بين الناصريين والبعثيين حيث أنهكت جسد دولة الوحدة الوليدة وفتحت المجال واسعًا للانقلاب العسكري عليها.

لم تكن تجربة الوحدة رحلة نيلية ذات صيف، بقدر ما كانت مواجهات مفتوحة امتدت بعمق الخريطة العربية، وقد ارتبطت بالتحرر من الاستعمار والتبعية واستقلال القرار الوطني، دارت معارك مع سياسة الأحلاف التي اتبعتها الولايات المتحدة في محاولة لملء الفراغ في المنطقة بعد الهزيمة السياسية المدوية للإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية ومعهما إسرائيل في حرب السويس (١٩٥٦).

لم تخترع ثورة «يوليو» المشروع العروبي، لكنها جسدته أملًا حيًّا على الأرض بسياسات تبنتها ومعارك خاضتها.

قيمة «عبد الناصر» في التاريخ ليست أنه حكم مصر، أكبر دولة عربية، ولا أنه أنجز بقدر ما يستطيع، أصاب وأخطأ، وهذا كله يستحق مراجعته بالوثائق الثابتة لا الأهواء المتغيرة.

قيمته أنه عبّر عن فكرة أن مصر تستطيع أن تكون قوية وتجعل العالم العربي قويًّا معها فتتضاعف قوتها، وهذه الفكرة لا تجيء تاريخيًّا لمصر إلا ربع ساعة كل مائة سنة ـ بتعبير الكاتب الصحفي «محمود عوض».

التعبير مجازي لكنه يعبر، بصورة أو بأخرى، عن حقيقة لا يمكن تجاهلها أن قوة مصر في عالمها العربي والخروج منه يفضي إلى عزلتها وتقويض ثقتها في نفسها، كما يفضي إلى إضعاف العالم العربي واستباحته.

أرجو ـ أولًا ـ ألا ننسى أن الفكرة العروبية الحديثة نشأت في المشرق العربي، الذي يتعرض الآن لتخريب لمقدراته وتلوح فوق الخرائب خرائط التقسيم، لمناهضة سياسات «التتريك»، كما أنها دمجت المسلمين والمسيحيين في نسيج

فكري وثقافي وسياسي واحد على نحو غير معتاد من قبل، وأحد الأسباب الجوهرية الماثلة حاليًّا لزعزعة الوحدة الداخلية لبلدان عربية كثيرة، غياب أي مشروع للدمج على أساس قواعد المواطنة والمساواة أمام القانون بين مكوناته وتنويعاته.

وأرجو ـ ثانيًا ـ ألا ننسى أن التيار القومي في اندفاعاته الأولى ناهض مشروع الجامعة العربية عند نشأتها منتصف أربعينيات القرن الماضي؛ اعتقادًا بأن الهدف منها الحفاظ على واقع التجزئة في العالم العربي؛ وحتى تكون «الدول الإقليمية» حاجزًا نهائيًّا ضد «الدولة العربية الواحدة».

في اتفاقية «سايكس بيكو» قبل مائة عام قسمت دول واصطنعت أخرى، وبدت الجامعة العربية حاضنة سياسية لما جرى من تجزئة وتقسيم.

كان الدعم البريطاني لمشروع الجامعة العربية بذاته داعيًا للشكوك والريب في أهدافه.

وكان صراع الأفكار والسياسات قبل يوليو، هو من أعطى زخمًا ميدانيًّا للفكرة العروبية بمعانيها الحديثة.

الآن قمة المنى الحفاظ على حدود «سايكس بيكو«، وصيانة الدول الإقليمية من احتمالات التقسيم حتى لا يضيع كل أمل في أي مستقبل.

بقاء الجامعة العربية على قيد الحياة أصبح بذاته أملًا، إذا ما تهدمت فإن نظامًا إقليميًّا جديدًا سوف ينشأ العرب هم الطرف الأضعف فيه.

وأرجو ـ ثالثًا ـ ألا ننسى أن نكبة فلسطين عام (١٩٤٨) كانت دافعًا رئيسًا للفكرة العروبية وطلب الوحدة.

تحت الصدمة جرت مراجعات رئيسة عما جرى، وما قد يجري أفضت تداعياتها إلى ضخ دماء فوارة بالغضب والأمل معًا في شرايين الفكرة العروبية.

بات اعتقادًا جازمًا لدى جماعات عديدة ونخب واسعة بأن الوحدة العربية طريقنا لتحرير فلسطين، وجرى الربط بينها وبين قضية التنمية والعدل الاجتماعي، بهذا المعنى الواسع أصبحت فلسطين قضية العرب المركزية، فكل فكرة تبدأ وتنتهي عندها.

وقد أدى تفكيك القضية الفلسطينية مرحلة بعد أخرى إلى تفكيك إحدى أقوى الروابط العربية وأخذ التحلل يضرب كل شيء.

وأرجو ـ رابعًا ـ ألا ننسى أنه بعد حرب أكتوبر (١٩٧٣) عملت الإدارات الأمريكية المتعاقبة على فصل مسارات التسوية، واعتماد الحلول الجزئية مع كل دولة على حدة لتفكيك ما يسمى بوحدة الموقف العربي.

عندما خرجت مصر من الصراع العربي - الإسرائيلي بحل منفرد في اتفاقية «كامب ديفيد» همّشت أدوارها في العالم العربي، كما في إفريقيا والعالم الثالث بأسره الذى أخلينا مواقعنا فيه وتنكرنا لمعاركنا السابقة التي أكسبتنا وزنًا استثنائيًّا في معادلاته وحساباته.

علت أصوات ـ هنا في مصر ـ تشكك في عروبتها والمعارك التي خاضتها يوليو، وتدعو إلى الحياد مع قضايا العالم العربي.

قيل إن مصر لن تحارب حتى آخر جندي مصري من أجل فلسطين.

كان ذلك تدليسًا على الحقيقة؛ فمصر حاربت من أجل مصر قبل أي شيء آخر.

جرى تكريس الانكسار كأنه كلمة التاريخ الأخيرة، غير أنه ـ في نهاية المطاف ـ سوف تعلن الحقائق عن نفسها، فهناك أمة عربية واحدة لكنها ممزقة ومهانة، وعروبة مصر حقيقة لا خيال.

عندما صعدت أدوار مصر في عالمها العربي تحملت المخاطر ودفعت الأثمان كاملة.

هذه حقيقة لا يجب نسيانها ـ فلا أدوار بلا أثمان.

الفصل الخامس: صندوق أحمد سعيد

ظاهرته لا مثيل لها في التاريخ العربي الحديث.

صعد بتأثيره إلى حيث لم يصعد إعلامي آخر، وظلمت أدواره كما لم تُظلم أي أدوار أخرى، وكادت حجب النسيان أن تطوي ذكره.

هو أبرز أصوات الاستقلال الوطني في العالم العربي من أوائل الخمسينيات حتى هزيمة (١٩٦٧).

خاض معركة إسقاط حلف بغداد عام (١٩٥٥) الذي استهدف ملء الفراغ في المنطقة بعد تراجع الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية.

كانت المعركة ضارية بين القوة الأمريكية الصاعدة بعد الحرب العالمية الثانية وحركات التحرير الوطني التي مازالت في مهدها.

وخاض حرب السويس عام (١٩٥٦) حاشدًا العالم العربي وراء مصر المقاتلة.

كانت معركة أخرى على مصير الإرادة الوطنية المستقلة بعد تأميم قناة السويس.

ارتفع صوته في عام (١٩٥٨) بأحلام الوحدة المصرية ــ السورية والتطلع إلى دولة عربية واحدة.

طوال سنوات التحدي حتى انكسار هزيمة (١٩٦٧) تصدر كل معركة من مشرق العالم العربي في فلسطين والعراق وسوريا ولبنان إلى مغربه في الجزائر والمغرب وتونس إلى الخليج واليمن.

الثورة الجزائرية درة التاج في معاركه كلها.

لا يمكن كتابة تاريخ ثورة المليون ونصف مليون الشهيد دون التوقف عند دوره فيها.

وقد كان مركزيًا ومتداخلًا بالعمق في أحداثها الكبرى.

كتب شهادته مستعينًا بأرشيف «صوت العرب» عن تجربة تحرير الجزائر، كما كتب شهادات أخرى في أجزاء مستقلة عن أيام الوحدة المصرية - السورية وحرب

اليمن، وما كان يجري في العالم العربي من فوران انتفاضات وثورات وحروب لم يتسنَّ لها أن تُنشر حتى الآن.

ما هو مكتوب بخط يده أقرب إلى مسودات شبه أخيرة تعطي فكرة متكاملة ـ ربما لأول مرة ـ عن أسرار وخفايا «صندوق أحمد سعيد» كما كان يطلق على أجهزة الراديو في ذلك الوقت منسوبة إلى إذاعة «صوت العرب» دون غيرها من الإذاعات، وإلى مديرها وحده.

في دراسته اللافتة لما طرأ على المجتمع الجزائري من تحولات في القيم والسلوك في أثناء السنوات الخمس الأولى من الثورة، أشار المفكر الفرنسي «فرانس فانون» إلى دور «صوت العرب»، حيث كان الجزائري العادي يشتري جهاز الراديو ليستمع إلى صوته، وهو يردد كلمة «الاستقلال».

في عام (١٩٦٧) حُمل بما لا يحتمل من مسئولية الهزيمة العسكرية.

كانت الهزيمة فادحة والبيانات العسكرية كاذبة.

لم يكن هو الذي كتبها، فقد تلقاها من القيادة العسكرية في ذلك الوقت.

ولم يكن بوسعه تجاهلها شأن أي محطات تلفزيونية، أو إذاعية أخرى، لكن كل السهام صوبت إليه وحده.

في سبتمبر (١٩٦٧) خرج من الإذاعة، التي أسسها عام (١٩٥٣)، وتوارى في الظل.

خلفه على مقعده «محمد عروق».

لم يكن الهدف تغيير الرجال بقدر تغيير الدفة من التعبئة إلى التوعية، فقد اختلفت طبيعة الظروف والأحوال.

لم تكن تلك مهمة سهلة؛ فقد تقوضت صدقية أكثر الإذاعات تأثيرًا وشعبية فيما تبثه من بيانات.

باليقين فإنها معذورة، أو مظلومة ـ كما قال «عروق» حيث كانت تذيع البيانات العسكرية التي ترد إليها، ولا تتحمل أي مسئولية عنها.

«أوقفت إذاعة البيانات العسكرية المزيفة عصر ٥ يونيو، وكان التحدي أمامي هو كيف نعلن الهزيمة، وندعو الناس إلى التماسك».

«لم أصنع الهزيمة وبيانات النكسة لم تكن من تأليفي».

«هل كان مطلوبًا أن أذيع البيان الذي يعجبني وأحجب سواه؟!».

«الجهلاء هم الذين يتصورون أن الإعلامي يمكن أن يجتهد في حالة الحرب».

عند انقلاب السياسات على عصر «جمال عبد الناصر»، استهدفت تجربة «صوت العرب» بضراوة.

شاعت روح السخرية من لحنها المميز: «أمجاد يا عرب أمجاد.. في بلدنا كرام أسياد».

لم تستهدف السخرية الرجل وتجربته بقدر ما استهدفت الأحلام التي انكسرت.

«أعداء الخارج والداخل انتقموا من عبد الناصر في صوت العرب» كما كتب في مذكراته الخطية.

في عزلته الطويلة، التي امتدت حتى رحيله عام (٢٠١٨)، كان يستعيد من وقت لآخر بيتي شعر الشاعر العراقي «محمد مهدي الجواهري»:

«إنا رئات في حنايا أمة
راحت بنا تتنفس الصعداء
لم نأتِ بدعًا في البيان وإنما
كنا بما حلمت به أصداء».

المفارقات حادة اليوم بين ما بشر به وما وصلنا إليه.

وفق ما قاله لي مؤسس إذاعة «صوت العرب»، فإن إعلام التعبئة، الذي عبّر عنه أكثر من غيره ونجاحه أمثولة تدرّس، انتهى زمنه، فلا توجد قضية تلهم ولا مشروع يقود، فضلًا عن أن «حقائق العصر تستدعي التعدد حتى لو توافرت القضية ووجد المشروع».

من لا يدرك اختلاف العصور يُعاند الحقائق.

لم يخترع أحد مشروع التحرير الوطني ولا نداءات الوحدة العربية.

كان العالم العربي يموج بهذه الأفكار ومستعدًّا للتضحية في سبيلها.

هو أحد تجليات الصعود الكبير لمشروع «جمال عبد الناصر».

شغل تأثيره مراكز أبحاث وأجهزة استخبارات على ما تدل الوثائق الغربية المتاحة.

في أثناء حرب السويس، قصفت الطائرات محطات إرسال «صوت العرب» في «أبي زعبل» شمال شرق القاهرة لإسكاتها.

حين فشلت الغارات في إسكات صوته، حاولت غارات من نوع آخر تشويه صورته.

غير أن التاريخ سوف يتوقف طويلًا أمام تجربته التي لا مثيل لمستويات نجاحها بمهمتها الإعلامية في صدام الإرادات على مصير المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية.

(١)

عندما كانت ساعة جامعتها العريقة تدق السادسة من مساء السبت (٤) يوليو (١٩٥٣) بدأ بث «صوت العرب» من القاهرة.

لم يكن إرسالها يتجاوز ـ في البداية ـ نصف الساعة يوميًا.

صاحب فكرتها «فتحي الديب» المسئول الأول عن الشئون العربية طوال سنوات «جمال عبد الناصر»، وهو أحد مؤسسي جهاز المخابرات العامة تحت رئاسة «زكريا محيي الدين».

كان «أحمد سعيد» مديرها ومذيعها الوحيد قبل أن تنضم إليه نخبة من أفضل الإذاعيين المصريين بينهم «نادية توفيق» و«محمد عروق» و«بهاء طاهر» و«السيد الغضبان» و«أمين بسيوني» و«محمد أبو الفتوح» و«محمد الخولي» و«عبد الوهاب قتاية» و«فاروق خورشيد» و«ديمتري لوقا» و«صلاح عويس».

لم يكن قد تجاوز الثامنة والعشرين من عمره، عندما بدأت تجربته فهو من مواليد أغسطس (١٩٢٥).

السن المبكرة في تقلد المناصب العامة من طبيعة ثورة «يوليو»، فقد كان «جمال عبد الناصر» نفسه في الرابعة والثلاثين من عمره عندما وصل السلطة.

المثير أن تفكير «يوليو» في محطة إذاعية تخاطب العالم العربي وتتبنى قضاياه استبق إعلان توجهها القومي.

كان «عبد الناصر» متأثرًا بتجربة الحرب في فلسطين وما أكدته من وحدة المصير العربي.

انطوت «فلسفة الثورة»، أولى وثائق «يوليو»، على إدراك مبكر لأولوية الدائرة العربية في السياسة الخارجية المصرية.

استهدفت «صوت العرب»: «تأكيد دور ثورة يوليو في عالمها العربي كثورة تحررية والعمل على اتساعه إلى إفريقيا وآسيا، واكتمال تحرير الأراضي العربية بما يدعم فرص حصار قوي حول إسرائيل يعوق قدرتها على التحرك بإيجابية» كما أبلغ «عبد الناصر» «فتحي الديب» في حوارات بينهما مكتوبة على ورق.

نص التكليف ينطوي على معانٍ تستلفت الانتباه من وضوح توجهها في أيام «يوليو» الأولى: «بقدر التوسع في تحرير الأرض العربية تتسع مساحة النشاط التجاري والاقتصادي وفتح أسواق جديدة مغلقة في وجه الصناعة المصرية الوليدة».

«إن حرية مصر تظل ناقصة بلا حرية باقي أقطار الوطن العربي، والحرية في مفهومنا لا بد أن تترجم في صورة تضحيات.. لن يتحرر العالم العربي بلا تضحيات».

«الاستمرار في دعم الكفاح المسلح بكل طاقاتنا وقدراتنا المتاحة مهما كانت التضحيات التي يتحملها الشعب الجزائري ونتحملها نحن معه شعب مصر، وهذا

حقه علينا كثورة تحررية رائدة في الوطن العربي قامت لا لتحرر أرض مصر وحدها، بل لتحرر كل الأرض العربية».

كان وضوح الأهداف من أسباب نجاح تجربة «صوت العرب»، لكنه لم يكن سببًا وحيدًا.

سقف الحرية الذي تمتعت به تجربتها كان سببًا جوهريًّا في ذلك النجاح.

في (٢٥) فبراير (١٩٦٥) قال «عبد الناصر» في خطاب مفتوح إنه لا يوافق «أحمد سعيد» في أمور كثيرة يتحدث فيها، لكنه يمتنع عن أي تدخل، فالتدخل «بيموت صوت العرب وبيضيع قيمة صوت العرب».

«صوت العرب لا يسأل عما يقول، يسأل فقط عن نتائج ما يقول».

حتى إعلام التعبئة يحتاج إلى الحرية.

الإعلام يفقد تأثيره عندما يخسر حريته.

في الأيام الأولى لم تكن الأجواء مهيأة لما تحتاجه التجربة الوليدة من حرية حتى ينفذ تأثيرها.

بلا مساحة حرية لم يكن ممكنًا لها أن تنجح.

كان هناك رقباء على درجة من الجهل والتعسف دعت أحدهم إلى منع إذاعة أغنية «أم كلثوم» «ولد الهدى»؛ بحجة أن الثورة ألغت الملكية وألقاب الأمراء في اعتراض على كلمات وردت في القصيدة المغناة لأمير الشعراء «أحمد شوقي»!

كما أن نفس الرقيب طلب من الشيخ «طه الفشني» الامتناع عن قراءة آيات من سورة الأحزاب خشية أن تمس الجيش!

خروج «صوت العرب» من سطوة الرقابة مكنها من لعب دورها مؤثرًا ومقنعًا.

أكثر من ذلك فإنه اقترح على «جمال عبد الناصر»، في حضور «فتحي الديب»، أن تذيع «صوت العرب» آراء المعارضة العربية للسياسات المصرية في ذلك الوقت من عام (١٩٥٤).

كانت هناك ـ في أثناء أزمة مارس ـ تظاهرات في أكثر من دولة عربية تصدرها زعماء وقادة نافذون ضد ما يحدث في مصر بينهم الإمام «عبد الرحمن المهدي» وابناه «الصديق» و«الصادق» و«محمد أحمد محجوب» رئيس الوزراء الأشهر فيما بعد في السودان و«ميشيل عفلق» و«أكرم الحوراني» و«صلاح بيطار» مؤسسو حزب «البعث العربي الاشتراكي» في سوريا و«بيير الجميل» مؤسس حزب «الكتائب» و«إميل إده» و«ريمون إده» من أبرز السياسيين في لبنان.

لم يمانع «عبد الناصر» في ذلك الاقتراح المثير بتوقيته شرط أن يتوافق هذا الأسلوب مع المستهدف منه وتؤكده تقارير أجهزة المخابرات.

«صندوق أحمد سعيد على رأي إخوانا في اليمن اتفتح خلاص ومحدش يقدر يقفله بالضبة والمفتاح» كما أخبره رجل «يوليو» القوي في ذلك اللقاء الذي عقد بمقر مجلس الوزراء.

دراسة التجربة بعمق من مقتضيات رد اعتبار الإعلام المصري، الذي تدهور بصورة غير مسبوقة.

للنجاح أسبابه، وللفشل أسباب أخرى.

تنتسب «صوت العرب» إلى «إعلام التعبئة».

هذه حقيقة أساسية في النظر إلى تجربتها.

استندت «التعبئة» حتى اكتسبت نجاحها الكبير إلى مشروع واضح وقضية محددة وسقف مفتوح للإبداع والابتكار ودراسات في علم النفس وفنون الأداء وإيمان المذيعين أنفسهم بما يقولون.

بأي تعريف تقليدي فإنها «إذاعة موجهة» لدول أخرى خارج الحدود.

بأي نظر في طبيعة جمهورها فإنه يتكلم لغة واحدة أهدافه تتقارب ومعاركه مشتركة.

يكتسب التعريف ـ هنا ـ أفقًا آخر وصعيدًا مختلفًا أكسب «صوت العرب» صدقيتها وقدرتها على منازلة الإذاعة البريطانية وإلحاق الهزيمة الإعلامية بها في أثناء حرب السويس عام (١٩٥٦).

أنفقت بريطانيا (٢٥) مليون جنيه إسترليني على دعاياتها، لكنها أخفقت تمامًا أمام الإعلام المصري ـ كما سجل مؤسس الدولة العبرية «ديفيد بن جوريون».

بتوصيف شاع وقتها: «لا يوجد مقهى واحد في العالم العربي لا يفتح أجهزة الراديو على صوت العرب».

«لعل قصة صوت العرب مع الجزائر أول وآخر قصة لإذاعة على بعد آلاف الأميال، ولا يتجاوز إرسالها اليومي تسعين دقيقة تشهد جدرانها ثورة، وهي مجرد فكرة» كما كتب في مذكراته.

كانت التجربة «أشبه بالمغناطيس تستقبل اتصالات ومعلومات من اللاجئين السياسيين في مصر ومن جميع أنحاء العالم العربي، ولدت صلات شخصية أعطت تصورًا دقيقًا لحقائق الأمور في العالم العربي» وفق صاحب فكرتها «فتحي الديب».

لا يتولد نجاح عن عشوائية.

(٢)

كان هناك ـ قبل ثورة «يوليو» مكتب في شارع «عبد الخالق ثروت» بقلب العاصمة المصرية يحمل اسم «مكتب المغرب العربي» يضم القيادات اللاجئة من البلاد العربية، التي تحتلها فرنسا في شمال إفريقيا (تونس والجزائر والمغرب).

تأسس دور «صوت العرب» على ما قبلها، لكنها أخذته إلى آفاق غير متصورة.

«لم نمتنع عن لقاء أي لاجئ، حتى لو بدا حجمه ضئيلًا ووزنه محدودًا».

كانت تلك النظرة نقطة البداية في التعرف على شاب جزائري طويل ومجهول طلب مقابلة مدير «صوت العرب» متأثرًا بدعمها المفتوح لثورة الشعب المغربي ضد الاحتلال الفرنسي إثر عزل الملك «محمد الخامس».

كان ذلك يوم الأحد (٢٥) أكتوبر (١٩٥٣).

قال إن اسمه «مسعود مزياني»، وقد جاء إلى القاهرة باسم مجموعة من الشبان الجزائريين حتى تطرح قضية استقلال الجزائر ويكسر حاجز الصمت.

بدا متحفظًا في ردوده عن إمكانية ثورة في الجزائر مثل ثورة المغرب، ومنضبطًا في حركاته وإيماءاته وقيامه وجلوسه كصاحب خبرة عسكرية ـ كما استنتج مدير «صوت العرب» في اللقاء الأول.

كان ذلك الاستنتاج صحيحًا، فقد صارحه «مزياني» بأنه خدم في الجيش الفرنسي في أثناء الحرب العالمية الثانية قبل أن يعود موظفًا مدنيًا بسيطًا في بلدته «مغنية» غرب الجزائر.

لم يكن مع «مزياني» أي ملابس غير ما يرتديه، فهو قادم مباشرة من الإسكندرية، التي وصلها عن طريق البحر خفضًا للنفقات.

وصل بلا حقيبة سفر، وما معه من مال ـ ألفي فرنك ـ يكاد يكفي إقامته في بنسيون متواضع قرب الإذاعة واحتياجات الطعام والحركة في أضيق الحدود.

برغم صعوبة ظروفه المالية رفض «مزياني» أن ينزل ضيفًا على الدارسين الجزائريين، أو أن يقبل عرضًا من «أحمد سعيد» بأن ينزل ضيفًا عليه.

كما رفض زيارة مكتب «المغرب العربي»، القريب من دار الإذاعة في مبناها القديم؛ خشية أن يستلفت تواجده أنظار الاستخبارات الفرنسية، التي تتابع المكتب وما يجرى فيه، فالمغرب وتونس مشتعلتان.

«كيف أذهب سيرًا على الأقدام إلى ميدان العتبة الخضراء لأستقلَّ من هناك ترام الأزهر؟».

كان ذلك سؤاله الوحيد قبل أن يغادر مكتب مدير «صوت العرب».

بدت عباراته غامضة وشخصيته مثيرة بما استدعى سؤالًا لم يكن منه مفر: «ماذا وراء هذا الشاب من أسرار؟».

في مقهى منزوٍ بشارع جانبي متفرع من الموسكي جلس إلى شاب جزائري آخر يدرس بجامعة الأزهر اسمه «محمد بو خروبة» لدقائق معدودة قبل أن ينصرف كل منهما في طريق.

كانا أهم شخصيتين في التاريخ الجزائري الحديث.

أولهما ـ اسمه حركي وعرفه العالم بعد ذلك باسمه الحقيقي: «أحمد بن بيللا».

وثانيهما ـ اسمه حقيقي وعرفه العالم بعد ذلك باسمه الحركي: «هواري بو مدين».

الاثنان تعاقبا على رئاسة جزائر ما بعد الاستقلال، ربطتهما علاقة خاصة؛ حيث حسم «بو مدين» من موقعه على رأس قوات جيش التحرير الوطني عند دخولها العاصمة سؤال السلطة في يوليو (١٩٦٢) لصالح صديقه القديم قبل أن ينقلب عليه في (١٩) يونيو (١٩٦٥) ويودعه سجنًا طويلًا.

على فراش مرضه العضال، وهو يواجه الموت، كان يذكر اسمه بين غيبوبة وأخرى: «سي أحمد».. كأن وصيته عند النزع الأخير في عام (١٩٧٨) الإفراج عن قائد الثورة وأكبر رموزها ـ حسب روايات متواترة.

ربما تأثرا بتلك الروايات لم يتطرق «بن بيللا» مرة واحدة على مدى أكثر من ثلاثة عقود إلى خلافه مع «بو مدين» وقصة الانقلاب عليه.

باغته الانقلاب، برغم أن كلًّا من «فتحي الديب» و«أحمد سعيد» حاولا تنبيهه.

في المرتين رفض بصورة تكاد تكون مطلقة أن يستمع إلى أي تحذير، ولم يكن له شك في ولاء صديقه ووزير دفاعه.

«الديب» روى قصة الانقلاب في كتابه، بينما «سعيد» لم يُشر إليها في مذكراته؛ حيث كان موضوعها دور «صوت العرب» في سنوات حرب التحرير، لا قصة الثورة كاملة.

حسب ما استمعت إليه، وهو يستعيد وقائع قديمة لم تكن تغادر ذاكرته، فإن مدير مكتب الرئيس «أحمد بن بيللا» طالبه وألح عليه أن يحذره من احتمال انقلاب عسكري يقوده وزير دفاعه، فهو لا يريد أن يستمع من معاونيه المقربين لأي تحذير من هذا النوع.

على مائدة غداء في شرفة «فيللا جولي»؛ حيث سكن الرئيس، جلسا معًا يتناقشان في أمور عامة وخاصة.

فجأة طرح «سعيد» ما لديه من معلومات استقاها من مقربيه.

استنكر «بن بيللا» تواتر الشكوك في «بو مدين».

خبط بيديه على مائدة الطعام محتجًّا فتناثر الحساء فوقها، وجرى ما جرى.

عزف «بن بيللا» عن الكلام تمامًا حتى وافته المنية تاركًا القصة كلها للتاريخ.

(٢)

أشارت معلومات متواترة إلى ضربات فرنسية مفاجئة وعنيفة قد تنال من ثورة الشعب المغربي في الأسبوع الثاني من مارس عام (١٩٥٤).

كان سؤال «عبد الناصر»: «هل يمكن توسيع نطاق المواجهة مع الاحتلال الفرنسي، لتشمل المقاومة النشطة في تونس وتحريك المقاومة الجزائرية الساكنة؟».

كان ذلك قبل حسم الصراع على السلطة في أزمة مارس.

لم يكن قلقًا من النتيجة الأخيرة لصراع السلطة على ما تشي تلك القصة.

جرت دراسات موسعة تولتها المخابرات العامة المصرية الوليدة انتهت إلى اقتراح محدد بالعمل على بناء جبهة موحدة لها ميثاق مشترك ضد المستعمر الفرنسي.

عرض الاقتراح المصري على ثلاثة لاجئين كبار: «علال الفاسي ـ المغرب» و«صالح بن يوسف ـ تونس» و«محمد خيضر ـ الجزائر».

في يوم (٣) إبريل (١٩٥٤) عُقد بمقر الجامعة العربية في مبناها القديم بشارع البستان اجتماع لهذا الهدف، ضم إلى القادة الثلاثة رجل المخابرات المصرية «فتحي الديب» تحت مسمى «مستشار الجامعة العربية المختص»، و«أحمد سعيد» بحكم موقعه في «صوت العرب».

بصورة مفاجئة دخل إلى الاجتماع اثنان من الشبان الجزائريين المجهولين في ذلك الوقت: «مسعود مزياني» و«حسين آيت أحمد».

وكانت المفاجأة الثانية ما أعلنه ممثل «حزب الشعب» في القاهرة «محمد خيضر» أمام الاجتماع: «برغم أن هذين الشابين يعارضان مصالي الحاج رئيس حزبي الذي أمثله هنا، فإن سماعهما أجدى نفعًا من سماعي أنا».

بعد يومين كشف «مزياني» اسمه الحقيقي للسلطات المصرية، وأنه مسئول التنظيم العسكري السري لـ«حزب الشعب».

«تعيش أنت في مزياني مسعود، سجل عندك اسمه الحقيقي أحمد بن بيللا، وهو عضو في جماعة تحضر لثورة في الجزائر».

بتلك الكلمات، التي أطلقها «الديب»، أزيحت كل الأسرار التي أحاطت الشاب الغامض.

كان هناك داخل الجزائر تيار لا يستهان به يرى أن العمل السياسي هو الخيار الوحيد.

شاءت أقدار «بن بيللا» أن يحيا دائمًا في قلب الخطر.

كان هذا اختياره، واختيار جيل جديد من القادة الجزائريين.

لم تقنعهم سياسات الأحزاب التقليدية.

قرروا أن يخرجوا من اللعبة بأسرها، التي كادت تضيع هوية الجزائر العربية والأمل في استقلالها.

انشقوا عن «حزب الشعب» الذي يتزعمه «مصالي الحاج» بحثًا عن طريق جديد بعد أن تاهت الخطى.

كان التسليح أغلبه بنادق صيد إيطالية.

عندما وصل للقاهرة لأول مرة كانت مهمته توفير السلاح والمال رهانًا على ثورة «يوليو» لبناء جيش التحرير الجزائري.

كشف خرائط السلاح المتوافر ومستويات التدريب الأولية وطلبات محددة يطلبها المجاهدون لإطلاق حرب التحرير.

سأل «جمال عبد الناصر» «فتحي الديب»: «إلى أي حد تثق بهذا الشاب؟».

أجابه: «أثق به ثقة تامة؛ فهو من نوعية ثورية في عالمنا العربي لم أقابل مثلها من قبل».

كان التفكير الإستراتيجي المصري في ذلك الوقت المبكر من ثورة «يوليو»، يعمل على «فتح الجبهة الجزائرية في موقع القلب من الشمال الإفريقي لتوجيه ضربة قاضية للاستعمار الفرنسي الذي سيجد قواته مطالبة بمواجهة واسعة على ساحة الشمال الإفريقي كله يرغمه على أن يخفف ثقل قواته على الجناحين الآخرين تونس ومراكش».

من هنا بدأت «صوت العرب» أعظم معاركها.

تقدمت مصر لنصرة قضية الجزائر بكل ما تملك وتقدر عليه من دعم مالي وسياسي وعسكري وإعلامي وفني.

صنع «يوسف شاهين» فيلم «جميلة بو حريد» مجسدًا بطولة المرأة الجزائرية الجديدة، وتبارى الشعراء وكبار الملحنين والمطربين في التغني بالجزائر المقاتلة التي تستحق الاستقلال والحرية، وتحول «صندوق أحمد سعيد» إلى أيقونة الثورة وصوته واصل إلى كل بيوت الصفيح وفوق جبال «الأوراس».

(٤)

من أين نبدأ؟

ـ بم نبدأ؟

ـ ثم كيف نبدأ؟

الأسئلة طرحت نفسها والإجابات اكتسبت جديتها، استنادًا إلى دراسات معمقة في التاريخ الجزائري والشخصية الجزائرية، شئونها وأحوالها «حتى أوشكنا أن نصبح جزائري الهوية» كما كتب في مذكراته.

كل ما هو منسوب للشخصية الجزائرية خضع لنقاش مستفيض شارك فيه أكاديميون مصريون وسياسيون جزائريون حول سماتها الرئيسة:

مثل ـ الانكفاء على الذات توجسًا من الغير.

مثل ـ جرعة الانفعال تقبلًا وسماحة، أو رفضًا وعنفًا.

مثل ـ أهو جفاف ومكابرة، أم إباء وكبرياء؟

مثل ـ أهو اندفاع إلى درجة التهور بالسلب أو الإيجاب، أم هو تردد إلى درجة التوجس والتجمد؟

دراسات «صوت العرب» أثبتت:

أنه ـ أولًا ـ مسلم متجذر في أعماقه.

وأنه ـ ثانيًا ـ عاشق لمصر ولأزهرها وزعمائها وكتابها وفنانيها مثل «يوسف وهبي» و«عماد حمدي» و«فاتن حمامة» و«زينات صدقي» و«إسماعيل يس».

وأنه ـ ثالثًا ـ العروبة عنده لا تنفصل عن الإسلام؛ فهي لغته أيًّا كانت جذوره العرقية.

وأنه ـ رابعًا ـ ينظر إلى فرنسا كرمز كبير للثقافة والحضارة وإبداع الفنون وسوق العمل والرزق مهما تدنى العمل وتضاءل الرزق، لكنه يرفض احتلالها ويلعنه وأحيانًا يقاومه.

وأنه ـ خامسًا ـ يغار من المغرب أكثر مما يغار من تونس، على الرغم من تماثل جذور البلدين بين العربية والأمازيغية.

بدا ذلك عجيبًا والحوار مفتوحًا على مناطق القوة والضعف.

إذا لم يكن هناك إدراك لشخصية من تخاطبه يستحيل أن تؤثر فيه، أو أن تدعوه إلى ثورة.

التركيز الزائد على الغيرة من المغرب استفز كثيرين من قادة الثورة، بينهم «محمد بو ضياف» الأمازيغي الأصل ورئيس الجمهورية فيما بعد، الذي جرى اغتياله بسبب شخصيته المستقلة.

ـ «هذه إهانة للجزائريين».

بصعوبة بالغة اقتنع «بو ضياف» أن الهدف استثارة دوافع الثورة عند الجزائريين، وأنهم قادرون على الثورة فليسوا أقل من المغاربة.

كذلك استخدم على نطاق واسع التراث الجزائري في تمهيد الجو العام للثورة، وتليت أشعار وألفت أغانٍ ومسلسلات إذاعية وبثت نداءات من شيوخ طرق صوفية ترددت في آلاف المساجد وعشرات الآلاف من الزوايا.

تميزت برامج التعبئة بالقصر والوضوح، كأنها طلقة تعرف هدفها وكيف تصل إليه.

لم تزد أي مقتطفات صوتية عن أكثر من نصف دقيقة وتناثرت بين الفقرات بعنوان «كلمة حق».

أُذيعت بكثافة أقوال وأشعار الأب الأكبر للنضال الجزائري في القرن العشرين «عبد الحميد بن باديس».

كقوله: «إن هذا الشعب الجزائري المسلم ليس فرنسيًّا، ولا يمكن أن يكون فرنسيًّا، ولا يريد أن يكون فرنسيًّا، ومن المستحيل أن يكون فرنسيًّا ولو أراد التجنس».

وكشعره: «شعب الجزائر مسلم.. وإلى العروبة ينتسبْ

من قال حاد عن أصله.. أو قال مات فقد كذبْ».

اكتسبت تلك الأقوال والأشعار أهمية إضافية من كونه أمازيغي الأصل.

كانت المسألة «الأمازيغية» معضلة كبرى اعترضت الثورة الجزائرية كعمل جماعي مشترك لكل تنوعات المجتمع.

ساعدت علوم التاريخ والاجتماع والنفس «صوت العرب» في تجاوز تلك المعضلة، التي هددت الثورة في محطات عديدة.

أجريت دراسات في كل الشمال الإفريقي شاملًا بدو سيوة تولاها ثلاثة من كبار المؤرخين المصريين: «د. أحمد عزت عبد الكريم» و«د. عبد الحميد العبادي» و«د. زكي محمد حسن»، بالإضافة إلى «عثمان سعدي»، وهو باحث جزائري حصل على درجة الدكتوراه فيما بعد.

كان الهدف من الدراسات الموسعة الإجابة عن سؤال واحد: كيف تتوحد الجزائر بكل مكوناتها من أجل الاستقلال؟

كانت نصيحة «بو ضياف» التركيز على ما يجمع.

كان دور «حسين آية أحمد»، أحد قادة الثورة الأمازيغي الأصل، رئيسًا في إضفاء إجماع وطني على حركة التحرير المسلحة.

وكان دور «ديدوش مراد»، أحد أبطالها وهو بدوره أمازيغي الأصل، حاسمًا في إحباط فتنة أريد بها ضرب وحدة الجزائر، وهو صاحب شعار: «البربر عرب».

كان من رأي «بن بيللا» في ذلك الوقت المبكر إن: «أغلب الشبان، الذين يفكرون في الكفاح المسلح، من الأمازيغ، ولو أرادوا العمل العسكري في مناطقهم لفعلوا، لكنهم يؤمنون بوحدة التراب الجزائري وأن شعبه مسلم عربي».

«ترددت على أثير صوت العرب إشارات عديدة للنموذج السويسري، وما يعكسه من إمكانية تواجد واستمرار مجتمع في دولة تجمع شعبًا متعدد الأصول بين لاتينية إيطالية ونورماندية فرنسية وجرمانية ألمانية».

أنتجت مسلسلات تاريخية وثائقية راجعت وصححت بقدر ما اجتهدت لضمان وحدة الصف والهدف داخل المجتمع الجزائري، غير أن مسلسلًا بينها أثار أزمة كبيرة مع الأزهر فيما نسبه لـ«عقبة بن نافع» وهو فاتح عظيم وصحابي ـ من تعمد إذلال كبير الأمازيغ «كسيلة»، برغم إسلامه هو وقبيلته دون قتال يذكر.

بأثر الإذلال ارتد «كسيلة» وأنصاره عن الإسلام وقتلوا «عقبة» وجنوده ومثلوا بجثثهم.

أعلن «أحمد سعيد» في وقته بـ«الفم المليان» كما كتب بخط يده: «أن نص الحلقة محل الهجوم تنقصه الصياغة الذكية، وأن إذاعة الحقيقة أيًا كانت مرارتها وحلاوتها تتطلب مهارة حرفية تضمن عرضها كاملة ليتحقق الهدف المطلوب دون أن تفقد غير أقل القليل من المستمعين على مختلف مستوياتهم الإدراكية، وأن رفض البعض لها واحتجاجهم عليها يعنيان أن هناك غيرهم، وربما بالملايين، يرفضها مثلهم.. لا لعيب فينا وإنما لقصور منا في طرحها».

عُرضت الحلقة بعد التعديل على وزير الإعلام في ذلك الوقت «صلاح سالم»، وتصادف تواجد وزير الأوقاف الشيخ «أحمد حسن الباقوري».

«سألني الباقوري: ما أهمية التصدي في عمل إذاعي لحقيقة تصرف أقدم عليه فاتح عظيم؟».

«قلت: أيهما هامشي في هذا الشأن العظيم.. هل هو التغطية التاريخية على خطأ ارتكبه، أو تمت نسبته إليه، أدى إلى ردة في طرفة عين.. أم البوح بالحقيقة لنكسب ثقة من يرون فيها شرفًا لهم، وأي شرف، في أمازيغ الجزائر والشمال الإفريقي من سلالة كسيلة حتى ندعوهم إلى تحمل التضحيات حتى النصر باسم صحيح الإسلام؟».

«كان الباقوري عقلانيًّا متفتحًا، لكنه حذَّر من خطورة بث إذاعي للملايين العربية المختلفة في درجات الإيمان ومستويات المدارك».

واصلت «صوت العرب» الخط نفسه في تأكيد الدمج بين العرب والأمازيغ في تحرير الجزائر، لكن بتحوط من الوقوع في أي مزالق مماثلة.

كان ترشيح «أحمد بن بيللا» لـ«حسين آيت أحمد» للتنسيق بين الثورة المسلحة ووسيلتها الإعلامية الرئيسة «صوت العرب»، داعيًا للبحث في أسبابه.

فهو أبرز القادة الأمازيغ، ووجوده يؤكد التوحد الجزائري.

وهو الأكثر تعليمًا بالقياس إلى رفاقه الذين لم يحظوا بقدر معقول من التعليم لظروف الاحتلال.

وهو «موسوعي الذاكرة، قارئ نهم، متابع للإذاعات الفرنسية» كما وصفه «أحمد سعيد».

(٥)

كان يوم الجمعة الثاني من يوليو في نفس العام (١٩٥٤) أول إطلالة للزعيم الجزائري «أحمد بن بيللا» على أثير «صوت العرب».

«أخ جزائري في حديث من العقل والقلب إلى الضمير والوجدان».

لم يكن أحد يعرف اسم قائد الثورة، التي توشك أن تعلن.

«دم الثوار تعرفه فرنسا.. ونعرف أنه نور وحقُّ

صحت ونحن مختلفون دارًا.. ولكن كلنا في الهم شرقُ».

سبقت تلك المقدمة الغنائية بصوت «محمد عبد الوهاب» وكلمات أمير الشعراء «أحمد شوقي» تقديم «أحمد سعيد» لأول خطاب يلقيه «بن بيللا»، كتب نصه بالفرنسية وشارك في ترجمته إلى العربية أربعة رجال: «محمد خيضر» و«حسين آيت أحمد» و«فتحي الديب» و«أحمد سعيد».

أعيدت كتابته مرة أخرى بحروف لاتينية كبيرة حتى يمكنه قراءتها للجمهور العربي.

"OHADISACOM-MEN-SAWT-ALARAB-MEN-ALKAHIRA-MADINATO-ALAZHAR-ALSHARIF"

«أحدثكم من صوت العرب من القاهرة مدينة الأزهر الشريف».

على ذلك المنوال كتب بقية الخطاب «التاريخي» بكل ما يحمله الوصف من معنى وقيمة، كلحظة إطلاق للثورة الجزائرية.

كانت نهاية الخطاب عميقة وملهمة: «كان الفرنسيون يقولون في أعماقهم دون صوت أيام بطش الاحتلال النازي: فرنسا للفرنسيين.. فليردد كل الجزائريين، ولو بصوت أخرس صباح مساء، كلما رأوا فرنسيًّا جنديًّا أو مستوطنًا: الجزائر للجزائريين».

كرر العبارة نفسها باللغة الفرنسية.

كان قاسيًا على مشاعر «بن بيللا» «أنه لا يستطيع أن يتحدث بلغة بلاده وقرآن دينه».

قطع التسجيل أكثر من مرة لاعنًا «الفرنسة»، التي فرضتها سلطات الاحتلال على بلده ومواطنيه.

في أثناء سنوات سجنه في باريس بعد اختطاف طائرة تقله مع أربع قيادات تاريخية أخرى، علَّم نفسه العربية وأتقنها.

في يوليو (١٩٦٢) ألقى خطابًا آخر عبر «صوت العرب» من الجزائر المستقلة، لكن هذه المرة بلغة عربية متمكنة.

فيما بعد روى «بن بيللا» في حوار صحفي أن أكثر ما أثقل مشاعره أن مترجمًا حضر أول اجتماع مع «أخي جمال عبد الناصر»، لكن «القلوب تكلمت».

كانت مشاعره تتبع أفكاره.

تلك من طبائع شخصيته.

في حوارات القاهرة أبلغ «بن بيللا» السلطات المصرية أن الرصاصة الأولى سوف تطلق في الساعة الواحدة من صباح (٣٠) أكتوبر (١٩٥٤).

بدأت «صوت العرب» استعدادها لهذا اليوم التاريخي بتكتم بالغ طلبه وألح عليه «عبد الناصر».

أعدت مواد إعلامية ووثائقية وتعبوية وأنتجت أناشيد ومسلسلات جديدة ترفع مستوى الوعي العام بحقائق التاريخ وهوية الجزائر، وحقها في طلب الاستقلال.

بدأ البث الإذاعي بتمهيد دون إيضاح يذكر ببطولات التاريخ الجزائري.

كان سر الأسرار جميعها نص بيان مكتوب باللغتين العربية والفرنسية لإذاعتهما فور الحدث الكبير.

«شعرت بالجفاء عندما طالعت البيان من تحجر الصياغات برغم معانيها المتلألئة».

«لم يكن بن بيللا مستعدًّا لتغيير حرف واحد اتفق عليه قادة الثورة».

«قلت: لا تفكير لديَّ ولا أتصور، أو أتوهم إحداث أي تغيير.. وأن كل ما أقترحه إعادة كتابته بنفس معانيه، وبصياغات أبسط وأسرع في تسلسلها إلى الأذهان في الجزائر وغيرها من البلاد العربية».

لم تصل المساجلة بين الرجلين إلى أي اتفاق حتى وجه «محمد خيضر» سؤالًا مباشرًا إلى «محمد بو ضياف»: «الورقتان بخط يدك، فأيهما الأصل.. المكتوب بالعربية، أم المكتوب بالفرنسية؟».

أجابه: «الفرنسية».

ـ «إذن دعوني أترجمه للعربية مرة أخرى».

لم تكن الترجمة وحدها موضوع المساجلة، فقد كانت هناك كلمة جارحة وصفت القوى والتيارات التقليدية بـ«الدنيئة» استقر الرأي على حذفها لتوسيع دائرة الدعم والتأييد للثورة المسلحة عند انطلاقها.

كانت توجيهات «عبد الناصر» إلى «فتحي الديب»، الذي يتولى من موقعه متابعة الملف الجزائري بأدق تفاصيله: «عندما يثبت تنظيم الكفاح المسلح ومن يومه الأول قدرته على العمل الثوري الشامل فإن مصر سوف تلقي بثقلها كاملًا عارفة بمسئوليتها ومتقبلة لتضحياتها».

لكنه بدا متحفظًا على الحماس الزائد، الذي خطط لنحو ثمانين عملية في اليوم الأول: «يكفيني ١٥ أو ١٦ عملية بامتداد الجزائر، وأن تكون ذات دوي في العاصمة حتى تلفت أسماع العالم».

ضمن خطة إطلاق الكفاح المسلح جرى الاتفاق على شفرات في كلمات «أحمد سعيد» تدخل في مهام القتال وتتغير بنظام «مورس».

عندما أزف الوقت المحدد ـ مساء السبت ٣٠ أكتوبر ـ أعلنت حالة الطوارئ في «صوت العرب»، وألغيت الانصرافات الليلية المعتادة بعد انتهاء الإرسال.

لإخفاء السبب الحقيقي جرى التنويه بأن هناك معلومات عن حشود عسكرية فرنسية تتحرك من الجزائر وتونس لإجهاض ثورة الشعب المغربي.

شاءت الظروف أن يكون متواجدًا في الإذاعة في ذات الوقت زعيم حزب الاستقلال المغربي «علال الفاسي»، بما أضفى صدقية كاملة على التنويه.

جاء صباح الأحد وحل نصف النهار دون أن تكون هناك أي أخبار من الجزائر.

جرت اتصالات ومحادثات وتساؤلات: ما الذي حدث؟

كان ذلك مربكًا ومقلقًا في الوقت ذاته.

القلق طال «عبد الناصر»، الذي كان يراهن على ثورة الجزائر في تغيير معادلات المنطقة.

خامره شيء من الشك في جدية الاستعداد، أو ربما أن التفاؤل كان أكثر من اللازم.

«نحن مجبرون» كانت تلك أول إشارة تصل من «بن بيللا» مكتوبة بالفرنسية.

«قال لي فتحي الديب: أخوك الكبير قلق، وبالغ القلق، وسوف أتصل به حالًا لأطمئنه بأن عملية أخته الحاجة اليوم بإذن الله».

لأسباب ميدانية تأجلت العمليات المسلحة، التي شملت أنحاء واسعة من الجزائر، إلى الأول من نوفمبر.

في ذلك اليوم من عام (١٩٥٤) بدأت تتوالى الأخبار من وكالة الأنباء الفرنسية عن «محاولات تخريب، تقدر خسائرها بآلاف الفرنكات».

«اندلعت الشرارة الأولي للكفاح الجزائري، الذي اعتقد الجميع بأنه أمر مستحيل، ليستمر أكثر من سبع سنوات، ناضل خلالها الجزائريون بقوة وجدية ورجولة أكسبتهم احترام الرأي العام العربي والدولي على السواء».

عندما علم «عبد الناصر» أن دوي الانفجارات أرعب قوات الاحتلال الفرنسي تأكد أن الجزائر قد استعادت استقلالها وأكدت هويتها العربية، وأن الباقي تفاصيل.

كان التفكير الإستراتيجي المصري يربط ما بين تطلعات المصريين للاستقلال الوطني في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، وتطلعات العرب للهدف ذاته.

إنها وحدة المصير العربي.

هذه الفكرة ـ بالذات ـ كانت أساس الدور الإقليمي المصري في خمسينيات وستينيات القرن الماضي.

في معركة الجزائر تأكد الدور المصري في عالمه العربي بلا مَنٍّ ولا ادعاء.

القاهرة تابعت أدوارها من الرصاصة الأولى في نوفمبر (١٩٥٤) حتى استقلت الجزائر في يوليو (١٩٦٢) حاضرة في قلب التخطيط السياسي والإعلامي والعسكري شريكًا كاملًا في المعركة.

كانت لشحنات السلاح المصرية، التي هُرِّبت إلى جبال الجزائر عبر البحار أو الحدود الليبية، وتدريب المقاتلين عليها، دور محوري في حسم حرب التحرير.

كان «هواري بو مدين» نفسه أحد الذين تدربوا في القاهرة قبل أن يجرى تهريبه إلى داخل الجزائر على متن يخت مصري يحمل شحنات سلاح.

قوائم السلاح والذخائر تفاصيلها مودعة في وثائق رئاسة الجمهورية.

وقد تضمن كتاب «فتحي الديب» «عبد الناصر وثورة الجزائر» حصرًا كاملًا لشحنات السلاح.

قيمة هذا الكتاب في قدر التوثيق الذي يحتويه من مستندات ومحاضر سرية وصور نادرة لا تتوافر عند غيره.

«صوت العرب من القاهرة

أيها الإخوة في كل مكان
نزف إليكم بدء ثورة تحرير واستقلال الجزائر
إليكم بيان جبهة التحرير الوطني.. اللجنة الثورية للوحدة والعمل
وتمَّ توزيعه اليوم في جميع أنحاء التراب الجزائري».

كانت تلك أعظم دقائق إرسال لـ«صوت العرب»، وأكثرها شهرة وتميزًا وخلودًا تاريخيًّا ـ كما كتب مؤسسها باعتزاز في مذكراته.

أذيعت بيانات دعم وتأييد من زعيم حزب الاستقلال المغربي «علال الفاسي»، والزعيم التونسي «صالح بن يوسف» وكيل الحزب الحر الدستوري و«زكريا محيي الدين»، عضو مجلس قيادة الثورة ومؤسس المخابرات العامة المصرية و«صلاح سالم» عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الإرشاد القومي.

كان ذلك إعلانًا صريحًا بدخول مصر شريكًا كاملًا في العمل الثوري الجزائري تتحمل مسئوليتها ولا تتنصل منها.

«برقت في ذهني فكرة استخدام صوت المتحدث عبر السماعة بديلًا للميكروفون وجرت تجارب حتى تحققت المعجزة ـ بإمكانات التقنيات المحدودة عام ١٩٥٤ قبل الدفعة العملاقة التي شهدتها الإذاعة المصرية مع أوائل ١٩٥٥».

لأول مرة في تاريخ الإذاعة المصرية تحدثتْ مباشرة عبر الهاتف نخبة من كبار الصحفيين مثل «مصطفى أمين» و«حسين فهمي» رئيسي تحرير «الأخبار» و«الجمهورية» والمؤرخين مثل الدكتور «أحمد عزت عبد الكريم» والدكتور «عبد الحميد العبادي»، والفنانين مثل «يوسف وهبي»، والمفكرين مثل «سلامة موسى» من مصر و«عبد الله الريماوي» من الأردن.

كانت تلك التجربة الحرفية ـ بمقاييس زمانها ـ ثورة إعلامية تردد صداها على المقاهي والمنتديات العامة ووصلت إلى كل بيت.

(٦)

ارتكب الاستعمار الفرنسي الاستيطاني ما لا يمكن تخيله من قمع عسكري وحملات اعتقالات ومداهمات وجرائم تعذيب مروعة وحاول أن يضرب بنية الثورة ووحدتها من جديد بسلاح التفرقة العرقية.

كان مقتل «ديدوش مراد» قائد الولاية الثانية في شرق الجزائر إثر كمين بوشاية من عميل عزته وكالة الأنباء الفرنسية إلى صراعات عرقية، تهديدًا خطيرًا لتماسك ووحدة الثوار.

استعانت «صوت العرب» بأستاذ علم النفس الدكتور «عبد العزيز القوصي» للبحث في جزئيات الشخصية بالمجتمعات والبيئات ذات الأعراق المختلفة والإجابة عن سؤال: كيف نجهض الفتنة الجديدة؟

لإحكام الخطاب التوحيدي جرت الاستعانة بالدارسين الجزائريين في جامعتي الأزهر والقاهرة.. كان بينهم «محمد بو خروبة»، الذي سوف يقدر له لعب واحد من أكثر الأدوار جوهرية فيما بعد.

استند الخطاب الإعلامي في «صوت العرب» إلى البحث العلمي بقدر ما هو مستطاع وعلى استقصاء الحقائق بقدر ما هو ممكن.

لم يكن عشوائيًّا بلا رؤية ولا تحريضيًّا بغير علم.

وقد جرت الاستفادة من الدارسين الجزائريين في رفع مستوى صدقية التغطيات الإعلامية، وإضفاء طابع ميداني حي عليها بالمعلومات التفصيلية، التي قد تصلهم من ذويهم، فضلًا عن أوصاف المواقع بمناطقهم السكانية التي تجرى فيها أي مواجهات عسكرية.

كاد «محمد خيضر» أن يعصر ذاكرتهم لبناء تصورات بالغة الدقة لمواقع العمليات، كاسم طريق، أو متجر، أو لافتة على مبنى، أو حتى أكوام مخلفات في المكان، قبل أن يدفع بالمعلومات المحكمة إلى الإستديو.

جرت استبيانات بين الدارسين لسبل مواجهة خطر التفرقة العرقية على مسار الثورة، وفرصها في تحقيق أهدافها.

وفق ما توافر من دراسات واستبيانات خفف «صوت العرب» من لهجته العروبية لخصوصية المكون الأمازيغي وتجذره في بيئته.

«كان مرهقًا لضميري وإيماني القومي أن يتخلى صوت العرب زمانًا طال عن الإشارة المركزة لعروبة الجزائر غير أن مصلحة الثورة فرضت نفسها».

بطلب من قيادة الثورة دأبت «صوت العرب» على ترديد النداء التالي:

«صوت العرب من القاهرة
من ليس بربريًّا ليس جزائريًّا».

يتكرر النداء باللغة الفرنسية ثم بلهجة جزائرية قبل أن يختتم بشعار توحيدي آخر: «أمازيغ.. عرب.. مسلمون.. موحدون».

وسط الفتنة اقترحت قيادات الثورة من الأمازيغ الإعلان عن أنهم موجودون على رأس العمل المسلح.

بَنت الإذاعة المصرية جانبًا كبيرًا من إستراتيجيتها على مخاطبة التكوين العقيدي للجمهور الجزائري تأكيدًا على ما يجمع لا ما يفرق في مواجهة العدو المشترك.

استخدمت تلاوات القرآن الكريم لهذا الهدف النبيل.

بشيء من التوسع والإسهاب خارج الفهم التقليدي المعتاد يشرح «أحمد سعيد» نظرته إلى التلاوة ومدارسها، وأثر كل مدرسة على الوجدان العام:

«النص واحد وطرق الأداء محددة تراثيًّا سلفًا.. واعتماد قراء سور آيات الوحي في الإذاعة لا ترحم من يخرج عليها.. لكن ذلك لا يمنع قارئًا من أن يعطي سامعيه ما في أعماقه من شجن خشوعه تأثرًا بكلام الله».

«شتان بين الإنصات طربًا مع عبد الباسط عبد الصمد والإنصات تفكرًا مع محمود خليل الحصري والإنصات بخشوع يتسلل إلى المستمع طربًا منعشًا للتفكر مع تلاوة محمد رفعت ففي صوته جاذبية ترهف الأسماع والقلوب وفي أدائه ـ برغم الحدود التي يلتزم بها مع غيره ـ كاريزما تستحوذ على المستمع متشوقًا إلى مزيد ووجدان لا يريد له المتلقي انقطاعًا».

الأداء وعلاقته بالمضمون وسلطة النص كان ملمحًا رئيسًا في التجربة الإذاعية في أثناء حرب الجزائر.

كان المناخ العام يشجع على تجويد الأداء إبداعًا وخلقًا بقدر عمق التضامن مع الثورة الجزائرية في الشارع المصري.

في مثل هذا المناخ لحن الموسيقار «محمد فوزي» نشيد «قسمًا بالنازلات الماحقات.. والدماء الزاكيات الطاهرات.. والبنود اللامعات الخافقات.. في الجبال الشامخات الشاهقات.. نحن ثرنا فحياة أو ممات.. وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر.. فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا...».

روى «أحمد سعيد» في مذكراته بشيء من التفصيل الطريقة التي جرى بها إنتاج ذلك العمل، الذي اتخذ نشيدًا وطنيًّا للجزائر المستقلة.

خلال أربع ساعات يوم (١١) فبراير (١٩٥٧) سجل وأذيع.

في ذلك اليوم أعدم الاحتلال الفرنسي (٣٠) جزائريًّا وبدأ في ملاحقة واعتقال مئات المناضلين، وكانت الثورة كلها أمام اختبارات قاسية بعد اختطاف خمسة من قادتها الكبار والصراعات التي تبدت بعده.

تردد النشيد على كل لسان من الطفل إلى الكهل ومن المرأة إلى الرجل، أكثر من أي نشيد آخر أنتجته «صوت العرب».

لم يخفِ «أحمد سعيد» أنه لم يكن مقتنعًا بقدرة «فوزي» على تلحين الأناشيد الثورية، عندما طلب وألح في الطلب أن يساهم، ولو بقدر يسير، في دعم الثورة الجزائرية مثل ملحنين آخرين.

فهو «ملحن أغانٍ خفيفة مثل شحات الغرام، وأقصى ما يستطيعه تلحين أغنية وطنية وصفية».

كان «فوزي» قد تناهى إلى سمعه في أثناء تواجده في ركن من حديقة معهد الموسيقى أصوات كورال بإشراف جزائري لزجل شعبي قبلي، وعرف أنها بروفات لنشيدين لحنهما «علي إسماعيل» و«أحمد شفيق أبو عوف».

استفزه أن يستبعد من تلحين أناشيد مماثلة.

«ذهب إلى صوت العرب غاضبًا ومترجيًا ومستنكرًا في وقت واحد بمشاعر متناقضة».

«هوه أنا مش موسيقار وملحن معتمد بالإذاعة؟».

«أنا لا أشتكي ولا أطلب مقابلًا، وكل ما أريده خدمة إخوتنا الثوار في الجزائر».

«جربني.. أرجوك إديني فرصة».

رد عليه «أحمد سعيد»:

«أجربك يعني إيه؟ أنت واحد من أشهر ملحني ومطربي مصر، وأنا أرفض وضعك تحت التجربة».

«لاحظت دمعتين تتسللان هبوطًا على وجنتيه، وشعرت بخزي من نفسي».

خطف «فوزي» النشيد من يد «سعيد»، الذي كان مشفقًا عليه «من كلماته الناشفة، قرأه بصوت مسموع وعيناه تبرقان بفرحة عفوية شاردة».

ـ «أنا له».

ـ «يعني إيه.. هتلحنه؟».

ـ «أنا لحنته!».

مرة أخرى تصور «سعيد» أن ما يراه أمامه حمق وجنون، فالكلمات التي كتبها الشاعر الجزائري «مفدى زكريا» في سجن «بربروس» داخل الزنزانة رقم (٦٩) يوم (٢٥) فبراير (١٩٥٥) أقل ما يمكن أن توصف به، برغم إيقاعها المتتابع، أن فيها بعض الغلظة في النطق تحول دون ترديدها من الجماهير.

لم يكن مقتنعًا أن كلمات مثل «الزاكيات ـ يُصْغى بضم الياء وسكون الصاد ـ رنة البارود ـ نغمة الرشاش ـ وطويناه ـ أشلائنا ـ هاماتنا ـ واقرءوها»، يمكن أن تجد الصدى المطلوب من كل نشيد.

بعبقرية «فوزي» حدث العكس تمامًا.

بعد ساعة بالضبط عاد بلحنه جاهزًا لدخول الإستديو وقيادة الكورال.

«اللحن برغم عزفه على أوتار العود شدني بعض الشيء.. غير أن رقة وعذوبة صوت فوزي أفسدت عليَّ لحظتها ما بدأت أتخيله للحن بآلات الأناشيد من طبول وآلات نفخ».

«تقبلت حجز إستديو الموسيقى والغناء في مساء نفس اليوم كما طلب مُصرًّا».

«اصطحبت معي للإستديو مستشار الإذاعة للموسيقى والغناء محمد حسن الشجاعي؛ ليكون بعمق خبرته سندًا لي فيما يمكن أن أتخده من قرار؛ قناعة مني أن عذوبة صوته ستفسد اللحن، وفي ذهني أن أدفع مستشار الإذاعة إلى أن يطالب فوزي بإعادة تسجيله بمجموعة أصوات من منشدي الإذاعة، غير أنني فوجئت بأن فوزي نفسه قاد الفرقة الموسيقية، وترك الغناء كاملًا للكورال».

«أدركت لحظتها أنني أمام ملحن يعي الكلمة والهدف منها، واستلهم من إيقاع النظم لحنًا جماهيريًّا ثوريًّا ألهم ملايين الجزائريين».

«سألت الخبير الموسيقي محمد حسن الشجاعي: هل لديك تفسير؟».

«قال: النظم وتفعيله، برغم جفاف وغربة بعض كلماته، أوحى لفوزي بفكرة تبسيطه لحنيًّا، فاختار إيقاعًا سلسًلا لا يتطلب لأدائه أصواتًا متميزة مما جعل حفظه كنشيد سهلًا وسريعًا ومن جميع الناس مهما كانت أصواتهم وإمكاناتها.. وهذه مهمة أي موسيقي عندما يتصدى لتلحين نشيد جماهيري، أو نغم شعبي».

كل اعتراض سجله «أحمد سعيد» له أساس حقيقي، لكنها عبقرية «فوزي» التي منحت النشيد خلوده.

بصياغة «أحمد بن بيللا»: «إن الجزائر لن تتذكر قادة الثورة إلا في عيدي الثورة والاستقلال، أما محمد فوزي فسيعيش بلحنه مع كل إذاعة له في كل يوم» كما أخبر شقيقته «هدى سلطان» لدى استقبالها في القصر الجمهوري.

بعد أن حقق النشيد نجاحًا فاق كل التوقعات «اتصلت بفوزي معربًا عن تقديري، داعيًا إياه إلى تلحين أغنية وطنية تصلح كلماتها لأي شعب يعشق وطنه بكل ما في العشق أحيانًا من آلام فراق وعذابات حرمان».

هكذا خرجت للنور أغنية «بلدي أحببتك يا بلدي»، التي أدت دورًا جوهريًّا في الخطاب الإعلامي إثر الهزيمة المروعة في حرب (١٩٦٧).

(٧)

لم يتطرق «أحمد سعيد» في مذكراته إلى قصة تأميم شركة «مصرفون» عام (١٩٦١)، التي كان يمتلكها «محمد فوزي»، ولا كان من شأنها التطرق إلى ما هو خارج موضوعها المحدد.

كانت «مصر فون» عملًا رائدًا ضرب احتكار الأجانب لصناعة الموسيقى.

لم يكن «فوزي» مقصودًا بذاته، فقد شمل التأميم كل ما تنطبق عليه المواصفات، التي صدرت بها القوانين الاشتراكية.

غير أن هناك قضيتين تستحقان المراجعة طلبًا للحقيقة والإنصاف.

الأولى ـ أن تأميمًا مماثلًا لم يطل مؤسسة شبيهة يمتلكها «محمد عبد الوهاب» و«عبد الحليم حافظ» لم يطلقا عليها صفة «الشركة».

كان يتوجب معاملته بنفس النظرة بغض النظر عن التوصيفات.

هذه هي العدالة.

والثانية ـ أن الطريقة التي عومل بها بدت خشنة، فيما أسندت إليه من أدوار في الشركة المؤممة، التي باتت تعرف بشركة «صوت القاهرة للصوتيات والمرئيات».

بالمعايير الفنية فتلك نظرة قصرت عن إدراك قيمة وخبرة الموسيقار الراحل.

عندما أصيب بمرض نادر لم يكن متاحًا وقتها تشخيصه توفيَ على أثره نُسب ذلك المرض دون دليل طبي إلى حالته النفسية التي تدهورت.

أسوأ ما قيل ـ دون نسبة حرف واحد إليه ـ أن شركته أُممت كنوع من الانتقام لرفضه الغناء لـ«جمال عبد الناصر».

بشهادة «أحمد سعيد»، التي سجلت مشاعر «فوزي» تجاه ثورة الجزائر، التي كانت واحدة من أهم معارك «عبد الناصر»، فإنه يمكن أن نعزو ذلك إلى أي شيء آخر غير أن يكون موقفًا من «يوليو».

برغم أن الدولة تكفلت بعلاجه على نفقتها ومشى في جنازته وزير الإعلام «عبد القادر حاتم» نائبًا عن الرئيس «جمال عبد الناصر» ووزير الصناعة الدكتور «عزيز صدقي»، فإن واقعة تأميم شركته استخدمت للنيل من ثورة «يوليو».

باليقين فإن هذه الواقعة بالطريقة التي جرت بها والأجواء التي أحاطتها تدخل فيما يمكن أن نطلق عليه «سوء التقدير الفادح»، لما يصح أو لا يصح في أي حالات تتعلق بالفن وخصوصيته.. لا أكثر من ذلك.

(٨)

كان اختطاف طائرة تقل على متنها خمسة من قادة الثورة الجزائرية يوم (٢٠) أكتوبر (١٩٥٦) في أثناء رحلتها من المغرب إلى تونس حدثًا مزلزلًا أفضى إلى انخفاض كبير في الروح المعنوية.

بضربة واحدة اعتقلت سلطات الاحتلال الفرنسي «أحمد بن بيللا» و«محمد بو ضياف» و«حسين آيت أحمد» و«محمد خيضر» و«رابح بيطاط».

تسربت معلومات عن الرحلة إلى السلطات الفرنسية عبر شخصيات في قصور الحكم.

وكان التسريب مدفوع الثمن.

قبل أربعة أيام أعلنت نفس السلطات أن أسطولها في البحر المتوسط ضبط السفينة المصرية «آتوس» محملة بأسلحة وذخائر قبل أن تصل إلى ميناء سري في الجزائر.

بنص مكتوب من «جمال عبد الناصر»: «تكليف صوت العرب تبنى حملة دعائية قوية لتأكيد استمرارية الثورة، والعمل بكل الوسائل للحفاظ على الروح المعنوية للمكافحين الجزائريين».

كان ذلك تحديًا إعلاميًّا قاسيًا.

«الجزائر ليست هؤلاء القادة، بل هي ملايين تجاهد وتصابر وتعرف كيف تحررهم إن لم تقتلهم فرنسا اليوم».

كانت تلك رؤية ارتكز عليها الخطاب الإعلامي في مواجهة أخطر انعطافات الثورة الجزائرية.

«باسم الأحرار الخمسة.. ح ناخد بالتار يا فرنسا».

أنتج ذلك النشيد تأليفًا وتلحينًا وتسجيلًا في (٤٥) دقيقة.

بدأت المساندة تأخذ مداها بأصوات شخصيات لها وزن واعتبار كبيران في العالم العربي عبر تقنية «الهاتف»، من بينها الدكتور «طه حسين» عميد الأدب العربي و«ميشيل عفلق»، مؤسس حزب البعث، و«محمد عبد الوهاب» موسيقار الأجيال.

«من عجب إعلام التثوير أن يجد صوت العرب لزامًا عليه في مراحل كثيرة ولأسباب بعضها شاذ غريب متناقض مع كل منطق أن يوحي لجماهير الشعب المجاهدة بتجميد قتالهم أزمانًا وإظهار اليأس أحيانًا نجاه من القبضة الاستعمارية وتفاقم جرائمها التي وصلت إلى حرق الغابات بقراها وأهلها واستخدام الذخيرة الحية المحرمة دوليًّا والتقتيل العشوائي والتمثيل بالجثث وإحاطة حدود آلاف القرى والأحياء بأسلاك مكهربة تصعق وتقتل».

جرت تهدئة إعلامية مقصودة مع الرئيس «الحبيب بو رقيبة»، برغم اختلاف المناهج والصراعات المفتوحة، لمصلحة الثورة الجزائرية؛ حتى يمكن أن تحفظ عمقها التونسي.

وجاء اغتيال «عبان رمضان» ليربك صفوف الثورة ويوسع شقة الصراع بين قياداتها، برغم تحسن الوضع الميداني نسبيًّا وتوالي انتصارات المجاهدين الجزائريين.

لم يكن قائدًا عسكريًّا عاديًّا ومكانته الأمازيغية دعته بالطموح إلى طلب إسناد قيادة الثورة إليه بعد اختطاف القادة الخمسة.

ترددت شائعات أن وراء حادث الاغتيال قائدًا آخر صلاته قوية مع القاهرة هو «كريم بلقاسم».

لمرة جديدة بدأت «صوت العرب» حملة موجهة إلى نخب منطقة القبائل لتأمين وحدة الثورة على قاعدة الدين المشترك والتحذير من أخطار الانشقاق على الكل الجزائري.

ثم أطل على المشهد انقسام أخطر بصفوف الثوار في أعقاب تشكيل الحكومة المؤقتة ـ سبتمبر (١٩٥٨).

انقسمت القيادة بين من أطلق عليهم السياسيون، ومن وصفوا بالعسكريين.

وبدأت فرنسا تحاول توظيف ذلك الانقسام بمجموعة اقتراحات تعمل على تفريغ الاستقلال من محتواه.

بعد الإفراج عن القادة الخمسة (إبريل ١٩٦٢) استقبلوا في القاهرة بحرارة، ووقف الناس في الشوارع حتى يروا قادة الثورة.

ذهب «صلاح جاهين» لرؤية «بن بيللا» والسلام عليه.

عندما عاد إلى مؤسسة «روز اليوسف» دار حول نفسه أمام زملائه مرتين أو ثلاثًا، وهو يتأمل يديه اللتيْن سلمتا على «بن بيللا» كما روى ذات مرة الكاتب الصحفي «منير عامر».

ذلك الاستقبال الحافل حدث أيضًا في بورسعيد المدينة التي توصف بـ«الباسلة» ويطلق اسمها على واحد من أهم ميادين الجزائر.

في نهاية المطاف انتصرت الثورة ونالت الجزائر استقلالها وحريتها وأمسك «أحمد بن بيللا» بمقاليد السلطة.

وقفت القاهرة معه بكل طاقاتها حتى يكون الاستقلال كاملًا.

(٩)

«الحمد لله الذي أعطانا هذه الفرصة لنرى الأماني وقد تحققت.. الحمد الله فقد كنا نحلم بالجزائر العربية وقد رأينا اليوم الجزائر العربية».

بتلك الكلمات ابتدأ «جمال عبد الناصر» خطابًا مقتضبًا ألقاه في العاصمة الجزائرية يوم (٤) مايو (١٩٦٣).

لم يَمن على الثورة الجزائرية بحرف واحد، ولا بإشارة عابرة.

لا قال إننا أمددنا الجزائر بالسلاح، ولا ناصرناها بالمال، ولا أن فرنسا شاركت في حرب السويس للانتقام من دورنا في نصرة ثورتها.

قال نصًّا: «جمال عبد الناصر لم يفعل أي شيء لشعب الجزائر».

لم يكن ذلك صحيحًا على أي وجه، لكنه خاطب الكبرياء الجزائرية.

كانت الجزائر تعرف الحقيقة وتقدرها، ولم تكن في حاجة إلى من يذكرها.

أشار في خطابه المقتضب إلى المعنى القومي الكبير لاستقلال الجزائر، وركز أغلبه على القضية الفلسطينية.

في الكلام إدراك عميق لطبيعة الشخصية الجزائرية، التي تنفر من المن عليها.

في ذلك اليوم الاستثنائي زحف مليون جزائري من أنحاء البلاد إلى العاصمة لرؤيته، افترشوا الطرقات العامة وناموا فوقها بالقرب من الميناء، ملايين أخرى سدت الطرق وكادت تحطم السيارة التي كان يستقلها مع الرئيس «أحمد بن بيللا»، فاضطرا لأن يصعدا إلى أعلى عربة مطافئ مضت بين الجموع الحاشدة.

ضارع المشهد الجزائري ما حدث في دمشق عند زيارة «عبد الناصر» لها لأول مرة وهو رئيسها.

كان الانفصال قد وقع لكن المشروع ظل ملهمًا.

كان الجرح لا يزال غائرًا لحظة تحرير الجزائر لكنه تبدى حلمًا جديدًا.

المعنى أكبر من الرجل والحلم ـ حتى لو انكسر ـ أبقى في ذاكرة التاريخ.

الشرائط المسجلة متاحة لمن يريد أن يتأمل كيف حلمنا ذات يوم قبل أن نسقط في بئر بلا قرار.

المشهد التاريخي يقرأ في سياق تحدياته ومعاركه وعصره، وقد كان عصر التحرر الوطني.

في وقت مقارب تحررت القارة الإفريقية من ربقة الاستعمار.

كان دور القاهرة محوريًّا في قيادة القارة.

وكان تأثيرها نافذًا في آسيا وأمريكا اللاتينية.

لهذا السبب ـ بالذات ـ جرى الترصد للمشروع الناصري والعمل على اصطياده بالتآمر من بين ثغرات نظامه، أو باستخدام القوة المسلحة.

في أيام الهزيمة نهضت الجزائر للوقوف بجانب مصر.

ذهب الرئيس الجزائري «هواري بو مدين» إلى موسكو، وتفاوض على شحنات أسلحة عاجلة، عرض دفع ثمنها فورًا لكن «ليونيد بريجنيف» الرجل القوي في الكرملين كان له تقدير آخر، أن هناك التزامات على الاتحاد السوفيتي تجاه مصر.

ثم قاتل لواء جزائري مع الجيش المصري في حرب أكتوبر (١٩٧٣).

اختلف الرجلان الكبيران «أحمد بن بيللا» و«هواري بو مدين» في قضية السلطة، لكنهما كانا يدركان كل بطريقته معنى «وحدة المصير العربي».

في أثناء فتنة مباراة كرة القدم بين مصر والجزائر (٢٠٠٩) سألت مؤسس «صوت العرب» أن يكتب، فدوره مقدر وصوته مسموع في الجزائر.

قال: «أريد أن أعرف موقفك».

ـ «أنا قومي عربي».

برغم ما يربطنا من اتصال حوار ومودة حتى نهاية حياته، فإن الأجواء العامة دعته إلى ذلك السؤال.

كان كل شيء هستيريًّا وأغلب ما يُكتب على ورق أو يبث في فضاء عارًا حقيقيًّا.

في لحظات الفتنة وجد نفسه أمام سؤال سياسي وإنساني عما إذا كانت الذاكرة قد مُحيت.

كتب مقالًا في «العربي» وضعت له العنوان التالي: «رسالة إلى صديقي بو تفليقة».

قال معاتبًا: «ليس صديقي، أنا صديق أحمد بن بيللا»، الذي كان لا يزال على قيد الحياة.

الرئيس الأول لا الرئيس الحالي.

خطر لي أن «بن بيللا» يمكن أن يساعد على إطفاء نيران الكراهية، التي أخذت مداها بين بلدين عربيين شقيقين، مظاهرات في الجزائر تحرق العلم المصري وتروع مصريين يعملون هناك.. ومظاهرات في القاهرة تحاصر السفارة الجزائرية وتشتبك مع قوات الأمن وتروع جزائريين يعملون هنا.

كان الشحن الإعلامي والسياسي على الجانبين قد وصل إلى التنابز بالأوطان واختلاق الوقائع والقصص المحرضة على القتل.

بدا أن الهدف إخفاء فشل النظامين تحت غبار مباراة كرة قدم.

حاول «أحمد سعيد» أن يرتب حوارًا مطولًا بالهاتف مع قائد الثورة الجزائرية.

سأل أصدقاء مشتركون في جنيف: «أين هو الآن.. في سويسرا، أم في الجزائر؟».

لم تكن هناك معلومات دقيقة حتى يمكن إجراء الاتصال.

دخلت على الخط السيدة «زهرة» حرم الرئيس الجزائري الأسبق بطلب من صديقتها حرم الوزير «فتحي الديب»، وأبدت حماسًا للفكرة.

كان من رأي «محمد حسنين هيكل»: «لا تحرج الرئيس أحمد»؛ فالمناخ العام مسموم وكل كلمة قد تؤول على عكس مقصدها.

بدا هذا الرأي مقنعًا بمنطقه وظروفه.

وقد التقيت الزعيم الجزائري مرتين؛ إحداهما على باخرة نيلية ضمت شخصيات عامة وإعلامية بينهم نائب رئيس الجمهورية الأسبق «حسين الشافعي» والسيدة حرمه بدعوة من مدير مكتب محطة «الجزيرة» في ذلك الوقت «حسين عبد الغني».

راجعت معه ما نشره صحفي فرنسي عن قصة زواجه من السيدة «زهرة»، التي جلست تتابع الحديث وعلى وجهها ابتسامة حنين إلى تلك الأيام قائلة مرة بعد أخرى: «هل تتذكر يا أحمد؟».

في أيام السجن الطويل بأحد معسكرات الجيش فكرت والدته أن تزوجه، أخذت تعرض عليه صورًا مقترحة بينها صورة استوقفته لصحفية يسارية عارضته على صفحات مجلة «الثورة الإفريقية» التي تصدر بالفرنسية.

قال: «لن توافق، إنها تكرهني يا أمي».

ردت الأم بثقة: «إنها مستعدة أن تأتي لتعيش معك هنا بعد أن سمحت السلطات بزواجك».

رفيقة عمره «زهرة» عارضته رئيسًا وقررت بمحض إرادتها الحرة أن تعيش معه سجينًا.

وكانت المرة الثانية في حفل لتكريمه بفندق يطل على نيل القاهرة حضرته الدكتورة «هدى عبد الناصر» والفنانان «عادل إمام» و«محمد صبحي» وشخصيات سياسية وإعلامية.

في ذلك الحفل قال سفير الجزائر وقتها «عبد القادر حجار»، الذي تولى في إحدى محطات حياته الإشراف على التعريب في بلاده: «لا أحد يعرف مشاعري وأنا أقف الآن لأتحدث أمام زعيمي ورئيسي».

أي قراءة مسطحة لعمق التفاعلات والتعقيدات في بنية المجتمع الجزائري تفضي بالضرورة إلى عجز كامل عن أي فهم.

خلف انسحاب الدور المصري من عالمه العربي بعد توقيع اتفاقيتي «كامب ديفيد» نتائج بالغة السلبية من بينها أننا فقدنا جلال الدور دون أن نكف عن مطالبة الآخرين بأن يعاملونا كما لو مازلنا على مقود القيادة.

حدثت تجاوزات في لغة الخطاب السياسي والإعلامي إلى حد التنصل من العرب والعروبة، كأن يُقال إننا لسنا عربًا، أو أن علينا أن ننعزل عن هؤلاء الذين لا يعترفون بقيادتنا.

هذا الكلام أضر ولم ينفع، فالكبير بتصرفاته، والكبير بمواقفه ـ كما كان الحال في زمن «صندوق أحمد سعيد».

الفصل السادس: أزمة المثقفين

«سنرحل حالًا، سنرحل إلى بعيد بعيد إلى حيث لا ينالك ولا ينالني أحد».

«أعرف أنك تفضل اللون الكحلي.. ها هو البنطلون إذن.. ها هي السترة.. بالتأكيد ربطة العنق المحمرة فأنا أعرف طبعك.. لست بالغ الأناقة، نعم. ولكنك ترتدي دائمًا ما يجب، ما يليق».

«أنت لا تعرف أنني أحب شعرك.. خفيف هو متناثر».. «بيدي سأمشطه.. بعدها وبالفرشاة أسوي شاربك.. حتى هذا النوع من الشوارب أحبه».

«هكذا رأيتك مئات المرات تفعل، وهكذا أحببت كل ما تفعل».

بشيء أقرب إلى المناجاة والتوحد مع شخص لا يقول من هو يأخذه في رحلة عبر سيارة تمضي بلا عودة.

بإيقاع متدفق تستبين رائحة الموت في السيارة قبل أن يُفصح الراوي بنوع من التورية عمن يقصد، إنه الرئيس «جمال عبد الناصر».

«وداعًا يا سيدي، يا ذا الأنف الطويل.. وداعًا».

تبدو قصة «الرحلة» لـ«يوسف إدريس»، التي نشرتها صحيفة «الأهرام» في يونيو (١٩٧٠)، نبوءة غير قابلة للتصديق؛ حيث توقع رحيل «عبد الناصر» قبل موعده بثلاثة أشهر ـ كأنه يقرأ من كتاب مفتوح.

«لماذا كنا نختلف؟ لماذا كنت تصر وتلح على أن أتنازل عن رأيي وأقبل رأيك؟ لماذا كنت دائمًا أتمرد؟ لماذا كرهتك في أحيان؟ لماذا تمنيت في لحظات أن تموت لأتحرر؟ مستحيل أن أكون نفس الشخص الآن الذي يدرك أنه حر، الحرية الكاملة بوجودك معه، إلى جواره، موافقًا على كل ما يفعل».

«تصور يريدونك أنت الحي جثة يدفنونها.. مستحيل، يقتلونني قبل أن يأخذوك، ففي أخذك موتي، في اختفائك نهايتي، وأنا أكره النهاية كما تعلم.. أكرهها أكرهها».

«يكفي أنك معي.. أنت أنا.. أنت تاريخي وأنا مجرد حاضرك.. والمستقبل كله لنا.. مستحيل أن أدعهم يأخذونك، يميتونك، يقتلونك».

لم يكن «يوسف إدريس» على صلة وثيقة بمجريات الأمور خلف كواليس الحكم حتى يتسنى له أن يعرف مدى خطورة ما يتعرض له الرئيس من مصاعب صحية، أو أنه أصيب بأزمة قلبية أولى في أثناء حرب الاستنزاف إثر إغارة إسرائيلية على منطقة «الزعفرانة»، تمكنت من الوصول إلى رادارات حديثة وقتل خلالها خمسة جنود وبعض المدنيين المصريين، أو أنه يعاني من آلام في العظام استدعت علاجه في «تسخالطوبو» الروسية.

إنه إلهام الأدب وروح التراجيديا التي تتوقع شيئًا ما غامضًا يحدث فجأة والتوحد مع بطله.

بالتكوين السياسي لم يكن «يوسف إدريس» ناصريًّا.

وبالتجربة الإنسانية فقد عارضه ودخل سجونه قبل أن يعاود النظر في تجربته ويدافع عنها بعد أن انقضى زمنه.

نصه القصصي يكشف مكنونات نفسه وما يخالجها من مشاعر متناقضة.

ها هو يعترف بأنه تمنى أن يموت حتى يتحرر ويجاهر بأنه كان يكرهه، فإذا به قرب ما استشعر أنها النهاية يتوحد معه ويعلن استعداده للقتال حتى لا يصلوا إليه.

لم يكن «يوسف إدريس» وحده الذي انتابته تلك التحولات الحادة في المشاعر من الكراهية المقيتة إلى المحبة الغامرة.

«سيظلّ ذو الوجهِ الكئيبِ وأنفُه ونيوبُه
وخطاه تنقر في حوائطنا الخراب
إلَّا إذا
إلَّا إذا مات
سيموت ذو الوجه الكئيب
سيموت مختنقًا بما يلقيه من عفنٍ على وجهِ السماء
في ذلك اليوم الحبيب
ومدينتي معقودة الزنار مبصرة سترقص في الضياء
في موت ذي الوجه الكئيب».

كانت تلك كراهية لا حدود لها عبّر عنها الشاعر «صلاح عبد الصبور» في أعقاب أزمة مارس (١٩٥٤).

نُشرت ـ لأول مرة ـ ضمن ديوانه «الناس في بلادي» عام (١٩٥٧).

حتى يتجنب أي مساءلة قانونية، أو سياسية، تنال من حريته أهدى قصيدته الهجائية إلى «الاستعمار وأعوان الاستعمار».

إنه مثقف أخذ موقفًا ـ في وقته وحينه ـ من أزمة عاصفة غيّرت معادلات الحكم وعبّر عنه في قصيدة تحمل مسئولية نشرها.

غير أن اختبار الزمن غيّر موقفه من نقيض إلى نقيض بعدما رحل الرجل الذي تمنى موته بعد ستة عشر عامًا، ولم يعد يملك لأحد نفعًا أو ضرًّا.

«هل مت؟ لا، بل عدت حين تجمع الشعب الكسير
وراء نعشك
إذ صاح بالإلهام:
مصر تعيش.. مصر تعيش..
أنت إذن تعيش، فأنت بعض من ثراها
بل قبضة منه تعود إليه، تعطيه ويعطيها ارتعاشتها
وخفق الروح يسري في بقايا تربها، وذِما دماها
مصر الولود نمتك، ثم رعتك، ثم استخلفتك على ذراها
ثم اصطفتك لحضنها،
لتصير أغنية ترفرف في سماها».

كان هو نفس الرجل الذي تمنى موته قبل ستة عشر عامًا.

عندما مات فعلًا كاد الشاعر ألا يصدق:

«هل مات من وهب الحياة حياته».

بكاه بحرقة في قصيدته «الحلم والأغنية»، فهو حلم للفقراء والمعذبين وهو أغنيتهم:

«كان الملاذ لهم من الليل البهيم
وكان تعويذ السقيم
وكان حلم مضاجع المرضى، وأغنية المسافر في الظلام»
«وكان من يحلو بذكر فعاله في كل ليلة
للمرهقين النائمين بنصف ثوب، نصف بطن
سمر المودة والتغني والتمني والكلام».
«وكان مجيئه وعدًا من الآجال،
لا يوفي لمصر ألف عام».
«كأن مصر الأم كانت قد غفت
كي تستعيد شبابها ورؤى صباها
وكأنها كانت قد احترقت..
لتطهر ثم تولد من جديد في اللهيب

وخرجت أنت شرارة التاريخ من أحشائها
لتعود تشعل كل شيء من لظاها».
كيف حدث ذلك؟
ولماذا كانت تلك التحولات الحادة في المشاعر والمواقف؟

بأي نظر موضوعي فإن الفارق هو حجم الإنجاز الاجتماعي الذي تحقق بين عامي (١٩٥٤) و(١٩٧٠)، وحجم ما حلق في الأفق العام من آمال وأحلام لامست عمق اعتقاد جيل الأربعينيات الذي ينتسب إليه «يوسف إدريس» و«صلاح عبد الصبور».

برغم الهزيمة العسكرية في (١٩٦٧) بقيت الأحلام تراود نفس الجيل، برغم انكسارها.

(١)

لم يجرِ انقلابِ المشاعر والمواقف بالوتيرة نفسها في حالة «أحمد فؤاد نجم».

أخذ وقتًا طويلًا حتى يراجع نفسه ويفاجئ قراءه بما كتب.

هو شاعر عامية متمرد و«فاجومي» يقول ما يعتقد فيه ويدفع ثمنه.

بالأيام الأولى لهزيمة (١٩٦٧) هجا «يوليو»، وأطلق على «عبد الناصر» اسم «عبد الجبار» في قصيدة لحنها الشيخ «إمام عيسى»، وذاعت في أوساط الحركة الطلابية مطلع سبعينيات القرن الماضي:

«الحمد لله خبطنا
تحت بطاطنا
يا محلا رجعة ظباطنا
من خط النار».
«وكفاية أسيادنا البعدا
عايشين سعدا
بفضل ناس تملا المعدة
وتقول أشعار
أشعار تمجد وتماين
حتى الخاين
وإن شا الله يخربها مداين
عبد الجبار».

لم تكن مشكلة القصيدة فيما تضمنته من نقد لنظام «يوليو» و«عبد الناصر»، حتى لو كان جارحًا.

كانت مشكلتها مطلعها، الذي نال من جيش جريح، لا ذنب لضباطه وجنوده في الهزيمة التي جرت، فيما هو يعود مرة أخرى لميادين القتال بعد أيام من الهزيمة في معركة «رأس العش».

«نجم» نفسه هجر إنشادها في أي محافل عامة كان يدعى إليها لإلقاء أشعاره.

في أوائل القرن الجديد أسندت إليه إحدى الفضائيات الخاصة تقديم برنامج تلفزيوني عن شخصيات مصرية، فاختار «جمال عبد الناصر» عنوانًا أول.

شاركت في تلك الحلقة بجوار الممثلة القديرة «فردوس عبد الحميد»، والملحن المعروف «فاروق الشرنوبي»، الذي حمل عوده معه مستعيدًا بصوته أغاني ثورة «يوليو» من حين لآخر.

وصفت «صلاح جاهين»، ومعظم ما غُنِّيَ من شعره، بـ«شاعر الشعب».

اعترض مقاطعًا: «أنا شاعر الشعب».

لديه أحقية في أن يصف شعره منسوبًا إلى شعبه؛ فهو من أكثر الشعراء التزامًا بما يؤمن به وتعرضًا لتجربة السجن.

قلت: «لكن شاعر الشعب لا يقول: الحمد لله خبطنا تحت بطاطنا.. يا محلا رجعة ظباطنا من خط النار.. والبلد يعلن المقاومة ويتأهب لرد العدوان عليه».

صمت ولم يرد على عكس شخصيته الفاجومية.

كان يعرف، ربما أكثر من غيره، أن للكلام منطقه، يفهمه ويمس عمقه الوطني الذي لا شك فيه.

بعد سنوات طويلة من رحيل الرجل الذي عارضه وهجاه في حياته كتب منتصف الثمانينيات قصيدة دوت في مصر والعالم العربي.

أنشد على غير توقع وانتظار، وبلا مقدمات معلنة:

«من دا اللي نايم وساكت
والسكات مسموع
سيدنا الحسين؟
ولا صلاح الدين ولا النبي
ولا الإمام؟
دستور يا حراس المقام ولا الكلام بالشكل دا ممنوع؟»
«وإحنا نبينا كده

من ضلعنا نابت
لا من سماهم وقع
ولا من مرا شابت
ولا انخسف له القمر
ولا النجوم غابت»
«عمل حاجات معجزة وحاجات كتير خابت
وعاش ومات وسطنا
على طبعنا ثابت
وإن كان جرح قلبنا كل الجراح طابت
ولا يطولوه العدا
مهما الأمور
جابت».

يكاد البيت الأخير أن يلامس جوهر قصة «يوسف إدريس».

نفس النظرة إلى «عبد الناصر»، يختلف معه لكنه يرفض أن يتمكن الأعداء منه «مهما الأمور جابت»، وهو حي أو ميت.

لا شيء صادقًا يولد فجأة.

«نجم» عارض وهجا من قلبه، راجع بلا ضجيج نفسه مع نفسه.

ربما استشعر حرجًا أن يناقض شعره بعضه الآخر.

حسم أمره بقوة مشاعره متأثرًا بالتجربة الدمشقية؛ حيث شاهد وعاين قيمة مصر التي يعشقها في عيون أهل الشام.

هناك شاعران عاميان آخران لهما أوفر الأثر في الوجدان العام توصلا إلى الاستنتاج نفسه، لكن في وقت مبكر هما «فؤاد حداد» و«عبد الرحمن الأبنودي».

الأول ـ يطلق عليه «أبو الشعراء» ويسلم بريادته الفنية، التي لا تضارع، كل من أمسك قلمًا ليكتب شعرًا عاميًّا، أدخل سجون «عبد الناصر» في الستينيات، لكنه انتسب إلى أحلامه وأنشد فور رحيله ديوانًا كاملًا من جزأين.

«فين طلتك في الدقايق تسبق المواعيد»
«آدي المدارس ودي الشوارع ودي العمال
والفلاحين الأحبَّة أمّتك يا جمال».
«مين اللي كبر مقامك في قلوب الناس
إلا مقامهم في قلبك».

في ذلك الديوان لم يُشر إلى تجربته في السجن، ولا بدا أن لها أي ظلال على شعره، أو نظرته إلى «يوليو».

كما لم ينتقد أي أخطاء حدثت في التجربة.

بدا العمل كله ملحميًّا يذهب إلى عمق المعاني والقيم الأساسية التي تستولى على فكره، والأحلام التي تقطن قلبه.

والثاني - شاعر مجيد في بنائه لقصائده.

«مش ناصري ولا كنت ف يوم
بالذات في زمنه وف حينه
لكن العفن وفساد القوم
نساني حتى زنازينه في سجون عبد الناصر».

كان ذلك مقطعًا من «تناتيش» كتبها قبل أن يغادر الدنيا، وبعد أن مرت عقود طويلة على وفاة «عبد الناصر».

وهو يستشعر قرب الرحيل قال: «بنيت مقبرتي وقلت كلمتي.. يعيش جمال عبد الناصر».

موضوعيًّا يظل السؤال مطروحًا: لماذا؟

إحدى الإجابات التي لا يمكن نفيها أن هناك شيئًا حقيقيًّا استدعى مثل هذه المراجعات وولَّد مثل هذه المشاعر وأبقى عليها لعقود توالت.

هذا موضوع تأمل وبحث لا إنكار وتجاهل.

في نفس المشهد المعبأ بالمشاعر والتحولات صمت شاعر عامية رابع، متمرد وجامح وموهبته استثنائية هو «نجيب سرور».

لم يخفِ مراراته من الثورة، لكنه امتنع عن كتابة أي مذكرات تسيء إليها، أو تستخدم في طعنها.

قرب منتصف السبعينيات كنت مازلت طالبًا أدرس الصحافة في كلية الإعلام بجامعة القاهرة، عندما جلست إليه بصحبة أحد أقرب تلاميذه المخرج المسرحي «إيمان الصيرفي» على مقهى «ريش».

استمع بإنصات إلى ما كنت أقوله حول الحركة الطلابية.

أبدى اهتمامًا بما يسمع، وأخذ يسأل ويستقصي ما كان يشغله من أخبارها.

قال «الصيرفي» فجأة: «لكنه ناصري».

أراد أن يشاغب أستاذه، الذي دأب على انتقاد «عبد الناصر» بضراوة في جلساته، ويهاجمه هو نفسه لانحيازه إليه.

لم يثر «نجيب سرور»، ولا فقد أعصابه ـ كما توقع «الصيرفي».
بكل ثبات انفعالي يناقض طبيعة شخصيته قال:
«برغم كل غضبي على عصره لا أسمح لنفسي بأن أكون خنجرًا يطعن به».
كانت الحملة على «عبد الناصر» في ذروتها.
هناك من تصور أنه من الممكن إغواء الشاعر الكبير بأموال فوق تصوره؛ لكتابة مذكرات تنشر في صحف أنشئت بالعاصمة البريطانية خصيصًا لهدم «يوليو».
رفض بإباء، رجل يحترم نفسه وأفكاره برغم كل دواعي غضبه فـ«ليس هناك أسوأ من يساري خائن».
لم يكن مستعدًّا أن تسند إليه تهمة بيع تجربته في مزاد حملة على رجل يعارضه.

(٢)

لم يمضِ التحول في المشاعر والمواقف في اتجاه واحد ـ يراجع، أو يصمت.
أخذ التحول ـ أحيانًا ـ اتجاهًا عكسيًّا، كما حالة «أحمد عبد المعطي حجازي» شاعر الثورة الأبرز في سنوات صعودها وأول من أنكرها بعد أن انقضت أيامها.
كانت قصيدته «الرحلة ابتدأت» واحدة من أفضل ما كتبه هو، وما كتبه أنداده من الشعراء الكبار المصريين والعرب في رثاء «عبد الناصر»:
«من يا حبيبي جاء بعد الموعد المضروب للعشاق فينا
الفجر عاد، ولم أزل سهران أستجلي وجوه العابرينا
فأراك! لكن بعدما اشتعل المشيب وغضَّن الدهر الجبينا
لا تبتئس أنا تأخرنا!
فبعد اليوم لن يصلوا لنا ليفرقونا!».
لم تمضِ سنوات قليلة حتى انقلب شاعر الثورة عليها، وأعلن فراقه الأخير عن أميره.
«هذه آخر الأرض!
لم يبقَ إلا الفراق
زمن الغزوات مضى، والرفاق
ذهبوا، ورجعنا يتامى
هل سوى زهرتين أضمهما فوق قبرك،
ثم أمزق عن قدمي الوثاق
إنني قد تبعتك من أول الحلمِ

... من أول اليأس حتى نهايته،
ووفيت الذماما..»
«لا، لست أبكي على الملك،
لكن على عمر ضائع لم يكن غير وهم جميل
فوداعا هنا يا أميري!».

لم يكن «أحمد عبد المعطي حجازي» وحده، فهناك آخرون أقل قيمة فنية غنوا للثورة وانقلبوا عليها.

فسروا موقفهم الجديد بأنهم لم يكونوا يعلمون الحقيقة.

الحقيقة أن الزمن تغير والمصالح تحركت في اتجاه آخر.

توقف «حجازي» عن إبداع أي قصائد لها قيمة شعرية تلهم وتضارع قصائده القديمة.

الأكثر إثارة أنه لم يكتب قصيدة واحدة تهجو أميره القديم، برغم أنه أمعن في هجائه بكتابات صحفية، أو نقدية، نشرها على مدى عقود.

في أحد اللقاءات النادرة، التي جمعت بيننا عام (٢٠٠٩)، جلسنا متجاورين بالقرب من الرئيس الكوبي في ذلك الوقت «راءول كاسترو».

بادرته قائلًا:

«ربما يغضبك أن أقول لك إن ما سوف يتبقى منك هو شعرك الذي أنشدته في عبد الناصر، وإن أحدًا لن يتذكر مقالاتك في هجائه».

رد كأنه يؤمِّن على المعنى: «ممكن».

(٢)

أزمة المثقفين مع وضد «يوليو» بأسبابها وتحولاتها وخلفياتها مازالت ممتدة حتى اليوم في السجال العام.

من هو المثقف؟ حتى يكون الحديث في الأزمة منضبطًا وأطرافه محددة.

وما التكوين الفكري لـ«جمال عبد الناصر»؛ حتى يكون بينًا فيما كانت الأزمة.

لماذا نشأت الأزمة وتفاقمت إلى صدامات مفتوحة؟ وكيف جرى تطويق أغلب أسبابها قبل أن تتبدى في صور جديدة بعد انقضاء أيام «يوليو»؟

ثم ما مدى مسئولية «عبد الناصر» عما جرى بعده؟

الأسئلة تتعلق بالمستقبل لا بالماضي، وإن كانت تجربته تساعد على فهم أصول الأزمات، التي تطاردنا بإرثها.

لا يوجد تعريف جامع مانع للمثقف.

التعريفات تختلف بقدر زوايا النظر وخبرة التجارب والانحيازات، لكنها تكاد تجمع على أنه رؤية وموقف قبل أي شيء آخر.

هناك فارق حاسم بين المتعلم والمثقف ـ كما أشار «عبد الناصر» في مداخلة بأحد الاجتماعات التنظيمية للاتحاد الاشتراكي.

الأول ـ لديه معرفة بمجال تخصصه.

والثاني ـ تتسع نظرته إلى ما هو أبعد من شواغله المباشرة.

ليس كل متعلم بالضرورة مثقفًا.

قد تنطبق صفة المثقف على مواطنين بسطاء يقرءون ويتابعون الشأن الجاري، يتفاعلون مع حركة الفكر بقدر ما يستطيعون، يتذوقون الفنون، ولديهم إحساس بالجمال بقدر ما تسمح ظروفهم.

المثقف هو من يمتلك ـ بالاطلاع والاجتهاد ـ القدرة على استيعاب حقائق الموقف العام وبناء رؤى وتصورات ومواقف على قدر من التماسك.

هناك من ينتسب إلى أفكار وتنظيمات وأحزاب تحكم مواقفه ويجتهد في إطارها.

وهناك من يقرأ ويتابع ويتأثر دون أن يكون طرفًا مباشرًا في أي أزمة وإن استشعر وطأتها.

بتوصيف المفكر الإيطالي «أنطونيو جرامشي»، فإنه يرتبط بحركة مجتمعه وقواه العاملة لبناء كتلة تاريخية تزيح الطبقات المهيمنة ـ هذا هو «المثقف العضوي».

وبتوصيف الفيلسوف الفرنسي «جوليان بندا» فإن أدواره تصوغها فكرة الضمير قبل أي التزام آخر ـ وهذا هو «المثقف النبي».

ما بين «المثقف العضوي» و«المثقف النبي» تتبدى صور عديدة ومتناقضة.

«بندا» نفسه هو من صك عبارة «خيانة المثقفين».

«المثقف الخائن»، هو أحد تجليات أزمات المثقفين.

كأي خيانة فإن أثقالها لا يصعب الإمساك بحقائقها.

المشكلة في «المثقف المهزوم»، وهو حالم وممزق ومنكسر.

ينطوي أدب «بهاء طاهر» على شخصيات روائية تجسد قدرًا كبيرًا من الهزيمة الداخلية.

«نشعر أننا شبحان من عصر مات.. نعرف أن عبد الناصر لن يُبعث من جديد، وأن عمال العالم لن يتحدوا».

«لم نقل ذلك أبدًا، بل كنا نقول نكسة باستمرار: كنت أقول لكي أقنع نفسي قبل أن أقنعه أن الشعب لن ينسى ما فعله من أجله عبد الناصر».

«أقول له.. إن ثورته ستصحو على أيدي الناس مرة أخرى ذات يوم».

«أقول أشياء كثيرة... يستمع إليَّ وهو يهز رأسه في عناد».

بصياغة درامية أخرى لصورة «المثقف المهزوم» ينتحر «محمود عزمي» في نهاية رواية «واحة الغروب»، تحت وطأة شعوره بأنه خان كل شيء في حياته.

لم يخن الثورة العرابية لكنه تخاذل في التحقيقات التي أجريت معه بعد هزيمتها، تنكر لها وسبَّ زعيمها «أحمد عرابي»؛ للحفاظ على وظيفته ضابطًا في البوليس.

في عالم السينما جرت اقترابات مماثلة من شخصية «المثقف المهزوم»، الذي يشعر بالعجز عن تلبية ما يأمل فيه أهله وناسه الذين انتظروا عودته وخاب أملهم فيه كفيلم «يوسف شاهين»، «عودة الابن الضال».

تصدرت صورة «المثقف الانتهازي»، أعمالًا أدبية وفنية عديدة، في أثناء «يوليو» وبعدها.

كان «نجيب محفوظ» من أكثر الأدباء تناولًا لظاهرته بكل ما تحمله شخصيته من تناقضات وظلال.

«أأنت اشتراكي مخلص؟».

«طبعًا».

«لـِمَ من فضلك؟».

«للثورة أعمال لا يسع الأعمى إلا الإقرار بها».

«والبصير؟».

«إني أعني ما أقول».

«إذن فأنت ثوري اشتراكي؟».

«بلا أدنى شك».

«مبارك، خبرني الآن أين نقضي ليلتنا».

تقمص «سرحان البحيري» الانتهازي والمتورط في فساد مالي وأخلاقي دور المناضل الاشتراكي في روايته «ميرامار».

في رواية «اللص والكلاب» تبدت صيغة أخرى من نفس القماشة السياسية والإنسانية لخصتها شخصية «رءوف علوان»، الذي أقنع «سعيد مهران» بأفكاره التقدمية قبل أن ينقلب هو على هذه الأفكار، ويدفع اللص التائب إلى قتل أبرياء دون قصد.

العلاقة مع السلطة إحدى الإشكاليات الكبرى في النظر إلى دور المثقف.

في رأي «إدوارد سعيد» أن الاقتراب من السلطة ينفي صفة المثقف، الذي هو بالتعريف ناقد لها.

برغم التعسف في إطلاق الأحكام، فلكل حالة ظروفها، مثل العلاقة ما بين «شارل ديجول»، الرجل الذي قاد المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي، و«أندريه مالرو» وزير ثقافته صاحب رواية «الأمل» عن الحرب الأهلية الإسبانية التي ألهمت أجيالًا.

بين التعريفات المختلفة والتوصيفات المتناقضة ينصرف أساسًا الحديث عن أزمة المثقفين إلى من لديهم تصورات فكرية والتزامات تنظيمية دفعتهم إلى تبني مواقف بعينها في مجرى الحوادث المتلاحقة.

صراع قوي ومصائر لا محض خلاف فكر ورجال.

كان الصراع على السلطة، طبيعتها وخياراتها ومستقبلها، في مارس (١٩٥٤) نقطة التفجير لما أطلق عليها أزمة المثقفين.

كانت هناك القوى الطبقية القديمة، ولديها مثقفوها المرتبطون بها، تعادي فكرة الثورة من حيث هي تغيير في بنية المجتمع وتتصور أن (٢٣) يوليو يجب أن تتوقف عند طرد الملك، وأن تعيد اللعبة السياسية إلى سابق عهدها بدونه.

في البداية خامر ذلك التصور «عبد الناصر».

اكتشف وعاين هشاشة الوضع السياسي، وأن كل شيء في النظام القديم قد سقط مع طرد الملك، وأن إعادة ما كان يعني أن العمل الثوري فقد معناه وزخمه في نقل مصر من حال إلى حال يتسق مع تطلعات التغيير.

لم يكن لديه مخطط مسبق، لكنه وجد أمامه ركامًا يتوجب إزاحته عن الطريق الذي أخذ يبحث عنه في كل خطوة، أو قرار.

ساعده تكوينه الفكري، في حدود تجربته، على أن ينظر أكثر وأوسع.

اكتسب وعيه السياسي المبكر عند التحاقه بإحدى التظاهرات في الإسكندرية دون أن يعرف شيئًا عمن نظمها ولا أهدافه منها.

تلقى ضربات موجعة تركت جرحًا عميقًا في جبينه وخلّفت أسئلة عن حقيقة الأحوال في مصر وإلى أين هي ذاهبة.

كانت تلك ضربة البداية في حياته السياسية، التي لفتت انتباهه إلى عوالم الاطلاع والقراءة.

ماذا كان يقرأ؟

تتبع الكاتب الفرنسي «جورج فوشيه» في كتابه «عبد الناصر وصحبه» المؤلفات التي قرأها في شبابه، أو استعارها من مكتبة الكلية الحربية.

كان من بين ما قرأ سير لـ«مصطفى كامل» و«نابليون بونابرت» و«يوليوس قيصر» و«غاندي» و«الإسكندر الأكبر»، وكتب عسكرية في الإستراتيجية.

تأثر برواية الأديب البريطاني «تشارلز ديكنز» «قصة مدينتين»، التي صوّرت مقاصل الثورة الفرنسية، وكيف أشاعت القسوة والكراهية وجلبت سيول الدم.

كان يتذوق الشعر، لكنه لا يحفظه، ويذهب إلى السينما والمسرح، ولديه ولع بالتصوير.

يحاور كلما أمكنه ذلك ويسمع بأكثر مما يتكلم.

بعد الثورة واصل عنايته بعالم الكتب، قرأ المجموعة الكاملة للمفكر الإسلامي «أحمد أمين»، وثلاثية «إيزاك دويتشر»، أستاذ التاريخ السوفيتي عن «ليون تروتسكي».

لم يكن يقرأ ملخصات كتب.

ترجمت كتب أعجبته وتأثر بها للعربية حتى يستفيد بها عموم القراء.

من بين هذه الكتب «بنوك وباشوات» للمؤرخ الاقتصادي الأمريكي «ديفيد لاندز»، عن بداية النهب الاستعماري لمصر منتصف القرن التاسع عشر من ترجمة الدكتور «عبد العظيم أنيس» بتكليف من «محمد حسنين هيكل».

فيما رواه «هيكل» أنه كان يُحضر لـ«عبد الناصر» الكتب، التي يرى أنها تدخل في شواغله، كما كان يفعل الأمر نفسه «خالد محيي الدين» كلما عاد من الخارج.

كان من عادته أن يدون ملاحظاته على الكتب بجوار ما استلفت نظره، مثلما فعل تمامًا في مجموعة الزعيم الصيني «ماو تسي تونج» مترجمة إلى العربية.

وقد رأيت تلك المجموعة وملاحظاته عليها في مكتبة ابنته الكبرى الدكتورة «هدى عبد الناصر».

ثم إنه اعتاد أن يضع على ورق ملاحظاته وأفكاره، مشروع قرار، أو تساؤلًا عن حدث، أو تقدير موقف، وفي مرات نادرة مقالات رأي يكتبها باسم غيره من مقربيه.

بخط يده كتب بعد خمس سنوات من الثورة وهو يبحث عن طريق جديد مقالًا باسم «لطفي واكد»، أحد الذين أداروا مكتبه.

يكشف المقال المجهول طريقة تفكيره في ذلك الوقت من خمسينيات القرن الماضي حول الاشتراكية وتحدياتها.

أراد أن يطرح أفكاره أمام الرأي العام، وأن يرى ردات الفعل عليها دون أن يعرف أحد أنه هو الذي كتب المقال:

«يجب أن يبدأ التفكير الاشتراكي بدراسة الرأسمالية، وهذا القول صحيح في عرف نظرية التطور، كما هو في عرف نظرية الثورة».

كان توجهه في ذلك الوقت «إعادة تقدير حقيقة المجتمع الذي نعيش فيه حتى يمكن قيام التخطيط السليم من أجل خلق المجتمع الذي نحلم به».

«إذا لم تكن هناك مثل هذه الدراسة فإن «أفضل الجهود السياسية وأصدقها نية وأعظمها مثالية وأشدها بطولة تبوء بفشل».

«كما يجب أن نهتم بدراسة التفاعل بين الاقتصاد والعوامل السياسية لاسيما في موضوع تفاعل الديمقراطية السياسية مع الميول الكامنة في نظم الاقتصاد الرأسمالي، أو الميول الكامنة في محاولة سيطرة رأس المال على الحكم مرة أخرى».

كانت المشكلة الحقيقية لرجل يدمن القراءة أن وقته لا يتسع، فمشاغله الضاغطة والأوراق الرسمية التي يجب أن يطالعها ويتخذ القرارات على أساسها، لا توفر وقتًا مناسبًا.

كان أحد الحلول، التي اقترحها الأستاذ «هيكل» كما أخبرني ذات حوار، أن يعطي الرئيس وقتًا أطول للحوار مع شخصيات ثقافية وفكرية حتى تتسع زوايا الرؤية أمامه دون التزامات رسمية.

حاور الفيلسوف الفرنسي «جان بول سارتر» وصديقته «سيمون دي بوفوار»، حول الصراع العربي الإسرائيلي وأزمة اليسار الأوروبي في النظر إليه والثورة والدولة والتجاوزات التي تحدث، أسبابها وحدودها.

حسب المحاضر المسجلة قال «عبد الناصر»: «في الوقت الذي أرى فيه دموع الأغنياء لا بد أن أتذكر قهر الأغلبية التي كانت غريبة في وطنها لا تملك شيئًا».

كما حاور وزير ثقافة «ديجول» «أندريه مالرو» و«سامي الدروبي» المثقف السوري الرفيع وآخرين من هذا المستوى، والتقى مثقفي مجلة «الطليعة» اليسارية، التي كانت تصدرها مؤسسة «الأهرام»، ويرأس تحريرها «لطفي الخولي».

بالتجربة والخطأ، كما بالحوار والإنصات إلى طلب التغيير، أصدر وثائقه الرئيسة: «فلسفة الثورة» و«الميثاق الوطني» و«بيان ٣٠ مارس»، التي صاغها «هيكل» تعبيرًا عن حوار مفتوح ومتصل.

الوثيقة الأولى ـ محاولة لاكتشاف طريق وتحديد دوائر الحركة في السياسة الخارجية.

الوثيقة الثانية ـ نظرة واسعة إلى فلسفة التغيير وتوجهاتها مطلع التحول الاشتراكي.

الوثيقة الثالثة ـ استجابة لدواعي مراجعة السياسات، التي أفضت إلى الهزيمة العسكرية في (١٩٦٧).

للوثائق قيمتها في زمنها وأمام تحدياته، وهي تستحق إعادة القراءة لفهم ما جرى وأساسه النظري.

(٤)

في مطلع «يوليو» كان يتصدر المشهد الثقافي ثلاثة أدباء كبار ـ الدكتور «طه حسين» و«عباس محمود العقاد» و«توفيق الحكيم».

كان «طه حسين» الأكثر حماسًا لحركة «الضباط الأحرار» وإطاحة الملك «فاروق»، فيما بدا «العقاد» متحفظًا، لا أيد بحماس ولا عارض بوضوح، فيما كان «الحكيم» ملهمًا لـ«جمال عبد الناصر» بروايته «عودة الروح».

في الخيارات الرئيسة استندت «يوليو» إلى جوهر مشروع «طه حسين» في مجانية التعليم، والنظر إلى أوضاع وأزمات الثقافة المصرية، التي نقلتها من حال إلى حال.

لم تكن مصادفة أن أغلب الذين تصدوا للمهام الثقافية في حقبتي الخمسينيات والستينيات هم من تلاميذ عميد الأدب العربي الذي يعد رمزًا للاستنارة والروح النقدية، غير أن التوجهات بدت مختلفة بشأن دوائر الحركة، حيث تبنت «يوليو» التوجه شرقًا إلى العالم العربي، فيما كانت نظرة العميد التوجه غربًا عبر المتوسط إلى القارة الأوروبية.

كان «طه حسين» ثوريًّا في تفكيره الثقافي والعقلاني، لكن لم يُعهد عنه ميل إلى تعديلات جذرية في بنية العلاقات الاجتماعية.

وكان «العقاد» محافظًا في تفكيره ونظرته الثقافية، وهو مثقف موسوعي عَلّم نفسه بنفسه واكتسب نفوذًا استثنائيًّا بارتباطه بزعيم ثورة (١٩١٩) «سعد زغلول» حتى إنه وصفه بـ«قلم الوفد الجبار»، غير أنه اصطدم بخليفة «سعد» وخرج عليه مقتربًا من الملك «فاروق».

بتفكيره المحافظ خشيَ قبل «يوليو» من ثورة تلوح في الأفق تصطدم بمعتقداته السياسية.

استقبل «يوليو» كـ«ثورة ضد الثورة»، التي كان يتوقعها ويخشاها ـ بتوصيف الدكتور «غالي شكري».

«كان يفترض أن يقف إلى جانب هذه الثورة، التي حالت دون قيام الثورة الأخرى، لكنه لم يفعل لأن الناصرية حققت فعلًا برغم ثياب الانقلاب العسكري ما كان يمكن أن تفعله الثورة التي يخشاها».

وكان «الحكيم» وسطيًّا، وهو يوصف عن حق برائد المسرح العربي.

نظراته الثقافية جديدة بمعايير زمانه في تعقيدات العلاقة بين الشرق والغرب، على ما صورها في روايته «عصفور من الشرق».

بدت اجتهاداته الأدبية والفكرية مثيرة وسجالية دون أن تتوافر فيها مقومات مشروع ثقافي كـ«طه حسين» و«العقاد».

حاور قائد «يوليو» أكثر من «طه حسين» فيما لم يلتقه «العقاد».

في رواية «في سبيل الحرية»، التي كتبها الطالب «جمال عبد الناصر»، في أثناء دراسته الثانوية دون أن يستكملها، يتبدى مدى تأثير رواية «عودة الروح» على وجدانه.

كتب على نهجها وأطلق على بطلها اسم «محسن»، وهو نفس اسم بطل رواية «الحكيم».

عندما قامت الثورة كان العصر لم يعد هو العصر، الذي أبدعوا فيه واستكملوا مشروعاتهم الفكرية، ولا كان مجمل تفكيرهم يتسق مع ما سعت إليه من تغيير اجتماعي واسع هزَّ المعادلات القديمة التي نشئوا في ظلها.

لم يكن الأدباء الثلاثة الكبار ـ باختلاف شخصياتهم وآرائهم ودرجات تأثيرهم ـ جزءًا جوهريًّا من الجديد الذي يتحرك ويتصارع، ويطرح أفكارًا مختلفة وصورًا جديدة للمستقبل.

بدأ جيل جديد يطل على المسرح السياسي المصري في منتصف أربعينيات القرن الماضي، أفكاره بنت ما بعد الحرب العالمية الثانية وما طرحته من تحديات مختلفة.

كانت أهم القوى الجديدة حركتي «حدتو» و«الإخوان المسلمين»، وقد دعمتا «الضباط الأحرار» قبل الحركة وعند بداياتها.

«حدتو» طلبت المشاركة في القرار، والجماعة طلبت الاستيلاء على القرار نفسه.

من حيث قوة التنظيم واتساع مجال حركته ومدى تمركزه في الشارع السياسي تصعب المقارنة بين الحركتين التنظيميتين ـ لصالح «الجماعة».

ومن حيث اتساع النظرة السياسية والعمق الثقافي تصعب المقارنة مرة أخرى ـ لصالح «حدتو» هذه المرة.

بقواعد السمع والطاعة افتقدت الجماعة أي قدرة تقريبًا على الإنتاج الفكري والإبداعي وبناء طبقة مثقفة.

عند النظر في أسماء قيادات وكوادر «حدتو»، قد يخيل إليك أنك أمام تجمع ثقافي متسع وفريد لا أمام تنظيم سياسي سري.

ضمت «حدتو» في بنيتها التنظيمية شخصيات، قدر لها أن تلعب أدوارًا ثقافية على درجة عالية من التأثير والإلهام، مثل: «يوسف إدريس» أمير القصة العربية القصيرة بلا منازع، و«فؤاد حداد» أهم شاعر عامية مصري، و«زهدي» من أبرز رسامي الكاريكاتير ومؤسسي مدرسته المصرية، و«عبد الرحمن الشرقاوي» الروائي والمسرحي، والصحفي بالغ التأثير في الحركة الثقافية العامة، و«صلاح حافظ» أحد أبرز الصحفيين المصريين في القرن العشرين ورئيس تحرير «روز اليوسف»، خلال حقبة «السادات» العاصفة، و«عبد الرحمن الخميسي» الأديب والشاعر والصحفي، الذي ارتبط بظاهرة «الصعاليك العظام»، التي أسبغت على الحياة الثقافية المصرية جمالها الخاص.

من الفنانين التشكيليين: «حسن فؤاد» و«عبد الغني أبو العينين» مؤسس ومصمم أزياء الفرقة القومية للفنون الشعبية وأحد الأسماء اللامعة في الإخراج الصحفي الحديث، وآخرون من نفس المستوى ودرجة الموهبة.

تقريبًا نصف القوة الضاربة الثقافية المصرية منذ خمسينيات القرن الماضي إلى تسعينياته.

بعد صدام «أزمة مارس» راجع أغلبهم مواقفه، وتسامى أغلبهم عن مرارة تجربة السجن، والتحق أغلبهم بتجربة «يوليو» ودافعوا عنها بعد غروبها.

لم يجرِ الصدام بين «يوليو» و«حدتو» في فراغ سياسي، ولا تلخصت أسبابه في «أزمة مارس» وسؤالها عن الطريق الذي يجب أن تنتهجه مصر: الديمقراطية، أم الثورة؟ عودة القوى القديمة، أم المضي قدمًا في تغيير المعادلات الاجتماعية والإستراتيجية؟

كانت هناك أزمات أخرى استدعت الصدام، بينها الموقف من القضية الفلسطينية: هل هي قضية وجود تخص العرب جميعهم ويرتبط بها المصير العربي، أم أنه يمكن حلها بوحدة الطبقة العاملة في فلسطين المحتلة بين العمال اليهود والعرب؟

خضعت تلك النظرة لتأثير اليهود المصريين، الذين ساعدوا على تأسيس التنظيمات الشيوعية، وتصدروا مراكزها القيادية، كما لنفوذ الاتحاد السوفيتي عليها.

جرت صدامات وصراعات وانشقاقات داخل التنظيمات الشيوعية حول هذه النقطة بالذات.

في نهاية المطاف حسمت التوجهات لصالح الرؤية التي تبنتها «يوليو» بالانحياز إلى عروبة فلسطين، وحق شعبها في التحرر الوطني.

وجرى استدعاء الصدام مرات ثانية وثالثة ورابعة على خلفية الموقف من الوحدة السورية – المصرية، التي ناهضها الحزب الشيوعي السوري، والصراع بين القوميين العرب والشيوعيين على السلطة في العراق، وقد كان دمويًّا.

باختلاف المواقع والمواقف تصاعدت المواجهات وجرت اعتقالات في مصر.

مع بدء التحول الاشتراكي اختلفت البيئة العامة، حلت الأحزاب الشيوعية نفسها باشتراط من «عبد الناصر»، واندمج أفضل مفكريها وكوادرها في بنية «التنظيم الطليعي»، وهو جهاز سري أنشئ داخل الاتحاد الاشتراكي بهدف تطويره وفرز عضويته.

لم يتسنَّ لذلك الهدف أن يتحقق بالصورة التي راهن عليها «عبد الناصر».

كأي حزب سلطة، مفتوح أو طليعي، فإنه مطمع لكل أصحاب المصالح.

كان من رأي المفكر اليساري «محمود أمين العالم»: «أن أكثر الذين يطعنون التجربة الناصرية كانوا الأكثر تمهيدًا لسلبياتها، وكانوا من أدوات التخلف في قلب التجربة».. «إن من الخطأ والخديعة أن يُقال إن تجربة عبد الناصر لم تكن إلا تجربة سجون ومعتقلات، فهذا طمس للوعي الصحيح حيث تحقق الاستقلال السياسي والاقتصادي والعسكري لأول مرة في تاريخ مصر الحديث» كما قال عام (٢٠٠٢) في حوار صحفي.

المراجعة من دواعي إنضاج الأفكار والتصورات وإكسابها القدرة على التجديد.

إذا غابت المراجعة تجمدت الأفكار قبل أن تدخل دفاتر النسيان.

أين كانت الأخطاء في غمرة صراعات السلطة، أو في قلب عواصف التحولات الاجتماعية والصراع على مستقبل المنطقة؟

أخطر ما ارتكب من أخطاء التوسع في الاعتقالات، التي أعقبت أزمة مارس، وحملات التطهير في الجامعات المصرية بتهمة الشيوعية، التي لم تكن صحيحة غالبًا.

كان فصل الناقد والأكاديمي الدكتور «لويس عوض» مثلًا بتهمة الشيوعية عملًا تعسفيًّا، والتضييق على استقلال الجامعات إهدارًا لسند تحتاجه الثورة يدعم مواقفها التحررية والاجتماعية بقوة الأفكار لا بإجراءات الأمن.

وكان بيع جزء من التحف، التي كانت في القصور الملكية بداعي الحاجة إلى أموال للتنمية خطأً آخر لا يبرر ولا يسوغ بحق الإرث الثقافي والحضاري.

برغم أن «عبد الناصر» أوقف عمليات البيع غير أن هناك ما أهدر ـ بشهادة الأستاذ «هيكل».

فيما بعد «أزمة مارس» وحسم سؤال السلطة أسندت للأمن مهمة تعقب أي تنظيمات سرية تهدد نظام الحكم.

غير أن لكل شيء حدودًا تتوقف عندها أي إجراءات، وإلا فإنها تفلت عن كل ضرورات سياسية والتزامات قانونية وإنسانية، وتسيء إلى أي نظام حكم، ثوري أو غير ثوري.

كان مصرع المفكر والسياسي اليساري «شهدي عطية الشافعي»، تحت الضرب المبرح في معتقل «أبو زعبل» يوم (١٧) يونيو (١٩٦٠) عملًا شائنًا أزعج البيئة الثقافية المصرية.

نصوص التحقيقات، التي أجرتها النيابة العامة، تروي القصة بأدق تفاصيلها؛ حيث جرى ضربه بين صفين من الضباط والجنود بالتناوب عليه حتى فاضت روحه أمام نحو ثلاثين من رفاقه، الذين تلقوا بدورهم ضربًا قاسيًا.

من بين شهود الواقعة وضحاياها «عادل حسين»، صاحب كتاب «الاقتصاد المصري من الاستقلال إلى التبعية»، الذي يُعد مرجعًا موسوعيًّا في دراسة «يوليو» وإنجازاتها وكيف جرى تقويضها في عهد «أنور السادات».

ومن بينهم الروائي «صنع الله إبراهيم»، كان شابًّا صغيرًا في الثانية والعشرين من عمره، يدرس القانون في كلية الحقوق، ويعمل موظفًا بمكتب ترجمة حتى يواصل تعليمه.

لأسباب تتعلق بضعف بنيته الجسدية جرى تنحيته على جنب حتى لا تزهق روحه من أول ضربة.

رفض الإدلاء بأقواله أمام سلطات الأمن خشية على حياته، فقد شاهد الموت بعينيه، وتحدث بما رأى أمام النيابة العامة بشجاعة.

برغم قسوة التجربة فإنه لا يتوقف عن الدفاع بحماس عن «جمال عبد الناصر»، وحماسه استوقف كثيرين في مصر والعالم.. سألوه: «لماذا تدافع عمن سجنك لخمس سنوات؟».

إنها مسألة أفكار وتصورات واعتقادات في الحياة والسياسة وجد تعبيرها في مشروع رجل مات منذ عقود طويلة. ومن بينهم «علي نجيب»، وقد توافرت له ثروة كبيرة من عمله لكنه ظل حتى نهاية حياته مدافعًا عن «يوليو» وإنجازاتها الاجتماعية.

ومن بينهم الدكتور «أحمد القصير» أحد كوادر «حدتو»، لم يندمج في تجربة «يوليو» بعد حل الأحزاب الشيوعية، ولا خفف من انتقاداته، لكنه كان يعرف أنها تجربة وطنية أيًّا كانت حدة الخلافات معها.

سألني الدكتور «القصير»: إذا ما كان ممكنًا أن تنشر «العربي» شهادته على مصرع «شهدي»؟

كتب مقالين موسعين دون حذف حرف واحد.

كان مصرع «شهدي» داعيًا إلى غضب «عبد الناصر» بصورة أفضت إلى القول لوزير داخليته بالحرف الواحد تقريبًا: «إذا كان ذلك يمكن أن يحدث في عهد الثورة فالأشرف والله أن نفضها ونعود إلى بيوتنا.. والله يصبح عهد الملك فاروق أحسن» بنص شهادة «هيكل» في كتابه «لمصر لا لعبد الناصر».

في يونيو (١٩٦٣) قرر «عبد الناصر» الإفراج عن جميع السجناء السياسيين قبل نهاية العام.

كان خبرًا مدويًا تناقلته وكالات الأنباء العالمية نقلًا عن صحيفة «اللوموند»، التي نشرت الحوار الذي أجراه «إريك رولو»، الصحفي الفرنسي من أصل مصري بترتيب من «هيكل» ودور لـ«لطفي الخولي».

المعتقلات فتحت من جديد إثر كشف تنظيم «سيد قطب» (١٩٦٥) وإجهاض محاولته للاستيلاء على الحكم بالتدمير والترويع والقتل.

هناك فارق أساسي بين المعارضة السلمية والمعارضة بالسلاح.

مع ذلك فإن حماية سلامة وإنسانية كل من يحتجز في عهدة الدولة من مسئوليتها.

لا يصح ـ بأي ذريعة ـ تبرير التعذيب داخل السجون.

كان التعذيب من أسباب تفشي الفكر المتطرف وعنف الجماعات الإسلامية.

قد يقال إن الولايات المتحدة نفسها مارست التعذيب المنهجي في معتقل «جوانتانامو»، أو معسكرات الاعتقال داخل العراق بعد احتلاله، وإن دولًا غربية عديدة تنتهج التعذيب لاستجلاب المعلومات، أو تُرسل المتهمين إلى دول في الشرق الأوسط لتعذيبهم بالنيابة.

وقد يقال إن العهود، التي لحقت «عبد الناصر»، مارست درجات أعلى من التعذيب داخل السجون، وإن أعداد المعتقلين زادت بما لا يقارن مع سنوات حكمه.

لكن تظل للقيم الإنسانية والدستورية الحديثة حرمتها، التي لا يصح ـ بأي ذريعة ـ انتهاكها.

(٥)

على أوراق صحف جرت عام (١٩٦١) مساجلات من مواقع فكرية مختلفة حول ما أطلق عليها «أزمة المثقفين».

شارك رئيس تحرير الأهرام «محمد حسنين هيكل» في تلك المساجلات، وضمّن رأيه في كتاب صدر عام (١٩٦٢) لم ينشره مرة ثانية؛ ربما لأنه بظروفه ووقته لم يكن يعبر عن كامل وجهة نظره.

تحدث مجددًا عن «عبد الناصر والثقافة والمثقفين» في كتاب للأديب «يوسف القعيد» بصورة أكثر تكاملًا في الأزمة وخلفياتها، كما تطرق مسهبًا إلى ملف المثقفين وأزمتهم في أحاديثه التلفزيونية «سيرة حياة» على شبكة «الجزيرة».

ألمع ما في كتاب «أزمة المثقفين» تفرقته بين «أهل الثقة» و«أهل الخبرة».

كانت تلك المرة الأولى التي تستخدم فيها هذه التفرقة، التي شاعت واستخدمت على عكس ما قصده.

كان تقديره أنه ليست هناك مفاضلة بين العسكريين والمدنيين، أو خطوط فاصلة، فأهل الثقة يمكن أن يكونوا أهل خبرة، كما أن الكثيرين من أهل الخبرة يمكن أن يكونوا محل ثقة.

من بين الذين توافرت فيهم الصفتان: «محمود يونس»، الذي تولى مسئولية قناة السويس، و«محمود رياض» الذي تولى مسئولية السياسة الخارجية، و«مجدي حسنين» صاحب مشروع تعمير الصحراء ومؤسس «الوادي الجديد».

وقد تولى عسكريون سابقون مناصب دبلوماسية رفيعة، أثبتوا فيها درجة عالية من الكفاءة كـ«ثروت عكاشة» و«فتحي الديب» و«أمين هويدي» و«حافظ إسماعيل» و«وفاء حجازي».

كما أن هناك شخصيات مدنية حازت صفتي الثقة والخبرة ولعبت أدوارًا جوهرية كـ«سيد مرعي»، الذي تحمل مسئولية الإصلاح الزراعي، و«عزيز صدقي» الذي تحمل مسئولية التصنيع، و«عبد المنعم القيسوني»، الذي تحمل مسئولية الاقتصاد.

مشكلة السلطة، أي سلطة، في أصحاب المصالح الذين يتصيدون الفرص بزعم أنهم أهل ثقة.

كانت إحدى معضلات «يوليو»، التي عانت منها، أن الذين تصيدوا الفرص كانوا أول من انقلبوا عليها.

في مساجلات أزمة المثقفين لخص الكاتب اليساري «محمد سيد أحمد» على صفحات «الأهرام» رؤيته على النحو التالي:

«استقبل المثقفون طرد الملك بحماس بالغ لأنهم كانوا جميعًا ملتقين حول ضرورة نفي ما هو قائم.

ولكن عندما تصدت الطليعة الثورية لمباشرة أعباء السلطة الناجمة عن إزاحة السلطة القديمة تحرك المثقفون في اتجاهات متباينة؛ لأنهم لم يكونوا ملتقين حول الذي ينبغي أن يحل محله.

وقد انفجرت الأزمة حول طبيعة السلطة التي ينبغي إقامتها محل السلطة المخلوعة.

هل تستقر في أيدي الطليعة التي أبعدت الملك وأنجزت الثورة، أم تعود إلى الوفد، أم إلى الأحزاب القديمة مطهرة من العناصر الفاسدة؟ بعبارة أخرى، هل نحن بصدد ثورة، أم مجرد عملية إصلاحية تصحيحًا للأوضاع داخل الأطر التقليدية؟».

ثم يمضي في أطروحته إلى نوع من الإدانة لنوع من التفكير غلب جماعات المثقفين.

«أثبت المثقفون في غالبيتهم الساحقة، على تباين اتجاهاتهم، انحيازهم الفكري إلى مكونات النمط الاجتماعي السابق، وولاءهم له باعتباره يصلح كأساس للتطوير، على أن يعدل جزئيًّا بإجراءات مثل استبعاد الملك وتطهير الأحزاب وإجراء إصلاح زراعي يمس كبار الإقطاعيين... ولكن بدون امتداد التغيير إلى صميم المؤسسات الاجتماعية القائمة، والقوى المهيمنة على تحريكها».

لم تجرِ تلك المراجعة في غرف مغلقة.

كانت مياه كثيرة قد جرت تحت الجسور وتحولات اجتماعية استدعت إعادة النظر من كاتب يساري سمحت ظروفه أن يطل على حقائق عصره، ويستوفي أدواته كواحد من أفضل المحللين السياسيين في تاريخ الصحافة المصرية.

كادت الإجراءات الاجتماعية ذات الطابع الثوري أن تكون عنوانًا يوميًّا.

وكادت الصراعات مع القوى الدولية الكبرى أن تكون حديث الصباح والمساء.

هذه أوضاع لا يصح تجاهلها عند أي نظر جاد، فيما تسمى «أزمة المثقفين» وتحولاتها.

بعد مؤتمر «باندونج» سأل «عبد الناصر» مجموعة من الاقتصاديين المصريين: «هل نستطيع أن نضاعف الدخل القومي كل عشر سنوات؟».

السؤال بنصه وتوقيته في منتصف الخمسينيات تعبير عن التداخل بين ما هو اقتصادي وما هو إستراتيجي.

التطلع للعب أدوار محورية في الإقليم والعالم يستدعي أن تكون البنية الاقتصادية على درجة من القوة والتماسك، والفصل ما بين الداخلي والخارجي محض وهم.

اكتسب مشروع «يوليو» مصداقيته من اتساع نظرته، وأخذت ملامحه تتطور بالوقت.

بدأت صورة «عبد الناصر» تتعدل من رجل متجهم إلى بطل قومي اكتسب شعبيته من معاركه.

«تولدت في المعارك كاريزميته وهيبته، وبدت الصورة الذهنية صادقة بما لم يسمح بهدمها، برغم الحملات المتواصلة عليه» كما تؤكد الدكتورة «عزة عزت» في كتابها «صورة الرئيس».

من موقع فكري وسياسي يختلف عن الموقع الذي كان يقف فيه «محمد سيد أحمد»، يروي المفكر الاقتصادي الدكتور «جلال أمين» حقائق الأزمة على النحو التالي:

«في عام ١٩٥٤ لفت نظرنا أهمية جمال عبد الناصر لأول مرة، ولكن بشكل سلبي لا إيجابي، وذلك عندما عرفنا بخلافه مع محمد نجيب؛ حيث انضممت شعوريًّا وأغلبية جيلي بلا تردد، ليس فقط لأننا كنا نعتبر محمد نجيب وليس عبد الناصر هو زعيم الثورة، وبسبب خوفنا على هذه الثورة من الضياع؛ ولكن لأن قضية الخلاف كما فهمناها وقتها، كانت حول الديمقراطية واستمرار الجيش في الحكم، أو عودته إلى ثكناته، وكنا بالطبع مع الديمقراطية والحرية، كنت وقتها في السنة الثالثة في كلية الحقوق، واعتصمنا في قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة، رافضين الخروج حتى يعود نجيب إلى الحكم، وخرجنا في مظاهرات لتأييده؛ الأمر الذي انتهى بعودة نجيب بالفعل إلى الحكم وسحب استقالته، ولكن هذا الوضع لم يستمر إلا أيامًا، كما هو معروف وسمعنا خلالها بضرب الدكتور السنهوري، رئيس مجلس الدولة في مكتبه؛ انتصارًا لسياسة عبد الناصر ضد نجيب. فأصابنا الغم الشديد، ولا أستطيع أن أصف شعوري نحو عبد الناصر وقتها بالحب، بل كانت الحقيقة هي العكس بالضبط. بدا شعوري نحو عبد الناصر يتغير في ١٩٥٥ مع ظهور بوادر شيء جديد جاد كان يسمى الحياد الإيجابي، والذي اقترن بذهاب عبد الناصر إلى مؤتمر باندونج، وعقد صفقة الأسلحة التشيكية - كما كانت تسمى وقتها - وبلغ حماسي، حماس جيلي لعبد الناصر منتهاه بسماعنا تأميم قناة السويس في ١٩٥٦؛ حيث لم تعادل فرحتنا بهذا التأميم إلا فرحتنا بقيام الثورة قبل أربع سنوات».

«عندما عدت من البعثة في ١٩٦٤ لم يكن لديّ أي شك في صحة اتجاهات عبد الناصر وفلسفته، وقد تبينت فيما بعد، عندما ظهرت الأرقام وأمكن النظر إلى تطور مصر الاقتصادي، أن ما كان يحدث في مصر اقتصاديًّا واجتماعيًّا بصرف النظر عن مشكلة الديمقراطية منذ ١٩٥٦ وحتى ١٩٦٥، كان أفضل ما مر في تاريخ القرن

على الأقل، لم نكن في ذلك الوقت نرى إلا الجزئيات، ولكن حياتنا اليومية كانت تعكس هذا التطور الرائع في حياة مصر» كما كتب في يناير (٢٠٠٢).

لقد حدث أوسع حراك اجتماعي سمح لأعداد غفيرة من الطبقات الدنيا ظلت محرومة قرونًا طويلة بالترقي في جودة الحياة ومستويات المعيشة والصعود إلى سطح الحياة، والانتفاع بثمرات التنمية والتعليم والتقدم.

أهمية تلك الشهادة أن صاحبها ليس ناصريًّا.

بتكوينه السياسي فأصوله بعثية.

بتخصصه الأكاديمي فهو عالم اقتصاد.

كما أنه يتميز بحس نقدي لا يداري ما يعتقد فيه.

بقدر تعبير أي شهادة عن اعتقاد صاحبها تكتسب دلالتها.

وبقدر موضوعية النظر تكتسب تأثيرها.

بعض الشهادات المتوافرة تؤيد وتشير إلى مواطن القوة في «يوليو».

بعضها الآخر يعارض ويلح على مواطن القصور.

القضية ليست أن تؤيد أو تعارض بقدر ما أن تستوعب روح المرحلة وتعقيداتها وسياقاتها واحتياجات العصور الجديدة لإعادة قراءة الملف من جديد بروح المستقبل.

لا يمكن تأسيس أي مستقبل على جهل بالماضي، أو دون استيعاب دروسه.

بأي نظرة على أرشيف الصور المتوافرة عن المرأة الجديدة في ذلك الوقت يستبين حجم التغيير الكبير الذي حدث ـ تدرس بالجامعات وتعمل بالمصانع والمعامل ومواقع الإنتاج، تتولى المناصب الوزارية وتحيا على نحو حديث في قلب الصعيد ومدنه التي تنتمي إلى ثقافة وتقاليد محافظة.

اكتسبت حقوقًا غير مسبوقة بعد أن كانت رمزية أو محدودة.

كان تمكين أولاد الفلاحين وأبناء الطبقات الفقيرة من حقوقهم الأساسية في التعليم والصحة والترقي الاجتماعي ثورة حقيقية أخرى.

لم يكن ذلك أمرًا سهلًا ولا طريقًا مُعبدًا؛ حيث سعت قوى محافظة ورجعية إلى حرمان أولاد الفلاحين والفقراء من الوصول إلى ما يستحقونه.

حسب رواية الدكتور «جابر عصفور» وزير الثقافة الأسبق أنه قد منع من التعيين معيدًا في كلية الآداب قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة بسبب أصوله الفقيرة، وأنه لم يكن له سند يزكيه.

خطرت له فكرة أن يسحب ورقة بيضاء من كشكول ليكتب عليها خطابًا إلى «جمال عبد الناصر» دون أن تكون لديه أي آمال في أن شكواه سوف تصل، لكنها وصلت وحصل على حقه بـ«تأشيرة» بخط يد الرئيس «يعين وأُفاد».

تساءلت رئاسة الجامعة عن الصلة التي تجمع الطالب برئيس الجمهورية، حتى يهتم به إلى هذه الدرجة ويطلب إفادته بأنه قد حصل على حقه وعُين معيدًا.

هو نفسه لم يكن يدري سر الانقلاب المفاجئ في رئاسة الجامعة من الإنكار إلى الاحتفاء حتى أخبره موظف كبير بالحقيقة.

«إنه جمال عبد الناصر».

لم يكن الدكتور «جابر عصفور» يعرف أن هناك تنظيمًا دقيقًا في رئاسة الجمهورية لشكاوى المواطنين، يفرز موضوعاتها، ويحدد أهميتها، ويلخصها حتى إذا بدا للرئيس أن يقرأ الأصل يسهل استدعاؤه من الأرشيف.

في شهادة مماثلة على قوة الحراك الاجتماعي في سنوات «يوليو» قال الدكتور «رءوف عباس»، وهو واحد من أهم المؤرخين المصريين المعاصرين، مستعيدًا تجربته الشخصية: «لولا ثورة عبد الناصر لكنت كاتبًا في شونة».

في مثل هذه الظروف والتحولات نشأت نخبة مثقفة جديدة تنتمي إلى «يوليو»، وتشعر بفضلها على ما وصلت إليه.

بعد أن انقضت أيام «يوليو» تراوحت المواقف وتناقضت.

هناك من دافع عن الأفكار والمشروعات التي صعدت به وأتاحت أمامه فرص الترقي الاجتماعي.

وهناك من تنكر لأصوله تسويغًا للانتماء بالادعاء إلى الطبقة المهيمنة القديمة، أو أثرياء ما بعد الانفتاح الاقتصادي.

الفصل السابع: المشروع والنظام

لم يكن سقوط النظام القديم وتقويض أسسه السياسية والاجتماعية والإستراتيجية كافيًا ـ بذاته ـ لإعادة صياغة البيئة الثقافية من جديد بما يتسق مع الإجراءات الثورية.

لا يوجد في التاريخ مثل هذا السقوط الكامل، أيًّا كانت درجة العنف استهدافًا لمحو الإرث القديم بحمولاته الثقافية والاجتماعية ونسق قيمه ومعاملاته الإدارية.

لا الثورة الفرنسية ـ برغم المقاصل التي علقت والدماء التي أريقت ـ نجحت في استئصال كل ما يمت إلى الماضي في بنية مجتمعها.

ولا الثورة البلشفية ـ برغم الاعتقالات والإعدامات والقبضات الحديدية ـ نجحت في إغلاق صفحة الماضي إلى الأبد.

ألغيت الجمهورية في فرنسا، أعلن الجنرال «نابليون بونابرت» نفسه إمبراطورًا، وعادت أسرة «البوربون» التي أطاحتها الثورة إلى قصور الحكم.

تفكك الاتحاد السوفيتي، الذي شيدته الثورة البلشفية عام (١٩١٧)، وتهاوت منظومته الاجتماعية والثقافية لصالح ما تصور كثيرون أنه تقوض للأبد.

برغم ذلك فإن للثورات آثارًا تبقى تحت الجلد السياسي والاجتماعي لا يمكن حذفها، أو إنكارها مهما طال الزمن.

إذا ما لخصت الثورة الفرنسية في مشاهد المقصلة فإننا لا نكاد نعرف عنها شيئًا.

كانت نقطة تحول فاصلة في التاريخ الإنساني؛ حيث أفضت إلى صعود طبقات جديدة وأفكار جديدة وذبول طريقة في الحكم تنتسب إلى القرون الوسطى الأوروبية.

بعد سنوات طويلة من الاضطرابات والانتفاضات والانقلابات في بنية السلطة استقرت فرنسا كجمهورية دستورية حديثة وسرت مبادئها في أنحاء العالم.

وكان ذلك أفضل ما تخلف عن الثورة الفرنسية.

بذات القدر فإن أفضل ما يُنسب للثورة البلشفية أنها ساعدت على نحو جوهري في طرح قضية العدل الاجتماعي بأفق جديد.

كانت أول ثورة اشتراكية في التاريخ الإنساني.

ذات مرة كتب الفيلسوف الوجودي الفرنسي «جان بول سارتر» أن «لكل قرن فلسفة تهيمن عليه».

في تقديره أن الماركسية الفلسفة الأكثر تأثيرًا ونفاذًا في قصة القرن العشرين، برغم أنه كان يقف على الجانب الآخر في صراع الأفكار الكبرى.

صعود وتراجع الماركسية داعٍ ـ بذاته ـ لإعادة النظر والتفكير.

لعقود طويلة أثرت وألهمت نصف البشرية تقريبًا قبل أن تنكسر شوكتها بانهيار سور برلين يوم (٩) نوفمبر عام (١٩٨٩).

في شريط سينمائي ألماني أنتج عام (٢٠٠٣) باسم «وداعًا لينين» لخص مشهد واحد بعض تراجيديا ما جرى بعد انهيار السور، الذي أعقبه سقوط الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية كلها.

كانت هناك مروحية تحلق فوق العاصمة الألمانية برلين متدليًا منها بحبال من صلب تمثال ضخم لزعيم الثورة البلشفية ومفكرها الأكبر «فلاديمير إيليتش لينين»، بينما ناشطة في الحزب الشيوعي الألماني تؤمن بأفكاره ترقب المشهد غير مصدقة.

مالت المروحية قليلًا فبدت حركة التمثال كأن «لينين» يمد يده للناشطة الألمانية بالمصافحة الأخيرة.

أراد الشريط السينمائي أن يقول إن كل شيء قد انتهى.

بدأ عصر ألماني جديد تلخصه إعلانات الـ«كوكاكولا» والمنتجات الغربية في شوارع الشق الشرقي من برلين.

هذه هي الحقيقة التي كان يخشى على الناشطة المصدومة من أن تواجهها، بعد أن أصيبت بغيبوبة امتدت لشهور تغيرت فيها ألمانيا وتغير العالم.

لا توجد ثورة خالدة في التاريخ.

لكل ثورة أسباب استدعتها تعبيرًا عن أزمان وعصور واحتياجات.

من زاوية ما ـ صحيحة وموضوعية ـ أسست الثورة البلشفية، بكل ما حملته من تجربة في الحكم، وما تولّد عنها من سياسات وما تبنته من إستراتيجيات لانقلاب كامل في بنية النظام الدولي بدأت مقدماته قبل نهاية الحرب العالمية الأولى بعام واحد واستكملت حقائقه بعد الحرب العالمية الثانية.

انقسم العالم إيديولوجيًا وإستراتيجيًا واقتصاديًا إلى معسكرين كبيرين بعد انتهاء الحرب الأخيرة.

تصارعت على النفوذ قوتان عظميان هما الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة فيما يعرف بـ«الحرب الباردة»، التي انتهت بانهيار سور برلين وتقوض حلف «وارسو» الذي كان يقابل حلف «الناتو» على الجانب الآخر.

في سنوات ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية وانهيار سور برلين شمل نفوذ الاتحاد السوفيتي شرق أوروبا، التي اجتاحها الجيش الأحمر، والشرق الأقصى، حيث انتصرت الثورة الصينية وحاربت الثورة الفيتنامية تحت رايات «لينين»، واصلًا إلى القارتين الإفريقية التي طلبت حركات تحريرها الاستقلال الوطني، واللاتينية التي رفعت سلاح حرب العصابات ضد الهيمنة الأمريكية ـ كما حدث في كوبا.

لم يكن العالم العربي خارج الاستقطاب الفكري والسياسي، الذي صاغ تلك المرحلة.

حاولت مجموعة دول عدم الانحياز بقيادة «جمال عبد الناصر ـ مصر» و«جواهر لال نهرو ـ الهند» و«جوزيب بروز تيتو ـ يوغوسلافيا» اختراق النظام الدولي الثنائي القطبية وتأسيس آخر وفق مبادئ «باندونج».

لم يعنِ ذلك الوقوف على مسافة متساوية بين المعسكرين المتصارعين؛ فقد كان التحرر الوطني القضية الأكثر مركزية على أجندة الدول المستقلة حديثًا.

بانفراد القوة الأمريكية بالنظام الدولي تعرض العالم العربي، أكثر من غيره، لما يشبه التحطيم لصالح ما تطلبه إسرائيل، على ما جرى في العراق مثالًا.

كان مثيرًا أن أكثر من ابتهجوا لسقوط الاتحاد السوفيتي هم أنفسهم الذين دفعوا أغلب الفواتير.

لم يعد لإرث «لينين» ذات الأثر الفكري والسياسي، الذي ساد أغلب سنوات القرن العشرين، لكنه أسس لنظرة تتجاوز شخصه إلى حركة المجتمعات الإنسانية في طلب العدالة الاجتماعية.

طورت الرأسمالية من نفسها تحت ضغط الأفكار الاشتراكية، ونشأت في كنف الدول الغربية حركات جديدة أطلق عليها «الشيوعية الأوروبية» بتأثير أفكار رجال من حجم «تولياتي» و«جرامشي» في إيطاليا ـ دمجت ما بين الفكرتين الاشتراكية والديمقراطية.

نشأت في أوروبا الشرقية نزعة قوية أطلق عليها «الاشتراكية بوجه إنساني» تجسدت في «ربيع براج» إثر وصول «إلكسندر دوبتشيك» إلى السلطة زعيمًا للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي.

تبنى تجديد الاشتراكية ونزع ثقافة الخوف وإشاعة الديمقراطية والحريات الصحفية، لكن مشروعه جرى سحقه بدبابات «حلف وارسو»، الذي كان يقوده الاتحاد السوفيتي، في أغسطس (١٩٦٨).

أفلتت فرصة تصحيح في بنية المنظومة الاشتراكية، وكانت النهايات محتمة.

في الثورتين ـ الفرنسية والبلشفية ـ تبدت ثغرات واسعة ببنية نظاميهما أفضت إلى نهايات مأساوية، غير أن التاريخ احتفظ لأي إنجاز إنساني جوهري بقدرته على الإلهام عبر العصور.

من بين ما يستحق المراجعة في التجارب الثورية الحديثة ما يدخل في الثقافة العامة، التي يصعب تغييرها في يوم وليلة، بقرار أو بآخر.

حاولت ثورة «يوليو» تغيير البنية الثقافية، أنجزت ونجحت بقدر ما أمكنها.

وكان الانقلاب على خياراتها ثقافيًّا بقدر ما هو سياسي واجتماعي.

(١)

لم يكن «ثروت عكاشة»، الرجل الذي ارتبط اسمه بأوسع عملية بناء ثقافي في التاريخ المصري الحديث، مقتنعًا ومتحمسًا لإسناد مسئولية الثقافة إليه؛ خشية الصدام مع «شلل وتجمعات همها ألا يزاحمها في سلطانها أحد».

أعرب عن خشيته لـ«عبد الناصر» في حوار كاشف امتد لأربع ساعات تضمنه كتابه «مذكراتي في السياسة والثقافة».

لا مشروع ثقافيًّا، أو غير ثقافي، يمكنه أن يبني ويصوغ خارج ما يحيط به من تعقيدات سياسية وصراعات مكتومة على القوة والنفوذ.

لم يكن ذلك غائبًا عن «عبد الناصر» كما يتبدى في نص شهادة «ثروت عكاشة».

«أخذ في إقناعي وهو يقول إن منصبك الآن وزيرًا يختلف كل الاختلاف عن منصبك، الذي اعتذرت عنه مستشارًا برئاسة الجمهورية. فأنت الآن في وضع يعلو وضع بعض من لا تطمئن نفسك إليهم، كما أنك ستشغل مكانًا بعيدًا عن المكان الذي يعملون فيه، فوزارتك تقع في مبنى مستقل بقصر عابدين، في نفس الوقت الذي ستكثر فيها لقاءاتنا معًا بل بشكل منتظم، كما أن هذا المنصب لن يغير شيئًا من أنك تستطيع في أي لحظة أن تجد بابي مفتوحًا لك، أو أن تتصل بي برقم تلفوني المباشر».

«أصارحك بأنني لم أدعك لشغل وظيفة شرفية، بل إنني أعرف أنك ستحمل عبئًا لا يجرؤ على التصدي لحمله إلا قلة من الذين حملوا في قلوبهم وهج الثورة حين

أشعلوها. وأنت تعرف أن مصر الآن كالحقل البكر، وعلينا أن نعزق تربتها ونقلبها ونسويها ونغرس فيها بذورًا جديدة لتُنبت لنا أجيالًا تؤمن بحقها في الحياة والحرية والمساواة، فهذا هو العناء، وهذا هو العمل الجاد على نحو ما ذكر فرجيل في إنيادته، وإنني اليوم أدعوك أن تُقْبلَ على هذا العناء وذاك العمل الجاد، وأن تُشَمِّر عن ساعد الجد وتشاركني في عزق الأرض القاحلة وإخصابها. إن مهمتك هي تمهيد المناخ اللازم لإعادة صياغة الوجدان المصري، وأعترف أن هذه أشق المهام وأصعبها، وأن بناء آلاف المصانع أمر يهون إلى جانب الإسهام في بناء الإنسان نفسه».

«إن عظم المسئولية جدير بأن يثير في نفسك ما عهدته فيك من إقدام، ثم ما الذي ستفعله في وزارة الثقافة غير تحقيق أحلامك التي طالما كنت ترويها على مسامعي قبل الثورة وبعدها».

«أخذ الرئيس يذكرني بأنني لم أكن أغادر القاهرة في مهمة سياسية خاصة إلا وأعود بحديث مقتضب عن المهمة تاركًا التفاصيل للتقرير المكتوب، بينما كنت أطنب في الحديث عن النهضة الفنية في الخارج، وعما شاهدت من عروض مسرحية وموسيقية وأوبرالية ومن معارض فنية تشكيلية وعن أحدث الإنشاءات الثقافية، وعن أمنيتي في أن تتحقق مثل هذه النهضة في مصر». «لا أخفي عليك أن كل حديث كان يدور حول تنمية الثقافة والفنون كان يجعل صورتك تتراءى في خيالي، وأذكر حديثنا قبل الثورة عن انحصار المتعة الثقافية وبخاصة الفنون الراقية في رقعة ضيقة لا تنفسح إلا للأثرياء، وكيف ينبغي أن تصبح الثقافة في متناول الجماهير العريضة، وأن تخرج من أسوار القاهرة والإسكندرية لتبلغ القرى والنجوع، فمن بين أبناء هذه القرى الغائرة في أعماق الريف بالدلتا والصعيد يمكن أن يبزغ عدد من الفنانين الذين يعكسون في إبداعهم أصالتهم الحضارية. ويبدو لي أن الأوان قد آن لتحقيق هذا المطمح، وقد كنت أنتظر هذه اللحظة لأسند إليك مهمة وزير الثقافة. ولا تتصور أنني كنت أوفدك في مهام مؤقتة إلى عواصم أوروبا أو في مهام طويلة كعملك الدبلوماسي في باريس وروما دون أن أضع في اعتباري ما تتيحه لك هذه الفرص من دراسة الأنشطة الثقافية والفنية في أهم عواصم الفنون والثقافة في العالم، وإنني أرى أنه مازالت أمامك رحلات أخرى تضيف إلى حصيلتك في هذا المجال زادًا جديدًا. لكنك ستقوم بهذه الرحلات بوصفك وزيرًا للثقافة؛ وهو ما سيتيح لك فوائد أعظم وأنت تشيد أبنية الثقافة والفن في مصر».

كانت تلك طريقة «عبد الناصر» في مخاطبة الموهوبين الكبار لإقناعهم بتولي المناصب الوزارية ـ مخاطبة دوافع الشغف المهني والشخصي.

بصورة تكاد تكون مشابهة، خاطب الصحفي في «محمد حسنين هيكل» لإقناعه بتولي وزارة الإعلام؛ حيث سيكون في قلب الحدث بالقرب من الأخبار، وإن الأفكار التي يطرحها لتطوير الإعلام يمكنه توليها بنفسه من موقعه الوزاري.

صادف اختيار «ثروت عكاشة» أهله، فقد كان مهيئًا أكثر من غيره، برغم خلفيته العسكرية، لتولي هذا المنصب؛ فهو أحد الموسوعيين الكبار في الفنون والثقافة.

في تجربة «يوليو» قضايا وتعقيدات متداخلة بين العسكريين والمثقفين تستحق التوقف عندها بالبحث والدرس.

أولها ـ التنشئة العسكرية لـ«جمال عبد الناصر» ورفاقه ودورها لا يمكن استبعاده، أو غض الطرف عنه، في تكوين شخصياتهم من حيث احترام التسلسل القيادي والتزام قواعد الانضباط.

أساسيات العمل العسكري تختلف من حيث طبيعتها مع ما دَرج عليه العمل الثقافي من تنوع وتقبل للخلاف في الرأي كقيمة بذاتها.

تناقض طبيعة العملين أسس ـ أحيانًا ـ لصدامات مكتومة.

وثانيها ـ أن «الضباط الأحرار» لم يكونوا على ذات درجة الثقافة والمعرفة والقدرة على التذوق الفني.

بعضهم طوّر نفسه ثقافيًّا وفكريًّا بقدر ما قرأ وحاور، وأكسبته خبرة الدولة قدرات إضافية، ونجح فيما أسندت إليه من مهام جسيمة.

وبعضهم الآخر غابت عنه أي نظرة ثقافية متصورًا أن الضبط والربط وحده يكفي لإدارة الدولة وإنجاز التكليفات، وكان عبئًا على المناصب التي تولاها.

التعميم، حيث يجب التخصيص، خطأ بالغ في تقدير أوزان الرجال.

وثالثها ـ أن النخب المصرية الحديثة ارتبطت بتأسيس دولة «محمد علي»، نشأت برعايتها، وتولت المناصب في دولابها.

وكان الدور الذي لعبه الشيخ الأزهري «رفاعة رافع الطهطاوي» في إلهام فكرة الحداثة والتجديد والالتحاق بالعصر والاطلاع على علومه ونظمه بكتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» تأسيسًا لـ«الأنتلجنسيا» المصرية بقدر ما كان دور «إبراهيم باشا» نجل «محمد علي» في بناء جيش حديث دخل فيه لأول مرة منذ قرون أولاد الفلاحين.

يكاد يستحيل قراءة ملف «يوليو» بكامل ظلالها دون أن تمتد النظرة إلى الخلفيات التاريخية المشتركة وطبائع التكوين المختلفة بين العسكريين والمثقفين.

بنص الحوار الكاشف بين «عبد الناصر» و«عكاشة» فإننا أمام اثنين من المثقفين، كلاهما أخذ وقته حسب ظروفه في التراكم المعرفي، وكلاهما لديه تصورات وأحلام لإعادة صياغة الحياة من جديد ثقافيًّا.

لم تنشأ «الثورة الثقافية» من فراغ، ولا طرأت بالمصادفة.

التصورات سبقت الإجراءات والأحلام حلقت بين رجلين.

هكذا اتسعت مساحة القراءة العامة بما هو جدير بالاطلاع عليه من فكر وأدب وإبداع لكتاب مصريين.

ازدهرت حركة الترجمة لإتاحة ما ينشر من فكر حديث في الغرب أمام القارئ بأرخص الأسعار.

جرت ثورة في المسرح المصري توازي ثورة «الضباط الأحرار» بتعبير المخرج المسرحي «سعد أردش».

نشأ جيل من المسرحيين العظام مثل «يوسف إدريس» و«سعد الدين وهبة» و«ألفريد فرج» و«محمود دياب» و«ميخائيل رومان» و«نعمان عاشور».

أنشئت أكاديمية الفنون بالهرم وأرسلت بعثات إلى عواصم أوروبية، خصوصًا موسكو، لتعلم الموسيقى الكلاسيكية والباليه والمسرح.

انتشرت قصور الثقافة في كل المدن، كأنها تلاحق التوسع في إنشاء المدارس والمستشفيات العامة.

نهضت حركة الفن التشكيلية وأضيفت كلية جديدة للفنون الجميلة بالعاصمة الثانية الإسكندرية.

وشهدت الأغنية الوطنية عصرها الذهبي - بتوصيف المايسترو «سليم سحاب».

بروح المرحلة جرت ثورة حقيقية ردت الاعتبار إلى الغناء الشعبي على يد «زكريا الحجاوي».

وكان صعود فن الرقص الشعبي في تجربتي «فرقة رضا» و«الفرقة القومية للفنون الشعبية» علامة على نوع التجديد الثقافي، الذي زاوج بين الفنون الحديثة والفنون الشعبية.

قد تساعد مذكرات «محمود رضا»، التي انتهى من كتابتها عام (٢٠٠١) في إعادة اكتشاف أسرار النجاح قبل أن تذوي وتضمحل التجربة الفريدة.

«عندما بدأنا فرقة رضا واجهتنا مشاكل فنية لم يسبق أن تصدى لحلها أي فنان في مصر من قبل، كيف تتحرك الفلاحة المصرية على المسرح؟ وكيف تعبر بنت البلد بالحركة؟ وما أوضاع الرقص المصري إن كنا نريد أن نرتقي به إلى مصاف الفنون

الرفيعة مثل الباليه الكلاسيكي؟ فالرقص الذي كنا ننشده كان لا بد أن يعبر عن معانٍ وليس فقط تحريك الجسم بلا هدف، لم يسبق لفنان في مصر أن وضع هذه القواعد وكان علينا أن نبدأ من الصفر».

لسنوات طويلة كان كل من يمر على القاهرة من ضيوف عرب وأجانب يطلب مشاهدة «فرقة رضا».

كانت سفيرًا فنيًّا فوق العادة إلى العالم، لكنها خسرت وهجها وتوارت أدوارها بالتدريج بعد انقضاء أيام «يوليو».

أهم ما انطوت عليه «الثورة الثقافية» إتاحة حرية النقد والاختلاف.

لا إبداع يتأسس على تعليمات بما يكتب أو لا يكتب.

كانت تلك مفارقة؛ حيث سمح في الإبداع القصصي والمسرحي بما لم يكن مسموحًا به على صفحات الجرائد وشاشات التلفزيون من نقد.

لم يُمنع حق عن أديب اختلف، ولا صودرت رواية انتقدت.

نشرت رواية «نجيب محفوظ» «أولاد حارتنا» كاملة على صفحات «الأهرام» برغم الزوابع التي أثارتها، ولم يتسنَّ طباعتها في كتاب.

ونشرت في وقته وحينه روايات أخرى له انتقدت دون مواربة أوجه خلل عديدة في النظام الناصري.

سمح بعرض الشريط السينمائي «شيء من الخوف» عن رواية بالاسم نفسه لـ«ثروت أباظة»، برغم الاعتراضات الرقابية التي تصورت أن «فؤادة» هي مصر و«عتريس» هو «عبد الناصر» وأن الزواج بينهما باطل.

لم يوافق «عبد الناصر» على الاعتراضات الرقابية؛ فـ«نحن لسنا عصابة وإذا كنا كذلك فلا نستحق أن نحكم أو نبقى».

الحقيقة أن الرواية ليست لها علاقة بالسياسة ولا بشخصية «عبد الناصر»، و«ثروت أباظة» نفسه لم يعهد عنه مهاجمة أي نظام يحكم إلا بعد أن ينقضي زمنه.

على ذلك المنوال اتسعت مساحة النقد وحريات التعبير في المجال الثقافي.

بطبيعة الحال حدثت مضايقات متكررة من سلطات رقابية، أو أمنية، اشتكى منها مبدعون، أغلبهم موالون للثورة، لكنها وجدت في النهاية استجابات في مركز القرار.

كان ذلك تعبيرًا عن الصراع بين انفتاح ثقافي على حرية النقد وخشية أمن من تبعاته.

هل كانت الديمقراطية الثقافية تنفيسًا عن غياب تداول السلطة؟

وهل كانت الديمقراطية الاجتماعية بديلًا عن الديمقراطية السياسية؟

هناك من يعتقد أن مقايضة جرت في تجربة «يوليو» بين الحقوق الاجتماعية والحريات السياسية.

حديث المقايضة ينزع عن الثورة عمق توجهاتها الاجتماعية.

الذين يقايضون لا تعنيهم القضايا الكبرى والالتزامات الرئيسة بقدر استهداف البقاء في السلطة بأي صيغة، أو أي صفقة.

لم يكن الأمر كذلك، فحجم التحول الاجتماعي يتأبى على هذه الافتراضات.

كما أنه ارتبط بالنهضة الثقافية في مشروع واحد استهدف تغيير وجه الحياة.

«مهمة الحاكم الرئيسة في بلد مثل مصر أن يصل إلى الفلاح الذي يركب حماره ويحمل فأسه، وهذا ما فعله عبد الناصر» بتعبير الدكتور «عزيز صدقي».

يوصف نظام «يوليو» بالسلطوية وفق المعايير الأكاديمية المتعارف عليها، غير أن هذا التوصيف الشائع في كثير من الكتابات يفتقد التفرقة الضرورية بين النظم الثورية والنظم التي تمارس أعلى درجات القهر لشعوبها حتى تكرس تخلفها وتبعيتها والمظالم الاجتماعية فيها.

كل النظم الثورية التي شهدتها العصور الحديثة تنتمي بدرجات مختلفة إلى السلطوية في ممارسة الحكم.

بالتعريف: الثورات فعل استثنائي يهدم قديمًا ويبني جديدًا.

لم يكن ممكنًا ـ في تجربة «يوليو»، أو في أي تجربة ثورية أخرى ـ إحداث أي تحول جذري في بنية المجتمع ما لم تتوافر سلطة قوية تحميه.

الوقوع بالكامل في فخ التوصيفات الجاهزة نفي بالمطلق لشرعية الثورة. أي ثورة، ينزع عنها إرادة التغيير وينزع في الوقت نفسه عن النظم التي أسقطتها استحقاق السقوط.

بطبيعة الصراع حول الثورات وعليها يتزايد دور الأمن وتحدث تجاوزات، بعضها كابوسية، لكنها بأي حساب عقلاني لا يمكن تجنبها تمامًا.

اعتمدت «يوليو» على أجهزة الدولة في إحداث التغيير الواسع الذي طلبته؛ حيث لم يكن لديها تنظيم شعبي قوي يتولى مسئولية الموقف قبل استلام السلطة ولا تمكنت من بنائه بعدها.

بنفس هذه الأجهزة جرى الانقلاب عليها بقرارات إدارية من الرئيس «أنور السادات» ومن بعده.

في لحظات الثورة تأكدت فكرة السلطة القوية.

في لحظات الانقلاب عليها كان إرثها التنظيمي معولًا في هدمها.

(٢)

الثقافة والإعلام قضيتان متلازمتان، كلتاهما تحتاج الأخرى لاستكمال أدوارها.

فيما اتسعت حريات النقد والتعبير في الأولى، ضاقت بالثانية.

كانت تلك إحدى مفارقات بنية نظام «يوليو».

إن الثورات بالطبيعة مشروع تعبئة عامة للانتقال من حال إلى نقيض.

لم تعرف ثورة واحدة اصطدمت مع القوى القديمة وحكمت في ظروف معاكسة أي نزعة موصولة بحرية الإعلام.

في «يوليو» أُصدر قانون تنظيم الصحافة وفرضت الرقابة عليها، بما أثر على الأدوار التي يتعين أن تقوم بها في إخبار الرأي العام بالصورة الكاملة لما يحدث في بلده والعالم.

برز في مقدمة المشهد صحفيون انتهازيون وثوريون مدعون.

تراجعت حظوظ كفاءات صحفية في تولي المناصب التي يستحقونها، برغم أن الأيام وانقلابات السياسة أثبتت إخلاصهم لمشروع «يوليو».

ألهمت شخصية الصحفي الانتهازي أعمالًا أدبية وفنية من أبرزها روايتا «فتحي غانم» «الرجل الذي فقد ظله» و«زينب والعرش».

برغم ذلك شهدت التجربة الصحفية قدرًا من التنوع في المدارس الفكرية، فقد أسندت إلى «خالد محيي الدين» رئاسة تحرير جريدة «المساء»، ضمت عددًا كبيرًا من اليساريين، كما أسندت إلى «محمود أمين العالم» رئاسة «أخبار اليوم»، فيما تولى صحفيون يمينيون رئاسة صحف أخرى.

كما شهدت قدرًا معقولًا من حرية التعبير والنقد لأوجه خلل عديدة في بنية النظام.

مراجعة أرشيف الصحف ضرورية قبل إصدار الأحكام حتى تكون النظرة منصفة.

لم تكن هناك حرية صحافة بالمعنى الذي يستحقه بلد مثل مصر، لكنها لم تكن ظلامًا دامسًا كما يصور الآن.

في نفس الوقت ولد التلفزيون العربي، كما كان يطلق على «ماسبيرو» مطلع ستينيات القرن الماضي، عملاقًا وملهمًا.

لم تكن تلك ضربة حظ، ولا مصادفة جرت بغير فكر استوفى مقومات ومعايير النجاح.

وفق الإعلامي الرائد «حمدي قنديل»، أحد نجوم مرحلة التأسيس فإن نجاح التلفزيون، أي تلفزيون، يعتمد على أربعة معايير أساسية.

الأول: أن يكون للدولة مشروع وطني ودور قومي في محيطها.
والثاني: أن تحظى رسالته بإجماع شعبي.
والثالث: أن تنبع التجربة من رحم نهضة فكرية وثقافية.
والرابع: أن يحظى بمستوى مهني عالٍ.

الإنجاز غاب عنه العنصر الأهم، الذي تكسب به أي وسيلة إعلامية ثقة الجماهير، وهو حرية تدفق الخبر ـ حسب شهادة مكتوبة للرائد الإعلامي «السيد الغضبان».

«شأن الإذاعة والصحافة خضعت المادة السياسية في التلفزيون لرقابة صارمة».

«برغم غياب هذا العنصر المهم فقد تقبلت الجماهير أداء التلفزيون في المادة السياسية إلى حد ما نتيجة الظروف السائدة، والتي طغت فيها موجة الحشد الوطني والقومي ضد قوى الاستعمار والصهيونية».

«استطاع التلفزيون أن يعوض هذا القصور في المجال السياسي بتقديم الأعمال الثقافية والفنية والترفيهية بقدر عالٍ من التميز والاحترام.. وكان التلفزيون بحق أحد أهم مصادر ثقافة التنوير في مختلف المجالات.. وكانت المواد الترفيهية شديدة الرقي فأسهمت في الارتقاء بأذواق الجماهير، التي تأثرت بما سمعته وشاهدته».

الثقافة والديمقراطية قضيتان متلازمتان، كلتاهما تنهض بالأخرى.

ساعدت الديمقراطية الثقافية في ضخ دماء فوارة بقلب مشروع «يوليو»، كما الديمقراطية الاجتماعية، غير أن غياب الديمقراطية السياسية نال من قدرته على حفظ نظامه وتجديد نفسه.

(٢)

إحدى الفرضيات المتداولة، التي أرجع إليها تقويض المشروع، أنه لم يكن هناك حزب سياسي حقيقي يحفظ ما تحقق من إنجاز.

تلك الفرضية تحتاج إلى مراجعة بالنظر إلى ما آلت إليه الثورتان البلشفية والصينية.

لم يمنع وجود حزب شيوعي قاد الثورة البلشفية عام (١٩١٧) وتمترس في السلطة حتى (١٩٨٩) بلا منازع، من انهيار الاتحاد السوفيتي.

البقاء في السلطة لفترات طويلة، وتمركزها في مجموعات ضيقة على رأسها أمين عام الحزب الشيوعي أصابها بداء الشيخوخة السياسية والتنظيمية ودبت عناصر التحلل في بنيتها.

عندما حاول آخر رؤسائها «ميخائيل جورباتشوف» باسم «البيروسترويكا» إعادة بناء الدولة تفككت بالكامل.

بغض النظر عن صحة الأفكار التي طرحها والطريقة التي اتبعها، فإن عوامل التفكك كانت قد استحكمت، ولم يمكن تجنبها، حتى بمحاولة الانقلاب الفاشل عليه.

كما أن الحزب الشيوعي الصيني يختلف الآن مع ما كان عليه أيام «ماو تسي تونج»، من حيث الأفكار والتوجهات.

أسس «ماو» للصين الحديثة لكن أفكاره لم تعد تحكمها، حيث اتبعت سياسة الانفتاح الاقتصادي وطورتها في إطار مشروع الدولة بعد رحيله بعامين.

بصورة ثالثة تقوضت هيبة «جبهة التحرير الوطني الجزائري»، التي قادت حرب الاستقلال واستشهد فيها مليون ونصف المليون شهيد، في عين شعبها، حتى إنها خسرت بفداحة الانتخابات النيابية أمام «جبهة الإنقاذ الإسلامية».

حدث ما حدث من انقلاب عسكري وحروب إرهاب امتدت لعشر سنوات.

لا توجد ثورات خالدة ولا أحزاب أبدية.

هذه حقيقة تستدعي البحث في النظام قبل الحزب.

الحزب، أي حزب أيًّا كانت طبيعة نشأته ودرجة قوته، جزء من النظام وليس النظام نفسه.

تبدت ثلاث فرص أمام «عبد الناصر» لبناء نظام أوسع وأقوى وقادر على حمل مشروعه وتجديده وفق احتياجات العصور المتغيرة.

الأولى. بعد حرب السويس، فلم يكن هناك شك في أن حزبًا يمثل الثورة سوف يكتسح أي انتخابات ديمقراطية وشفافة بقدر الشعبية الاستثنائية التي حازها «جمال عبد الناصر».

لم تكن تلك الفرصة غائبة عن تفكيره، غير أن خشيته من عودة الحياة الحزبية على صورتها القديمة بكل حمولاتها الطبقية القديمة منعته من التحرك في هذا الاتجاه.

والثانية. تبدت في أثناء الوحدة المصرية - السورية لبناء جبهة واسعة على أساس تعددي.

أدى التنظيم السياسي الواحد «الاتحاد القومي» إلى إفقار التجربة من تعدديتها في إطار مشروع الوحدة.

نشأت صراعات مكتومة ومعلنة مع قيادات وكوادر حزب «البعث» الذي حل نفسه رسميًّا لا فعليًّا.

أجهضت الوحدة من داخلها بقدر ما أجهضت بالتآمر عليها.

والثالثة. بعد الهزيمة العسكرية في يونيو (١٩٦٧) وما تبناه بيان (٣٠) مارس من دعوات إلى المجتمع المفتوح ودولة المؤسسات بدا ممكنًا إقرار التعددية في بنية النظام السياسي.

«عبد الناصر» تحدث موسعًا في هذا الاتجاه، غير أن أولوية إعادة بناء الجيش واستعادة الأراضي المحتلة بقوة السلاح ثم رحيل «عبد الناصر» على نحو مفاجئ في الثانية والخمسين من عمره دفع الأمور في اتجاه آخر أخذ من التعددية اسمها لا قواعدها وأحالها إلى ما يشبه «المسخ»، وهو أبعد ما يكون عن الجدية التي تحدث بها بعد هزيمة «يونيو».

لم يصد نفسه في ذروة التحول الاشتراكي عن التفكير في التعددية السياسية.

مطلع الستينيات دخل مساجلة علنية مع المفكر الإسلامي المستنير «خالد محمد خالد» حول الحياة الحزبية والدستورية في أثناء المؤتمر الوطني للقوى الشعبية، الذي أقر الميثاق الوطني الوثيقة الفكرية الأساسية لثورة «يوليو» بتوجهها الاشتراكي.

لم تمنع طبيعة المؤتمر هذا النوع من النقاش الليبرالي.

طالب «خالد محمد خالد» بالتعددية الحزبية ووضع دستور جديد وحق الشعب في تغيير حكامه.

استمع «عبد الناصر» باهتمام إلى ما قاله، وفاجأ المشاركين في المؤتمر بأنه «مع التعددية الحزبية لكن ليست أحزاب الماضي».. وأنه «مع حق الشعب في تغيير حكامه»، مبديًا في الوقت نفسه خشيته من «الانتكاس إلى الوراء».

تلك الخشية حكمت تصوراته ومواقفه بشأن طبيعة نظام الحكم، وحالت في الوقت المناسب دون إدخال تعديلات جوهرية عليه:

«أنت في كتبك التي ألفتها قبل الثورة... في كل صفحة تتكلم وتطالب بالقضاء على الاستغلال السياسي والاستغلال الاقتصادي والاستغلال الاجتماعي... هل الديمقراطية... بمعناها القديم مكنتنا نحن الشعب من القضاء على الاستغلال السياسي، أو الاستغلال الاقتصادي، أو الاستغلال الاجتماعي؟».

نزعة الديمقراطية السياسية تبدت في مساجلته، لكنه لم يضع خطة عمل تمكن الثورة بالتعدد وتحول دون عودة القوى الطبقية القديمة إلى سابق نفوذها.

في ذلك الوقت استولت على المجال العام نزعة الديمقراطية الاجتماعية ممثلة في التحولات الاشتراكية، وتأسيس تنظيم واحد جديد يعبر عنها هو الاتحاد الاشتراكي.

بعد العقود الطويلة التي مضت: ما المعايير التي تُقاس عليها الأحكام؟

غياب المعايير فوضى كاملة في الأحكام؛ حيث يسود الهوى وتتصدر تصفيات الحساب مع فكرة الثورة نفسها.

(٤)

تعرضت «يوليو» لنوعين متناقضين من النقد، أحيانًا من نفس الأشخاص، حسب ظروف الزمان ومتغيراته.

أولهما. يأخذ عليها أنها لم تمضِ في العمل الثوري إلى آخره حتى تجتث الطبقات القديمة، أو أنها لم تكن حمراء دموية شأن الثورات الفرنسية والبلشفية والصينية والجزائرية، التي شهدت تصفيات جسدية بين قياداتها.

وصفت تجربتها الاقتصادية بـ«رأسمالية الدولة»، ونزعت عنها صفة «الاشتراكية العلمية» على ما تقضي به النظرية الماركسية.

كانت تلك دعوة صريحة إلى تأميم المجال الاقتصادي كله وضرب القوى القديمة بكل عنف ثوري.

وثانيهما. يأخذ عليها ما اتخذته من إجراءات عنيفة، خلّفت جرحى كالتأميمات والحراسات، أو انتهاكات واعتقالات.

أسوأ قراءة ممكنة نزع الحوادث عن سياقها، أو ادعاء الحكمة بأثر رجعي.

عند مطلع التحول الاشتراكي وحسم الخيارات الاجتماعية لثورة «يوليو» سجل «جمال عبد الناصر» بخط يده أفكاره وتصوراته عن تناقضات مرحلة التحول وسبل حلها.

لعله أراد أن يرتب أفكاره الرئيسة على ورق قبل الإقدام على أي خطوات ضرورية في المواجهات المحتملة.

كان ذلك يوم (٢٧) أكتوبر (١٩٦١).

وصف القرارات الاشتراكية بـ«الثورة الاجتماعية» وما قبلها منذ عام (١٩٥٢) بـ«الثورة السياسية».

كان سؤاله الأول: «في أي اتجاه يجب أن نسير.. إلى الرأسمالية، أو إلى الاشتراكية؟».

لم يكن هناك تردد في اختيار الموقع الذي يقف فيه.

كان سؤاله الثاني: من هو الشعب، ومن هم أعداء الشعب؟

السؤال بنصه تعبير عن عصر عالمي كامل في توصيف التناقضات الرئيسة والثانوية.

هناك «خلافات متعارضة» لا سبيل إلى حلها إلا بـ«سحق المناهضين للاشتراكية».. «جميع من يعملون على تقويض النظام الاشتراكي» بالنظر إلى أن الطرف الآخر في الصراع يستخدم كل الأساليب الممكنة لضربه وتصفيته ومنع التحول إلى دولة العدل الاجتماعي.

تعبير «السحق» يستجيب للنوع الأول من النقد لتجربته، ويحتمل إجراءات أكثر تشددًا لم تحدث في التجربة العملية.

أن تكون هناك تجاوزات وانتهاكات حدثت شيء، و«السحق» كما في تجارب ثورية أخرى. شيء آخر تمامًا.

على نفس الورقة دعا إلى «تعيين الحدود بالضبط في إدارة هذا النوع من التناقض».

«بالاختصار: لا حرية لأعداء الشعب».

العبارة نفسها وردت بنصها في الميثاق الوطني.

كان ذلك هو التناقض الرئيس حسب التوصيف الشائع في ذلك الوقت بالأدبيات الثورية العالمية.

كان سؤاله الثالث: ماذا عن التناقض الآخر ـ داخل الشعب نفسه؟

كانت إجابته: «جميع الطبقات والجماعات التي تؤيد وتساند البناء الاشتراكي وتساهم فيه».. «التناقضات بين الطبقة العاملة والبرجوازية الوطنية ليست متعارضة».. «وهي تستدعي تعيين الحدود بين الخطأ والصواب».

بشيء من الإيضاح: «الدولة تستند إلى الشعب.. لذلك يجب أن تمارس الديمقراطية في داخل الشعب».

ثم صاغ شعارًا لافتًا: «كل الحريات للشعب».

«الديمقراطية وسيلة تقابل الأساس الاقتصادي والاجتماعي».

«إن جميع المسائل المختلف عليها.. لا يمكن أن تُحل إلا بالأساليب الديمقراطية؛ بالنقاش والإقناع والتثقيف ولا يمكن حلها بأساليب الضغط».

«يجب على القياديين أن يعتمدوا أسلوب الإقناع بطريقة ديمقراطية، أما اعتماد الأساليب الإدارية فأمر لا يقبله أي إنسان».

النص المكتوب بخطه كاشف لطريقة تفكيره، متأثر بما استخلصه من نتائج بعد الانقلاب العسكري في سوريا الذي أنهى تجربة الوحدة مع مصر.

كان من استخلاصاته ـ كما كتب بخط يده على أوراق أخرى في توقيت مقارب: «أن هناك فئة لا تفرق بيننا وبين أعدائنا.. أصدقاء لهم أعداء للشعب.. كشفت نفسها وشجعت الرجعية».

«إننا لم نستأصل الرجعية في مصر».

و«الاتحاد القومي تسللت إليه العناصر الرجعية المناهضة للثورة».

أهم استنتاج ممكن من الوثائق الخطية، التي احتوتها «حافظة أوراق محمد حسنين هيكل»، أنه كان ثوريًّا حقيقيًّا بلا أي ادعاء، فهو يكتب لنفسه دون أن يخطر على باله أن ما يكتبه موضوع نشر، ومفرداته تشي بدرجة عالية من الاطلاع على أدبيات الثورة المعاصرة.

بذات القدر كان ثوريًّا حقيقيًّا في مراجعة تجربته بشجاعة بعد هزيمة «يونيو».

أين مواطن الأخطاء القاتلة؟ وكيف حدث ما حدث؟

تبدت في مراجعته الأخيرة نزعتان متجاورتان؛ نزعة شبه ليبرالية أكدت على المواطنة والمشاركة السياسية والحقوق المتساوية للمواطنين بغض النظر عن انتمائهم الاجتماعي وموقفهم من الثورة.. ونزعة أخرى حاولت بقدر ما تستطيع الإبقاء على جذوة «يوليو» في صلب أدوارها، غير أن الثورة الاجتماعية تراجعت في سلم الأولويات بضغط التحديات الجديدة التي فرضت نفسها.

كان أفضل سيناريو ممكن التزاوج الفكري والعملي بين التعددية السياسية والعدالة الاجتماعية واستقلال القرار الوطني؛ حتى يستكمل مشروع «يوليو» زخمه وقدرته على التجديد بالإضافة.

كان خلل بنية النظام داعيا إلى ظاهرة «المثقف الحائر»، الذي لا يعرف لنفسه مرسى يستقر عليه ويطمئن له.

عبّر السيناريست «أسامة أنور عكاشة» عن ذلك النوع من الحيرة في أعماله الدرامية، كما في كتاباته السياسية المباشرة.

جسّد مسلسله «أرابيسك» حيرة بطله «حسن النعماني» في أزمة الهوية.. من نحن: عرب، أم فراعنة، أم متوسطيون، أم «بزراميط»؟!

كما بدت شخصيته الرئيسة «علي البدري» في مسلسل «ليالي الحلمية» متناقضة وحائرة بين انتسابه إلى طبقة الباشوات من ناحية الأب وعامة المصريين من ناحية الأم، ناصري مغرق في رومانسيته مطلع شبابه، انفتاحي مع الانفتاح، واقعي بالمعايير السارية، لا يستقر على خيار.

«هاتفني الصديق ـ الذي أحب واحترم ـ ...... رئيس تحرير صحيفة العربي ليسألني إن كنت أريد أن أكتب للعدد الخاص الذي سيصدر في ذكرى ميلاد جمال عبد الناصر. وأجبته على الفور: أجل.. وسأفعل.. وبعد المكالمة طفقت أفكر وأتساءل: ماذا بقي لدينا لنقوله عنه؟ وسارع خاطر بالجواب: الكلام عن عبد الناصر

لن ينفد ولن ينتهي.. حسنًا.. فلأبحث عن أمر لم يسبق ذكره.. وداخلتني الحيرة حتى أثقلت اليقظة في عيني فأغمضتا على تلك المساحة بين هامش اليقظة وهامش النوم.. وانتابتني غفوة لم تلبث أن غمرتني فيها أطياف تداخلت وتقاربت ثم تباعدت لتنجلي أخيرًا عن طيف واحد.. رأيته ماثلًا ينظر إليّ بنظرته النافذة التي لا تُنسى.. والابتسامة الواسعة حين يشرق وجهه الصعيدي الأسمر بما يبهجه أو يسره.. وكان لي معه حديث».

كانت تلك الحيلة الفنية شائعة ومتكررة في كل الفانتازيات، التي دأبت «العربي» على نشرها لكبار كتاب السيناريو والروائيين.

في ذلك الوقت من يناير (٢٠٠٦) كان «أسامة أنور عكاشة» مشتبكًا في مساجلات حادة حول العروبة، التي أنكر طبيعتها السياسية.

لم يكن مدفوعًا بغير حيرته صادقًا في التعبير عن نفسه.

اقترحت عليه أن يكتب فانتازيا يلتقي فيها «عبد الناصر» ويحاوره فيما يحيره.

«لا أعرف الحقيقة كيف تدافع ولكنني أسمعك.

شكرًا لصبرك وسعة صدرك.. والمسألة يا سيدي ببساطة أنني لا أومن بالشيء ونقيضه لأن الحقيقة لها وجهان.. فأنا مثلًا لم أقل إنني احترت.. من حبي.. وكرهي لك.. أو إنني ادعيت توحدي مع مبادئك ثم أعلنت أنني ضدها.. بل الحقيقة أنني أحببت الرمز.. والفكرة.. في عبد الناصر الثائر ضد نظم القهر الاجتماعي والتفاوت الطبقي ومجتمع النصف في المائة.. وبطل التحرير الوطني الذي ألهم الثوار في إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية.. وأشعل بقيادته معركة وطنية خلال حرب السويس كانت جذوة المثل والقدوة لثوار كوبا في جبال سييرا ماسترا في حربهم ضد باتيستا.. وثوار الماو ماو في إفريقيا.. وثوار الملايو في آسيا.. هذا المثال الذي صار رمزًا للتحرر الوطني، ومقاومة الاستعمار والاستقطاب بين معسكري الحرب الباردة.. أحببتك ومازلت.

ولكنني لا أستطيع أن أفعل نفس الشيء، أو أحمل نفس الحب لتجربة القضاء على الليبرالية وقولبة الشعب المصري فيما يشبه الطابور العسكري.. وأنكر حجج الشرعية الثورية التي قد تبرر البدايات، ولكنها لا تصلح أن تكون إذنًا مفتوحًا تعلق به الخلف وخلف الخلف.. لأن الشعب المصري فقد حريته في مراقبة حكامه عبر قرارين من أخطر القرارات التي أخذتها يا سيدي.. هما إلغاء الأحزاب ثم تأميم الصحافة.. لأن هذا حدث فقد ترتبت عليه حالة العقم والجفاف والتصلب الذي

أصاب قدرات الشعب المصري على الحراك السياسي.. خمسون عامًا يا سيدي ضاعت فيها معالم الطريق التي يسلكها المواطن المصري ليشارك في حكم نفسه، ويمارس العمل السياسي بكامل الحرية.

هذان هما وجها الحقيقة.. فهل مازلت ترى أنني أمارس السُفسطائية؟ هل تعتقد أنني أرتكب نوعًا من ازدواجية الرأي والمعايير حين أكرر لك الآن.. أنني أحبك.. لكنني لست مع دراويشك كصاحب قرار سياسي وحاكم فرد تطغى جاذبيته وكاريزميته على كل ما ارتكب باسمه من أخطاء؟

هزَّ الزعيم رأسه.. وطل في صوته رنين مرارة غير خافية.

ـ ربما كان لك منطقك.. ولكنني أعجب له.. ولا أتخيل أن هذا يمكن أن يكون حصاد التجربة الوحيد.

ـ لم أقل هذا يا ريس.. ولم أدعِ أو يدعِ غيري أنك لم تترك غير الأخطاء... ولولا أن كلمة إنجازات صارت مكروهة لدى عموم المصريين لكثرة استخدامها بالكذب.. لبقيت أعدد ما بقيَ من إنجازاتك وهي كثيرة.. وأهم ما فيها درس الكرامة.. لقد أثبتت ما صار راسخًا في وجداننا جميعًا من أن ثقل الوطن واحترامه لن يحققهما إلا من كان حكمه كله تلخصه كلمة الكرامة!.. الأمر الذي نفتقده كلما رأينا حجم مصر يتضاءل ودورها يبهت ويشحب.. وتبدو وكأنها ملطشة للقريب والبعيد.. فنردد على ألسنتنا تلك العبارة التي اقتنصناها من قصيدة شعر لنرفعها شعارًا للمرحلة.

وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر!

ونحن نفتقدك كثيرًا يا ريس.

«ابتسم في تسامح.. وهزَّ رأسه.. ثم تحرك مبتعدًا.. صحت في إثره مناديًا.. ولكنه لم يلتفت..

وثقلت أجفاني لأستغرق في نوم عميق».

كان ذلك نصًا تخيليًّا لمبدع كبير حمل نقدًا للتجربة الناصرية على صفحات جريدة تنتمي إليها.

في النص الكاشف تبدت حيرته بين مشروعها ونظامها.

قُرب الهزيمة العسكرية في «يونيو» (١٩٦٧) حذّرت أعمال مسرحية عديدة من مخاطر مُحدقة، توشك أن تداهم بطلها.

كانت الستينيات ذروة مجد المسرح المصري، وبرغم انتساب أهم مؤلفيه ومخرجيه لثورة «يوليو»، فإنه مارس درجة عالية من نقد المرحلة، محذرًا مما تخبئه الأيام.

طلب المؤلف المسرحي «ألفريد فرج» الأمان من الحاكم؛ حتى يجهر أمامه بما يراه منذرًا.

كانت تلك إشارة إلى خلل فادح في بنية الحكم، وأنه قد ينهار من داخله ما لم يتسع مجاله لسد ثغراته.

وحذّر مؤلف مسرحي آخر «سعد الدين وهبة» من أننا لسنا على «سكة السلامة»، وأن هناك من يضع «العسل في أذن الحاكم».

كانت تلك إشارة أخرى إلى الخلل نفسه.

وانطوت مسرحية «الفتى مهران» لـ«عبد الرحمن الشرقاوي» على دعوة صريحة للحاكم بألا يُرسل جيشه إلى «السند»، بينما العدو رابض على حدوده الشرقية، قاصدًا «اليمن».

بلغة المسرح توالت الرسائل أن هناك شيئًا ما خطأ يكاد يقوّض تجربة ثورة «يوليو»، وأن حدثًا جللًا قد يداهمنا تسقط به أحلامنا من حالق.

كان ذلك من داخل الانتساب إلى «يوليو» وتوجهاتها لا من خارجها وموقع الخلاف معها ـ كما أشار الناقد المسرحي الدكتور «حسن عطية».

ناقشت مسرحية «بنك القلق» لـ«توفيق الحكيم» تجاوزات «يوليو».

برغم التحريض على تلك المسرحية رفض «عبد الناصر» مصادرتها فـ«إذا كان من حق توفيق الحكيم أن ينقد النظام الملكي، فمن حقه أن ينقد النظام الجمهوري» على ما يروى «هيكل».

قبل ست سنوات طرح «الحكيم» في مسرحيته «السلطان الحائر» سؤال القوة والقانون.. إلى أيهما يجري الاحتكام؟

السؤال نذير مبكر ووصف السلطان بالحائر اعتقاد في نبله.

في الحيرة نبل بقدر ما تنطوي عليه من خطر.

إذا ما دققنا في تواريخ نبوءات المسرح، فقد جرى أغلبها عام (١٩٦٦).

في ذلك العام المنذر نشر «نجيب محفوظ» «ثرثرة فوق النيل».

ـ«ما معنى هذه الرحلة؟».

ـ«المهم الرحلة لا المعنى!».

السؤال القلق، الذي جرى على لسان «أنيس زكي»، الذاهل ليلًا ونهارًا بأثر المخدرات، والجواب بعبث من سائق السيارة المسرعة على الطريق قبل أن ترتطم بمجهول وترديه صريعًا بغير ذنب، هما صلب الثرثرة فوق النيل بما حملته من إشارات تنبئ وتحذر.

سؤال الرحلة بالنسبة إلى نظام حكم رهانه الرئيس على مشروعه وجماهيريته لافت بذاته.

معانٍ نقدية مقاربة تضمنتها رواية «ميرامار»، التي نُشرت في عام الهزيمة.

المثير أن الروايتين درستا في «منظمة الشباب الاشتراكي»، وجرت حوارات مفتوحة حولهما في سنوات ما بعد «يونيو».

برغم ما هو معروف عن أديب العربية الأكبر من انتقادات وتحفظات على تجربة «يوليو»، فإنه لم يكن معاديًا لها.

قرب نهاية حياته الطويلة كتب حلمًا من ضمن «أحلام فترة النقاهة» آخر أعماله الروائية.

كانت الأحلام تخطر له في منامه، يحفظها ويمليها، وهو لا يكاد يستطيع أن يحرك يده، أو يرى جيدًا ما حوله:

«وجدتني مع الرئيس عبد الناصر في حديقة صغيرة وهو يقول:

لعلك تتساءل: لماذا قَلَّت مقابلاتنا؟ فأجبته بالإيجاب.

فقال: كلما شاورتك في أمر جاءت مشورتك بالاختلاف كليًّا وجزئيًّا، فخفت أن تتأثر صداقتي لك بهذا الموقف. فقلت: أما أنا فلن تتأثر صداقتي لك مهما اختلفنا».

لم يكن «نجيب» صديقًا لـ«عبد الناصر»، غير أنه في لحظة مكاشفة أخيرة اعتبره صديقًا لا يؤثر على محبته اختلاف رأي.

برغم أصوات «الكورس»، التي علت تُنذر وتُحذر وفق قواعد التراجيديا ذهب بطلها إلى قدره، الذي لا فكاك منه.

(١)

لم يكن الأدب وحده من حذّر وتنبأ بما حدث في يونيو (١٩٦٧).

ما بين نهاية يوليو وأوائل أغسطس من عام (١٩٦٦) ارتفعت أصوات شابة تنقد النظام من داخل الانتماء إلى مشروعه والحرص على تجاوز أزمته.

حمل مؤتمر «المبعوثين» بأوراقه ومساجلاته في حضور «عبد الناصر» الإشارات نفسها التي ترددت فوق خشبات المسرح وتضمنتها روايات.

جرت وقائعه في مدينة الإسكندرية وضمت عضويته ممثلين للدارسين في الجامعات الأمريكية والأوروبية.

«سيادة الرئيس لم نجئ لنصفق، ولكن جئنا للنقد؛ لأن سبيلنا الوحيد إلى تأييدكم هو نقدكم».

هكذا تحدث طالب الدراسات العليا في القانون بجامعة «السوربون» «حسام عيسى».

سادت المؤتمر أجواء ديمقراطية بدءًا من انتخاب ممثليهم وإعداد الأوراق الأساسية، التي جرت على أساسها المناقشات والاستخلاصات التي توصل لها.

حسب شهادة أستاذ الاقتصاد الدكتور «محمود عبد الفضيل»:

«بدأ النظام يعاني منذ صيف ١٩٦٥ من بعض علامات الإعياء؛ نظرًا إلى المشاكل الناجمة عن حرب اليمن، التي أدت إلى ظهور بعض الضغوط التضخمية في الاقتصاد، وعدم القدرة على استكمال الخطة الخمسية الثانية، وكان مخططًا لها الفترة بين عامي ١٩٦٦ و١٩٧٠، كما تمثلت في بروز هبات شعبية محدودة مثل اضطرابات مدينة دمياط، بالإضافة إلى بعض التناقضات الداخلية للنظام الناجمة عن الصراع الخفي بين الرئيس جمال عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر - آنذاك - وانعكاساته على مسيرة العمل السياسي ومستقبل منظمة الشباب».

«في تلك الظروف نشطت مجموعات من المبعوثين المصريين في مراكز عدة باريس - لندن - برمنجهام - موسكو- كاليفورنيا - بركلي؛ من أجل طرح رؤية نقدية للنظام من داخل التجربة بهدف تطوير مسيرته ودفعه إلى آفاق أكثر تطورًا وانفتاحًا وديمقراطية».

«كان هناك قدر كبير من التنسيق بين تجمعات المبعوثين في البلدان المختلفة، وتم تعليق الآمال على الدور الذي يلعبه وفد فرنسا الذي أعد ثلاث أوراق أساسية:

الأولى: حول أزمة الديمقراطية والأزمة السياسية للنظام الناصري.

الثانية: حول أزمة التنمية والتراكم في ظل الخطة الخمسية الأولى.

الثالثة: حول الأزمة في جبهة الفكر والثقافة».

«أشارت الأوراق والمناقشات إلى بداية تبلور طبقة جديدة عازلة من كبار البيروقراطيين في تركيبة السلطة وكبار المقاولين، وتجار الجملة في قطاع الأعمال الخاص».

اعترف «عبد الناصر» وفق شهادة «عبد الفضيل» بالموقع الذي تحتله عناصر رأسمالية المقاولات وتجار الجملة في تعويق مسيرة التحول الاشتراكي، غير أنه لم يكن مقتنعًا بأنها ترقى إلى مستوى الطبقة.

من أبرز الأسماء التي شاركت في «مؤتمر المبعوثين»: د. «حسن حنفي» أستاذ الفلسفة، ود. «رشدي راشد» أستاذ فلسفة العلوم، و«سيد يسين» المفكر الاجتماعي، ود. «حسام عيسى» أستاذ القانون، ود. «حسن عبد الحميد» أستاذ الفلسفة، ود. «ليلى عنان» أستاذة الأدب الفرنسي.

كانت طروحات ذلك المؤتمر إشارة لافتة في العام المنذر لمواطن الخلل في نظام «يوليو».

الإشارة الأهم جاءت على لسان «جمال عبد الناصر» نفسه يوم (٣٠) إبريل (١٩٦٧) ـ كما تضمنتها «مجموعة أوراق محمد حسنين هيكل».

بنص ما قاله قبل الهزيمة العسكرية بـ (٣٥) يومًا:

«إن الأزمة لم تعد أزمة أشخاص، إنما هي أزمة نظام».

«القوى الاجتماعية والأفكار التي أطلقتها الثورة قد أصبحت أكبر من النظام السياسي الذي أقامته».

«إن المستقبل يقتضي صيغة جديدة تمامًا، وإن الحزب الواحد في هذه الظروف وهذا العصر أصبح لعبة خطرة».

«إن الحزب الواحد بغير معارضة قد أثبت أن عيوبه أكثر من أي شيء آخر، وبالتالي لا بد أن تكون هناك معارضة، والمعضلة التي تواجهنا هي: كيف يمكن أن تكون هناك معارضة لا تعود بالبلد إلى الوراء وتعيد عهود الخضوع للاستعمار وسيطرة رأس المال على الحكم؟».

بنص كلامه، الذي دونه «هيكل» على ورق واحتفظ به في مجموعة أوراقه: «إن النظام على النحو القائم الآن يترك مصير البلد لرجل واحد، وهذه مخاطرة بالمستقبل».

«إن هذا الوضع يمكن أن يدفع بالجماهير إلى السلبية، وبالتالي تترك أهم القرارات للبيروقراطيين أو التكنوقراطيين».

«إنه لا بد أن تتسع عملية إعادة التنظيم لقوى معارضة، تكون لها صحفها لكي تستطيع أن تعرض أفكارها على الناس، ولكي تكون رقيبًا على تصرفات الدولة».

كانت تلك مصارحة بالأفكار والتصورات والمخاوف قبل أن تخيم الهزيمة العسكرية على مستقبل «يوليو»؛ حيث يضيق نظامها عن القوى الاجتماعية والأفكار التي أطلقتها.

باليقين كانت هناك مؤامرات على ثورة «يوليو» لإجهاض مشروعها وإنهاء أدوارها، غير أنها ما كانت لتمر لولا الثغرات الداخلية في بنية «النظام المقفول الذي يُعلق مستقبل البلد على مجهول» بتعبير «عبد الناصر» في مراجعات الهزيمة.

في ذلك العام المنذر بدأ إعداد خطة الحرب على مصر لضرب مشروع «يوليو»؛ والتخلص من «عبد الناصر».

يوم (٢٠) يوليو (١٩٦٦) تناهت إلى مسامع الرئيس المصري رسالة تحذير: «أرجوك أن تعرف أنهم خارجون لاصطيادك يا سيدي» كما أبلغه وزير الخارجية الباكستاني ورئيس الوزراء فيما بعد «ذو الفقار علي بوتو»، الذي أعدم بعد انقلاب عسكري رعته المخابرات الأمريكية.

كان التخلص من «عبد الناصر» على رأس الأولويات في إدارة الرئيس الأمريكي «ليندون جونسون» بعد أن تخلصت من زعامات كبيرة للتحرر الوطني في العالم الثالث واحدًا إثر الآخر في العام المنذر مثل «سوكارنو« في إندونيسيا و«كوامي نكروما» في غانا.

كان الوصف الأمريكي لعملية (١٩٦٧) بذاته دالًا على أهدافه: «اصطياد الديك الرومي»، الذي يتيه بقيادته لحركات التحرر المناهضة للولايات المتحدة وإسرائيل.

(٢)

في مساجلات الهزيمة العسكرية ومقدماتها ملفان على درجة عالية من الحساسية ـ التدخل العسكري في اليمن ومشروع الصواريخ المصرية «القاهر والظافر».

«لقد أغلقت اليمن الأبواب على نفسها ألف سنة فلم يختفِ منها الشعر، ولكن المشكلة الحقيقية هي: متى يغزوها العلم؟!».

كانت تلك صورة بلد عربي معزول عن العالم وعلمه الحديث ـ كما سجلها «نجيب محفوظ» في قصته القصيرة «ثلاثة أيام في اليمن»، التي نشرت عام (١٩٦٩) من ضمن مجموعة «تحت المظلة».

«هل ثمة فرصة لأكتب كلمة سريعة؟

أخي العزيز..

كم وددت أن أودعك قبل الرحيل. أذكرك بالحب والإكبار وأنا على وشك العودة إلى أرض الوطن. ستعود إليه ذات يوم منتصرًا راضيًا بإذن الله. اهنأ الآن بأنك تحارب في سبيل قضية عادلة؛ قضية التقدم للإنسان العربي. ومهما تكن العوائق ومهما تكن العواقب فإنك بذرت في الأرض بذرة من طبيعتها النمو والازدهار».

كانت تلك رسالة الراوي ـ «محفوظ» نفسه ـ إلى جندي يحارب في اليمن.

على الرغم من كل ما هو منسوب للدور المصري في حرب اليمن من أخطاء فإنه نقل هذا البلد العربي من القرون الوسطى إلى العصور الحديثة.

هناك عشرات الشهادات بأقلام مثقفين يمنيين عن مدى الصدمة، التي انتابتهم عند الخروج إلى العالم ومعاينة وسائل حياة عادية لم تكن تخطر لهم على بال.

القيمة السياسية لشهادة «محفوظ» أكبر من الأدبية، فهي ليست من أعماله التي تستوقف النقاد والقراء.

المثير أنه نشرها بعد أن وقعت الهزيمة العسكرية ونُسب إلى حرب اليمن ما نُسب.

لم يتردد أن ينشر نصه كما كتبه في حينه، غير أنه عاد عام (١٩٨٢) عبر إحدى شخصيات رواية «الباقي من الزمن ساعة» للتعريض بحرب اليمن:

«أسمعت ما يُقال عن أغنية أم كلثوم أسيبك للزمن!.. يقال إن الأصل أسيبك لليمن».

عبقريته في قدرته على التقاط الدراما من قلب الحياة وتحولاتها السياسية والاجتماعية، لا في آرائه السياسية.

من الناحية الإستراتيجية ساعد التدخل العسكري في اليمن على تحرير جنوبه من الاحتلال البريطاني والسيطرة على مضيق باب المندب، حتى بات البحر الأحمر عربيًّا بالكامل.

في أثناء حرب أكتوبر (١٩٧٣) أغلق المضيق في وجه الملاحة الإسرائيلية.

ومن الناحية العسكرية نصبت كمائن حتى تكون حرب اليمن مستنقعًا للقوات المصرية يصعب الخروج منه.

كانت التجربة قاسية بكل معنى عسكري بالنظر إلى الطبيعة الجغرافية لليمن وحجم التدخلات المباشرة سعودية وأمريكية وإسرائيلية.

مالت حسابات «عبد الناصر» عندما أطيح بالحكم الإمامي عام (١٩٦٢) إلى أنه لا يصح التردد في الوقوف بجوار الثورة اليمنية، وإلا فإنه إخلال جسيم بالدور الذي تضطلع به الثورة المصرية في عالمها العربي.

بالتوقيت جاء الحدث اليمني الكبير بعد انفصال الوحدة المصرية – السورية وتراجع حركة القومية العربية.

كانت تلك فرصة إستراتيجية على البحر الأحمر بالقرب من منابع النفط لرد الضربة بأقوى منها.

كان تقديره أن تدخل بعض قوات الصاعقة، وسرب واحد من الطيران يكفي.

وفق شهادة «هيكل» بالقرب من صنع القرار فإن الحرب اتسعت «لا لأن هذا الطرف العربي، أو ذاك تدخل فيها، وإنما اتسعت الحرب حينما تدخلت قوى السيطرة العالمية، وفي مقدمتها إدارة المخابرات المركزية الأمريكية، التي جندت للحرب آلافًا من الجنود المرتزقة الأجانب، إنجليزًا وألمانًا وفرنسيين وأمريكيين. وقصة هؤلاء ذائعة مشهورة، ولكن ذاكرتنا ضعيفة ننسى بسهولة ما هو حق لنا ونبتلع بسهولة دعاوى الآخرين علينا.. ننسى أنه في وقت من الأوقات كان هناك أكثر من خمسة عشر ألفًا من الجنود المرتزقة الأجانب في اليمن.. وننسى أن لندن ـ كما حدث في حالة أنجولا ـ كانت مركز تجنيدهم وتسليحهم وإرسالهم إلى اليمن».

كان «أنور السادات» يتولى إدارة الجهد السياسي المصري في اليمن، لكنه عندما آلت إليه مقادير الرئاسة رعى حملات التشهير، كأنه لم يكن المسئول السياسي الأول عن الملف.

صبيحة (٥) يونيو تبدت مشكلة مستعصية مع بدء العمليات العسكرية الإسرائيلية أن الجيش المصري كان موزعًا على جبهتين بينهما آلاف الكيلو مترات.

كان استنزاف الجيش المصري في اليمن مقصودًا لأهداف تتعدى الصراع في هذه البقعة الإستراتيجية إلى انتظار لحظة انتقام عبر الحدود الشرقية.

أسوأ معالجة ممكنة لحرب اليمن والدور المصري فيها الانتقائية بالأهواء وتصفية الحسابات، فلا نعرف ما الذي جرى حقًّا.

الملف الآخر، وقد استخدم في التشهير الإعلامي الموسع دون تحرٍّ للحقائق، هو ملف المشروع الصاروخي المصري.

كان من بين أهداف العمل العسكري الإسرائيلي وقف نمو القدرات التسليحية المصرية.

هذه حقيقة ثابتة بالوقائع والوثائق.

بعبارة حزينة تضمنها كتيب عن «قصة صناعة الصواريخ والطائرات المصرية» لـ«محمد ضيائي نافع»؛ أحد المشاركين في المشروع: «سامحهم الله من كانوا السبب في إيقاف هذه الصناعة».

القصة شبه مجهولة ونالتها تشويهات انتقصت من حقيقتها وسخرت منها بالعمد، أو بالجهل.

بدأت صناعة الصواريخ والطائرات المصرية، أواخر عام (١٩٥٩).

كان عملًا جادًّا ودءوبًا ومشتركًا مع فريق ألماني من كبار العلماء والخبراء ترأسه البروفيسور «فولفجانج بيلز».

في نحو الساعة السادسة من مساء أحد أيام شهر ديسمبر (١٩٦٢) وصلت رسالة إلى بيت البروفيسور «بيلز»، مصمم صاروخي «القاهر» و«الظافر».

كان يجلس على رأس مائدة اجتماعات وحوله عدد من كبار مساعديه.

شرعت سكرتيرته في فرز الرسائل قبل عرضها عليه.

فجأة دوى انفجار شديد.

كانت الرسالة تحتوي على مادة شديدة الانفجار ومفجر متصل بدائرة كهربائية وبطارية دقيقة جدًّا ورقيقة لا شك أنها مثل التي تستخدم في الساعات حاليًّا.

بمجرد أن سحب ما بداخل المظروف وإخراجه حتى اكتملت الدائرة.

أصيبت السكرتيرة بالعمى الكامل ونالتها أضرار جسيمة أخرى.

بعد الحادث فرضت إجراءات أمنية مشددة لحماية الخبراء الألمان كعدم فتح أي طرود واردة من الخارج، إلا عن طريق خبراء المفرقعات.

بالمخالفة للتعليمات فتح طرد جاء من برلين يحتوي كتبًا علمية حديثة طلبها الخبراء الألمان قبل أن يُعرض على خبراء المفرقعات، فحدث انفجار مدوٍّ آخر خلّف فزعًا.

في توقيت مقارب جرت محاولات اغتيال للخبير المسئول عن توجيه الصواريخ «كلاين نختر» في أثناء زيارة أهله في ألمانيا، وتعرض لمحاولة مماثلة الدكتور «هانز كلاينفستر»، أصيب بجراح ونجا بمعجزة، واختطف الدكتور «هاينز كروجر» في ميونيخ وأرسل بطريقة ما إلى إسرائيل، وطلب المستشار الألماني «لودفيج إيرهارد»

من رئيس الخبراء الألمان الدكتور «بيلز» باسم ألمانيا ومصالحها أن يجد لنفسه نشاطًا آخر خارج مصر ـ حسب ما رواه «محمد حسنين هيكل».

ما هو متاح من أوراق ووثائق لا يوفر قصة متكاملة، غير أنه من المؤكد أن الاستخبارات الإسرائيلية عملت على ترويع الخبراء الألمان، وإغرائهم في نفس الوقت برواتب أكبر في أماكن أخرى.

في عام (١٩٦٣) بدأت عمليات التجريب على إطلاق الصواريخ.

كان هناك تعجل يطلب أن تلحق الصواريخ احتفالات (٢٣) يوليو.

لم يُكتب للتجربة النجاح، وعندما اقترب خبير ألماني من الصاروخ ليعاين بنفسه أسباب إخفاق التجربة، لحقت به إصابات جسيمة.

كانت المحاولة الأولى تعمل على ضبط التوجيه الصحيح للصاروخ، وهو من أهم مراحل تصنيعه.

وكانت الاستخبارات الإسرائيلية تعرف أن ذلك سوف يكون رادعًا لسلاح طيرانها.

بحسب تقديرات أمريكية تتضمنها وثائق فإن الصواريخ المصرية، سوف تكون جاهزة عام (١٩٧٠).

من أسوأ ما قيل بعد يونيو (١٩٦٧) السخرية من المشروع الصاروخي المصري دون أي التفات إلى جديته والحرب الإسرائيلية عليه.

لا أحد ـ تقريبًا ـ يريد أن يتذكر قصة رجل «الموساد» «وولف جانج لوتز»، وهو ألماني الجنسية اتخذ من تربية الخيول ستارًا لمهمته في وقف تعاون الخبراء الألمان مع الصناعات العسكرية المصرية لإنتاج الصواريخ الباليستية وصناعة الطائرات قبل أن يُقبض عليه.

أحد أهداف العدوان استباق المشروع المصري وإجهاضه.

ذلك ما حدث.

(٢)

كانت خطة العدوان تبحث عن ذريعة.

بتقدير سياسي خاطئ وقعت مصر في الفخ المنصوب.

هذه مسئولية «عبد الناصر» وحده.

حسب شهادة اللواء طيار «صلاح الحديدي»، الذي أُخضع للمحاكمة بتهمة التقصير، فإن حرب «يونيو» جرى توقعها بمعلومات صحيحة أكثر من أي حرب أخرى.

تعددت إشارات من مصادر دولية موثوقة تحذر من عمل عسكري وشيك ضد مصر.

الرئيس الفرنسي «شارل ديجول» أبلغ «عبد الناصر» عبر السفير المصري في باريس «عبد المنعم النجار» أن المخابرات الفرنسية حصلت على معلومات مؤكدة أنه سيحدث هجوم عسكري صباح (٥) يونيو راجيًا استيعاب الضربة، ثم الرد عليها؛ حتى يستطيع دعم القاهرة باعتبار أنها تعرضت لعدوان.

لم تأخذ القيادات العسكرية الملتفة حول المشير «عبد الحكيم عامر» تحذيرات الرئيس على محمل الجد، بل جرى الاستهتار بما حذّر منه: «هوه يعني من أولياء الله الصالحين حتى يعرف موعد الحرب، وأنه الاثنين بالذات!».

وفق ما ورد في تقرير لجنة تحقيق عسكرية عقب الهزيمة مباشرة ترأسها الفريق «عبد المنعم رياض»، رئيس هيئة أركان القوات المسلحة الجديد: «في الساعة ١٢٠٠ مساء ٢٩ مايو حضر الرئيس جمال عبد الناصر اجتماعًا في مقر القيادة العليا وقدر رئيس الجمهورية احتمالات بدء إسرائيل للحرب بنسبة ٨٠٪».. «في اجتماعٍ تالٍ رفع نسبة احتمالات الحرب إلى ٩٠٪».

مساء (٢) يونيو أكد على ضرورة الاستعداد لتلقي الضربة الجوية الأولى خلال يومين.

اقترح الفريق أول «صدقي محمود» قائد سلاح الطيران ضربة مصرية أولى، غير أن الحال التي كان عليها السلاح دعت إلى استبعاده، كما كان من المرجح في هذه الحالة أن تتدخل الولايات المتحدة عسكريًّا بحجة حماية إسرائيل من العدوان عليها.

أرجع الفريق «سعد الدين الشاذلي»، رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة أثناء حرب أكتوبر في حوار صحفي منشور (يونيو ـ ٢٠٠٠) السبب الرئيس للهزيمة الثقيلة إلى أن «القوات المسلحة في الفترة السابقة للحرب لم تكن متفرغة تمامًا لأعمال القتال، وأن الصراع على السلطة بين المشير والرئيس دفع عبد الناصر إلى الابتعاد عن الجيش وتركه لعامر يفعل ما يشاء، فيعين قيادات منعدمة الكفاءة، ولا تملك أي مؤهلات غير الولاء..».

حسب نفس الشهادة فإنه قد جرى تكليفه في أثناء الحرب بثلاث أو أربع مهام متناقضة في وقت واحد.

لم يكن «عبد الناصر» على دراية حقيقية بما يجري داخل القوات المسلحة.

باعتباره القائد الأعلى للقوات المسلحة، كان يتوجب عليه ألا يترك الأمور داخلها تصل إلى هذا الحد المزري ـ أيًّا كانت أسبابه في تأجيل الحسم.

هذه مسئولية سياسية ثانية يتحملها وحده.

عندما توافرت الذريعة بدت النتائج محتمة.

كانت الذريعة، التي سوغت العدوان، إغلاق خليج العقبة أمام الملاحة البحرية الإسرائيلية.

وقد اندفعت الأحداث على النحو التالي:

حشدت قوات عسكرية مصرية في سيناء تحسبًا لأي ضربة متوقعة ضد سوريا.

شيء أقرب إلى المظاهرة العسكرية بلا نية حرب، أو استعداد مناسب، بظن أنها قد تدفع إسرائيل للامتناع عن استخدام القوة ضد سوريا، أو تهديد أمن حدودها.

لم يكن التقدير صحيحًا.

وهذه مسئولية سياسية ثالثة.

في ظروفه وتوقيته كانت مشكلته أنه إذا لم يُقدم على تحرك ما على الجبهة المصرية فسوف يُتهم بالتخاذل عن نصرة سوريا وتركها فريسة لآلة الحرب الإسرائيلية.

أراد مظاهرة السلاح ردعًا فيما استخدمتها إسرائيل فخًّا.

طلبت مصر إخلاء قوات الأمم المتحدة من خط المواجهة بين طابا ورفح، غير أن السكرتير العام المساعد «رالف بانش»، أمريكي الجنسية، كان رأيه أنه لا مجال للانسحاب من جزء والبقاء في آخر ـ كأنه إحكام للفخ المنصوب.

أغلق خليج العقبة «تمسكًا بحق السيادة ونزولًا على مقتضيات الحرب».

وهذه مسئولية سياسية رابعة لم يجرِ التحسب في لحظته لعواقبه وأخطاره.

«القرار يعني الحرب» حسب «محمد حسنين هيكل» في كتابه «الانفجار».

تحركت قوات إسرائيلية من الشمال إلى الجنوب؛ حيث الجبهة المصرية، وبدا الوقوع في الفخ نهائيًّا والعدوان مؤكدًا.

مال تقدير «عبد الناصر» إلى سيناريوهين متداخلين:

الأول ـ أن القوات المسلحة قادرة على معركة دفاعية طويلة النفس لا تقدر إسرائيل برغم تفوقها العسكري على تحمل أعبائها.

ولم تكن أوضاع القوات المسلحة في مركز قيادتها على شيء من الكفاءة العسكرية يؤهلها لمثل هذه المعركة.

الثاني ـ أنه يمكن إدارة حرب (١٩٦٧) بالطريقة التي أديرت بها حرب السويس (١٩٥٦).

وكانت الظروف الدولية قد اختلفت جوهريًّا عما كان قبل أحد عشر عامًا.

في الساعة الثامنة من صباح الاثنين (٥) يونيو بدأت العملية العسكرية الإسرائيلية بغارات طيران مكثفة في سيناء والداخل قوضت سلاح الجو المصري، وباتت الأجواء تحت السيطرة الإسرائيلية الكاملة.

تحددت نتائج الحرب عند الساعة الحادية عشرة والنصف.

فقدت القيادة العسكرية أعصابها وتوازنها.

قررت انسحاب القوات من سيناء يوم (٦) يونيو في ليلة واحدة دون غطاء جوي يحميها، ودون أن تُخطر الرئيس.

ثم عادت عن قرارها ودفعت بالفرقة الرابعة مدرعة مرة أخرى داخل سيناء تحت الضربات الجوية الإسرائيلية.

كان الأداء العسكري في مركز القيادة مزريًا، والقائد العام عاجزًا عن الاضطلاع بمهامه.

في صباح (٥) يونيو، قبل أن تبدأ الغارات الإسرائيلية، اصطحب المشير «عبد الحكيم عامر» كل رؤساء أركان الحرب وكل قادة الأسلحة في طائرة واحدة اتجهت إلى سيناء دون أي ترتيبات تحفظ سلامتهم، برغم التحذير الذي استمع إليه من «عبد الناصر» عن عدوان وشيك في ذلك اليوم.

كان أمرًا مثيرًا للدهشة والاستغراب ألا يكون القادة الميدانيون في مواقعهم ـ بتعبير الفريق «سعد الدين الشاذلي».

ولم يكن أغلب هؤلاء القادة صالحين لتولي مهامهم.

في حرب الاستنزاف أُسندت المهام إلى الأكثر كفاءة، وأعيد بناء الجيش على أُسس احترافية.

كان ذلك بروفة حرب أكتوبر.

(٤)

كان رأي «جمال عبد الناصر» أن النظام الذي يفشل في صيانة التراب الوطني لا يحق له البقاء.

في لحظة الهزيمة تقوضت الشرعية وسقط نظامه، غير أنه تبدت في تظاهرات (٩) و(١٠) يونيو شرعية مستأنفة رفضت تنحيه وفوّضته الحكم من جديد لإزالة آثار العدوان.

لم يسبق لأمة مهزومة ومجروحة في كبريائها الوطنية أن راهنت على قائدها المهزوم؛ باعتباره أملها في رد اعتبارها وتحرير أراضيها التي احتلت.

بأي قياس تاريخي فإنه حدث استثنائي.

لماذا كان ذلك ممكنًا؟

المفاجأة أخذت «عبد الناصر» نفسه، الذي كان يتصور أن تُنصب له المشانق في ميدان التحرير.. لا أن تخرج الملايين تعرض المقاومة وتطالبه بالبقاء.

لا تضاهي تظاهرات (٩) و(١٠) يونيو سوى جنازته بعد ثلاث سنوات.

«غادرت الجريدة إلى الشارع وكان الظلام ينتشر بسرعة والناس تجري في كل اتجاه وهم يصيحون ويهتفون. ثم أخذوا يشكلون اتجاهًا واحدًا إلى مصر الجديدة. وهم يرددون في جنون اسم ناصر. وظهرت بعض الأنوار في المحال والمنازل ثم دوت أصوات مدافع فوق رءوسنا فساد الظلام من جديد».

تلك الصورة التقطها «صنع الله إبراهيم» في روايته (١٩٦٧) من أحداث ومشاعر عاين عمقها بنفسه ـ انفجار بالبكاء وتشنج وانهيار وخروج بعفوية للشوارع.

كان الروائي الشاب في ذلك الوقت مطاردًا سياسيًّا.

خرج من المعتقل عام (١٩٦٤) بعد أن قضى خلف جدرانه خمس سنوات كاملة.

لم يكن هناك ما يدعوه إلى أن يُضفي على «تمثيلية» مصطنعة طابع الحقيقة المصدقة.

الرواية عن التحلل، الذي أصاب كل شيء ونال من كل قيمة، كأنها نبوءة ما، زامنت الهزيمة.

عزا السبب الرئيس لتأجيل نشرها لنحو نصف قرن إلى أنه وجد: «أنها قد تستخدم من قبل القوى اليمينية في حملاتها ضد الناصرية والاشتراكية».

في شهادة روائية من موقع آخر لعضو في منظمة الشباب الاشتراكي عن المشاعر العامة التي اجتاحت مصر ليلة التنحي كتب الروائي «إبراهيم عبد المجيد» «في الصيف السابع والستين»: «الجميع يجرون صارخين بالهتاف. صاخبين بالدموع.. رجالًا.. نساءً.. شبابًا.. فتيات.. صبية صغارًا.. وعرف الشعب القيامة».

«دوت صفارات الإنذار.. من يسمع صفارات الإنذار الآن؟! ما معنى الإنذار الآن؟ أن أحدًا ممن امتلأ بهم الوادي الحزين لا يشعر إلا بأنه صار عاريًا فجأة.. يلتفت حوله فلا يجد شيئًا بعد أن صفع على رأسه صفعة شديدة شلت قدرة الروح وأحبطت دم القلب فاستقر في القاع متخثرًا».

«أي إرادة غبية مقيتة شاءت لك هذا الهوان.. واقفة عاجزة أنت بلا جيش ولا حراس؟ من يستطيع أن يعود إلى من يضع يده بأول قطعة صلب جديدة؟ لقد ذهب».

شعور مفاجئ بأن كل حلم تبدد، وكل أمل انكسر، وأن الرجل الذي مضوا خلفه يعملون ويقاتلون انقضى عهده، وأن الظلام حل على البلد.

صدمة الهزيمة خيمت بظلالها الكئيبة على مصر يومي (٩) و(١٠) يونيو.

كانت الإذاعات تمهد إلى أن هناك نصرًا عسكريًّا يقترب فإذا بالهزيمة تقع.

بدت الصدمة هائلة بقدر الأحلام التي حلقت والثقة التي توافرت.

وبلغت ذروتها في الأرض الفلسطينية المحتلة ـ كما كتب شاعرها الأكبر «محمود درويش».

«ابتدأ كل شيء،

وانتهى كل شيء.

وبين البداية والنهاية، خانك الفرح الذي كنت تحذره دائمًا. كل شيء يتحول من حجارة إلى أفكار، تخرج فلسطين منك بلا وداع. كنت في المخبأ معلقًا على حبل الفارق بين يومين لا يتشابهان. ليسكت الوطن قليلًا. لقد وقعت الخصومة بينك وبين الحياة ذاتها. يأخذك الزلزال ويطرحك أرضًا، عادوا إلى أورشليم: الجنرال، والكاهن، والزانية. لن نخرج من هنا إلى الأبد. نفخوا في الصور وصلوا ودقوا رءوسهم بحجارة الحائط القديم، حتى سالت دماؤهم. لا حرب بلا دماء، ولم يخسروا دمًا كثيرًا في الحرب، فليعلنوا ثمن الحرب تطوعًا وتبرعًا لحجارة الهيكل. تسمع أصواتهم عبر الراديو. لقد وصلوا إلى الحرب عبر جثث أهلك التي لم تدافع عن نفسها. العنف مرة أخرى. العنف يعلن جدارته. وبدعاوى الحق لا تأخذ شيئًا ولا تستطيع الاحتفاظ بشيء. أنت لا تبكي، عادة، ولكن سقوط القدس يعني سقوط الدموع. توقظك صلواتهم، ترفع ستار نافذة المخبأ، بعد يومين، فيجتاحك شلال الضوء الزاحف من حيفا التي كانت غارقة في التعتيم الكاذب... لم ترَ ناسًا، قبل اليوم، قادرين على الفرح الوحشي بمثل هذه الطاقة. دقات طبول وصفارات أطفال وأضواء كثيرة. لم يفرحوا بسقوط القدس والضفة وسيناء والجولان كما يعلنون أفراحهم الآن. لقد سقط عبد الناصر. الرمز والصوت والأمل. خبر صغير في حجم الموت. ثلاثة شبان من الناصرة توقفت قلوبهم وماتوا. قرى الصعيد والأقاليم تزحف إلى القاهرة لتعيد عبد الناصر إلى الوقوف. كيف يكون الرمز في حجم الوطن؟ لأن بقاء الرمز يبعث الأمل باستعادة الوطن. يوم كان جمال عبد الناصر يقول: أيها الإخوة المواطنون. ويبدأ... كان كل شيء يتوقف عن الحركة. كان

الجائع يشبع، والغريب يعود، وكانت فلسطين تقف على أقدامها تأهبًا للتحرير. يوم كان جمال عبد الناصر يقول: أيها الإخوة المواطنون. ويبدأ، كان سكان الأرض المحتلة يعتقلون أنفسهم، من أصغر طفل إلى أكبر شيخ، قرب أجهزة الراديو، وكثيرًا ما كانوا يندفعون إلى الجهاز الذي يحمل صوت عبد الناصر ويقبلونه في نشوة وطنية وإنسانية لا تُوصف. والآن يذهب؟.. صار التعلق بالوطن والتحرير مرتبطًا بعودة عبد الناصر. وحين عاد، أحس العرب بأنهم حققوا انتصارًا، وخلصوا الأمل من براثن الهزيمة».

(٥)

استشعر «عبد الناصر» أنه خذل شعبه وأمته وبدا مستعدًّا أن يتحمل المسئولية كاملة، لا أسندها إلى غيره ولا بررها بأسباب خارجة عن إرادته.

لم يكن أحد بجواره ليلة «التنحي» سوى «محمد حسنين هيكل»؛ موطن ثقته ومحاوره الرئيس في سنوات الصعود.

سألت الأستاذ «هيكل»: «كيف بَدَرَ مصطلح النكسة إلى ذهنك عند كتابة خطاب التنحي؟».

ـ «والله لا أعرف».

ـ «هل يمكن أن تكون قد تأثرت بما صغته أنت نفسك في الميثاق الوطني عن نكسة ثورة ١٩١٩؟».

ـ «لا».

كل ما جرى أنه جلس في مكتبه ببيت الجيزة ليكتب خطاب التنحي ومشاعره معلقة ببلد سوف يفاجأ بعد قليل بما لم يكن يتوقعه، وأن صدمته سوف تهزه وتفقده ثقته في نفسه.

لم يطاوعه قلمه أن يضع على ورق كلمة «الهزيمة».

في البداية رفض «عبد الناصر» مصطلح «النكسة».

وكان رأيه أن عدم استخدام وصف الهزيمة قد يوحي بمحاولة للتنصل من مسئولية يعترف بها.

شرح «هيكل» وجهة نظره على النحو التالي: «إن استخدام كلمة الهزيمة في تلك اللحظة قد يعني التسليم بنتائجها السياسية، وإن الحرب أطول مدى من جولة خسرناها، وإنها سوف تؤثر بالسلب على قوات عسكرية مازالت تُقاتل في سيناء،

وتسعى للعودة سالمة إلى غرب القناة، كما تؤثر بالسلب على الأمة العربية كلها، وإنه من الأوفق أن يترك الرئيس الحكم والبلد في نكسة يمكن تجاوزها في مدى منظور من التسليم بهزيمة تلزم من بعده بنتائجها».

لم يخضع خطاب التنحي لأي دراسة يستحقها من حيث إحكام الصياغة والعرض.

من الناحية المهنية فهو أفضل ما كتب «هيكل» من خطابات عامة.

قلت له ذات مرة والنقاش ممتد حول ذلك اليوم الاستثنائي: «لو أنك كتبت هذا الخطاب مائة مرة وألقاه عبد الناصر مائة مرة ما كان يمكن أن يكون مؤثرًا إلى هذه الدرجة التي رأيناها في البيوت والمنتديات والشوارع».

قال: «إنه الصدق والشعور بالمسئولية».

(٦)

لم يكن الأدب وحده رواية كانت أو شعرًا من سجل للتاريخ عمق المشاعر تحت وطأة الصدمة، فقد تناثرت روايات بلا حصر سجلت نفس المشاعر والمشاهد لما حدث في مصر يومي (٩) و(١٠) يونيو.

غير أن هناك ـ بالمقابل ـ من شكك فيها كـ«تمثيلية» دبرها «عبد الناصر» للبقاء في السلطة والإفلات من مسئولية الهزيمة، أو نسبها لتدبير من الاتحاد الاشتراكي.

بعض الذين طرحوا شكوكهم استندوا إلى وقائع حقيقية لدعوات من مسئولين في الاتحاد الاشتراكي للخروج، أو التحريض عليه، غير أن الفعل التاريخي نفسه كان عفويًا ومباشرًا لم ينتظر توجيهًا من أحد، ولا كان في طاقة أي تنظيم أن يدفع الملايين إلى الشوارع في لحظة واحدة.

قيل إن الناس لم تكن مطلعة على حجم الهزيمة، وإنها لم تجد غير «عبد الناصر» أمامها غير أنه عندما تبدت الهزيمة أمام الناس وأمام العرب في كامل حجمها المروع خرجت العاصمة السودانية الخرطوم بكامل أهلها، حتى خلت المنازل من سكانها؛ لاستقبال القائد المهزوم الذي وصل إليها دون سابق إعلان.

كان ذلك حدثًا تاريخيًا مشهودًا لا مثيل له.

في مذكرات أمين عام الجامعة العربية الأسبق «عمرو موسى»، إشارة إلى أنه كان هناك «ترتيب» لتلك المظاهرات مستندًا إلى أنه استمع، كما استمع كثيرون لأصوات انفجارات في القاهرة قيل إنها لطائرات إسرائيلية تحلق وتقصف، ثم ثبت أنها طلقات مدفعية مصرية.

الحقيقة لم يكن ذلك من ضمن أي ترتيبات لخروج مظاهرات.

العكس كان صحيحًا، فقد استهدف منع أي ردات فعل شعبية متوقعة على تنحي «عبد الناصر» بإثارة مشاعر الذعر والخوف من تدهور أمني كبير في العاصمة.

أثبتت تحقيقات رسمية أن وزير الحربية في ذلك الوقت «شمس بدران» كان وراء ما جرى بأمل أن يتولى هو رئاسة الجمهورية دون أن يكون بوسع أحد أن يوقفه.

وحسب ما رواه «عبد الناصر» بنفسه أمام اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي يوم (٣) أغسطس (١٩٦٧) فإنه:

«بعد ظهر يوم ٩ يونيو اتصلت بعبد الحكيم عامر تلفونيًّا قبل إذاعة بيان التنحي وأبلغته أني فكرت جيدًا، ووجدت أن زكريا محيي الدين هو أصلح شخصية تتولى رئاسة الجمهورية بعدي. هنا بدأت مشكلة شمس بدران لأنه اعتبر نفسه رئيسًا للجمهورية من الساعة الحادية عشرة مساء يوم الخميس لغاية ما أذعت بيان التنحي بعد ظهر الجمعة ٩ يونيو، كما اعتبر أني بترشيح زكريا محيي الدين رئيسًا للجمهورية قد اعتديت على منصبه الشرعي وعزلته».

«وقد حدث في أثناء إلقائي البيان في مكتب بقصر القبة أن طلب شمس بدران سكرتيري محمد أحمد طالبًا أن يبلغني فورًا بضرورة عدم استمرار إلقائي باقي البيان.. كان ذلك أمرًا خياليًّا».

من أدوار «هيكل»، التي تستحق اعترافًا بفضله، امتناعه عن تسمية «شمس بدران» في خطاب التنحي رئيسًا مؤقتًا للبلاد.

لم يكن مقتنعًا بأنه الرجل المناسب، حتى لو كان الرئيس والمشير اتفقا عليه ريثما يتم ترتيب الأمور في البلاد وداخل القوات المسلحة باعتباره وزيرًا للحربية.

اقترح اسم «زكريا محيي الدين» رئيسًا واقتنع «عبد الناصر» بأنه الخيار الأفضل فأصاب الجنون تصرفات وزير الحربية في ذلك الوقت.

تلك أسباب طلقات المدفعية وصفارات الإنذار، التي دوت في القاهرة وأثارت تأويلات عن أسبابها ودواعيها.

بنفس المحضر تفسير آخر للورقة، التي وضعت أمام «عبد الناصر» في أثناء إلقاء بيانه دون أن توقفه.

في أعقاب الهزيمة جرى اكتشاف تنظيم سري داخل القوات المسلحة، أغلبيته من خريجي دفعة «شمس» في الكلية الحربية عام (١٩٤٨) دون أن يكون الرئيس على أدنى علم به.

اعتقل أعضاء التنظيم وواجهه «عبد الناصر» قائلًا: «لقد خنت ثقتي ولم تكن جديرًا بها».

بعد أن دارت الأيام عقودًا بعد أخرى كتب «شمس بدران» مذكرات تضمنت إساءات متعمدة لـ«عبد الناصر» وقصصًا موتورة لا يمكن تصديقها، كأنه لم ينسَ أنه كان على بعد خطوة واحدة من مقعد رئيس الجمهورية.

كانت شهوة الحكم بغير استحقاق فوق آلام بلد تلقى هزيمة لا يستحقها.

هذه حقيقة ما جرى يومي (٩) و(١٠) يونيو، حدث استثنائي في التاريخ المصري.

من حق «عمرو موسى»، كما من حق غيره، أن تكون له قراءته الخاصة للتاريخ يُسجل فيها مشاعره وانطباعاته، وأي مذكرات مرآة صاحبها.

«لا يوجد بداخلي شيء شخصي أو نفسي»، «تعاطفت مع يوليو باعتبارها تغييرًا أساسيًّا قد حدث في البلد»، «بكيت عند تنحي عبد الناصر ووفاته»، فهو زعيم «مهول» «كنت مغرمًا بشخصيته ومواقفه» و«البهاء الذي يحيط بدور مصر»، حتى كانت هزيمة ١٩٦٧ التي «غيّرت مواقف كثيرين فأصبحوا ناقمين بشكل عام على النظام كله».

هناك فارق بين «النقد» و«النقمة».

النقد طبيعي مهما بلغت حدته بعد هزيمة مروعة يتحمل «عبد الناصر» مسئوليتها ـ كما قال في خطاب التنحي.

استنتاج «عمرو موسى» من أن خللًا كبيرًا في أداء الدولة أفضى إلى الهزيمة صحيح.

«عبد الناصر» لديه الاستنتاج نفسه فيما سجله من انتقادات لنظامه بعد (٥) يونيو.

غير أن الدبلوماسي العريق يكاد يدين العصر كله بما أنجزه من تصنيع واسع غير مسبوق وتطور جوهري في حياة الفلاحين بقوانين الإصلاح الزراعي، فضلًا عن التعليم الذي سمح التوسع فيه لأكبر حراك اجتماعي في التاريخ المصري، والصحة التي أصبحت متاحة لفقراء المصريين، والثورة الثقافية التي وصلت إلى آفاق لم تكن متخيلة.

إنكار حجم التحول الاجتماعي نوع من النقمة، الذي يعترف أنها أصابته بعد الهزيمة.

النقمة تفضي ـ بالضرورة ـ إلى سُحب دخان تحجب الحقيقة.

برغم تقديره للدور الذي لعبه الرئيس «أنور السادات» في حرب «أكتوبر»، فإنه «لم يقترن بإصلاح واعٍ وشامل للأمور في مصر».

أي إصلاح يقصدهُ بالنظر إلى طبيعة النظام الجديد وخياراته الاجتماعية في تمكين طبقة رأسمالية طفيلية من المقدرات الاقتصادية، والطريقة التي أدار بها السياسة الخارجية المصرية بعد الحرب؛ بما أفضى إلى تهميش الدور المصري عكس ما تبنته «يوليو؟».

لم يكونا نظامًا واحدًا حتى لو استخدم كلاهما أدوات الدولة لفرض هيمنته.

السؤال الأولى بالإجابة عنه: لماذا خرجت الملايين تطالب ببقاء القائد المهزوم؟

إنه قوة المشروع وما حققه من تحولات جوهرية في بنية المجتمع، وما خاضه من معارك أضفت على مصر هيبة القيادة، وما أطلقه من أحلام كبرى لم يكن يسيرًا التنكر لها.

ثم إنها الوطنية المصرية التي أدركت في لحظة السقوط أنها مقصودة بذاتها.

بصورة أو بأخرى تصدرت الوطنية المصرية مشهد (٩) و(١٠) يونيو قبل أي اعتبار آخر.

أثبتت الأحداث فيما بعد أن الرهان على «عبد الناصر» كان في محله.

أعاد بناء القوات المسلحة من تحت الصفر، وامتلكت مصر أقوى جيش لها في التاريخ الحديث، تجاوز حجمه مليون جندي ـ أغلبه من خريجي الجامعات المصرية.

جيش حديث يأخذ بالعلم وفنونه وقواعد الضبط الصارمة تحكمه، والفضل في ذلك يعود ـ أساسًا ـ لقائده العام بعد الهزيمة الفريق أول «محمد فوزي»: تدريبات قاسية، وبروفات جادة في ميادين القتال في أثناء حرب الاستنزاف قبل أن نذهب إلى حرب أكتوبر.

أعطت مصر أقصى ما لديها من إرادة القتال.

ولم يكن التفويض الاستثنائي الذي منح لـ«عبد الناصر» شيكًا على بياض، فقد خرجت مظاهرات طلابية عام (١٩٦٨) تندد بالأحكام المخففة على التقصير الفادح لقادة سلاح الطيران في حرب يونيو.

ماذا كان يمكن أن يحدث إذا انقضى شأن «عبد الناصر» يوم التنحي؟

التاريخ لا يعرف الأسئلة الافتراضية غير أن الهزيمة تبدأ في «الإرادة».

انعقدت إرادة المقاومة في تظاهرات (٩) و(١٠) يونيو ووجدت رمزها في الرجل الذي حارب القوى الاستعمارية ومشروعات الهيمنة على المنطقة، برغم الهزيمة التي لحقت به.

بقوة الوقائع (٥) يونيو هزيمة عسكرية فادحة.

وبقوة الإرادة فإنها نكسة يمكن تجاوزها.

من أبلغ المواقف التي تلخص إرادة القتال ما طلبه الفريق «عبد المنعم رياض» من الرئيس «عبد الناصر»، عندما كلفه رئاسة أركان حرب القوات المسلحة المصرية في أعقاب الهزيمة العسكرية ألا يقبل «الصلح»، أو استعادة سيناء دون قتال، حتى لو عادت كاملة دون شروط: «أرجو يا سيادة الرئيس ألا تقبل لأنه إذا عادت سيناء بدون قتال فإن البلد كلها سوف تنهار أخلاقيًّا وتسقط القيم في هذه البلد وتنحرف النساء على نواصي الشوارع».

كان رد «عبد الناصر»: «لا تقلق فلن يعيدوا سيناء أبدًا دون قتال، أو دون شروط».

تحت النيران تحدد المجرى الرئيس لخيارات الحكم الجديدة ـ إزالة آثار العدوان وتصحيح الأسباب التي أدت إلى الهزيمة العسكرية.

الفصل التاسع: مواجهات ومراجعات

كانت المهمة العاجلة أمام «جمال عبد الناصر» إعادة بناء القوات المسلحة من جديد على أُسس احترافية، وإبعادها عن أي تدخل في العمل السياسي.

لم تكن تلك مهمة سهلة بالنظر إلى الأحوال المتردية، التي كانت عليها بعد حرب «يونيو»، واعترضتها تحركات حاولت العودة بـ«عبد الحكيم عامر» إلى قيادة الجيش مرة أخرى.

جاء وقت الحسم، فالبلد المهزوم لا يحتمل تسويفًا فيما يتوجب فعله.

بتوصيف «سامي شرف» فإن «المشير كان ينظر إلى الجيش على أنه إقطاعية تابعة له ولا يريد التنازل عنها تحت أي ظروف».

في محضر اجتماع رسمي روى «عبد الناصر» أن «شمس بدران» أبلغه هاتفيًّا يوم (١١) يونيو (١٩٦٧): «أن هناك تجمعًا من ضباط الجيش يقدر عددهم بخمسمائة ضابط حول سكن المشير في حلمية الزيتون وفي مبنى القيادة العامة يصرون على عودته قائدًا عامًّا، ويطلبون أن أبت في الأمر فورًا».

كان رأيه كما أبلغه لـ«شمس»: «إذا كنا عايزين بصدق نصلح الحال فعلينا أن نختار قائدًا محترفًا للعسكرية على أن يبقى عبد الحكيم نائبًا للرئيس».

لم يكن «عامر» مستعدًّا أن يقبل ذلك العرض السخي لرجل يتحمل المسئولية العسكرية لهزيمة فادحة.

«حاولت دون جدوى إقناعه بأنه ليس منطقيًّا أن يبقى بعد الهزيمة العسكرية قائدًا عامًّا، وأن يكتفي بأن يكون نائبًا للرئيس، لكنه رفض كلامي رفضًا باتًّا».

في الرفض تلويح بانقلاب عسكري محتمل لإجبار الرئيس على إعادته إلى موقعه على رأس القوات المسلحة.

غادر «عامر» إلى قريته غاضبًا وأبلغ «هيكل» الذي زاره موفدًا من الرئيس «رفضه الكامل لكل تصرفات عبد الناصر».

ثم التقيا في بيت منشية البكري.

وكان حوارًا كاشفًا لسوء تقديرات «عامر» لحقائق الموقف في مصر.

حسب رواية «عبد الناصر» في المحضر الرسمي: «اقترح أن يذهب إلى أمريكا للتفاهم معهم، وأن الروس خونة ولم أعلق على هذا الكلام غير المتزن».

في أوضاع عدم الاتزان عقد المشير اجتماعًا مغلقًا مع «شمس بدران» في ذات لحظة الهزيمة وقبل تنحي «عبد الناصر» بساعات للبحث في إعادة تنظيم الدولة وقياداتها المدنية، وجرى الاتصال ببعض الشخصيات السياسية والوزراء حتى لا يعلنوا استقالاتهم ويتعاونوا مع رئيس الجمهورية الجديد ـ كما كشف «عبد الناصر» في نفس المحضر.

نشأت في بيت المشير بالجيزة أوضاع تمرد مسلح منذر بتداعياته وأخطاره.

بالمعلومات الأساسية، التي تكشفت في التحقيقات التي أجريت بعد «يونيو»، فإنه كانت هناك ثلاثة انقلابات قيد التخطيط والتنفيذ.

الأول ـ بإجبار «عبد الناصر» على عودة المشير.

والثاني ـ بعزل «عبد الناصر».

والثالث ـ بعزل المشير بعده وانفراد «شمس بدران» بمقاليد الأمور وحده.

كان ذلك أسوأ سيناريو ممكن.

فور عودة «عبد الناصر» إلى ممارسة مهامه الرئاسية بعد تظاهرات (٩) و(١٠) يونيو أسند قيادة الجيش للفريق أول «محمد فوزي»، ورئاسة الأركان للفريق «عبد المنعم رياض».

لم يكن القائدان العسكريان الجديدان، اللذان توليا المهمة الشاقة، مستعدين للعمل في مثل هذه الظروف التي تمنع أي انضباط وتخلٍّ بأي قواعد عسكرية.

ولم يكن «عبد الناصر»، مستعدًّا لأي تساهل مع أي انفلات داخل الجيش.

كان مساء (٢٥) أغسطس (١٩٦٧) موعد الحسم الأخير مع المشير.

جرى استدعاؤه إلى بيت الرئيس في منشية البكري مع أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين.

فور وصوله اعتقل مرافقوه ووضعت سيارته تحت الحراسة بعد تفتيشها.

جرت محاكمته أمام رفاقه، والنصوص مودعة تسجيلاتها في أرشيف سري للغاية برئاسة الجمهورية ـ حسب تأكيدات «سامي شرف» في مذكراته.

استعرض «عبد الناصر» تاريخ العلاقة الوطيدة والصداقة المتينة مع «عامر»، وتطوراتها على مدى السنوات الطويلة السابقة التي سمحت بتجاوز أخطائه.

«ولكن كونك تتآمر يا عبد الحكيم ـ وليس يا حكيم كما كان يناديه باستمرار وكما تعودنا كلنا على سماعه ـ فهذا وضع لا يمكن قبوله أو السكوت عليه، ويعني أيضًا أنك تتنكر للاتفاق الذي تم بيننا عقب نجاح الثورة في ٢٣ يوليو، من أن أي واحد فينا من أعضاء مجلس قيادة الثورة إذا اختلف أو لم يكمل المسيرة لأي سبب، فلا يتآمر».

«قاطعه المشير عامر قائلًا: أنا لا أتآمر ولم أتآمر وأنا بأرفض كلامك ده!».

«أنت تآمرت فعلًا وسوف أذكر لك حادثة واحدة من وقائع ثابتة، عندي الكثير منها وبأقول لك: أنت بعثت بسكرتيرك محمود أحمد طنطاوي للفريق صدقي محمود من خمسة أيام برسالة تتضمن إنك تنوي الاستيلاء على السلطة، وإنك تطلب من صدقي محمود أن يشترك معاك ويحضر لمقابلتك، ولكن صدقي أبدى عدم موافقته لدرجة أن حرم الفريق صدقي شتمت سكرتيرك وطردته من المنزل وقفلت الباب بشدة خلفه، ودي واحدة من آلاف غيرها».

«أنا في الحقيقة موش عارف ليه إنت بتربط نفسك بالقوات المسلحة وبقيادة الجيش، هل إحنا لما قمنا بالثورة كان هدفنا أن أتولى أنا رئاسة البلد وأنت تتولى قيادة الجيش؟».

«عايز أفكركم كلكم وأنت بالذات مين اللي رشحك، واقترح وأصر على تعيينك قائدًا عامًّا موش أنا اللي كنت وراء هذا التعيين؟ وإذا كان الأمر كذلك طيب ألم يكن من الطبيعي بعد الانفصال وما حدث وموقف الجيش ومكتبك هناك ودورك أن تحاسب على ما حدث؟ حتى بعد ذلك ألم تكن هناك أكثر من مؤامرة ضد النظام ضبطت، وهي من صنع رجال يعملون في مكتبك يا عبد الحكيم؟».

لم يتمالك المشير أعصابه فبادره «عبد الناصر»: «الأمور واضحة.. أنت راجل متآمر وعليك أن تقدر الموقف الصعب اللي بنمر فيه وعليك أن تلزم بيتك من الليلة».

فيما يتذكر «سامي شرف»، وهو شاهد رئيس على الواقعة واحتفظ بتسجيلها الكامل في أرشيف رئاسة الجمهورية، أن الأصوات تداخلت، وكان من بينها صوت «أنور السادات»، تحاول أن تقنع المشير بالاستجابة إلى ذلك القرار، لكنه رفض قائلًا في غضب: «إنتم بتحددوا إقامتي وبتحطوني تحت التحفظ قطع لسانك يا...».

كانت تلك كلمة قاسية بحق «السادات» قال «شرف» إن لسانه يعف عن ذكرها.

خرج المشير من الصالون متوجهًا إلى دورة المياه، وقابل أمين هويدي على الباب فقال له: «أهلًا بوزير حربيتنا.. الله.. الله.. ده إنتم مجهزين كل حاجة والحكاية محبوكة على الآخر».

كان «أمين هويدي» قد تولى منصبه بعد الهزيمة العسكرية خلفًا لـ«شمس بدران»، أحد المتسببين الرئيسين فيها.

الفارق بين الرجلين على مستوى الكفاءة المهنية والفكرية شاسع.

هو نفس الفارق بين أوضاع القوات المسلحة قبل الهزيمة وبعدها.

في كلمات المشير أوضاع رجل يترنح، فقد اتزانه وقدرته على رؤية مصلحة بلد تعرض لهزيمة عسكرية قاسية ويطلب تحرير أراضيه بقوة السلاح.

دخل «عبد الحكيم عامر» إلى دورة المياه، ثم خرج بعد قليل حاملًا ورقة سيلوفان فارغة وكوبًا في يده رماها على طول امتداد ذراعه قائلًا: «اطلعوا بلغوا الرئيس أن عبد الحكيم خد سم وانتحر»، ثم دخل إلى الصالون ليجلس على نفس الكنبة التي كان يجلس عليها وهو يبتسم في هدوء وكأنه لم يفعل شيئًا، فصعد أمين هويدي مهرولًا إلى الدور العلوي ليبلغ الرئيس الذي استقبله على رأس السلم وقال له:

«أنا سمعت ما قيل واللي بيحصل ده كله تمثيل».

كل الذين حضروا الواقعة سجلوا شهاداتهم، وقد اتفقت في تفاصيلها العامة.

استدعي الدكتور «الصاوي حبيب» طبيب الرئيس الخاص، حاول أن يقوم بإسعاف المشير الذي رفض أن يستجيب له مما اضطر حسين الشافعي أن يمسك بالمشير بشدة حتى يتمكن الدكتور من حقنه.

التفاصيل تكتسب أهميتها من التساؤل الذي لا يتوقف عما إذا كان المشير انتحر، أم قتل؟

في فجر (٢٦) أغسطس أُنهيَ التمرد العسكري في بيت الجيزة، وأُلقيَ القبض على المتواجدين فيه باستثناء أسرة المشير.

كان في مقدمتهم وزيرا الحربية والداخلية السابقان «شمس بدران» و«عباس رضوان».

شحنت أسلحة وذخائر وجدت ببيت المشير في ثلاثة عشر لوريًا، وكانت حمولتها ثلاثة أطنان.

تولى المهمة الفريق أول «محمد فوزي» بنفسه.

وضع المشير قيد الإقامة الجبرية بعد تلك المحاكمة أمام رفاقه القدامى، لكنه لم يكف عن التحريض على النظام في اتصالاته الخاصة، فتقرر نقله يوم (١٣) سبتمبر (١٩٦٧) إلى مكان أمين منعزل، يتعذر معه إجراء مثل هذه الاتصالات.

تفاقمت حالته وحاول الانتحار في حضور الفريق أول «فوزي» والفريق «رياض».

«تناول شيئًا وضعه في فمه وأخذ يمضغه؛ مما لفت أنظار الكل والعائلة وصرخت إحدى كريماته بأن أباها تناول سمًّا، ثم دخل المشير في مرحلة فقدان الاتزان فاصطحبه الفريق رياض بسرعة إلى الخارج، وحاول هو والفريق أول فوزي أن يضعاه في سيارة الإسعاف، التي كانت مجهزة كإجراء احتياطي، إلا أن عامر رفض ركوبها فما كان منهما إلا أن وضعاه في سيارتهما وتوجها به إلى مستشفى المعادي للقوات المسلحة، الذي كان أخطر على عجل لعلاج حالة طارئة».

«عندما قال له اللواء عبد الحميد مرتجي قائد المستشفى، إنه لم يعد هناك خطر الآن على حياته قال المشير: ده أسوأ خبر سمعته».

«في استراحة المريوطية التي سبق اختيارها كمقر لإقامة المشير عامر كان في استقبالهم هناك قرابة الساعة الخامسة والنصف من بعد الظهر، العميد الليثي ناصف ومجموعة من ضباط الحرس الجمهوري والنقيب طبيب مصطفى بيومي حسنين، وبعض أفراد الخدمة والإعاشة والحراسة، ولم يطلب المشير شيئًا سوى عصير الجوافة وماكينة حلاقة، وبعض الكتب التي وصلته في نفس الليلة».

«في يوم الرابع عشر من سبتمبر، لم يتناول المشير أي طعام إلا بعض السوائل، وفي الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم تم تغيير النوبتجيات الطبية والحراسات، فاستلم الرائد طبيب إبراهيم البطاطا نوبته، وشرح له زميله حالة المشير الصحية وتطوراتها وطمأنه بأن الحالة تشير إلى التحسن، كما ذكر له الأدوية التي أعطاها له، لكن المشير لم يتناول طعام الغداء؛ نظرًا إلى استمرار القيء، وقرر الطبيب المعالج إتمام تغذيته بمحلول الجلوكوز عن طريق الوريد».

ويروي سامي شرف: «قرابة الساعة الرابعة من بعد الظهر أبدى المشير للدكتور البطاطا شكوى من ألم في أسنانه فأعطاه حقنة نوفالجين، وبعد ذلك دخل المشير الحمام وتقيأ ثم طلب بعض الماء ليغتسل في غرفته فحمل له أحد السفرجية ـ منصور أحمد ـ الماء فاغتسل ثم رقد على السرير، وفي الساعة الخامسة مساء دخل الطبيب حجرة المشير فوجده نائمًا، وكان نبضه وضغط دمه طبيعيين، غير أنه وبعد السادسة بقليل وفي أثناء توجه الطبيب مرة ثانية إلى غرفة نوم المشير، سمع استغاثة السفرجي منصور الذي نادى عليه ليسرع إلى غرفة المشير، حيث قرر أنه سمع صوتًا عاليًا صادرًا عن المشير، ولما دخل الطبيب وجده راقدًا على الفراش في حالة غيبوبة ونبضه ضعيفًا، فسارع بإعطائه حقنة كورامين وأمينوفلين كما أجرى له تنفسًا صناعيًّا من أنبوبة الأكسجين، ولم يُجْدِ ذلك كله، حيث تحققت وفاة المشير عبد الحكيم عامر قرابة الساعة السادسة والأربعين دقيقة».

«حسب تأكيدات الطبيب المعالج فإن المشير عامر لم ينطق بأي عبارات في الدقائق التي سبقت وفاته وكل ما تكلم به مع الطبيب في أثناء تعليق أنبوبة الجلوكوز هو أنه قال له: مفيش فايدة من كل اللي بتعمله ده».

الميزة الرئيسة في شهادة مدير مكتب «جمال عبد الناصر» قدر التوثيق فيها، وذكر الوقائع بتاريخها وساعتها وأسماء الذين كانوا في قلب الحدث وشهود عليه.

هذا ضروري في أي تحقيق يستجلي الحقيقة.

وقد أصدرت النيابة العامة برئاسة «محمد عبد السلام» أول بيان لها يوم (١٦) سبتمبر (١٩٦٧) جاء فيه بالنص:»... كما ثبت اليوم بصفة قاطعة من التحليل الضوئي والكيماوي، الذي أجرته مصلحة الطب الشرعي أن المادة التي وجدت مخفاة تحت الشريط اللاصق وزنها (١٥٠) ميليجرامًا هي مادة الأكونيتين، وهي عقار شديد السمية سريع الأثر، يكفي نحو ميليجرام أو اثنين منه لإحداث الوفاة في مثل الظروف والحالة التي شوهد عليها الجثمان».

هناك نظرة مضادة تبنتها أسرة المشير ترى أنه قد قتل ولم يمت انتحارًا.

نشرت تقارير منسوبة لخبراء سموم تستبعد فرضية الانتحار، وقالت إنه لا يتحمل مسئولية الهزيمة في يونيو، ولا عن انفصال سوريا، ولا حرب اليمن، وإن كل ما هو منسوب إليه محض افتراءات.

«الأستاذ.... المصري الأصيل والكاتب الصادق مع نفسه ومع الغير، بكل التقدير والاحترام، أقدم لك كتابي هذا، لعلي أكون قد وفقت في رد الأمانة إلى أهلها، الشعب المصري العظيم».

هكذا أهدتني السيدة «برلنتي عبد الحميد» الزوجة الثانية للمشير «عبد الحكيم عامر» كتابها «الطريق إلى قدري إلى عامر» عام (٢٠٠٢).

لم نلتقِ قط لكنها هاتفتني أربع أو خمس مرات، تطلب أن تحاور وأن تستمع إلى رأيي فيما كتبت.

كان تقديري أن ما احتواه الكتاب مَرارات يمكن تفهم دوافعها الشخصية.

لم تحظَ بمكانة زوجة الرجل الثاني في البلاد، أو الرجل الأول مكرر ـ كما كانت تقول.

أحاطت قصتها معه تساؤلات وظلال، وعندما رحل خضعت لتحقيقات ومساءلات.

تفهم الدوافع الإنسانية لا يعني تقبل الرواية التاريخية.

لم تكن في موقع يسمح لها بالحكم على التاريخ.

اعتمد أغلب كتابها على شهادات قادة عسكريين عملوا مع المشير ويتحملون معه مسئولية الهزيمة الفادحة، ويستحقون العقاب عليها.

الشهادات التي أوردتها أقرب إلى نفي أي مسئولية عن الهزيمة، وهو ما يستحيل تقبله على أي نحو أو بأي حساب.

كما تضمن كتابها واقعة لم تحدث، نسجت من خيال الذي نقلها إليها، من أن «عبد الناصر» قد زار «عامر» في بيت الجيزة في أثناء احتدام الأزمة والتمرد المسلح داخله، وأن رائد الصاعقة «جلال هريدي» اقترح القبض عليه، وأن «يتاويه» في النيل القريب، غير أن المشير نهره.

سألت الأستاذ «هيكل» عما إذا كان الرئيس قد زار بيت المشير في الجيزة في أثناء الأزمة، وكانت إجابته جازمة: «لم يحدث».

قراءة التاريخ لا تؤسس على قصص مصطنعة أو على طلب ثأر.

ما تحتاجه مصر بعد كل هذه السنوات الطويلة، وبعد أن غادر أبطال الحدث مسارح الحياة، أن تطل على الحقيقة في مسألة وفاة المشير.

هناك من هو مستعد أن يقول: «إذا لم يكن قد انتحر فإنه يستحق القتل».

وهناك من هو مستعد أن يرد بالإجابة نفسها على اتهامات أسرة المشير للفريقين «فوزي» و«رياض»، وهما من أبرز رموز الجيش المصري في العصور الحديثة، بالتورط في قتله.

غير أن الحقيقة هي الحقيقة وليست أحكامًا تطلق في الهواء.

في مذكرات المستشار «عصام الدين حسونة» وزير العدل في أثناء الحدث إشارة موضوعية عن افتراق الروايتين ـ مكتب الرئيس وأسرة المشير.

قال نصًّا: «بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر في مطلع السبعينيات، وبعد أن استقر الحكم للرئيس محمد أنور السادات التقيت ـ مصادفة ـ المهندس حسن عامر شقيق المشير وأنا أمارس رياضتي ـ المشي ـ على كوبري قصر النيل فوقف يحييني في ود وحرارة.. كنت لم أره منذ وفاة المشير، وقال لي إن آل عامر لا ينسون لك مواقفك معهم.. ثم بادرني بالسؤال إننا نشعر بأن المشير لم ينتحر.. وأنه قُتل فهل يمكن أن يُعاد التحقيق في الحادث؟ قلت إن القضية قضية شهود، وقد قرر هؤلاء الشهود ـ على سبيل القطع ـ أن الوفاة تمت انتحارًا، وأيدهم في ذلك صفوة الأطباء الشرعيين في مصر.. فهل عندك ما يفيد بأن شهود الحادث مستعدون ـ اليوم ـ للعدول عن أقوالهم؟.. أجاب: لا.. قلت: هل استشرت أحدًا من رجال الحكم الجديد؟ قال: نعم، استشرت السادات وقد شجعني على طلب إعادة التحقيق».

«في قضايا الوفاة بالسم لا يفرق بين القتل والانتحار شيء.. فالصورتان لا تختلفان من حيث الآثار المادية، ففي الحالتين بتناول الضحية السم بيده عامدًا أو مخدوعًا أو مكرهًا.. أما الوفاة بعيار ناري، أو بآلة حادة، فما أيسر أن يكشف المحقق ـ قبل الطبيب الشرعي ـ إن كانت الوفاة قتلًا أم انتحارًا.. لأن الآثار المادية بين الصورتين مختلفة.. جد مختلفة، ثم أضفت: إن الشهود الذين رافقوا المشير في الساعات الأخيرة هم وحدهم الذين يعرفون ـ بعد الله ـ إن كانت الوفاة انتحارًا أو اغتيالًا».

و«هكذا كانت نهاية المشير بالانتحار بما لا يقبل أي مجال للشك، ووضعت خاتمة درامية لهذه العلاقة غير المسبوقة والمعقدة بين الرجل الأول والرجل الأول مكرر وليس الثاني».

رواية وزير العدل في ذلك الوقت تتسق مع شهادات عديدة مماثلة من مواقع مختلفة.

النائب العام في كتابه «سنوات عصيبة» يؤكد الانتحار، و«شمس بدران» شهد في محاكمته أنه استنتج بعد ضربة الطيران أن المشير يفكر في الانتحار مثل «قادة التاريخ»، ووزير الثقافة «ثروت عكاشة» ذكر في مذكراته أن رئيس المخابرات في ذلك الوقت «صلاح نصر» أبلغه في ساعة متأخرة من ليل الخميس (٨) يونيو أن «عبد الحكيم» يعتزم الانتحار، فضلًا عن تأكيد «صلاح نصر» في التحقيقات التي أجريت معه أنه أعطى المشير سمًّا ليستخدمه إذا اقتضته ظروفه.

بنص شهادة فريدة نشرت في صحيفة «العربي» عام (٢٠٠٩) لوزير الكهرباء والسد العالي «حلمي السعيد»، الرجل الذي حقق في قضية انحراف المخابرات: «سألت صلاح نصر لماذا استوردت المخابرات هذه السموم من الخارج؟ فأجابني بقوله: إن المخابرات استوردت نوعًا متقدمًا من السم، وهو الأكونيت، ويستخرج من نبات اسمه خانق الذئب».

«ولما سألته: لأي غرض استورده؟ قال: نحن نستورده من أجل كبار القيادات الذين يرغبون في الانتحار عند الهزيمة؛ لأنها تُحدث قتلًا فوريًّا ودون ألم».

«وسألته: هل أخبرت الرئيس عبد الناصر عن هذا السم؟ فقال: نعم، وقد علم بهذا قبل (٥) يونيو، فغضب وقال بحدة: مش أنا اللي أنتحر».

«وقال لي صلاح نصر: لكن المشير عبد الحكيم عامر أخذ واحدة منها، وقد وجدوا مكان لصقها بين فخذيه، وهي التي أودت بحياته».

وقد أكد «حلمي السعيد» في شهادته أن التحقيقات التي أجراها تم تسجيلها على شرائط سلمت جميعها إلى النيابة العامة.

بعضها تسرب، وبعضها الآخر مازالت أسراره مجهولة.

(١)

ما حقيقة انحرافات المخابرات العامة، التي جرت بمقتضاها محاكمات ما بعد نكسة «يونيو»؟

جواب السؤال معلق على الأهواء لا الوثائق.

هذه مأساة متكررة في بلد مثل مصر؛ حيث الوثائق محجوبة ولا يسمح بتداولها والاطلاع عليها بعد عدد من السنين.

أصابع الاتهام تشير إلى «صلاح نصر» عنوانًا على التجاوز والتفلت، دون نظر منصف في تاريخه وإنجازه.

لعشر سنوات بين عامي (١٩٥٧ ـ ١٩٦٧) قاد المخابرات العامة التي شهدت معه أعظم معاركها وأبشع مآسيها.

المفارقة تستدعي التدقيق في الرواية قبل إصدار الأحكام.

لماذا كان النجاح مؤكدًا في كثير من العمليات الاستخباراتية؟

ولماذا كان التدهور ماثلًا في تجاوزات وانحرافات أساءت استخدام السلطة، وبنت دولة داخل الدولة؟

تأسست المخابرات العامة المصرية عام (١٩٥٤) على يد «زكريا محيي الدين»؛ أحد أبرز قيادات ثورة يوليو وخلفه «علي صبري»، الرجل القوي في نظام «جمال عبد الناصر»، كلاهما تولى تاليًا منصب نائب رئيس الجمهورية وكاد الأول أن يخلف قائد يوليو بعد نكسة يونيو، والثاني أن تؤول إليه السلطة العليا بعد رحيله.

كانت مصر تتأهب للعب أدوار كبيرة في منطقتها دون أن تتوافر لديها أي قدرة على مواجهة أي اختراقات داخلها ولا على اختراق حصون الأطراف الأخرى خصوصًا الدولة العبرية.

تحت تحدي انكشاف الأمن القومي تأكدت ضرورتها.

بوقت قياسي اكتسبت قدرات عالية وضعتها في مصاف أقوى الأجهزة الاستخباراتية بالشرق الأوسط، وبات مقرها في «حدائق القبة» عنوانًا على «هيبة الغموض».

أعيد البناء من جديد تحت رئاسة «أمين هويدي»، وهو أقرب إلى مزيج من «رجل الفكر» و«رجل الأمن».

فيما بعده توالت قيادات المخابرات، وتفاوتت أقدار الرجال وأحجام أدوارهم؛ بعضهم عبر بلا أثر بقيَ وبعضهم الآخر مر عليها كمحطة لوظائف أكبر في الدولة.

جرت تحقيقات في التجاوزات التي ارتكبت، أسبابها والمتورطون فيها، تولاها ـ مع المهندس «حلمي السعيد» اللواء «محمد نسيم»، وهو ضابط مخابرات بالغ الكفاءة اشتهر بـ«قلب الأسد».

أشرف اللواء «نسيم» على عمليتي ضرب الحفار الإسرائيلي في أبيدجان وزرع «رأفت الهجان» في إسرائيل.

جاء «حلمي السعيد» إلى التحقيقات من قلب التنظيم السياسي بلا حسابات شخصية يصفيها.

وجاء «محمد نسيم» من قلب المخابرات العامة، وهو على علم بما يجري فيها.

«لكن صلاح نصر صديقي».

بتلك الكلمات تحفظ «حلمي السعيد» على المهمة الصعبة التي أسندت إليه.

وكان رد «عبد الناصر»: «لهذا السبب اخترتك».

كان الرئيس الجريح يطلب الحقيقة دون مبالغة، ما الذي جرى بالضبط؟ وكيف ولماذا جرت التجاوزات والانحرافات التي شملتها مذكرة تفصيلية كتبها اللواء «نسيم»؟

كانت أكثر نقاط التحقيق إثارة وغموضًا ما قيل عن استخدام النساء في أعمال المخابرات، ومن بينهن فنانات معروفات.

في هذه النقطة بالذات جرى التحقيق مع (٤٤) سيدة و(١٩) شخصًا من خارج الجهاز و(١٤) من قوته.

أثبتت التحقيقات أن ثلاثة من أفراد الجهاز وثلاثة من خارجه متورطون في علاقات نسائية.

كما أثبتت استخدام الجهاز لبعض النساء فيما يطلق عليه في الأدبيات الاستخباراتية بـ«عمليات السيطرة».

لم ينفِ «صلاح نصر» في التحقيقات التي أجريت معه مثل هذه العمليات، وعزا إليها الإيقاع بشبكتين استخباريتين في القاهرة.

وفق شهادة «حلمي السعيد» فإنه استجوب فنانتين رمز إليهما بالحرف الأول من اسميهما الحقيقيين ـ السيدة «ن» والسيدة «س».

قال بالحرف:

«كانت السيدة ن على علاقة مع أحد قيادات المخابرات، وكان لها أصدقاء أجانب، وقد وقّعت إقرارًا عام ١٩٦٠ لتكون مندوبة مخابرات وتمَّ تقديمها للسفارات لعمل صداقات مع رجال السلك الدبلوماسي، وكان جميع زملائها في الوسط الفني يعلمون بعلاقاتها بأحد قيادات المخابرات، والذي قدمها بدوره لأحد القادة السياسيين، وقام بترتيب لقاء له معها في إحدى الفيللات الآمنة، ولما قام القيادي السياسي بإشعال سيجارة عرفته السيدة ن؛ حيث كانت الغرفة مظلمة، ولذلك كانت تقول دائمًا إنها عرفته بسيجارة ووقعت في عام ١٩٦٣ على ورقة زواج عرفي شهد عليها اثنان من أشقاء القائد السياسي، وتمَّ عمل كنترول، وقد قالت إن القائد كان يحبها وكانت تعمل على راحته ليقارن بينها وبين زوجته».

القصة بظلالها وامتداداتها تتجاوز ما هو شخصي إلى ما هو عام، وتكشف جانبًا مما كانت تقوم به المخابرات في ذلك الوقت وأساء إلى صورتها وأدوارها.

تسجيلات التحقيقات المحجوبة قد تكشف وتبين ما هو خافٍ.

. باليقين فإن ما حدث وفق شهادة الرجل الذي حقق مع «صلاح نصر» انحراف بالسلطة.

بموضوعية كاملة لا يمكن التقليل من الأدوار، التي لعبها «صلاح نصر» في لحظة حرجة من الصراع على المنطقة.

بذات القدر لا يمكن التغاضي عن تجاوزات مهدت بصورة أو بأخرى للهزيمة العسكرية في «يونيو».

هل كان «صلاح نصر» هو «خالد صفوان» بطل رواية «الكرنك» لـ«نجيب محفوظ»؟

في تغطيات صحفية وإعلامية عديدة جرى اقتران الاسمين ـ كأنهما لرجل واحد.

ذهب «صلاح نصر» إلى القضاء، الذي استقر حكمه على أن العمل «لم يعن شخصًا بذاته من الأشخاص الذين مارسوا الحياة العامة على مسرح السياسة المصرية إبان هذه الحقبة».

في حوار موسع مع الكاتب الصحفي «عبد الله إمام» تضمنه كتابه «صلاح نصر.. الثورة المخابرات النكسة» نفى أي دور له في قضيتي (١٩٥٤) و(١٩٦٥) الخاصتين بجماعة «الإخوان المسلمين»، فهو لم يكن له صلة بالأولى، فيما تولت الثانية المباحث الجنائية العسكرية، التي اكتشفت المؤامرة المسلحة.

كما نفى أي صلة بتعذيب الشيوعيين المتهمين بالعمل التنظيمي السري، فذلك كان من اختصاص المباحث العامة.

من هو «خالد صفوان» إذن؟

مشكلة هذا العمل في توقيته لا في انتقاده لأي انتهاكات حدثت ارتكبها أي «خالد صفوان».

بتاريخ نشر الرواية عام (١٩٧٤) نظر إليها باعتبارها جزءًا من الحملة الممنهجة على ثورة (٢٣) يوليو، وهو ما حاول ـ دون جدوى ـ أن ينفيه «نجيب محفوظ».

بعبارة بطل العمل السينمائي «نور الشريف»: «أنا ومخرج الفيلم علي بدر خان ناصريان».. «لماذا لا تعتبرون هذا الفيلم نوعًا من النقد الذاتي لا تعريضًا بزعامـة عبد الناصر الذي ننتسب إليه؟».

(٢)

كانت قد مرت عقود طويلة على رحيل الرئيس والمشير، عندما باغتني نائب رئيس الجمهورية الأسبق «زكريا محيي الدين» بسؤال لـم أتوقعه، نصه تقريبًا: «هل تعرف يا ابني لماذا لم يحسم عبد الناصر مبكرًا، وهو يقدر ويستطيع، الصراع مع عبد الحكيم عامر؟».

كان ذلك عام (٢٠٠٤) في لقاء حضره نجله الأكبر «محمد زكريا محيي الدين»، عضو مجلس النواب فيما بعد والمحامي المعروف «عمر الشال».

قلت: «يا سيادة النائب كنت ثالثهما من حيث القوة في مجلس قيادة ثورة (٢٣) يوليو، وكنت نائبًا للرئيس ورشحك لخلافته، حاورته في اجتماعات رسمية وغير رسمية بعد الهزيمة واستمعت منه وعاينت بنفسك حقائق الأمور».

بدت حيرته ـ قرب نهاية رحلته في الحياة ـ أقرب إلى سؤال يلح عليه دون أن يستقر على إجابة، لم يكتب مذكرات شخصية كغيره من قيادات «يوليو»؛ خشية أن تسيء إلى «جمال عبد الناصر».

بترجمة أخرى لحيرة سؤاله: «لماذا أبقى عبد الناصر على عامر، برغم الأخطاء القاتلة التي ارتكبها، ومن بينها نشوء مراكز قوى حوله أضعفت الدولة على نحو جعل الهزيمة العسكرية بالحجم المروع الذي حدثت به ممكنة؟».

لم يكن الماضي هو موضوع ذلك اللقاء النادر، الذي جرى ذات صباح في غرفة استقبال تُطل على حديقة صغيرة بمنزله في شارع الثورة بحي المهندسين.

بدا أنه يريد الاطمئنان على مستقبل البلد، وهو يقترب من نهاية رحلته في الحياة.

ماذا يمكن أن يحدث إذا مضى «سيناريو التوريث» إلى نهايته وتقوضت أُسس النظام الجمهوري؟

غير أن الماضي طرح نفسه في حيرة سؤاله.

إلى هذا الحد كانت العلاقة الإنسانية بين «عبد الناصر» و«عامر» فريدة في متانتها ومستعصية على التفسير.

(٢)

في عام (١٩٣٧) دخل «عبد الحكيم عامر» الكلية الحربية، وكان «عبد الناصر» قد سبقه إليها.

تعارفا وتصادقا، عاشا لفترة في سكن واحد.

انتقلا معًا إلى «منقباد» في جنوب مصر، ثم ذهبا معًا مع الجيش المصري إلى السودان.

بتواتر الشهادات فهو صعيدي شهم، وطني مخلص، نصف فنان، لا يعبر عن أفكاره بوضوح لكن له قدرة اجتذاب محبة من يقترب منه.

بمثل هذه المواصفات كان دوره محوريًّا في ترشيح وضم ضباط كثيرين إلى «الضباط الأحرار»، وحاول أن يفتدي صديقه «جمال عبد الناصر» في أثناء إطلاق الرصاص عليه في حادث المنشية (١٩٥٤).

كانت صداقتهما ضمانة مؤكدة لحفظ الحكم من أي انقلاب محتمل عليه، لكنها بدت كـ«كعب أخيل» الذي نفذت منه السهام.

هو ابن عمدة ريفي يرى أن حماية رجاله من ضرورات هيبته، أيًّا كانت الانتقادات الموجهة إليهم، أو الانحرافات التي يرتكبونها.

امتنع عن أي تغيير في قيادات الجيش، برغم الضرورات التي تبدت مرة بعد أخرى.

ونشأت حوله طبقة جديدة من ضباط الجيش السابقين، الذين تركوا الخدمة العسكرية، والتحقوا بوظائف مدنية، أو اتخذوا صفة رجال أعمال امتدت صلتهم على نحو أو آخر بالطبقة القديمة.

في ذلك الوقت نشر «إحسان عبد القدوس» قصة «علبة من الصفيح الصدئ».

فكر السيناريست الشاب في ذلك الوقت «محفوظ عبد الرحمن» تحويلها إلى سهرة تلفزيونية.

لم يكن «إحسان» متحمسًا، لكنه وافق في النهاية.

اعترضت الرقابة بذريعة أن القصة تقول إن أحد الذين صنعوا الثورة خانها.

لنفس السبب رفضت مجلة «المصور» نشر القصة.

حسب شهادة «محفوظ عبد الرحمن»، فإن «إحسان أرسل القصة إلى مكتب عبد الناصر مكتوبة بخط يده»، أشر عليها بكلمة واحدة: «تنشر».

في حديث تلفزيوني عام (٢٠٠٩) طرح الأستاذ «هيكل» هذا السؤال:

«هل كان عامر سيئ الحظ، أم محدود الكفاءة؟».

كانت إجابته: «الحقيقة أنه كلا الأمرين»، وأن اختلاف النهايات مع البدايات حدث كثيرًا في صداقات التاريخ ـ «يوليوس قيصر» و«مارك أنطونيو»، أو «بروتس»، «ونستون تشرشل» و«أنتوني إيدن»، «مصطفى النحاس» و«مكرم عبيد».

لم تخلُ الصداقة من أزمات شبه مكتومة شبه معلنة، أمكن تطويقها بفوائض الثقة الشخصية.

كان أخطرها فشل المشير في إدارة ملف الوحدة المصرية- السورية التي جرى الانقلاب عليها من داخل مكتبه، ومستوى الأداء العسكري في حرب اليمن الذي شابته تساؤلات، حتى جاءت الطامة الكبرى في (١٩٦٧).

تأخير الحسم بتوقيته وحينه وأسبابه أفضى إلى انقلاب صامت عام (١٩٦٢) قلصت بعده صلاحيات الرئيس العسكرية.

قصة الانقلاب الصامت تفسر ما قاله «عبد الناصر» في محاضر رسمية بعد الهزيمة العسكرية من أنه لم يزر القيادة العامة للقوات المسلحة من الاثنين (٥) يونيو حتى الخميس (٨) يونيو حتى أبلغ بانهيار المشير، وأنه قد طلب من سكرتيره الخاص إحضار حبوب «سيانور» للانتحار.

باليقين كانت سلطات الرئيس مغلولة، ويد المشير مطلقة في الشأن العسكري.

هذه مأساة كاملة دفع البلد ثمنها غاليًا.

بدأ الانقلاب الصامت قبل خمس سنوات من الهزيمة كرد فعل عكسي على ما توجه إليه «عبد الناصر» من تقليص صلاحيات المشير في التصديق على تولي المناصب القيادية في الجيش، وأن يكون مثل هذا التصديق حقًّا لمجلس الرئاسة، الذي كان يمثل في ذلك الوقت نوعًا من القيادة الجماعية.

كما تبنى في الجلسة نفسها ـ وفق المحضر الرسمي، الذي كتبه أمين مجلس الرئاسة «عبد المجيد فريد» أن تستبدل القيادات العسكرية التي ثبت فشلها، وأن

يكون معيار الاختيار هو الكفاءة العسكرية وليست الاعتبارات السياسية، ومدى الولاء للقيادة العامة.

أجمعت شهادات الذين شاركوا في ذلك الاجتماع وشهدوا مواجهاته، على أن المشير فوجئ بالقرار، وأن أغلبية مجلس الرئاسة صوتت ضده.

ارتفع صوته بعبارات حادة وغير معتادة فغادر «عبد الناصر» الاجتماع، وأسند رئاسته إلى «عبد اللطيف البغدادي».

ثم خرج المشير غاضبًا ومستقيلًا.

الأخطر أنه نقل إلى قيادات الجيش ما دار في اجتماع مجلس الرئاسة، والقرار الذي أصدره، وجرى تفسيره بأن هناك خطة سياسية للتدخل في شئون الجيش وسلب سلطة القائد العام.

والأكثر خطورة أنه تم ما يمكن وصفه بشبه استفتاء غير رسمي طُرح فيه سؤال: لمن الولاء: للرئيس، أم للمشير إذا ما اختلفا؟!

معنى الاستفتاء ـ دون أي لبس ـ مشروع انقلاب عسكري مباشر يُفضي إلى صدام دموي بين الجيش والشعب، الذي يمنح تأييده مطلقًا لـ«جمال عبد الناصر».

جرى تقبل الانقلاب الصامت بديلًا عن الانقلاب الكامل، أو الصدام الدموي المحتمل.

كان ذلك خطأ مأساويًا كاملًا، فقد كان بوسع «عبد الناصر» أن يحسم أي صراع من مثل هذا النوع بأقل كلفة ممكنة.

لم يحسم وهو يستطيع.

تفاقمت الأوضاع المختلة داخل القوات المسلحة، وتغوّلت أدوار خارج طبيعة مهامها.

في مارس (١٩٦٦) وصلت «عبد الناصر» معلومات عن أن بعض العاملين في مكتب المشير يجيئون ببضائع وأجهزة حديثة كالثلاجات والتلفزيونات وأجهزة التكييف، التي دخلت اليمن؛ ليبيعوها في السوق السوداء.

امتد الخلل من الجيش إلى خارجه، وبدا النظام كله متصادمًا.

عند تسرب زواج «عامر» السري بالفنانة «برلنتي عبد الحميد» في منشورات طُبعت ووزعت، تصور أن الاتحاد الاشتراكي وراءها للإساءة إليه.

كانت تلك الواقعة مجرد إشارة لأزمة متفاقمة بين قيادة الجيش والتنظيم السياسي، خصوصًا جناحه الشبابي.

في معسكر لمنظمة الشباب الاشتراكي بـ«أبو قير» طرح السؤال التالي:

«كيف يستطيع التنظيم السياسي أن يقاوم احتمال انقلاب عسكري، كما حدث في الجزائر وإندونيسيا وغانا؟».

السؤال بنصه وروحه تعبير عن قلق انتاب شبانًا من سيناريو مماثل في مصر يجهض الثورة ويرتد عنها، غير أنه فسر كما لو كان تشكيكًا في القوات المسلحة، وفي المشير شخصيًّا.

في تحقيقات أجريت حول الواقعة قال «علي صبري» أمين عام التنظيم السياسي بما نصه: «إن أحدًا لا يريد أن يصبح الاتحاد الاشتراكي قوة ثانية في البلد، وهناك أناس يريدون أن يظل الجيش هو القوة الوحيدة الموجودة، من الذي يستطيع أن يضمن لي الجيش وهل فكره اشتراكي؟».

سؤال طبيعة النظام السياسي كان في موضعه تمامًا ـ كما طرحه «علي صبري» في تلك التحقيقات.

(٤)

بعد صدمة «يونيو» جرت مراجعات واسعة لأسباب الهزيمة وأوجه الخلل في بنية النظام السياسي قادها «عبد الناصر» بنفسه.

في محاضر رسمية حاكم نظامه بأقسى ما يمكن تصوره من عبارات، لم يكن مستعدًّا أن يسامح نفسه على أنه لم يحسم الأوضاع المختلة في القوات المسلحة قبل أن تقع الواقعة، أو أن يتسامح مع أسباب الهزيمة.

قال: «يا ريت نقول الحقيقة ولو لمدة ثلاث دقائق!» مستلهمًا قصيدة روسية شهيرة ذاعت في ذلك الوقت أمام اجتماع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي يوم (٣) أغسطس (١٩٦٧).

نص محضر ذلك الاجتماع هو الأكثر أهمية وخطورة في مراجعات «عبد الناصر» بعد الهزيمة.

هناك مراجعات عديدة تضمنتها محاضر اجتماعات أخرى، اشتد فيه نقده لنظامه، غير أن هذا الاجتماع ـ بالذات ـ هو الأكثر تكاملًا في شرح مقدمات الهزيمة وأوجه الخلل الأساسية، وما جرى من المشير و«شمس بدران» لحظة الهزيمة وبعدها، وفي إجابة سؤال: «ما العمل؟».

«في رأيي أن النظام الحالي استنفد مداه ولا بد من نظام جديد».

«ما يُقال في البلد هذه الأيام.. أن النظام بياكل نفسه، والمستقبل بهذا الشكل سيكون خطيرًا جدًّا؛ لذلك أنا رأيي أن نعمل فورًا على تغيير النظام الـSystem اللي ماشيين عليه لأنه لازم فيه خطأ. المعروف أن نظام الحزب الواحد تحدث فيه دائمًا صراعات في القمة على السلطة».

«تصوروا أننا أكبر هيئة سياسية في البلد وعددنا سبعة أعضاء فقط ولم نتكلم. لم نقل الحقائق في وقتها.... هذا يعني أن النظام تدهور وتدرج في السقوط إلى الحد أننا شعرنا بالخوف من أن نتكلم، وخفنا أن نقول الحقيقة. من جانبي أنا أعترف وبنقد صريح أنني أخطأت عندما تركت الإشراف على الجيش منذ عام ١٩٦٢ بحيث لم أعد على علم بما يحدث فيه. وكان قصدي في ذلك الوقت أن أطمئن عبد الحكيم مني شخصيًّا، ولكن أعتبر ذلك خطأ مني».

«حتى نتحرر من الخوف وبعد ذلك نحرر البلد كلها من الخوف... لا بد من أن نسمح بوجود معارضة في البلد، طبعًا لا أتصور لتكوين هذه المعارضة أن نقول إن زكريا محيي الدين يمثل اتجاهًا معينًا وأمامه علي صبري يمثل اتجاهًا آخر. وبذلك يصبح هناك حكم ومعارضة. لو بنعمل كده يبقى بنعمل مسرحية المعارضة».

«المعارضة الحقيقية هي إننا نجيب الذين يعارضوننا فعلًا في الوقت الحاضر مثل عبد اللطيف البغدادي وكمال الدين حسين».

«لا أريد معارضة ممسوخة».

كانت فكرته التي عرضها على ذلك الاجتماع إنشاء حزب معارض حقيقي له جريدة تعبر عنه فيما يعاد بناء الاتحاد الاشتراكي كحزب على أن تجرى انتخابات برلمانية جديدة قبل نهاية العام على أساس قائمتين لحزبين، من يكسب يتسلم السلطة والآخر يشكل المعارضة على أن يبتعد الجيش والشرطة عن العمل السياسي باعتبارهما جهازين محترفين.

«.. لو نفذنا هذا الاقتراح فسنشفى من كل الأمراض الموجودة بيننا في الوقت الحاضر، وسيتحرر كل واحد فينا من الخوف الذي سرى بيننا من أكبر هيئة إلى أصغر هيئة».

«أنا ضد نظام الحزب الواحد؛ لأن الحزب الواحد يؤدي غالبًا إلى قيام دكتاتورية مجموعة معينة من الأفراد».

«.. إن لم نغير نظامنا الحالي فسنمشي في طريق مجهول، ولن نعلم من يستلم البلد بعدنا».

«لم يبقَ في عمر معظمنا أكثر من عشر سنوات، خاصة بالنسبة لي مع المرض اللي عندي والجهد الذي أتعرض إليه. لذلك أنا شايف ضرورة تغيير نظامنا بحيث لا يسمح النظام الجديد لشخص أو لشلة غير واعية أو جاهلة سياسيًّا أن تحكم البلد. البلد الذي أعطانا ثقته المطلقة بلا حدود».

وفق محضر الجلسة التالية يوم (٤) أغسطس طرح «عبد الناصر» السؤال التالي:

«إلى أين المسير بهذا النظام القديم؟».

«لا بد من أن يكون نظامنا مفتوحًا، ولا بد أن تكون هناك معارضة، كما يجب أن نفتح الباب للجرايد أن تكتب بالمفتوح لأنني اعتقد أن الطهارة الثورية بعد خمسة عشر عامًا (من الثورة) أصيبت كثيرًا، وحتى الوحدة الفكرية بيننا أصبحت غير موجودة».

«الاستمرار فيما كنا عليه قبل ٦٧ مستحيل، وإذا تبين لنا أن منافسينا الجدد أفضل منا وأصلب منا فلنعلن بكل شجاعة أدبية إننا ماشيين ليحل مكاننا الآخرون حرصًا منا على خدمة الناس وعلى مصلحة البلد».

«اختيارنا للنظام المفتوح يحتاج لكثير من التغيير، وإلا سيبقى مجرد ألفاظ وستنظر إليه الناس بعدم الثقة ويقولون إننا رفعنا هذا الشعار من أجل أن تتفتح الزهور فقط على طريقة المثل الصيني ليسهل تمييزها وقطفها».

«إني أقسمت على نفسي يوم ٩ يونيو ألا أعالج الموضوعات السياسية عن طريق المساومات أو عن طريق الموازنات، كما أقسمت أيضًا أن أقاتل في سبيل مبدئي، وأن أقول رأيي بكل صراحة».

بدا «عبد الناصر» كمن يثور على نظامه.

ولم تكن أول مرة.

في مطلع الستينيات ثار على نظامه بتحولات اجتماعية غيرت في البنية الطبقية، وأحدثت حراكًا غير مسبوق.

كأي تجربة إنسانية كانت هناك أخطاء بعضها أقرب إلى الخطايا، غير أن المسار العام حكمه مشروع واضح في معالمه وتوجهاته.

كانت تلك ثورة اجتماعية.

في أعقاب الهزيمة ذهبت انتقاداته لنظامه إلى ما يقارب الثورة عليه.

دعا إلى مجتمع سياسي مفتوح و«دولة المؤسسات والقانون» والقضاء على مراكز القوى داخل النظام، ودخل باجتماعات مسجلة للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي إلى ما يشبه المحاكمة لنظامه كله.

المثير في تلك المحاضر المسجلة أن أغلبية الأعضاء لم يكونوا في صف الرئيس، عارضوا فكرته بداعي أن هناك خطورة من تعديل النظام قبل إزالة آثار العدوان، أو أنه يؤدي إلى تفسيخ البلد في هذا الظرف بواسطة المعارضة؛ لأن «شعبنا بخير ويثق بهذا الرجل» كما قال «أنور السادات» في أحد الاجتماعات المسجلة بانفعال كبير، مشيرًا إلى «جمال عبد الناصر».

فكرة الانتقال إلى نظام حزبي تعددي طرحها على اجتماعات تنفيذية ـ «مجلس الوزراء» في أغسطس من نفس السنة، وتنظيمية ـ «جلسات اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي» (٣) أكتوبر (١٩٦٨) ـ (١٩) أكتوبر (١٩٦٨) لكن لم يتح له الوقت الكافي لبناء نظام جديد يحفظ قيم الثورة الرئيسة في التحرر الوطني والعدل الاجتماعي، ويرد اعتبار الحريات العامة والحق في التعبير.

في خطوة راديكالية أجريت انتخابات اللجنة التنفيذية العليا، أعلى سلطة سياسية، بنزاهة، بعد أن رفض «عبد الناصر» تعيين أعضائها، برغم الإلحاح عليه.

المراجعات جرت في توقيت واحد مع إعادة بناء القوات المسلحة والدخول التدريجي في مواجهات عسكرية مباشرة.

كان «عبد الناصر» مستعدًّا أكثر من غيره لتقبل كل نقد لأسباب الهزيمة وتفهم دواعي أصحابها مهما بدت العبارات قاسية ـ كما فعل الشاعر «نزار قباني» في «هوامش على دفتر النكسة»، التي كتبها بحد سكين غضبه.

«أنعي لكم، يا أصدقائي، اللغةَ القديمة
والكتبَ القديمة
أنعي لكم..
كلامَنا المثقوبَ، كالأحذيةِ القديمة..
ومفرداتِ العهرِ، والهجاءِ، والشتيمة
أنعي لكم.. أنعي لكم
نهايةَ الفكرِ الذي قادَ إلى الهزيمة».

«يا سيّدي..
يا سيّدي السلطانْ
لقد خسرتَ الحربَ مرتينْ
لأنَّ نصفَ شعبنا.. ليسَ لهُ لسانْ
ما قيمةُ الشعبِ الذي ليسَ لهُ لسانْ؟».

تعرضت أعمال «نزار قباني» للمصادرة في مصر.

جرت حملة صحفية عليه بدواعي الغيرة في النفوس، تصدرها الشاعر «صالح جودت».

بنصيحة من الناقد الأدبي «رجاء النقاش»، كتب «نزار» خطابًا إلى «عبد الناصر»، الذي لم يكن قد قرأ الديوان الغاضب.

عندما أطل على نصه أشَّر عليه بالنشر في مصر دون حذف حرف واحد.

بعد سنوات قليلة من هذه القصة المثيرة اختلفت المواقع.

هاجم «صالح جودت» «عبد الناصر» بضراوة فيما أنشد فيه «نزار قباني» قصيدة رثائية فاقت شهرتها «هوامش على دفتر النكسة»:

«قتلناكَ..
يا حبّنا وهوانا..
وكنت الصديق، وكنت الصدوق،
وكنت أبانا..
وحين غسلنا يدينا..
اكتشفنا..
بأن قتلنا منانا..
وأن دماءك فوق الوسادةِ..
كانت دمانا..».
«فليتكَ في أرضنا ما ظهرْت..
وليتك كنت نبيّ سوانا ..».

الفارق الزمني بين القصيدتين ثلاث سنوات.

والفارق الموضوعي هو نفسه الفارق بين نظام أخفق في حفظ سلامة حدوده ومشروع ألهم العرب ذات يوم أنهم قوة يعتد بها في عالمهم، وأنهم يستطيعون أن يصنعوا مستقبلهم بأنفسهم.

(٥)

ظلال الهزيمة مازالت ماثلة، كأنها لم تغادر المسرح قط.

عبرت مصر قناة السويس بقوة السلاح في أكتوبر (١٩٧٣)، وكان يفترض أن تعبر أي مشاعر لحقت الهزيمة، لكنها تكرست.

النتائج ناقضت التضحيات والسياسة خذلت السلاح.

كان الوجه الآخر لتبديد ثمار النصر في أكتوبر هو تكريس الهزيمة في يونيو.

بدا الأمر مقصودًا حتى وصلنا إلى حافة الخروج من التاريخ.

ما هو متوافر ـ حتى الآن ـ شهادات لقادة عسكريين يروون وقائع كانوا طرفًا فيها، يدافعون عن أنفسهم، أو يتهمون آخرين بالمسئولية.

حسب المثل الشائع فإن «الهزيمة يتيمة والنصر له ألف أب».

الشهادات المتوافرة ـ برغم أهمية بعضها ـ لا تؤسس لرواية مصرية موثقة وكاملة.

وثائق يونيو مودعة في خزائنها، والخزائن عليها أقفال ومتاريس.

ليس من مصلحة مصر حجب ما تقصته لجنة برئاسة اللواء «حسن البدري»، المؤرخ المعتمد للجيش المصري بعد يونيو مباشرة عن أسباب الهزيمة.

تتوافر آلاف الوثائق عن يونيو وأسرارها غربية وإسرائيلية دون أن تكون هناك رواية مصرية واحدة لها صفة الرسمية.

الدول تنشر وثائقها السياسية والعسكرية بعد عدد معين من السنين لتضع الحقيقة أمام مواطنيها ـ أيًّا كانت مرارتها ـ حتى لا تتكرر أي أخطاء جرت في الماضي.

الأمر نفسه نفتقده في حربي «الاستنزاف» و«أكتوبر».

هناك شهادات ودراسات نُشرت لكن الوثائق قضية أخرى.

للوثائق كلمة أخيرة تجيب عن كل الأسئلة: كيف هزمنا، ولماذا؟ وكيف قاومنا وصمدنا حتى عبرنا الهزيمة في أكتوبر؟ ثم كيف أجهضت نتائجها السياسية؟

هناك فارق بين مراجعة التاريخ بالوثائق المثبتة لإدراك حقائقه وتصحيح الذاكرة العامة وبين تعميق الشعور بالهزيمة كقدر إغريقي لا يمكن الفكاك منه، أو نفي أسبابه.

بلغة الوثائق يتأسس الاتفاق والاختلاف على قاعدة معلومات صلبة.

بعد «يونيو» جرت مراجعتان على قدر كبير من الأهمية.

الأولى، إعادة تصحيح دور القوات المسلحة، ومنع دخولها في غير طبيعة مهامها.

أعيد بناؤها وفق مواصفات الجيوش الحديثة، التي تُعلي من شأن الكفاءة والاحتراف وتمنع الانشغال بالسياسة.

وأُسندت مسئوليتها إلى نخبة من العسكريين الأكفاء في القيادة العامة، كما في جميع الأسلحة.

تصدر المشهد العسكري المصري أفضل ما في البلد من كفاءات متاحة.

كانت الوطنية المصرية مستعدة أن تقدم كل ما لديها من طاقات عطاء ودم بإيمان حقيقي أن البلد يحارب معركة وجوده ومستقبله.

لم تكن مصادفة بعد أيام من الهزيمة أن تفرض قوات محدودة في «رأس العش» كلمتها على الإسرائيليين وتوقع بهم خسائر فادحة في لحظة انتشاء عسكري.

جرت بطولات تقارب الأساطير في ظروف شبه مستحيلة.

«عضم إخوانا نلمه.. نسنوا.. ونعمل منه مدافع».

بكلمات بسيطة في بنائها الشعري وصادقة بزخمها الوطني، نشأت ظاهرة فرقة «أولاد الأرض» وبدا قائدها الكابتن «غزالي» ملهمًا لقدرة المقاومة على اجتراح المعجزات.

«يا بيوت السويس يا بيوت مدينتي
أستشهد تحتك وتعيشي إنتِ».

تلك الكلمات لـ«عبد الرحمن الأبنودي» أنشدها صوت «محمد حمام» العميق الشجي مع فرقة «أولاد الأرض»، كما لو أنها رسالة أن البلد متأهب للقتال أيًّا كانت التضحيات.

أفضل أغنيات أكتوبر لحنت وغنيت قبل أن تدوي المدافع فوق الجسور ـ كأنها نبوءة مبكرة بالنصر الممكن، كما أغنية: «راجعين بقوة السلاح» في فيلم «أغنية على الممر».

بهذه الروح تمكنت القوات المصرية من خوض حربي «الاستنزاف» و«أكتوبر»، وكان الجندي المصري العادي بطلهما بلا منازع.

شاع وقتها شعار «يد تبني ويد تحمل السلاح».

البناء والحرب معًا، القتال والتصحيح في نفس الوقت.

مثلت الهزيمة تراجعًا فادحًا في المشروع القومي، لكنها لم تكن نهاية المطاف.

كانت السنوات التي أعقبت الهزيمة أفضل سنوات العسكرية المصرية، وأفضل سنوات «جمال عبد الناصر»، بالنظر إلى حجم العطاء الذي بُذل.

لماذا يُراد ـ حتى الآن ـ تكريس الهزيمة في الوجدان العام، برغم النصر العسكري في «أكتوبر»؟

في الحرب العالمية الثانية سحقت القوات الفرنسية.

احتلت عاصمتها باريس، ودخلها الزعيم النازي «أدولف هتلر» مزهوًّا لالتقاط الصور التذكارية عند برج إيفل.

بعد تحريرها، وضعت لوحات تذكارية عند الأماكن والأبنية التي سقط بجوارها شهداء المقاومة الفرنسية.

لم يجئ تحرير فرنسا بفضل قوات الجنرال «شارل ديجول» وحدها، فقد قادت العمل العسكري القوات الأمريكية.

لم يكن في مصر متعاونون مع قوات الاحتلال كما حدث في فرنسا، ولا قادت معاركها بالنيابة قوات أجنبية.

مصر التي انتصرت ـ بغض النظر عن أي مساجلات في حجم النصر ـ كان يتعين عليها أن تطوي صفحة الهزيمة، غير أن ذلك لم يحدث عن سبق إصرار، كأننا لم نحارب ولم ننتصر، وكأن إسرائيل قوة لا تقهر والهزيمة قدر.

بين تحولات السياسة والانقلابات الإستراتيجية نشأت صناعة الهزيمة في الوجدان العام، فـ«أكتوبر آخر الحروب»، و«لن نحارب بالنيابة عن الفلسطينيين والعرب لآخر جندي مصري»، كما تردد على نطاق واسع في الخطابين الإعلامي والسياسي.

جرى تسطيح قضية الصراع العربي - الإسرائيلي، وقضية الأمن القومي المصري الذي دافعت عنه قواتنا قبل أي شيء آخر.

أُهدرت التضحيات الهائلة التي بُذلت في ميادين القتال، ونشأت طبقة جديدة وصفت في البداية بـ«القطط السمان»؛ لتساند السلام مع إسرائيل.

استشعر جيل كامل وهب حياته لقضية تحرير بلاده بقوة السلاح الخديعة، فقد حارب من أجل حلم ليستيقظ على كابوس.

كانت تلك الهزيمة الحقيقية، التي أرادوا إخفاءها وراء تكريس «عقدة يونيو» في الوجدان العام جيلًا بعد آخر.

الفصل العاشر: خلف الأبواب المغلقة

«لن يتركوني أبدًا».

كانت عبارته قاطعة، وهو يتوقع أن يلاحقوه حتى ينالوا منه «قتيلًا، أو سجينًا، أو مدفونًا في مقبرة مجهولة».

كان يُدرك أن القوى التي يحاربها سوف تحاول الانتقام، وأن الانتقام سوف يكون مروعًا.

بدت الكلمات ثقيلة على الابن الصبي، وهو يستمع إليها ذات مساء من شهر ديسمبر (١٩٦٩) عند ذروة حرب الاستنزاف ـ كما روى «خالد عبد الناصر».

ربما أطلق «جمال عبد الناصر» هذه الكلمات، بكل حمولاتها السياسية والإنسانية، في ذات اليوم الذي استمع فيه إلى تسجيلات التقطتها ميكروفونات حديثة في مدخل السفارة الأمريكية وصالونها وغرفة الطعام والبهو الأعلى بمبناها، في العملية التي أطلق عليها «الدكتور عصفور» كما كشف الأستاذ «محمد حسنين هيكل».

كان الكلام المسجل، الذي استمع إليه وكتب نصه على ورق أمامه، بتاريخ اليوم السادس من هذا الشهر، بالغ الخطورة إلى حد دعا رئيس المخابرات المصرية «أمين هويدي» إلى أن يحمله بنفسه دون إبطاء إلى الرئيس.

وفق ما هو مسجل فإن قيادات الدولة العبرية توصلت إلى استنتاج أن «بقاء إسرائيل رهن بالقضاء على ناصر.. وأنه يجب الوصول إليه بالسم، أو بالمرض خشية أن يُفضي أي إنجاز عسكري للقوات المصرية إلى مد جديد لحركة التحرر الوطني في العالم العربي لا تقدر على صده».

هناك شبهات أخرى رواها «هيكل» ترجح أنهم وصلوا إليه بـ«السم» في فنجان قهوة يوم انعقاد القمة العربية الطارئة لوقف حمامات الدم في شوارع عَمان، التي توفيَ بعد انتهاء أعمالها، غير أنه لم يكن متأكدًا من صحة ما اشتبه به.

أثيرت الشكوك نفسها حول الوفاة المفاجئة لـ«عبد الناصر» في شهادة كتبها الفريق «محمد صادق»، رئيس أركان القوات المسلحة في ذلك الوقت ووزير الدفاع بعد أحداث «مايو» (١٩٧١).

«الكل وقد داهمتهم وفاة عبد الناصر حتى وإن لم تكن الوفاة مفاجأة بالنسبة إلى البعض، بدءوا يتكتلون ويناورون ويتقاتلون حول من يخلف المسجى جثمانه بداخل قصر القبة».

صراعات السلطة مسألة طبيعية في مثل هذه الأحوال.

يستلفت الانتباه ما كتبه عن أن الوفاة لم تكن مفاجأة بالنسبة إلى البعض، دون أن يُفصح على أي أساس توصل إلى استنتاجه.

إذا لم تكن الوفاة مفاجأة كاملة يصعب التعويل على فرضية الوصول إليه بالسم.

«كانت الساعات شديدة الوطأة، فبعض الأطباء يرفضون كتابة شهادة وفاة لعبد الناصر، ويصرون على تشريح الجثة لتأكيد شكوكهم. وقد أخبرني الدكتور رفاعي كامل أنه يشك في أن الرئيس مات مسمومًا، وأن أظافره زرقاء اللون تضاعف من شكوكه، وأنه ليس وحده الذي يشك في ذلك، وأنهم يريدون أن يقطعوا الشك باليقين».

لم تكن الشكوك وليدة لحظة استجدت حساباتها واستدعيت تساؤلاتها من الذاكرة، بل كانت ماثلة في لحظة الوفاة المفجعة دون أن يكون ممكنًا في أي لحظة أي حسم.

الشكوك طبيعية لكنها لا تجزم.

لسنوات طويلة بعد رحيل «عبد الناصر» نُشرت قصص تنفي ما هو معلن عن أسباب رحيله المفاجئ.

في (٣٠) سبتمبر (١٩٨٦) أصدر ثلاثة من أطبائه الشخصيين ـ الدكتور «منصور فايز» والدكتور «زكي الرملي» والدكتور «الصاوي حبيب» بيانًا مشتركًا يصحح ما أشيع أيامها عن أسباب الوفاة سلمه صهره «حاتم صادق» إلى مكتب رئيس تحرير صحيفة «الأهرام»، غير أنه لم يُنشر.

مما قيل وتردد ـ منسوبًا إلى كبير أمناء الرئاسة «صلاح الشاهد» أن «عبد الناصر» أصيب بغيبوبة سكر في مطار القاهرة بعد توديعه أمير الكويت عند انتهاء مؤتمر القمة العربي الطارئ، وأن طبيبه المرافق الدكتور «حبيب» أعطاه حقنة «أنتستين بريفين» أفضت إلى وفاته.

لم يكن ذلك صحيحًا بشهادة الأطباء الثلاثة.

بالوثائق والشهادات رفع الدكتور «حبيب» دعوى قضائية ضد كبير أمناء الرئاسة؛ لإثبات بطلان ذلك الاتهام وكسبها.

من أسباب كسبه الدعوى القضائية التي رفعها أن «أنتستين بريفين» ليست حقنًا وإنما نقط للأنف، وأنه قد أعطى الرئيس حقنة قلب قبل ساعتين من وفاته.

بتوصيف الدكتور «حبيب» للأزمة الصحية الخطيرة التي داهمت «عبد الناصر» في مطار القاهرة الدولي: «كان العرق على جبهته باردًا ولونه شاحبًا ونبضه سريعًا وضغطه منخفضًا وأطرافه باردة، وكانت تلك علامة على صدمة قلبية عطلت حوالي (٤٠٪) من عضلاته».

مما قيل وتردد ـ منسوبًا للدكتور «رفاعي كامل» استشاري القلب ـ أن «عبد الناصر» توفيَ بـ«غيبوبة سكر» دون أن يعلن فرضية الوصول بالسم التي ذكرها في وقته وحينه لرئيس الأركان.

فرضية «غيبوبة السكر» نفاها الدكتور «حبيب» جازمًا بأن الدكتور «رفاعي» انقطعت صلته بمنشية البكري قبل ثلاث سنوات، ولم يكن في وضع يسمح له بالحكم الطبي الدقيق.

ومما قيل وتردد ـ منسوبًا إلى خبير العلاج الطبيعي «علي العطفي» أنه قام بعمل تدليك لساقي الزعيم الراحل بمادة سامة قضت على حياته.

بما هو ثابت لم يدخل هذا الرجل، الذي قُبض عليه يوم (١٨) مارس (١٩٧٩) بتهمة التجسس لصالح إسرائيل، منزل «عبد الناصر» قط.

أدانه القضاء بالتهمة الشائنة، وقد اعترف بها مراهنًا في ظروف وملابسات الصلح المصري- الإسرائيلي على تدخل مَنْ ينقذه من حبل المشنقة.

بتدخل من رئيس الوزراء الإسرائيلي في ذلك الوقت «مناحم بيجين» لدى شريكه المصري في معاهدة الصلح «أنور السادات»، الذي قاسمه جائزة «نوبل» للسلام، خفف الحكم عليه إلى السجن المؤبد.

«السادات» رفض العفو عنه، وقد يكون من أسبابه ما تردد من أنه قام بتدليك ساقيه هو نفسه ـ حسب روايات شاعت دون تأكيد.

في ظروف وملابسات معاهدة السلام حاول «العطفي» أن يُضفي على نفسه «بطولة إسرائيلية» تزكي سعيه للعفو، فأخذ يروي للمسجونين أنه هو الذي سمم «عبد الناصر».

كادوا أن يفتكوا به وكان ممن استمعوا إليه خلف الجدران الشاعر «أحمد فؤاد نجم».

كأي بطل تراجيدي من هذا الحجم في التاريخ فإن السجال لن يتوقف حول الطريقة التي انتهت بها حياته.

الأرجح أنه رحل بأزمة قلبية ثانية نالت منه بعد يوم طويل في قمة عربية منهكة، لكنه لا يمكن استبعاد احتمال أنهم وصلوا إليه بـ«السم».

مات على سريره بعلة قلب، أو لأي سبب طبي آخر، وربما بأثر سم، وقد كان النيل من حياته هدفًا دائمًا للاستخبارات الأمريكية والبريطانية والإسرائيلية، حسب وثائق متاحة ومنشورة.

لا أدخل سجنًا ليحاكمه أعداؤه على مشروعه ومعاركه، وبقيت صورته في التاريخ ـ بالاتفاق أو الاختلاف ـ أهم شخصية عربية في العصور الحديثة.

ولا دفن في مقبرة مجهولة لا يعرف أحد أين هي، وضريحه في منشية البكري بالقرب من منزله، الذي تحوّل إلى متحف، لا يزال مزارًا لكل من ألهمته ذات يوم تجربته في العدل الاجتماعي والتحرر الوطني.

كانت جنازته بحرًا من الدموع ـ حسب تعبير وكالات الأنباء العالمية وقتها.

لم تتحقق نبوءته، التي أطلقها ذات مساء أمام نجله الصبي «خالد عبد الناصر».

«اعتقد أن والدي مات بالإرهاق بأكثر مما مات بأزمة قلب ثانية في أيلول الأسود».

«سيرته الصحية ترتبط بتواريخ السياسة.. في أثناء الحصار الاقتصادي الذي فرضه الغرب على مصر أصيب بمرض السكر عام ١٩٥٨.. وبعد نكسة ١٩٦٧ نالت منه مضاعفات السكر بصورة خطرة.. إرهاق العمل المتواصل ليلًا ونهارًا في سنوات حرب الاستنزاف أصابه بأزمة قلب أولى. أزماته الصحية كان يمكن السيطرة عليها، أما الإرهاق وتحدي أوامر الأطباء فلا سبيل لتداركهما. من عرف عبد الناصر في تلك الأيام كان يُدرك بسهولة أنه غير مستعد للنوم مرتاحًا، أو الاستمتاع بأي شيء، قبل إزالة آثار العدوان».

كانت تلك شهادة من خلف الأبواب المغلقة رواها صديقي الراحل الدكتور «خالد عبد الناصر» عن قصة المرض وأيام النكسة وحرب الاستنزاف والرحيل المفاجئ، وما بعد الرحيل من قصص إنسانية ترتبت على انقلابات السياسات المصرية بعد أن غربت «يوليو» ووارى الثري زعيمها.

لم نجلس مرة واحدة نستقصي الوقائع وفق خطة معدة سلفًا لما كان يجري خلف الأبواب المغلقة.

كل شيء ترك لتيار التذكر وكتب بنفس الطريقة.

في أي وقت يتصل حتى لو كان فجرًا، يروي ما يكون قد تذكره توًا والكلام يوضع على أي ورقة يتصادف وجودها أمامي قبل إعادة صياغته والتدقيق في تواريخه وسياقه قبل دفعه للنشر في صحيفة «العربي».

غلبت البكائيات على ما كان يتذكره من وقائع حتى خشيت عليه من التوحد مع الماضي.

ذات مرة والساعة تقترب من الرابعة صباحًا عند أوائل عام (٢٠٠٣) ران صمت طويل تقطعه نوبات بكاء ـ كأن «عبد الناصر» مات الآن.

على خط هاتفي آخر من داخل نفس البيت كان معنا شقيقه «عبد الحميد» ندقق بعض تفاصيل ما جرى في بيته يوم رحيله.

انهار هو الآخر ودخل في بكاء مرير.

صمت تمامًا، لم أعلق بكلمة واحدة وتركت المشاعر تأخذ مداها لعل البكاء يريح.

بعد ثورة «يناير» بشهور قليلة رحل «خالد»، بعد معاناة مع المرض، غير أن روايته لما كان يجري خلف الأبواب الموصدة تظل أهم الروايات للجانب الآخر في شخصية «جمال عبد الناصر».

الأب قبل الرئيس والإنسان قبل السياسي.

(١)

لم أكن أدري حقيقة ما حدث يوم (٨) يونيو (١٩٦٧).

دخلت غرفة نومه وكان الباب مواربًا.

تعودت أن أجلس بجواره، لا أعلق على شيء، ولا أفتح موضوعًا إلا فيما ندر.

تعلمت مبكرًا ألا أضيف همومًا خاصة على همومه العامة.

كان يتحدث بالهاتف مع الأستاذ «هيكل».

في البداية لم يكن في غرفته هاتف خاص، تعودت تلقي اتصالاته على الهاتف الموجود في صالة الدور العلوي وأحوّلها إليه باستخدام «المنافيلة» في الهواتف القديمة.

جرى بعد ذلك تركيب هاتف خاص في غرفة نومه ويومها حادثه «هيكل» عليه مباشرة.

كان يقول لي دائمًا إن «هيكل هو الوحيد اللي بيفهمني بسرعة».

في ذلك اليوم القاسي تحاورا لعشر ساعات بمكتب الرئيس في الدور الأرضي.
يبدو لي - الآن - أنهما كانا يستكملان تفاصيل أخيرة في خطاب التنحي.

لم أعلق - كعادتي - على ما سمعت، كما لم أستوعب وقتها أن النتائج العسكرية في ميادين القتال تشير إلى هزيمة فادحة لقواتنا المسلحة.

لم أدرك أن أبي سوف يعلن في اليوم التالي تنحيه عن رئاسة الجمهورية.

لم يقل لنا شيئًا قبل أن يغادر المنزل لتسجيل خطاب التنحي في كوبري القبة.

عاد للبيت قبل إذاعة الخطاب، ودخل غرفة النوم وقطع الاتصالات به.

ربما دخلت أمي الغرفة وراءه، لا أتذكر، لم نتحدث، ولم نعلق، أخذتنا الصدمة، واحترمنا قرار والدي، لم يعد الآن رئيسًا للجمهورية.

فيما سبق كان يقول لأمي؛ ربما ليرضي زوجة تفتقد زوجها طوال الوقت، إنه عندما يغادر رئاسة الجمهورية سوف يصحبها في رحلة حول العالم وكان يدرك أن ذلك لن يحدث أبدًا.

مساء (٩) يونيو تجمع أكثر من ثلاثمائة من كبار المسئولين في الدولة، ومن أعضاء مجلس قيادة الثورة السابق.

كان تقديرهم أنه إذا لم يصدر عن الرئيس - الآن - بيان بالتراجع عن قرار التنحي فلن يكون هناك صباح، وأن البلد سوف يغرق في الفوضى، وأنه لا أحد آخر غيره قادر على مواجهة متطلبات إعادة بناء القوات المسلحة من جديد، وتهيئة البلاد لحرب تستعيد بها أراضيها المحتلة.

في ذلك المساء سألني السيد «زكريا محيي الدين»، الذي رشحه «عبد الناصر» في خطاب التنحي باقتراح من الأستاذ «هيكل» لخلافته في رئاسة الجمهورية: «يا خالد.. إنت عندك جهاز تسجيل؟».

أحضرت له جهازي المتواضع. سجل عليه دون تجهيزات هندسية اعتذاره عن قبول تكليف «عبد الناصر»، وأنه هو القائد والزعيم.

مازلت أذكر عباراته التي كان يبدؤها بكلمة واحدة: «أرفض».

لم يستجب أبي لهذه النداءات والضغوط، معتقدًا بأنه المسئول الأول عما حدث، ولا بد أن يرحل.

في صباح (١٠) يونيو جلس بملابس غرفة النوم؛ بيجامة كستور مقلمة، على مائدة الإفطار.

لم تكن عادته طوال السنوات الماضية أن يتناول وجبة الإفطار معنا.

ربما تصور أنه قد لا تتاح له فرصة أخرى للجلوس مع أسرته.

لم نتحدث في شيء.

حاولنا أن يكون الحوار عاديًّا.

لم يكن هناك شيء عادي حتى يكون الحوار عاديًّا.

حوار متقطع و«ماسخ».

كلمات قليلة ثم يعود الصمت.

الصوت الوحيد المسموع هدير مئات الآلاف، التي حاصرت البيت منذ إعلان قرار التنحي.

لم يتحرك الرئيس من مكانه، ولا حاول مرة واحدة أن يُلقي نظرة على الجموع المحتشدة، كان يشعر بأنه خذلهم، وكان شعوره عميقًا بالمسئولية.

وقفت في شرفة حجرتي أتابع المشهد المهيب في الشوارع المحيطة.

قلت للرئيس: «بابا الناس عاوزاك».

قال بلهجة أدرك معناها، ويدرك معناها كل من تعامل معه عندما يحزم أمره على شيء: «مالكش دعوة».

صمت، ولم أعد للموضوع مرة أخرى.

جلستُ على المائدة أتابعه، وهو يعصر أربع قطع من الليمون الحلو لأحد أحفاده.

قطعت أمي صمت المائدة بعبارة مازالت تدوي في وجداني.

تحدثت باسم أولادها. باسم العشرة الطويلة. باسم الحب الكبير للرجل والإنسان الذي لم يعد رئيسًا، ولا يدري أحد أي مصير ينتظره هذا المساء: «إحنا معاك على الحلوة والمرة».

لم يعلق ولم يجرؤ أحد من أشقائي على التعليق.

كانت أمي تركب المواصلات، ومستعدة أن تركب المواصلات مرة أخرى، كانت زوجة ضابط صغير ومستعدة أن تعود لأيام أصعب من الأيام التي كانت، ولعلها تساءلت دون أن تفصح: «هل يتركوه لي؟».

عاد الصمت للمائدة.

بدأت ترتفع أصوات المتظاهرين في الشوارع تطالبه بالتراجع عن قرار التنحي.

لم يكن مستعدًّا لمثل هذا التراجع.

الحزن أفقد وجهه ابتسامته وأفقد مشيته قفزة الفهد.

كان يرى أن دوره انتهى، وأن مصر توشك أن تدخل مرحلة جديدة بلا «جمال عبد الناصر».

عندما خرجت الجماهير بالملايين في شوارع القاهرة تطالبه بالبقاء وتعرض المقاومة سأل «عبد الناصر» «هيكل» مستغربًا وحائرًا: «ليه»؟

كان يتصور أن الناس سوف تخرج لتنصب له المشانق في ميدان التحرير، فإذا بها تهتف باسمه في شوارع القاهرة، والمشاعر كانت على النحو نفسه في كل مدينة وقرية مصرية وكل بيت عربي.

تدافعت الأحداث بسرعة، ولم يعد أمام الرئيس خيار، فأمر الشعب لا يرد ـ كما قال في خطاب العودة الذي ألقاه «أنور السادات» في مجلس الشعب.

في مساء يوم (١٠) يونيو تابعت بغرفتي مع صديق عمري «محمد الجيار» وقائع اجتماع مجلس الشعب.

الرئيس ظل بغرفته، وعزف بالكامل عن متابعة أي شيء.

أحزانه كانت فوق أي طاقة احتمال، والرئيس الجريح استولت على مشاعره أصوات الجماهير التي عرضت المقاومة.

لعله استجمع بإرادة البسطاء إرادة جديدة ليوم جديد تعيد بناء القوات المسلحة، وتصحح أخطاء الثورة التي أدت إلى الهزيمة العسكرية.

(٢)

ذات يوم من عام (١٩٧٠) كنا على مائدة غداء.

لسبب ما قلت: «مضت ثلاث سنوات».

كنت أتحدث في موضوع شخصي.

التفت تجاهي، قال كأنه يحادث نفسه: «ثلاث سنوات».

كانت هذه السنوات قد مضت على النكسة.

لم ينسَ قط جرحه النازف.

(٣)

مطلع يوليو (١٩٦٧) قال لي والدي: «زرْ أولاد المشير».

تربطنا بأولاد المشير علاقات ود وصداقة، تربينا معًا، وتعلمنا أن نحب بعضنا الآخر.

حاول والدي أن يفصل بين الخلافات السياسية والعلاقات الإنسانية.

ذهبت لبيت المشير في الجيزة، قابلته، وجلست مع ابنيه «جمال» و«نصر» في غرفة خاصة.

شعرت بأن الألفة انكسرت، وأن الأيام التي كانت لن تعود أبدًا.
لـم أعد مرة أخرى.

(٤)

بعد أسابيع قال أبي باقتضاب شديد: «المشير فيه مشكلة معاه».
لم يزد حرفًا واحدًا.
التزمنا الصمت ـ كما العادة في مثل هذه الأحوال.
كان حزينًا ومقدرًا أن ظروف البلد لا تسمح بالسكوت على تصرفات المحيطين بالمشير، والقادة العسكريين الذين تولوا مسئولية الموقف الصعب يلحون على ضرورة إنهاء العصيان المسلح في بيت المشير «عامر»، وأن إعادة بناء القوات المسلحة تقتضي الانضباط الكامل والتمرد يهدد استقرار البلد، وأي قدرة على التصدي للتحديات العسكرية في ظروف تكاد تكون شبه مستحيلة.
لسنوات طويلة ربطتهما صداقة حميمة وأبي كان يحبه أكثر من أشقائه، لكنه اكتشف بوضوح كامل بعد النكسة أن «عامر» خطؤه الأكبر.
في ظروف الهزيمة العسكرية فقد المشير سيطرته على من حوله وأصبح أسيرًا لمؤامرات تُحاك داخل بيته.
لم يتردد الرئيس في إنهاء التمرد العسكري المتحصن بترسانة سلاح ببيت المشير، مستجيبًا لطلب القائد العام الفريق أول «محمد فوزي»، ورئيس أركان حرب القوات المسلحة الفريق «عبد المنعم رياض».
اختار مصالح مصر العليا في إعادة بناء القوات المسلحة على أسس انضباطية صارمة، تمكنها من استرداد الأراضي المحتلة بقوة السلاح.
تمنى أن يتقبل «عامر» طواعية الخروج من القوات المسلحة، لكنه لم يفعل.
حسم «عبد الناصر» الموقف الصعب بعبارة موحية: «لسنا عصابة ومصر ليست عزبة لأحد».

(٥)

في النصف الثاني من خمسينيات القرن الماضي كان الزعيم اليوغوسلافي «جوزيب بروز تيتو»، أحد أقطاب حركة عدم الانحياز في زيارة للقاهرة، واستلفت نظره أن قائد الجيش «عبد الحكيم عامر» يحمل رتبة «الفيلد مارشال».

أبدى استغرابه لصديقه «جمال عبد الناصر» في حضور «عامر»: «فيلد مارشال أي معركة؟!».

فوجئ «عامر» بالسؤال الاستنكاري ولم يعلق.

عندما انتحى «تيتو» بـ«عبد الناصر» قال له: «كيف تمنح هذا الرجل كل هذه السلطة؟!».

أواخر الخمسينيات عندما كان «عبد الناصر» في يوغوسلافيا عاد «تيتو» ليحذره متسائلًا عن إجراءات الحراسة المتبعة لحماية رئيس الجمهورية في مصر.

بوغت بأنها ضعيفة التسلح وغير مدربة، وتجلب دون تخطيط أو إعداد خاص من جنود القوات المسلحة ولا تخضع لسيطرة الرئيس.

قال «تيتو»: «عزيزي ناصر. هذا جنون. أنت تعرف أنك مستهدف من قوى كبرى لن تتركك في حالك، ستحاول مرة بعد أخرى النيل منك بكل ما تملك، بكل ما يخطر أو لا يخطر على بالك. القضية لا تتعلق بك وحدك، فوجودك على رأس الثورة المصرية بالدور الذي تقوم به الآن في قيادة حركات التحرير الوطني قضية تتعداك. أمنك الشخصي من أمن الثورة وحياتك ضمانة استمرار لا يصح التفريط فيها بدواعي الثقة فيمن حولك.. عزيزي ناصر.. أرجوك أن تنشئ فورًا حرسًا جمهوريًّا قويًّا يخضع مباشرة لسيطرتك وقادرًا على ردع أي محاولة انقلابية من أي جهة كانت». استمع أبي لتلك النصيحة باهتمام بالغ، وشرع فور عودته للقاهرة في تأسيس الحرس الجمهوري من كفاءات عسكرية مدربة جيدًا تعرف في الأوساط العسكرية بـ«أصحاب البيرهات الزرقاء».

(٦)

في سبتمبر (١٩٦٧) كنا في المعمورة بالإسكندرية.

بتعليمات الرئيس وصلت ثلاث سيارات حراسة وسيارتان لنقل الأسرة إلى القاهرة فورًا.

عرفت من الحراسة أن المشير انتحر.

في صباح اليوم التالي جلست بجوار أبي في غرفة النوم.

حادثني كأنه يخاطب طيف «عامر»: «لو حد جاب لي بلورة سحرية، وقال إن المشير سوف يموت وأنا عايش، ولا أمشي في جنازته، لن أصدق».

حملق في الفضاء حزينًا متذكرًا عمق المشاعر التي جمعتهما.

(٧)

في أوائل الستينيات كنا نتمشى مع والدي على شاطئ المعمورة في الإسكندرية.

كان هناك زورق صغير مصمم للمياه الهادئة ـ (٨٢) قدمًا حوالي (٩) أمتار.

اصطحبنا في جولة بمحاذاة شاطئ المتوسط حتى برج العرب وعدنا مرة أخرى.

قاد الزورق بنفسه بينما قائده «ياقوت حميدو» يرشد الطريق.

أراد أبي «ساعة حرية» مع أطفاله بلا حراسة.

تصادف وصول «عبد الحكيم عامر» لاستراحة المعمورة لرؤية الرئيس والتحدث معه.

لم يكن أحد يعرف إلى أين توجه بالزورق لمدة ثلاث ساعات.

أصدر «عامر» تعليمات للبحرية المصرية بالبحث في البحر المتوسط؛ خشية أن تعترضه قطع بحرية معادية.

بمجرد عودتنا هجم المشير على «عم ياقوت» الذي عرّض ـ باعتقاده ـ حياة «عبد الناصر» للخطر.

كاد أن يفتك به وهو في هياج شديد.

الرئيس تدخل لحماية «ياقوت»، ووضع نفسه بينهما وهو يقول: «خلاص يا عبد الحكيم».

هذه قصة واحدة من مئات القصص لعمق الصداقة التي تبددت.

(٨)

هناك قصة إنسانية لا يعرفها أحد، وفوق تصور أكثر كتاب السيناريو جموحًا في الخيال، وجدت نفسي طرفًا مباشرًا فيها.

يوم أن حاول المشير الانتحار في منشية البكري لم نكن بالبيت. وكان من بين حرس المشير الشخصي ضابط اسمه «محمود طنطاوي»، شقيقه الضابط «محمد طنطاوي» في حرس الرئيس الشخصي.

قائد الحرس الجمهوري قرر ـ لمقتضيات الأمن وحساسية الموقف ـ عزل «محمد طنطاوي» من الخدمة، ولم يخطر الرئيس بقراره.

أصيب «محمد طنطاوي» بأزمة نفسية حادة؛ فهو الآن ليس محلًّا لثقة الرئيس، بعدما كان حتى ساعات مضت ضمن (٢١) ضابطًا يتحركون معه في كل مكان يذهب إليه ومكلفين بحماية حياته.

هو الآن متهم بالتآمر على حياة الرئيس ومتهم بخيانته ـ ولو بالشبهة.

تفاقمت أزمته النفسية واستحالت لشلل مؤقت بالوجه أفقده القدرة على الكلام.

علمت بالقصة وأخبرت أبي بها فأصدر أوامره لقائد الحرس الجمهوري بإعادته للخدمة.

في اليوم التالي عاد مؤديًا التحية العسكرية أمام الرئيس، ثم فاجأ الجميع بالارتماء في حضنه باكيًا وهو يقول: «أنا أخونك يا ريس؟».

ربت «عبد الناصر» على كتفيه: «خد بالك من صحتك يا محمد».

ارتفعت حالته المعنوية وزالت حالة الشلل المؤقت.

في نفس اليوم أصدر «عبد الناصر» قرارًا بالإفراج عن شقيقه «محمود» تقديرًا لمشاعر أسرة «طنطاوي».

تشاء الأقدار بعد ثلاث سنوات أن يحمل «محمد طنطاوي» نعش الرئيس ويصحب جثمانه حتى غرفة الدفن.

(٩)

تعودت أن أنظر في عيني والدي صباح كل يوم.

لو وجدتها «حمراء» أعرف على الفور أن الليلة الماضية شهدت عملية عبور في حرب الاستنزاف.

لم يكن ينام حتى يطمئن على عودة مقاتلينا سالمين.

(١٠)

قال ذات مرة: «دخلت عشرات المعارك، حاربت في الفالوجا، قاتلت الإسرائيليين وجهًا لوجه، قتلنا (٤٠٠) جندي إسرائيلي، لم أهزم وأنا جندي وهزمت وأنا رئيس جمهورية».

كان أبي يستعيد كثيرًا ذكريات الفالوجا في سنوات النكسة.

(١١)

روى في جلسة عائلية: «أسرنا جنديًّا إسرائيليًّا إصابته خطيرة، عالجته بنفسي، فالحرب حرب والإنسانية إنسانية، أطلقنا سراحه، فلم يكن معنا طعام ولا علاج يكفي للحفاظ على حياته». ثم يستخلص عبرًا جديدة من الذكريات القديمة: «كان جنودي قبل الحرب يتصورون اليهود برأسين، لم يعرفوا شيئًا عن عدوهم، ويبدو أننا في حاجة لمعرفة العدو من جديد، والاستعداد لمواجهات أكثر شراسة مما مضى».

(١٢)

كنا نشاهد مع شقيقي الأصغر «عبد الحكيم» «فيلم كارتون» بقاعة السينما.
مر علينا وجلس معنا.
بدا على ملامحه القلق كأنه ينتظر خبرًا خطيرًا.
فجأة دخل أحد أفراد قوة الحراسة.
مال عليه هامسًا.
قام متوجهًا لمكتبه.
بعد قليل عاد إلينا والبشر يملأ وجهه للمرة الأولى منذ النكسة: «دمرنا إيلات».

(١٣)

جلست كعادتي بجوار أبي لا أتحدث ولا أفتح موضوعًا.
كنا في سنوات حرب الاستنزاف.
قال لي: «تصور إن الذين يجتازون الكشف الطبي في الكليات العسكرية (٤٪) فقط. ده من مواريث الاستعمار والطبقية والفقر الطويل. اهتممنا بالتعليم والصحة وتوفير الاحتياجات الأساسية. مازلنا في حاجة إلى جهود أوسع».

(١٤)

بقميص أزرق وبنطلون شارك الرئيس في إحدى المناورات العسكرية.
سأل جنديًّا في خندق: «إنت قاعد هنا ليه؟». قال الجندي: «ما أعرفش يا أفندم. قالوا لي اقعد هنا».

ثار الرئيس ووبخ بشدة قائد المناورة: «إنتوا بتعملوا عليَّ تمثيليات. العسكري كان هنا ليه؟».

أصدر أوامره بإنزال عقاب على قائد المناورة؛ اعتقادًا بأن «التدريب الصعب يجعل المعركة سهلة»، وأن الهزل لم يعد مسموحًا به في إعادة بناء القوات المسلحة.

(١٥)

في أثناء بناء حائط الصواريخ مات عدد كبير من عمال التراحيل. كان دورهم حمل الخرسانة لمواقعها. الطائرات الإسرائيلية كانت تغير على مواقع العمل وتسقط يوميًّا العديد من الشهداء. كان يؤلمه سقوط مصريين، وعمال تراحيل بالذات، بنيران الطائرات الإسرائيلية.

(١٦)

كان هناك احتفال في منزل الدكتور «عبد المنعم القيسوني» وزير الاقتصاد الأسبق، المناسبة اجتماعية، ربما خطوبة، أو عقد قران إحدى بنات الأسرة، شارك فيها الرئيس وبصحبته الفريق أول «محمد فوزي».

عندما دخل «محمود القيسوني»، صديقي المقرب والضابط في سلاح المظلات منزل أسرته بملابس الميدان فوجئ بوجود الرئيس والفريق أول «فوزي».

أعطى التحية العسكرية ووقف في وضع انتباه، دعاه الرئيس للجلوس بجواره: «تعالَ يا محمود».

رد الضابط الشاب بحرج: «يا أفندم.. ما ينفعش، الفريق أول فوزي موجود».

كان «عبد الناصر» قد اختار الفريق أول «فوزي» بالذات قائدًا عامًّا للقوات المسلحة بعد نكسة يونيو لما عُرف عنه من انضباط عسكري صارم كان مفتقدًا بقسوة.

لم يكن يملك الضابط الشاب خرق القواعد الصارمة حتى في وجود الرئيس الذي يتعامل معه كابن.

ضحك «عبد الناصر» وقال: «تعالَ».

التقطت لـ«محمود القيسوني» صورة مع أبي، طلب مني بعد أيام أن يوقع عليها.

(١٧)

في (٩) مارس (١٩٦٩) استشهد الفريق «عبد المنعم رياض» على جبهة القتال الأمامية.

كانت صدمة «عبد الناصر» باستشهاد «رياض» صاعقة.

كانت ثقته في الكفاءة العسكرية لـ«رياض» بلا حدود.

لكنه شعر أيضًا بالفخر لاستشهاد رئيس أركان حرب القوات المسلحة على جبهة القتال.

مصر تغيرت ونفضت ثياب الهزيمة بإرادة المقاتلين ودماء الشهداء. وهو المعنى الذي التقطته مئات الألوف التي خرجت تودع «رياض» في جنازة مهيبة اخترقت ميدان التحرير من جامع «عمر مكرم».

أصر الرئيس أن يتقدم صفوف الجنازة، وتحدى إجراءات الأمن، أزاح رجال الحراسة، وذاب وسط الجماهير.

كان لديه إيمان صوفي بالجماهير، يشعر بالتوحد معها، وأنه آمن تمامًا في حمايتها.

الأمن أصابه الهلع يومها.

اقترب أحد ضباط الحراسة منه بصعوبة شديدة: «يا أفندم كفاية كده».

نهره «عبد الناصر»، ومضى في الجنازة حتى نهايتها، متأثرًا بهتاف الشعب: «رياض مامتش. والحرب لسه مانتهتش».

(١٨)

في حوالي العاشرة من صباح كل يوم يوارب والدي باب غرفة نومه فنعرف جميعًا أنه استيقظ.

يوضع إفطاره على عربة مائدة صغيرة بأربع عجلات يدفع بها عم «محمد علوبة» السفرجي في البيت إلى داخل الغرفة.

الإفطار في العادة جبن أبيض وفول وأحيانًا «بيض عيون».

في حالات المرض يجلس والدي على «فوتيل» بالغرفة ويدخل عم «عثمان عابدين» بصحبة عم «محمد علوبة» لإعادة ترتيب الغرفة وسرير النوم.

فيما بعد روى لي عم «عثمان» أن الرئيس كان يبادرهما دائمًا بسؤال عن الأحوال: «عاملين إيه؟».

(١٩)

في أثناء حرب الاستنزاف كان شقيقي «عبد الحميد» طالبًا بالكلية البحرية في الإسكندرية، غاب فترة طويلة دون أن تراه أمي. طلبت من الرئيس زيارة ابنها بالكلية في أوقات زيارة الأهالي. أمي مثل كل الأمهات من حقها أن تزور ابنها وتطمئن عليه، طالما أن القواعد تسمح لأمهات أخريات بزيارة أبنائهن.

أمرها «عبد الناصر» ألا تغادر السيارة التي نقلتها إلى الإسكندرية، وألا ترى ابنها في القاعة المخصصة لزيارات أهالي الطلبة حتى لا تحدث ـ بطبائع الأمور ـ مجاملة زائدة لزوجة رئيس الجمهورية، أو معاملة خاصة لا تحظى بها أم أخرى. «عبد الحميد» رفض ـ في البداية ـ أن يذهب لأمه في السيارة؛ خشية أن يكون ذلك خروجًا على قواعد الزيارات، «جابوه بالعافية» للسيارة المنتظرة بالخارج وبها زوجة رئيس الجمهورية. جلس بجوارها يأكل السندوتشات التي أعدتها بنفسها وأحضرتها معها من القاهرة.

(٢٠)

في عام (١٩٧٠)، قبل أشهر قليلة من وفاة أبي، كان «عبد الحميد» قد نقلت كليته إلى السواحل الليبية.

طلبت أمي السفر لرؤيته. قال لها: «انتظريني حتى نجهز طائرة خاصة».

قالت: «ليه؟».

أجاب: «حتى تسافر على ذات الطائرة مائة أخرى».

من حق كل أمهات طلبة الكلية البحرية رؤية أبنائهن إذا كان من حق زوجة رئيس الجمهورية أن ترى ابنها.

لم تسافر أمي.

(٢١)

قبل الرحيل بأسابيع قليلة خطر لأمي أن تسأله: «خالد حيتخرج السنة الجاية، وأنا عارفة إنك حتبعته للجبهة الأمامية».

قال أبي: «أيوه يا تحية».

كان تقديره أن الواجب الوطني يقتضيه أن يدفع بابنه لخطوط القتال الأمامية، وفي أول نقطة مواجهة مع إسرائيل. فماذا يقول الناس إذا دفع بأولادهم لخطوط القتال الأمامية، وأعفى ابنه من ضريبة الدم؟

أمي كانت تدرك ـ عن يقين ـ أنه سوف يدفع بي لخطوط القتال الأمامية. قالت لي فيما بعد: «أنا عارفاه».

(٢٢)

الخطر يحيط بنا، ووالدي في العادة لا يحاول استثارة مخاوفنا بالتزيد في إجراءات الأمن.

كان يريدنا أولادًا عاديين شأن أي مصريين آخرين، لا على رأسنا برنيطة ولا ريشة، ولكنه حذرني ـ مرتين ـ من احتمال تعرض حياتي للخطر.

كانت أمامه في يوليو (١٩٦١) تقارير أمن تحذر من احتمال تعرض أطفال رئيس الجمهورية لانتقام الذين شملتهم إجراءات يوليو الاشتراكية والتأميمات الواسعة في ذلك الوقت.

لم يأبه بأمنه الشخصي، وخرج على الجماهير بسيارة مكشوفة.

مضى فيما يعتقد من سياسات في مواجهة قوى عاتية كانت تملك مصر ومن عليها.

كان يعتقد أن الثورة الحقيقية أن يمتلك بسطاء المصريين ثرواتهم الوطنية، وأن تكون هناك فرص متساوية في الترقي الاجتماعي على أساس الكفاءة لا بمواريث الثروة.

بالمواهب المتدفقة لا بخرائط الأنساب.

وكان مستعدًّا أن يدفع الثمن.

لمدة شهر كامل، وكنت في الحادية عشرة من عمري، بقيت مع إخوتي الصغار في الإسكندرية، لا نغادر استراحة المعمورة بتعليمات الرئيس.

في المرة الثانية ـ عام (١٩٦٨) ـ حذرت تقارير أمن جديدة الرئيس من احتمال لجوء أربعة عناصر هاربة ومسلحة بالرشاشات من حركة «الإخوان المسلمين» لاستخدام العنف ضد أسرة الرئيس.

كنتُ في الثامنة عشرة من عمري. قال والدي: «أنت الآن في سن الشباب، ولا أريد أن أحرمك من حريتك في الحركة والالتقاء بأصدقائك، لكن خذ حذرك، ولا تكثر من التحركات النمطية التي يمكن رصدها».

عندما كنت أخرج من دون حراسة، بدأت أحمل معي ـ لأول مرة ـ سلاحًا شخصيًّا.

عند عودتي أفرغ السلاح من ذخيرته خشية أن يعبث به أحد أطفال الأسرة.

(٢٣)

تعودنا منذ أن كنا أطفالًا أن نتكتم أي معلومات عن رحلات أبي السرية للخارج. نذهب لمدارسنا ونعود منها، لا نتحدث عن شيء، ولا نشير لشيء، ولا كأن شيئًا حدث.

زمن الوحدة المصرية- السورية لم يكن يعلن عن زياراته لدمشق.

وفي زمن النكسة لم يكن يعلن ـ أيضًا ـ عن زياراته لموسكو والمباحثات المضنية فيها لإمداد مصر بقوائم سلاح تطلبها.

بعد عودته من رحلة سرية لموسكو لم يتحدث معنا أبي ثلاثة أيام.

يجلس صامتًا على مائدة الغداء كل يوم، لا يحادثنا في شيء. وكعادتنا لا نفتح حوارًا أو نقترب من موضوع عام إذا لم يبادرنا هو بالحديث.

بدا متألمًا، فيما يبدو أنه لم يحصل على موافقة القيادة السوفيتية في هذه الرحلة على قوائم السلاح، التي تحتاجها قواتنا المسلحة لخوض الحرب.

بعد رحلة سرية أخرى لموسكو بدا عليه أنه حصل على أكثر مما توقع.

في غرفة مكتبه بالدور الثاني أودع «عبد الناصر» دوسيهًا أخضر من الحجم الكبير ـ سريًا للغاية. عرفت فيما بعد أنه يحوي صورًا لجميع المواقع العسكرية الإسرائيلية صورت بالأقمار الصناعية السوفيتية، وأهداه السوفييت للرئيس «عبد الناصر».

(٢٤)

قبل رحيله بشهور قليلة عدت للمنزل في وقت متأخر، لمحت الأنوار مضاءة في حجرته.

آخر حجرة على اليسار بالطابق الثاني.

طرقت الباب مستأذنًا بالدخول.. وكان من عادته أن يعمل في غرفته الخاصة.

وقفت أمامه دون أن أنبس بحرف.. نظر نحوي وألقى أبياتًا من شعر «أحمد شوقي»:

«أحب الحسين ولكنَّما..
لساني عليه وقلبي معه
حبستُ لساني عن مدحه

حذار أميَّة أن تقطعه
إذا الفتنة اضطرمت في البلاد
ورمت النجاة فكن إمعة»
لم أعلق ولم أدرك ماذا يقصد؟

بعد هذه السنوات الطويلة على رحيله أتساءل: «تراه كان يتوقع أن يكون مصيره كمصير الحسين شهيدًا؟ وأن كثيرًا من الإمعات سوف تكون قلوبهم معه وألسنتهم عليه».

(٢٥)

قبل ذهاب والدي لمصحة «تسخالطوبو« في الاتحاد السوفيتي عام (١٩٦٨) للاستشفاء قضى شهرًا كاملًا في فيللا المعمورة بالإسكندرية فوق سرير المرض متأثرًا بمضاعفات مرض السكر.

كان أبي وأمي يعيشان بالدور الثالث.

دخلت عليه في غرفة النوم. وجدته يتأوه من الألم. رآني، حاول أن يخفي علامات الألم.

كنا نحس به، ولكنه نجح ـ لحد كبير ـ في خداعنا والتهوين علينا.

لم نعرف أنه أصيب بأزمة قلبية. حتى فوجئنا بالثانية القاتلة. حتى أمي لم تعرف. لا أسامح نفسي على أنني لم أفهم معنى إقامة مصعد ببيت منشية البكري في (١٤) ساعة؛ لأن أبي أصيب بأزمة قلبية تمنعه من صعود السلم للدور الثاني.

صاحبناه ـ والدتي وأنا وشقيقاي «عبد الحميد» و«عبد الحكيم» في رحلة العلاج لمصحة «تسخالطوبو». تحسنت حالته الصحية هناك. لم يكن مسموحًا لنا الحضور في جلسات العلاج.

قضينا أوقاتًا رائعة ولم نكن قلقين على صحته، نجح في خداعنا.

(٢٦)

عندما بدأ يتألم من مضاعفات مرض السكر، كان يطلب مني أن أرتدي أحذيته الجديدة «الناشفة» ويقول: «البس الجزمة يومين طريها واديهالي».

في سنواته الأخيرة نصحه الأطباء بممارسة الرياضة.

بدأ يلعب «تنس» في ملعب خلفي بالبيت.

مدربه اسمه «غريب» يمارس التدريب في نادي القوات المسلحة بالجلاء.

في الخمسينيات كان أبي يلعب التنس مع محافظ القاهرة «صلاح الدسوقي».

بعودة أبي لممارسة الرياضة كنا نقول له: «عايزين نلعب معاك يا بابا».

نأخذ في «خبط الكور» وكنا نلعب معه أحيانًا كرة قدم، يشوط الكرة ويقول: «اجرِ يا خالد».

كنت أسمع كلامه كجندي، أجري أسابق الريح لإحضار الكرة.

(٢٧)

في الساعة الخامسة من مساء (٢٨) سبتمبر (١٩٧٠) كنت انتهيت لتوي من تدريب كرة يد بنادي هليوبوليس في ضاحية مصر الجديدة.

جلست مع أصدقائي في «التراس» نحتسي الشاي والقهوة وعلى المائدة المقابلة «داليا فهمي» زوجتي فيما بعد.

لم يكن هناك شيء غير عادي.

مؤتمر القمة الطارئ انتهى بنجاح.

أبي يعود اليوم للبيت بعد أربعة أيام قضاها في فندق هيلتون النيل للمشاركة في القمة.

لم أكن أعرف أنه لم ينم ولم يرتح طوال هذه الأيام لوقف نزيف الدم الفلسطيني في عَمان.

رأيت أمامي فجأة «عصام فضلي»، وهو ضابط من قوة الحراسة الخاصة بالرئيس، لم يحدث من قبل أن أرسل والدي لاستدعائي ضابطًا من حرسه الشخصي.

قال لي: «تعالَ.. عايزينك في البيت». لم يزد حرفًا.

في أقل من خمس دقائق وصلت، صعدت سلم البيت قفزًا بتساؤل يكاد يشل الروح: «ماذا حدث؟». فكرت في كل احتمال، لم يخطر على بالي ما حدث.

حركة غير عادية في الدور الثاني بغرفته.

الباب مفتوح.

أبي أمامي على السرير مرتدٍ بيجامة، طبيبه الخاص الدكتور «الصاوي حبيب»، يحاول إنقاذ حياته بصدمات كهرباء للقلب.

السيد «حسين الشافعي» بزاوية الحجرة يصلي ويبتهل إلى الله.

الدكتور «الصاوي» قال بلهجة يائسة كلمة واحدة: «خلاص».

الفريق أول «محمد فوزي» نهره بلهجة عسكرية: «استمر».

ثم أخذ يجهش بالبكاء.

نفذ أمر الله.

أخذت الأصوات ترتفع بالنحيب.

لم أبكِ.

وقفت مصدومًا. بكيت بمفردي بعد أسبوعين لثلاث ساعات مريرة.

لم أصدق أن أبي رحل فعلًا.

أمي أخذتها حمى أحزانها، أخذت في البكاء والنحيب كأي زوجة تنعى رجلها و«جملها».

في غمرة الحزن طلبت أمي من صديقي «محمد الجيار» ألا يغادر غرفة الرئيس أبدًا.

لمدة ثلاث ساعات جلس «الجيار الصغير» على الأرض بجوار سرير «عبد الناصر»، يبكي بحرقة ويقبل قدميه.

جاء «أنور السادات» وتبعته ـ على عجل ـ السيدة «جيهان» بفستان أزرق.

«السادات» نهرها: «امشي البسي أسود وتعالي».

بدأ توافد كبار المسئولين في الدولة على البيت.

بعد قليل اجتمع عدد كبير من الوزراء وقيادات الدولة في الصالون، تقرر نقل جثمان الرئيس لقصر القبة، حيث تتوافر هناك إمكانات الحفاظ عليه في درجة تبريد عالية لحين إحضار ثلاجة خاصة لهذه الحالات، والانتهاء من إجراءات الجنازة وإعلان الخبر الحزين على الشعب.

بدأ التلفزيون والإذاعة في بث آيات من القرآن الكريم.

لم يدرِ أحد ما حدث، حاولت «داليا» الاتصال بي للاطمئنان.

أخيرًا أمكنها الوصول لعامل «السويتش».

قال وهو يبكي: «الريس مات».

(٢٨)

حملت قوة الحراسة الشخصية جثمانه على نقالة إسعاف، بلا غطاء، وجهه مكشوف، ابتسامة رضا تعلوه، رائحة الموت كريهة، لكنها بدت لي مِسكًا.

تابعت أمي الجثمان المحمول على نقالة إسعاف بنحيب دوى في المكان، الذي كان للحظات قليلة مضت المقر الذي تدار منه مصر وصراعات المقادير على المنطقة.

قال لها «السادات» على طريقة أهل الريف في مثل هذه الأحوال: «يا تحية هانم.. أنا خدامك».

مضى أبي أمام عيوننا محمولًا على نقالة إسعاف، لم يعد. لم نره مرة أخرى.

لم تذهب معه أمي ولا أحد من أبنائه لقصر القبة.

أمي جلست على السلم تنتحب.

ما زال يدوي في وجداني بكاء أمي الملتاعة وهي تجري وراء الخروج الأخير لـ«عبد الناصر» من بيت منشية البكري:

«وهو عايش خدوه مني. وهو ميت خدوه مني».

(٢٩)

نهر الدموع امتد من الماء للماء.

في كل قرية عربية مأتم، قال المصريون البسطاء: «عمود الخيمة سقط».

قرأ المصريون في طوفان الدموع ما سوف يحدث غدًا وبعد غدٍ بهتاف: «عبد الناصر يا عود الفل، من بعدك حنشوف الذل».

الأناشيد الحزينة أخذت تدوي في سماء القاهرة التي كانت يومًا «عاصمة العرب»، و«عاصمة حركات التحرير الوطني».

صرخات ملتاعة تستعيد اسمًا واحدًا لخص كل شيء. حقبة كاملة، الصعود والانكسار، النصر والهزيمة، اسّما بدا شهابًا قد مضى، وتاريخًا قد مضى، وإرادة مقاومة لم يعد يعرف أحد ماذا سوف يحدث بعدها.

مات «عبد الناصر» ولم يكن أحد يتصور أن يغيب فجأة.

أخذت الملايين تصرخ باسم رجل يرقد وحده في غرفة مبردة بقصر القبة.

(٣٠)

في اليوم التالي طلبوا من أمي أن تذهب لقصر القبة لتلقي العزاء من الشخصيات الدولية والعربية، التي وفدت للعاصمة المصرية للمشاركة في مراسم الجنازة.

أمي لم تشعر بأنها في مكانها الطبيعي.

كانت تقول باستمرار عن بيت منشية البكري: «بيتي».

قررت أن تعود لبيتها تتلقى العزاء فيه، وأن تتخفف من المراسم الرسمية بلا قصر قبة، ولا إجراءات خاصة.

العزاء أرادته من بسطاء المصريين أهله وناسه.

(٣١)

كان أبي في ذهابه وإيابه إلى البيت يشاهد مسجدًا تبنيه إحدى الجمعيات الخيرية في شارع الخليفة المأمون عند كوبري القبة.

بدا للرئيس أن مشاكل مالية تحول دون استكمال بناء المسجد.

استقصى الأمر من معاونيه، تدخل لتوفير الإمكانات اللازمة لاستكمال البناء.

لم يكن يدري أنه سوف يدفن في ضريح بهذا المسجد.

(٣٢)

لثلاثة أيام تدفقت على بيتنا عشرات الألوف.

تعزي نفسها ولا تعزينا في «جمال عبد الناصر».

الملايين أخذت طريقها من القرى البعيدة فوق أسطح القطارات في أكبر عملية زحف في التاريخ المصري على العاصمة.

ضاقت الطرقات بأحزان المصريين. كانت مصر تبكي الرجل الذي أحبها كما أحبته. كنا في بيتنا مأخوذين بالمشهد الجليل.

في غمرة الحزن لم نشعر بأنه حزننا بمفردنا.

مات «عبد الناصر» يوم اثنين، مضى الاثنين ببطء شديد، مضى الثلاثاء ببطء أشد، مضى الأربعاء والأحزان تفيض على جنبات النيل. حان وقت الخميس يوم الوداع الأخير.

يوم الهول العظيم في مصر.

في ظلمة الحزن أخذت مصر تنشد بأصوات ملايينها الملتاعة: «الوداع يا جمال يا حبيب الملايين. ثورتك ثورة كفاح عشتها طول السنين».

(٣٣)

لم تكن لنا قط حياة خصوصية.

ضباط حراسة وعاملون في كل مكان.

لم أسمعه ينادي أمي باسمها، أو باسم تدليل، فحياتنا تحت الأنظار.

كان يناديها دائمًا بلقب واحد «يا مدام»، وضباط الحراسة ينادونها بلقب آخر «يا هانم».

لم يكن أبي يحب هذا اللقب ويراه غريبًا على لسانه.

لم يكن يتحرج من تدليل أطفاله الصغار أمام العاملين.

وضعنا يختلف عن وضع أمي.

(٣٤)

في حجرة بمستشفى الدكتور «علي إبراهيم» أشهر أطباء النساء والولادة في ذلك الوقت رقدت نجمة السينما الشابة «فاتن حمامة» بانتظار حادث سعيد.

احتفالات «الكريسماس» اقتربت.. ومستشفى الولادة الشهير بالدقي لا حديث للممرضات فيه غير «فاتن حمامة»، وزوار «فاتن حمامة».

بحجرة مجاورة رقدت سيدة شابة تنتظر مولودًا جديدًا.

الاسم: «تحية كاظم».

ربما حادثت زوجها الصاغ «جمال عبد الناصر» بما تتناقله الممرضات من أخبار النجمة المحبوبة.

روت لي أمي ـ بأدق التفاصيل ـ قصة تلك الأيام في مستشفى «علي إبراهيم».

فاتن حمامة ولدت ابنتها «نادية» من المخرج السينمائي «عز الدين ذو الفقار» يوم (٢٣) ديسمبر قبل ولادتي بيومين.

لسبب ما سجل اسمي رسميًّا بدفاتر المواليد يوم (٢٦) ديسمبر (١٩٤٩)، وسجل اسم «نادية» بذات الدفاتر يوم (١) يناير (١٩٥٠).

تشاء الأقدار أن تدخل أمي نفس المستشفى مرة أخرى بعد خمس سنوات لتلد أخي «عبد الحكيم».

هذه المرة حاصرت موجات فضول الممرضات زوجة رئيس الجمهورية.

قال لي أبي: «تعالَ يا خالد».. وأخذني لزيارتها في المستشفى، وأنا لا أكاد أدرك شيئًا مما يحدث حولي.

(٢٥)

في أحد أيام عام (١٩٥٤) جاءت سيارة نقل أثاث لشارع «الجلالين » بالوايلي، حيث كنا نسكن قبل الثورة وبعدها حتى أصبح أبي رئيسًا للجمهورية.

«عزال» شقتنا المتواضعة نقل إلى فيللا بمنشية البكري من ممتلكات الجيش كانت مخصصة من قبل لأحد القيادات الوسيطة.

الفيللا بدت لنا أقرب للكوخ، دور واحد بأربع حجرات ملحق بها حديقة تسيدها أشجار الجوافة كنت أتسلقها كل صباح.

كانت هناك «مرجيحة» قديمة ومتهالكة، غير أنها بدت هدية من السماء لطفل صغير.

(٢٦)

كنت أصطاد عصافير من على أشجار الحديقة. شاهدني والدي، قال لي: لماذا تقتل العصافير، أليست أرواحًا؟

تظاهرت بالامتثال لإرادته، ومن خلفه عدت لاصطياد العصافير.

مات عصفور، تذكرت كلام والدي. أصابني حزن شديد، وشققت قبرًا للعصفور ودفنته فيه.

(٢٧)

بعد حرب السويس (١٩٥٦) بدا البيت غير صالح بأحواله ومبانيه لإدارة شئون رئاسة الدولة. نصحوا الرئيس وألحوا عليه في توسعة البيت، قالوا له: «يا ريس لازم يكون عندك مكتب»، ثم اقترحوا عليه الانتقال للسكن بـ«قصر الطاهرة» حتى الانتهاء من التوسعات.

انتقلنا للقصر، وكنا أطفالًا، وجدنا غرفًا واسعة وحدائق ممتدة وممرات ممهدة لركوب الدراجات. كنا قبل سنتين في الوايلي «نتزحلق على ترابزين السلم، أنا وهدى ومنى».

كنا سعداء وسعادتنا زادت بالانتقال لمنشية البكري، ثم لـ«قصر الطاهرة».

بعد خمسة أيام جاءت سيارة نقلت حقائبنا وأغراضنا لاستراحة القناطر الخيرية، وكانت في ذلك الوقت بسيطة للغاية.

قال أبي: «مش قادر أعيش هنا، الفخامة مش عارفها، ومش واخد عليها، ومش عاوز أعرفها ولا آخد عليها».

بدا نادمًا وحزينًا لاستماعه لنصيحة الانتقال لقصر الطاهرة، واعتبر أن سكنه فيه لخمسة أيام خطأ لا يغتفر.

(٢٨)

في سنوات الثورة الأولى جرت بعض مداولات مجلس القيادة ببيت منشية البكري.

كان العشاء غالبًا «كباب» من حاتي «أبو شقرة».

لم تكن هناك - كما أتذكر جيدًا - حراسات على منزل رئيس الجمهورية بالمعنى المتعارف عليه، ولا ترتيبات محددة وصارمة لإجراءات الأمن.

(٢٩)

صحبني أحد العاملين بالبيت لجولة في الشوارع المحيطة.

وصلنا على أقدامنا حتى كوبري القبة، هالني وقتها أن الناس كلها حافية.

تساءلت بصدمة ابن الخامسة: «ليه؟».

فيما بعد أدركت الإجابة، أو معنى التغيير الذي أحدثه «جمال عبد الناصر» في المجتمع المصري.

عندما اكتشفت أمي اختفائي من المنزل وأن أحدًا لا يعرف أين أنا؛ حدث اضطراب شديد.

بعودتي هدأت الأمور، وتعرض صديقي في رحلة التمشية للتعنيف.

(٤٠)

أذكر أن والدتي كانت تصحبنا أنا وأشقائي بالأوتوبيس والترام لزيارة خالتنا «منيرة» بالجيزة.

خالتي كانت متزوجة من «السيد يوسف» وزير التربية والتعليم فيما بعد.

(٤١)

في (٢٤) مايو (١٩٦٧) قبل النكسة بأيام زار بيت منشية البكري الأمين العام للأمم المتحدة «يو ثانت»، مصطحبًا الجنرال «ريكي»، قائد قوات الطوارئ الدولية، وشارك في المباحثات الدكتور «محمود فوزي» والسيد «محمود رياض».

وصل الضيوف في تمام الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم، بعد ساعة تقريبًا من بدء المباحثات الخطيرة قُطع التيار الكهربي عن بيتنا لمدة نصف ساعة.

لم يكن لدينا مولد كهربائي ديزل احتياطي.

عندما تقطع الكهرباء عن حي مصر الجديدة تقطع عن بيتنا.

(٤٢)

عندما كنت تلميذًا بالثانية الابتدائية في مدرسة الخليفة المأمون فوجئت بزميل لي يسب «عبد الناصر» بأبشع الأوصاف.

بكيت بشدة ونقلت للرئيس ما جرى.

ربت على كتفي: «لا تزعل يا خالد.. ده كلام عيال».

(٤٣)

لم أكن أحادثه بالسياسة، غير أن إحدى المدرسات بالابتدائي سألتني ذات مرة: «هوه محافظ القاهرة إتشال ليه؟».

نقلت السؤال للرئيس فضحك.

كنت طفلًا في الرابعة.

في أولى إعدادي سألتني مدرسة أخرى: «ليه عبد اللطيف البغدادي إتشال؟».

هذه المرة شرح لي ببساطة الأسباب.

وكانت إجابته فيما أتذكر تتعلق بما كان يحدث في مجلس الرئاسة.

معلوماتنا عن هذا المجلس حتى الآن محدودة للغاية.

(٤٤)

في سنوات الابتدائي اشترت أمي لي «بالطو» جديدًا.

أول يوم لعب بالمدرسة تمزق بـ«الضبة والمفتاح».
عندما عدت للمنزل أخفيته عن عين أمي واختبأت تحت السرير.
اكتشفت الكارثة وضربتني «على رجلي» دون قسوة وهي تصرخ بحسرة: «حوشت تمنه علشانك.. وإنت بهدلته من أول يوم».
لم تكن هناك قسوة في بيتنا.
والدي قال لنا مرة: «يا أولادي عشت حياة قاسية، وأحاول ألا تقاسوا كما قاسيت»، حنان زائد، ربما.

(٤٥)

عندما كبرت قليلًا نقلت للمدرسة القومية بميدان «تريومف» في مصر الجديدة، المدرسون يعاملونني بطريقة عادية جدًّا، لم أعامل قط بطريقة خاصة بها تمييز.
في الأغلب كانت هذه تعليمات «جمال عبد الناصر».
أذكر أن أحد المدرسين ضربني على ظهري بمضرب تنس طاولة.
صرخت فيه محتجًا: «اشتراكية لكن مش للدرجة دي».
اشتكيت للناظر، وهو مربٍّ عظيم، مما تعرضت له من ظلم.
انتهت القصة بتصالح مع المدرس الذي ضربني.
لم أشتكِ للرئيس، ثم إن هذا المدرس بالذات «صديقي وحبيبي».

(٤٦)

في أثناء مباراة لكرة القدم بملعب المدرسة حدث احتكاك مع أحد اللاعبين المنافسين، وهو صديق مقرب، ضربني على أثره بـ«البوكس» في وجهي.
أخذت ثلاث غرز لغلق الجرح.
على الغداء لاحظ أبي الجرح، سألني: «إيه الحكاية؟».
رويت له ما حدث وعلى الفور طلب من سكرتيره الخاص «محمد أحمد» الاتصال بناظر المدرسة والتنبيه عليه باسم رئيس الجمهورية بعدم اتخاذ أي إجراءات ضد التلميذ الذي ضربني.
كان تقديره أن أبوته لي لا تعطيني أي ميزة نسبية على زملائي.

في مرة أخرى، وكنت قد التحقت بكلية الهندسة، حدث احتكاك في حمام سباحة نادي هليوبوليس في أثناء تمرين لفريق كرة الماء على يمين الحمام، فيما كنت أسبح مع أصدقائي، بين زميل لي اسمه «عماد» ولاعب كرة ماء اسمه «حازم».

حاولت التدخل لفض الاشتباك فضربني «حازم» على وجهي بقبضة يده أكثر من مرة ورددت عليه بالمثل.

طلبت من قوات الحراسة عدم التدخل.

لاحظ «عبد الناصر» آثار العراك على وجهي.

سألني نفس السؤال المعتاد: «إيه الحكاية؟».

قلت: «ولا حاجة يا بابا».

كعادته أصدر الرئيس تعليمات مشددة نقلها «محمد أحمد» لرئيس نادي هليوبوليس بعدم المساس بزميلي الذي ضربني، غير أن أصدقاءنا المشتركين وجدوها فرصة للعب بمشاعره باتصالات هاتفية: أنا العقيد فلان الفلاني.. أو العميد فلان الفلاني من المخابرات الحربية، أنت مطلوب للتحقيق. إيه اللي عملته في النادي؟ ثم سرعان ما يكشفون عن شخصياتهم الحقيقية ويتبادلون النكات مع «حازم».

لم يكن الرئيس يتدخل في علاقاتي الشخصية، ولم تكن له معرفة بها، ولا يلتقي أصدقائي إلا بأعياد الميلاد وطلبهم الوحيد التقاط صورة معه.

(٤٧)

لم آخذ درسًا خصوصيًّا واحدًا طوال حياتي الدراسية، ولم يذاكر الرئيس لي مرة واحدة، وشاهدته في مرة نادرة يذاكر لـ«هدى» شقيقتي في أثناء دراستها الابتدائية.

في مطلع الستينيات كان أخي «عبد الحميد» تلميذًا بالخامسة الابتدائية.

وجدت بالمصادفة «شهادة نصف العام» مخفية بحجرته وبها ثلاث علامات حمراء «ثلاث كعكات» كما كنا نقول.

ـ «هوريها لبابا يا ميدو، إنت ليه مخبيها؟».

ـ «علشان خاطري ما توريهاش لبابا لحد ما نرجع من إجازة نصف السنة في الإسكندرية، وإلا إنت عارف إنه مش حيخليني أسافر معاكم».

التزمت بالاتفاق.

لما عدنا من الإجازة أعطيت أبي الشهادة.

قال: «لن أوقع عليها».

(٤٨)

صباح يوم خاص في حياتي خرج موكب من مدرستي «القومية الثانوية» بمصر الجديدة يؤيد إعادة انتخاب «عبد الناصر» لفترة رئاسية جديدة.. كنا عام (١٩٦٤).

أنا الوحيد الممنوع ـ بتعليمات الحراسة ـ من المشاركة في هذا الموكب.

اختفيت وسط زملائي. الموكب التقى بمواكب مدارس أخرى، ومضت الجموع إلى ميدان روكسي فشارع الخليفة المأمون.

أخذت أردد بأعلى صوت مع الجموع: «تنتخبوا مين؟ عبد الناصر.. حبيبنا مين؟ عبد الناصر».

كنت في الرابعة عشرة من عمري.

لم أكن قد اكتشفت ـ بعد ـ معنى الثورة، ولا الدور الذي لعبته في تغيير وجه الحياة والتاريخ بمصر والمنطقة العربية، الذي امتد إشعاعه لإفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، لكنه أبي، وأنا أحبه.

في المساء عدت للبيت سيرًا على الأقدام.

تنفست «الحراسة» الصعداء.

(٤٩)

الساعة الثالثة تمامًا من ظهر كل يوم موعد الغداء.

الموعد مقدس.

الرئيس لا يتناول طعامه معنا إلا على الغداء.

أمي سيدة منزل بالمعنى الذي تعرفه أي أسرة مصرية من الطبقة الوسطى.

تطبخ لنا وظلت حتى وفاتها أوائل التسعينيات تطبخ بنفسها.

كان لديها «عشة طيور» بها دجاج وأرانب وديوك رومي.

تستيقظ مبكرًا وتصلي الفجر، ثم تنزل للحديقة تحادث «الجناينية».

أبي كان يقول لنا دائمًا: «أكل أمكم مفيش زيه».

الطعام عادي: أرز ولحم وخضار أو أرز ودجاج وخضار، ولا شيء آخر. الملوخية طبقه المفضل، غير أني ذات يوم لاحظت على مائدة الطعام طبقًا غريبًا، لا هو «ملوخية» ولا هو «خبيزة»، وعرفت منه أن اسم هذا الخضار الغريب «رجلة».. ونحن نأكل «الرجلة» لأول مرة باستمتاع شديد ـ ربما بتأثير استمتاعه بطعمها ـ أخذ

يحكي لنا أنه في أثناء حصار الفالوجا (١٩٤٨) وجد الضباط المحاصرون بالمنطقة «رجلة طالعة شيطاني، طبخناها وأكلناها بشهية لا تنسى».

ثم قال: «تذكرتها اليوم».

في يوم آخر فوجئنا به وقد طلب للغداء «فول حراتي أخضر».

كان الحلو المفضل «البقلاوة».

قال في حديث صحفي في أثناء حصار الفالوجا: «أحب البقلاوة من يد زوجتي».

لكن إصابته المبكرة بالسكر حرمته مما يحب.

(٥٠)

في بيت منشية البكري مطبخان، مطبخ بالدور الأرضي، مصاريفه من رئاسة الجمهورية لإعداد موائد الغداء أو العشاء للضيوف من الرؤساء والملوك ورؤساء الوزارات وكبار المسئولين العرب والأجانب لإضفاء أجواء حميمية على زياراتهم للقاهرة.

ومطبخ بالدور الثاني، لإعداد طعام الأسرة، كانت أمي تشرف عليه، وأبي يقول: «الدور الأول قطاع عام، والدور الثاني قطاع خاص».

كانت تكاليف طعامنا يدفعها من راتبه، لم نأكل قط من أكل مطبخ الدور الأرضي.

بين المطبخين سلم يربط بينهما، أحيانًا كنت أصعد عليه لسرعة الوصول.

قاعة الطعام عبارة عن موائد صغيرة متجاورة.

بعد الانتهاء من العشاء ومغادرة الضيوف ترفع الموائد وتوزع في الصالة الكبيرة.

في الأوقات العادية تتحول صالة الطعام لقاعة عرض سينمائي.

(٥١)

وأنا أصعد السلم الخلفي الذي يربط بين مطبخ الرئاسة بالدور الأول ومطبخ أمي بالدور الثاني، كنت ألاحظ أحيانًا صناديق صغيرة مفتوحة بها بضائع محلية من التي يتناولها الأطفال ـ بسكو مصر، بسكويت بالعجوة، زجاجات ألبان بالشوكولاتة، علب كورن فليكس مصنوعة في مصر.

كان يطلب عينات، ويتأكد بنفسه من جودتها وقيمتها الغذائية وحسن مذاقها. لم يكن يتهاون في مستوى الجودة، ويقول دائمًا إن الأمة التي لا تحترم حق أطفالها في الطفولة لا تنتظر منهم عطاءً حقيقيًّا عندما يصعدون مدارج الشباب.

(٥٢)

في البيت كان يلبس «شبشب جلد»، وبتأسيس شركة «بلاستو نيل» لإنتاج الأحذية الخفيفة و«الصنادل» بدا فرحًا بفرصة تخلص المصريين نهائيًّا من الحفاء.. وصمة العار التي لحقت بعصور ما قبل الثورة.

أحذية وصنادل رخيصة مدعومة من الدولة وفي متناول أفقر مواطن في مصر.

في الستينيات كان هناك إعلان تلفزيوني يقول: «البدلة الشعبية أحسن من الجلابية».

جو بلادنا حار والبدلة الصيفية رخيصة. أبي ارتداها في مناسبات رسمية ليشجع الناس على ارتداء البدلات الشعبية.

(٥٣)

تطلع في الوجوه الفقيرة التي خرجت من حواري الحلمية تهتف باسمه.

قال لي حزينًا: «شوف المصريين غلابة إزاي؟ دول يستاهلوا أكتر من كده. شايف الفقر قد إيه؟ بقايا الاستعمار يا ابني. الاستعمار كان يريد المرض إرثًا، والفقر إرثًا، والجهل إرثًا».

قال لي محذرًا: «شعبنا غلبان بس واعي. إياك تستهتر بيه».

كنا في أوائل الستينيات وعائدين من بيت المشير «عبد الحكيم عامر» في الحلمية، قبل أن ينتقل للسكنى في الجيزة.

(٥٤)

صورته في قريته «بني مر» أوائل الثورة بالبزة العسكرية وهو يشرب من «قلة ماء» بطريقة أهل الريف في مصر لا تغادر وجداني. هذا أبي الذي أعرفه.

(٥٥)

كان يناديني: «يا خُلد» بضم الخاء ـ وهذا أحب الأسماء لديَّ، وكان من عادتي أن أطلب من أصدقائي المقربين أن ينادوني بنفس اسم التدليل؛ لعلي أستعيد مع إيقاعه صوت والدي في وجداني.

عندما يكون لديه وقت يدعوني لمباراة شطرنج، خسرت كل أدوار الشطرنج معه باستثناء مرة واحدة، كان صائمًا فتلقى هزيمة مباغتة بابتسامة: «مبروك يا خالد»، لم يطلب أن نلعب معًا دورًا جديدًا ربما ليترك لي لذة الفوز.

في ذلك المساء حكي لي أنه كان يلعب الشطرنج مع أصدقائه القدامى ويخسر دائمًا، ولا دور واحدًا فاز فيه، فذهب لدار الكتب وقرأ كتب الشطرنج، ودرس فنونها وأساليبها ولم يفز عليه بعدها أحد من أصدقائه بدور واحد.

(٥٦)

في الصباح الباكر من كل يوم كنا نسمعه وهو يدندن بأغنيات «أم كلثوم» في أثناء حلاقة ذقنه ونضحك من قلوبنا.

أغنيات «أم كلثوم» كلها مفضلة لديه، وبعدها أغنيات «محمد عبد الوهاب».

(٥٧)

في المرات القليلة والسعيدة لأسرتنا عندما تكون هناك فسحة وقت أمامه بلا مقابلات رسمية يجلس ببيجامة كستور مقلمة، لا يفضل غالبًا مشاهدة التلفزيون، فالسينما حبه الكبير، وقاعة العرض السينمائي ببيتنا مكانه المفضل في ساعات الراحة.

ذات مرة كنت بقاعة العرض مع صديقي «محمود القيسوني» نشاهد فيلمًا، لمحت أبي وهو يدخل في الظلام فأخليت مكاني وجلست بالخلف.

لم يلتفت «محمود».

عندما مر «عبد الناصر» من أمامه تصوره أحد العاملين بالبيت فأشاح بيده: «من فضلك وسع شوية علشان نشوف الفيلم».

كان من عادة الحرس إضاءة الأنوار لدى دخول الرئيس قاعة العرض، وفوجئ «محمود» بأنه كان يشيح بيده لرئيس الجمهورية.

انتفض ضابط المظلات الشاب ورفع يده بالتحية العسكرية وضرب الأرض برجله اليمنى بكل قوة صارخًا بأعلى صوت: «أفندم».

قال «عبد الناصر»: «إزي أبوك يا محمود.. اجلس».

(٥٨)

عندما لا تكون لديه مقابلات رسمية تعوّد أن يحوّل حجرة نومه لغرفة عمليات، يقرأ التقارير الرسمية والجرائد ويتصل بالمسئولين ويصدر التعليمات ويستمع للراديو، كل ذلك في وقت واحد تقريبًا، وأحيانًا يمر على التقرير بعينه فتتصور أنه لم يقرأه ثم تكتشف بعد قليل أنه يناقشك في أدق التفاصيل.

قال لي أحد أطبائه الشخصيين: «من المستحيل أن يكون قرأ التقرير الذي كتبته، لقد نظر إليه ثم نحاه».

تحديته أن يناقشه فيه، وأنه ألمَّ به تمامًا.

(٥٩)

أحب الأماكن إليه القناطر الخيرية وبرج العرب.

أول مرة شاهدته يقود سيارة في برج العرب.

كان ينقل أسرته لشاطئ البحر الذي يبعد عن الاستراحة ثمانية كيلو مترات.

أول سيارة امتلكها كانت «أوستن» من طراز الثلاثينيات، ومازالت عندي ولن أبيعها بأي ثمن، ومستعد أن أهديها لأي جهة رسمية تطلبها لتوضع في متحف يحمل اسم «جمال عبد الناصر».

(٦٠)

أوائل سنوات الثورة خرج ذات صباح مع أعضاء في مجلس القيادة يتجولون بمنطقة برج العرب، عرجوا على ثمار «التين البرشومي» المنتشرة في هذه الناحية.

خرج لهم خفير نظامي بـ«بندقية خرطوش» مهددًا.

حاول أن يعطيه عشرة جنيهات ثمنًا للتين لكن الخفير رفضها، طالبًا أن يغادروا المكان فورًا.

أحد قيادات الثورة لفت نظر الخفير: «ده عبد الناصر» رئيس الجمهورية، ففاجأهم الخفير بقوله: «مين عبد الناصر ده؟ الملك فاروق فين؟».

ضحك «عبد الناصر» وغادر المكان.. لم يكن الخفير بهذه المنطقة النائية وقتها قد سمع بالثورة.

(٦١)

ذات يوم وضع أمامي تقريرًا أمنيًّا يحذر من أنني قد أتعرض لمضايقات من زياراتي المتكررة لشقة في الجيزة، وأنني ربما أكون على علاقة بفتاة هناك.

قلت لأبي: التقرير كاذب وأنا أزور في الجيزة شقة صديق لي تزوج حديثًا.

قال بحسم: «خلي بالك من نفسك، وإذا أسأت استخدام اسمي، فسوف أحطك في السجن الحربي».

كنت أدرك أنه يقصد كل كلمة يقولها.

(٦٢)

ذات يوم آخر خرجت مع صديقي «محمود القيسوني» وسهرت حتى الساعة الثانية صباحًا.

عندما عدت للمنزل قابلني «محمد أحمد» السكرتير الشخصي للرئيس، وبصحبته مسئول الأمن «مصطفى عزيز».

قال لي: «والدتك تسأل خالد فين؟ إنت كنت فين؟».

كان عمري (١٨) عامًا، فأجبته: «إنت مش أبويا علشان تسألني».

قلت لأبي: «أنا لي أب وأم، وإذا أردتم أن تعرفوا أين كنت فاسألوني.. بأي حق يسألني محمد أحمد؟».

حاول أن يهدئ أعصابي قائلًا: «فيه إيه يا حبيبي.. أنا قلت لك قبل كده إذا عرفت إنك تستخدم اسمي للتبطر على الناس ح أحطك في السجن الحربي، غير كده اعمل اللي إنت عايزه.. أنا لا أعرف أعيش حياتك، كل واحد يعيش حياته».

(٦٣)

تجرأت وصارحته عام (١٩٦٩) وكنت طالبًا في السنة الثالثة بكلية الهندسة: «فيه واحدة بحبها وعايز أتجوزها».

سألني عن اسمها فأجبته: «داليا فهمي».

قال على الفور بلغة تحذير: «أوعى تكون من بنات أسرة إقطاعية؟».

قلت: «لا.. والدها مدير عام شركة أوتوبيسات شرق الدلتا».

كنت قد عرفت «داليا» عبر صداقتي الشخصية مع شقيقيها «سامح» و«هادي».

كنت أطير من السعادة عندما تأتي لمشاهدة مباراة لي في كرة اليد.

كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي حادثته فيها عن حياتي العاطفية، وبدا مستوعبًا وحانيًا.

(٦٤)

«مبروكة» مربية أطفال، حان وقت زواجها في أواسط الستينيات، خطبها «حمدي محمدين»، أحد العاملين في بيت منشية البكري.

جلس أبي منتظرًا بدء الزفة على كنبة بمرجيحة في الحديقة.

ظهرت «مبروكة» بفستانها الأزرق وخلفها كل العاملين بالرئاسة؛ شغالين وشغالات، طباخين وسفرجية، وموظفين صغار للمهام الإدارية.

تقدم الرئيس الزفة، ووضع يده على كتف مبروكة، وبجواره زوجته وأولاده وبناته، أعطاها مائة جنيه من ماله الخاص كـ«نقطة زواج».

مضت الزفة بـ«مبروكة» حتى البوابة الرئيسة.

جلست في إحدى سيارات الرئاسة مع عريسها وصاحبهما «عبد الحكيم» شقيقي الأصغر حتى منزل الزوجية بشارع ترعة الجبل في الزيتون.

شارك عم «عثمان عابدين» فراش بيت منشية البكري في زفة «مبروكة» بجوار الرئيس.

كان يقول دائمًا: «أنا مثل رئيس الوزراء عُينت بقرار جمهوري».

(٦٥)

كانت الساعة تقارب الواحدة صباحًا وأبواب بيت منشية البكري مغلقة.

الحرس الجمهوري يَفرض حراسة مشددة في كل مكان والرئيس يحاول النوم دون جدوى.

نحّى التقارير والجرائد جانبًا وأغلق الأنوار.

النوم جافى عينيه تلك الليلة.

كنا في الأيام التي تلت مباشرة انفصال الوحدة المصرية- السورية عام (١٩٦١).

أوشك أن ينام أخيرًا لكنه سمع أصوات حفيف أوراق بالحديقة أسفل حجرة نومه تمامًا.

تصاعدت الأصوات.. استطلع الأمر من نافذة الغرفة.. وجد جندي حراسة يهز شجرة الجوافة بقوة وإصرار لعلها تسقط مزيدًا من الثمار.

بادره: «يا ابني أنا عايز أنام. ممكن تخلي الموضوع ده لبكرة».

أغلق نافذة الغرفة وذهب يحاول النوم.

جندي الحراسة أخذه فزع شديد.. توقع أشد العقاب.. مضت الثواني كدهور طويلة؛ ثانية فثانية، دقيقة فدقيقة، ساعة فساعة، حتى أشرق الفجر وانتهت ورديته الليلية تحت غرفة نوم الرئيس.

لم يستدعه أحد.. لا الضابط النوبتجي ولا قائد الحرس.

لم يحدث شيء على الإطلاق، لكنه لم يطمئن.

أخذ يحوم هنا وهناك لعل شيئًا يحدث.. وأخيرًا وجد أمامه عم «عثمان عابدين»، وكانت بينهما صلة ود.

حكى له ما حدث، فنصحه عم «عثمان» بنسيان القصة كلها فـ«الريس حنين».

بعد رحيل والدي بسنوات روى لي عم «عثمان عابدين» تلك القصة.

(٦٦)

كان أبي يحب الزهور والنباتات، مكتبه بالدور الأول يُطل عبر حاجز زجاجي على أحواض زهور وورد. لاحظ ـ ذات يوم ـ ذبولًا في ثمار شجرة رمان بالحديقة. أخذ أبي يحادث الجنايني في تفاصيل العناية بالشجرة. سألني ذات مرة: «هل تعرف كيف تأكل الخرشوف نيئًا؟».

بدأ يعلمني ـ على طريقة أبناء الإسكندرية ـ تقشير الثمرة وأكل قلبها.

(٦٧)

ذات يوم مطلع الستينيات كنت بصحبة والدي نتمشى في حديقة البيت وسط أشجار البرتقال والجوافة والجريب فروت. نظر في أنحاء الحديقة التي تبلغ مساحتها حوالي نصف فدان. فجأة طلب من أحد معاونيه في صيغة أمر: «ازرعوا قصب وفول حراتي».

كأنه تذكر حقول القصب بالصعيد، وأيام الصبا عندما كان يزور أهله في قرية «بني مر» بأسيوط.

سعادته كانت غامرة عندما يمشي بين أعواد القصب في آخر الحديقة وهو يقول لي: «كل منا يكسر أعواد القصب لنفسه».

أخذ يعلمني خبرة أهل الصعيد في «تكسير» أعواد القصب.

بجوار حوض القصب كان هناك حوض «فول حراتي».

في أيام كثيرة صاحبته وهو «يقشر» الفول الحراتي، ويلتقط ثمارها.. كان أبي صعيديًّا صميمًا بدرجة رئيس جمهورية.

(٦٨)

لم تسمح لنا ظروف حياتنا بمصاحبة أبي إلا لمرات محدودة، كأن نكون في طريقنا إلى الإسكندرية، أو برج العرب، أو القناطر الخيرية، أو لزيارة أمي بالمستشفى التي دخلتها ثلاث مرات.

موكب أبي ـ كما هي العادة دائمًا: سيارته في المقدمة وخلفها سيارة، أو سيارتا حراسة.

لم تكن هناك «تشريفة شرطة» على جانبي الطريق.

«السادات» أدخل هذا النظام الجديد فيما كان «عبد الناصر» لا يطيق تعطيل مصالح الناس في تنقلاته.

لم يكن يخطر ـ في كثير من الحالات ـ السلطات المسئولة بخط سيره.

عندما كنا نذهب معه في الإجازات للقناطر الخيرية نفاجأ في كثير من الأحيان بكوبري القناطر مفتوحًا لحركة المرور المائية فننتظر نحو ثلث الساعة حتى يغلق الكوبري، ويصبح صالحًا لمرور السيارات من فوقه باتجاه الاستراحة.

لم يكن يتململ، أو يبدي ضيقًا من تأخير وصوله لاستراحة القناطر.

القرار قراره لكنه لم يكن يريد أن يُزعج أحدًا بإجراءات أمن مبالغ فيها.

عندما يشتبه أحد المواطنين في شخصية الذي يجلس بالسيارة يقترب ليتأكد من ظنونه.

يكتشف أنه هو فعلًا فيصرخ بأعلى صوته: «جمال عبد الناصر».

بعد دقائق قليلة كنا نجد فوق رءوسنا أهالي القناطر الخيرية يتزاحمون من حول سيارته، يمدون أياديهم عبر نافذتها لمصافحته، والهتافات تتعالى في المكان باسمه.

(٦٩)

كنت مع والدي بالسيارة نمر بشارع الخليفة المأمون.

بدأت جموع تكتشف وجوده وتركض وراء سيارته.

رفعت يدي محييًا.

قال مستغربًا: «أوعى تكون اتجننت».

خشيَ أن أكون فقدت صوابي.

أجبته على الفور: «كنت أشير لسامح».

«سامح» صديقي كان يقف على الرصيف أمام بيته، رآني بجوار أبي، أشار لي فبادلته التحية.

ضحك أبي.

(٧٠)

كنا بقاعة السينما في الدور الأرضي ببيت منشية البكري.

القاعة تتحول في المناسبات الرسمية لصالة طعام تستضيف كبار ضيوف مصر.

في القاعة حمامان.

دخل أبي يغسل يديه، دخلت معه.

نظف الحوض بالماء المتدفق.

قال لي: «يا خالد حاول تسيب الحوض نضيف عشان اللي بعدك».

(٧١)

قبل الامتحانات تعودت أن أراجع المقررات الدراسية مع أصدقائي في بيوتهم.

فاجأني ذات يوم وأنا أغادر البيت بنصيحة لا أدري ـ بالضبط ـ لماذا نصحني بها: «يا خالد لا تفتح ثلاجة أحد دون استئذان».

ربما أراد أن يعلمني احترام خصوصية الآخرين، وقواعد بسيطة في العلاقات الإنسانية، وأن لكل شيء حدودًا حتى في الصداقات الحميمة.

(٧٢)

في منتصف الستينيات تأهب ذات يوم لافتتاح تجديدات واسعة بـ«نادي الرماية» على طريق الفيوم.

استدعت الأحداث السياسية يومها أن يُدلي بتصريحات لوسائل الإعلام في أثناء الافتتاح.

في أثناء جولته بالنادي استمع من مديره لتكاليف التجديدات الواسعة.

كان الرقم ضخمًا.

اعتبر أن الإسراف في التجديدات إهدار لمال عام ملك الشعب يصطنع فخامة لا لزوم لها ولا فائدة منها.

قال لنا بعد أن عاد للبيت: «طوال التصريحات التي أدليت بها اليوم كنت أنظر لمدير النادي وعاوز أخنقه».

(٧٣)

أهداني الملك الليبي الراحل «إدريس السنوسي» ذات زيارة للقاهرة بندقية رش خرطوش.

بعد نكسة (١٩٦٧) تبرع بـ (٤٠) مليون جنيه إسترليني لإعادة بناء القوات المسلحة.

لحرج موقفه طلب من الرئيس ألا يعلن عن هذا التبرع.

تدخل «عبد الناصر» لدى العقيد «معمر القذافي» لمنع حكم بالإعدام صدر بحق الملك السابق ومنحه حق اللجوء في مصر دون أن يكون مسموحًا له بالعمل في السياسة.

كانت أمي تزور زوجة «السنوسي» عرفانًا بدوره الذي لا يعرفه أحد، ولم يعلن عنه قط.

كانت لدى «السنوسي» ابنة بالتبني، حدّث الرئيس برغبته أن تلحق به في القاهرة.

طلب من القيادة الليبية بطريقة حازمة لا تقبل الأخذ والرد: «تيجي البنت».. وجاءت لتعيش في كنف والديها بالتبني.

لم يكن «عبد الناصر» يخلط بين المقتضيات السياسية والاعتبارات الإنسانية.

فيما بعد عصره تزوجت ابنة «السنوسي»، واستخدم الرئيس «السادات» حضوره حفل الزواج للنكاية في العقيد «القذافي»، الذي كانت الخلافات معه قد اشتعلت.

مصر كانت ملاذًا آمنًا حتى لخصومها السياسيين.

خلافات الملك «سعود بن عبد العزيز» مع الثورة بلغت ذروتها في محاولة اغتيال الرئيس (١٩٥٤)، لكنها منحته حق اللجوء السياسي بعد إطاحته.

عرض الملك السابق على الرئيس شيكًا بستة ملايين جنيه إسترليني.

ـ «لا أستطيع قبوله».

اقترح «سعود» أن يستخدم هذه الأموال لصالح أي مشروع يراه.

وجّه «عبد الناصر» هذه الأموال لتأسيس بنك ناصر الاجتماعي.

(٧٤)

كان الرئيس، وهو شاب في الأربعين، كأي رب أسرة في هذه السن، ينزل مع أطفاله البحر.

لم تكن أمي تنزل معنا.

كان متوسط أعمارنا مطلع الستينيات في حدود عشرة أعوام.

كان يقترب منا، «يرشنا» بماء البحر، ونحن نهرب من أمامه.

يحرضنا أن نرد عليه بالمثل، فلا نفعل.

نضحك من قلوبنا، ولكننا لا نرشه بالماء ـ «ده جمال عبد الناصر».

ونحن صغار كان والدي عندما تكون لديه فسحة وقت يصحبنا بـ«فلوكة» ويجدِّف بنا من استراحة المعمورة حتى الجزيرة التي تقع قبالتها.

كان يقول لي: «جدف شوية يا خالد». وكنت أفعل.

(٧٥)

لسانه عفيف.. الكلمات الخارجة لا ترد عليه.

أقصى ما سمعته من خشونة لفظ: «كل ما نجيب واحد، ونقول عليه ح يصلح قصر العيني يطلع ألعن من اللي قبله. بنينا السد العالي ومش عارفين نصلح حال قصر العيني».

لم يكن يرفع صوته، أو يتعمد إهانة أحد، تكفي نظرة، أو لفتة لكي يدرك معاونوه ما يريد.

في مرة نادرة سمعته يتحدث بصوت غاضب.

تكهرب الجو. لا بد أن أمرًا خطيرًا استثار غضبه إلى هذا الحد.

استطلعنا الأمر، وجدناه يبدي ملاحظات غاضبة لسكرتيره الشخصي في الخمسينيات «محمود الجيار».

ربما لأنه كان مقربًا جدًّا إليه، فلا يتصور أن يصدر عنه خطأ أيًّا كان صغيرًا.

(٧٦)

راتبه كرئيس جمهورية: (٤٧٠) جنيهًا، بالإضافة إلى (٥٠٠) جنيه بدل تمثيل.

عشنا على راتبه.

بعد رحيله قرر مجلس الوزراء منح والدتي معاشًا استثنائيًّا هو ذات راتب والدي دون نقصان.

لم نعرف معه بذخ العيش.

كسوتي: في الشتاء حذاء، وفي الصيف صندل. أربعة قمصان وبنطلونا تفصيل عند الترزي.

ذوق أبي: «كلاسيكي». لونه المفضل في القمصان: «الأبيض والأزرق الفاتح»، وفي البدل: «الألوان الغامقة ـ الرمادي»، وفي ربطات العنق: «المقلمة» ومنديله الشهير بثلاثة أهرامات.

لم يكن يحب ارتداء البدل. ويفضل التخلص منها بمجرد الانتهاء من المراسم الرسمية.

كان لديه اثنان من الترزية. واحد للبدل والآخر للقمصان.

لم يشترِ قط بدلة جاهزة.

ولا اعترف بالماركات العالمية.

نصحه سكرتيره الشخصي «محمد أحمد» بأن يشتري قمصانًا.

رفض وقال: «أنا عايز حسين جنيدي».

«جنيدي» كان ترزيه، وهو لم يكن يحب أن يقطع صلة لا بحلاق ولا ترزي.

(٧٧)

التقت حنجرة سيدة الغناء العربي «أم كلثوم» بألحان موسيقار الأجيال «محمد عبد الوهاب» لأول مرة ـ في أغنية «إنت عمري» بطلب من «عبد الناصر».

شارع شبرا توقفت حركة المرور فيه، والمصريون انشغلوا يومها بالحدث الفني الذي وصفته الصحف بـ«لقاء السحاب».

أبي استمع للأغنية من راديو سيارته وهو متوجه لاستراحة برج العرب.

لزمنا الصمت، فهو يستمع لـ«ثومة» على أنغام «عبد الوهاب».

لم نتبادل أي حديث في الرحلة على الطريق.

كانت تلك من المرات النادرة التي سمحت الظروف أن نستمع معًا لصوت «أم كلثوم».

كان يحفظ اللحن من أول مرة والكلمات بمجرد أن تجري على حنجرتها.

في الخميس الأول من كل شهر كان يستمع ـ بمفرده ـ لحفلة «ثومة» المذاعة على الهواء مباشرة في أثناء قراءة التقارير الرسمية والصحف.

عندما لا تمكنه ظروفه من سماعها يطلب الشرائط من الإذاعة.

(٧٨)

كانت تربط والدتي و«أم كلثوم» صداقة شخصية امتدت حتى النهاية.

في (٢٩) أكتوبر (١٩٥٦). كنا نحتفل بعيد ميلاد شقيقي «عبد الحميد» في بيت منشية البكري. كانت معنا.

فجأة دخل والدي متجهمًا.

قال: «أنا رايح السويس».

كان العدوان الثلاثي قد بدأ.

رأى أن يتوجه بنفسه لميدان القتال.

ذهب للسويس بصحبة بعض الضباط من بينهم سكرتيره الشخصي «محمود الجيار».

رفاقه أقنعوه بأن وجوده بالقاهرة أفيد في إدارة المعركة السياسية.

عاد إلى العاصمة في اليوم التالي.

أتذكر وأنا طفل صغير عام (١٩٥٦)، وكنا نزور خالتي «منيرة» في الجيزة، أنها عرفت من والدتي أننا قريبون من فيللتها بالزمالك.

قالت لنا: «بتعملوا إيه في الضلمة؟».

الغارات الجوية فوق العاصمة والظلام يخيم عليها.

زرنا «ثومة» بعد أن توقفت الغارات.

أمسكت بالعود، وحاولت العزف عليه، و«ثومة» تشع من حولنا بهجة وطمأنينة.
شعوري نحوها، بعد كل هذه السنوات الطويلة، كأمي تمامًا.
كانت تتبادل مع والدتي الزيارات، وتحضر أعياد ميلادنا.
كانت «ثومة» الفنانة الوحيدة المسموح لها بدخول بيتنا، دون روتين وبلا كلفة.
مازلت أتذكر هداياها ـ بسيطة وجميلة.
أبي كان يمنعنا من تلقي أي هدايا غالية الثمن.

(٧٩)

ذات مساء أوائل السبعينيات دعانا الأستاذ «هيكل» لمأدبة عشاء في بيته.
ذهبت مع أمي وأشقائي، حضرت «أم كلثوم»، التي كانت تربطها بالأستاذ «هيكل» وزوجته السيدة «هدايت» علاقة ود وصداقة.
كانت ليلة خاصة لا تنسى، خففت عن أمي بعض أحزانها.
«أم كلثوم» بديهتها حاضرة ودمها خفيف بوقار.
لم تتغير مع الذين تغيروا، ولا نسيت الود القديم والصداقة التي جمعتها بالسيدة التي كانت حتى أيام قريبة زوجة رئيس الجمهورية.

(٨٠)

لم يتدخل «عبد الناصر» قط لإعفاء أي مسئول في الدولة من رسوم الجمارك على سيارته المستوردة.
لكنه تدخل لإعفاء اثنين من الفنانين والرياضيين من هذه الرسوم الجمركية.
الإعفاء الأول لسيدة الغناء العربي «أم كلثوم» على سيارتها الـ(كاديلاك)، والإعفاء الثاني لبطل التنس العالمي «إسماعيل الشافعي» على سيارته الـ(مرسيدس).
قال «عبد الناصر» إنهما سفيران فوق العادة لمصر في المنطقة العربية والعالم، ويستحقان تكريمًا خاصًا من الدولة.

(٨١)

كان هناك مكتبان للرئيس في بيت منشية البكري.

مكتب بالدور الأول يستقبل فيه الضيوف الرسميين وكبار المسئولين بالدولة، ومكتب آخر بالدور الثاني مفتوح على غرفة النوم.

لو لم تكن لدى الرئيس التزامات رسمية يُفضل العمل في مكتب الدور الثاني، قرر تعيين شقيقتي «هدى» سكرتيرة شخصية براتب ثلاثين جنيهًا في الشهر.

«هدى» لا تنزل ولا علاقة لها بمكتب الدور الأول. اختارها لاستحالة اختيار أحد آخر للعمل معه في مكتب مفتوح على غرفة النوم.

«هدى» تولت الإشراف على فرز التقارير التي ترد للرئيس من مدير مكتبه «سامي شرف» أو سكرتيره الشخصي «محمد أحمد»، أو ممثله الشخصي «حسن صبري الخولي»، أو المخابرات العامة. التقارير الواردة تأتي مصنفة: «للعرض»، «أفضلية»، «سري»، «سري للغاية».

الرئيس كان يطلع على كل هذه التقارير، ويؤشر بتعليماته عليها.

«هدى» تفانت في العمل، وكانت لديها قدرة الفصل بين علاقتها بالرئيس كابنة كبرى وبين دورها كسكرتيرة شخصية.

(٨٢)

في عيد الفطر دخلت «هدى» على أبي بـ«علبة كعك».

أخبرتنا أن أمين رئاسة الجمهورية وزع مثلها على العاملين بالرئاسة، واعتبرتها «لمسة جميلة».

لم يرَ أبي الأمر كذلك، اتصل - على الفور - بأمين رئاسة الجمهورية غاضبًا: «من إمتى بتوزع الرئاسة علب كعك؟ إحنا بنقول للناس شدوا الأحزمة، والرئاسة تنفق المال العام على مظاهر لا لزوم لها، التكاليف لا تتحملها رئاسة الجمهورية وتخصم من مرتبك».

لتأكيد القرار اتصل الرئيس بسكرتيره الشخصي «محمد أحمد»: «أنا مش بهزر، تكاليف علب الكعك تخصم فورًا».

(٨٣)

أثاث بيتنا «ميري» ملك الدولة، وقّع عليه أبي بالاستلام. عهدة وعادت للدولة بعد رحيل والدتي أوائل التسعينيات.

بعض الأثاث بالدور الثاني ملكية خاصة اشتراه أبي من راتبه. صالونه بالدور الأرضي كل شيء فيه صنع في مصر.. القماش والسجاجيد والنجف والكراسي.

شيء واحد لم يكن مصريًا ـ لوحة لبنت واقفة ترتدي زيًّا أبيض، وشاب جالس على ركبة ونصف يقدم لها «ودعًا».

لا أعرف الفنان الذي رسمها واللوحة موجودة الآن في بيت شقيقي «عبد الحميد». نطلق عليها: «لوحة الودع».

ما الذي أعجب أبي في هذه اللوحة فاشتراها؟ لست أدرى. ربما تلخص بطريقة فنية شعور الإنسان بالعجز عن توقع ضربات القدر.

(٨٤)

كان يقول لنا: «أنا لا أمتلك شيئًا، قررت ألا أمتلك شيئًا، لن أترك لكم من بعدي سوى العلم الذي تحصلون عليه، فرص متساوية في مجتمع نتطلع لأن يكون عادلًا ومتقدمًا».

بعض رفاقه من أعضاء مجلس قيادة الثورة اشتروا أرضًا ودفعوا ثمنها بالكامل، قرر ألا يشتري شيئًا، بيته في منشية البكري من ممتلكات الدولة.

بعد رحيل والدي بأسابيع قليلة أعدنا سيارات الرئاسة المصفحة، وسياراتها العادية، دون أن يطالبنا أحد بشيء.

ترددت شائعة قوية في مطلع السبعينيات أن «خالد» أحرق سيارة والده حتى لا يركبها «السادات».

شائعة ملفقة بالكامل، ولا أساس لها. كنا نعرف أن هذه سيارات الرئاسة وليست سيارات أبي. مال عام تربينا على تقديسه.

لم يطالبنا «السادات» بإعادة شيء.

الطلب الوحيد الذي تقدم به هو الحصول على «الدوسيه الأخضر».

(٨٥)

الزعيم السوفيتي «نيكيتا خروشوف» فلاح روسي يتميز بروح الدعابة والرغبة في التعارف الإنساني.

في أوائل الستينيات دعاه والدي على مأدبة غداء في استراحة القناطر الخيرية. الأستاذ «هيكل» حضر هذه المأدبة، وابنه «علي» جاء معه.

أخذت أنا و«علي» نلعب كرة قدم في حديقة الاستراحة. فوجئت بـ«خروشوف»، وهو يغادر الاستراحة يتوجه إلينا.

شاهد طفلين يلعبان، وأراد أن يداعبهما.

شاط الكرة بقدمه، وأخذ يتحدث معنا، ويسألنا عبر مترجمه عن أحوالنا في الدراسة.

(٨٦)

تربطني بأسرة الفنان الكوميدي «إسماعيل يس» صداقة عميقة.

ابنه «يس» التحق بالمدرسة القومية في مصر الجديدة عام (١٩٦٥). كنت في نهاية المرحلة الثانوية.

بعد فترة قصيرة أصبحنا صديقيْن نتبادل الزيارات في البيوت ونخرج معًا بصحبة «شلة المدرسة».

تعرفت على «إسماعيل يس» عن قرب.

لقاءات صيفية جمعتنا في شقته بالإسكندرية ـ الدور الرابع بـ«جليم ». نتناول الغداء من يد «أم يس».

كانت طاهية ماهرة.

نشاغب ملك الكوميديا في مصر، فيمطرنا بـ«القفشات» التلقائية التي تفقدنا السيطرة على أنفسنا من فرط الضحك من القلب.

كان صوتا «إسماعيل» وابنه «يس» متشابهين لحد كبير، استغلق عليَّ في كثير من الأحيان التفرقة بين صوتيهما.

ذات مرة أخذت أحادث الأب باعتبار أنه الابن في موجة من مداعبات الشباب ففاجأني: «يا خالد. أنا إسماعيل».

في تلك الأوقات كان فنان الكوميديا الأكبر يتعرض لمتاعب صحية في الرئة استدعت ـ بنصيحة طبية ـ الانتقال للسكنى في مصر الجديدة، وكان يعاني من مصاعب مالية هددت بإغلاق مسرحه.

لم يطلب «إسماعيل يس» مني، ولا بالإشارة والتلميح، تدخل والدي لعلاجه على نفقة الدولة، ولا لحل مشاكل مسرحه المستعصية.

نأى بعلاقة ابنه الخاصة مع نجل رئيس الجمهورية عن مظنة استخدامها لحل مشاكله الشخصية.

كان «يس» في بعض الأيام يتناول طعام الغداء على مائدة الرئيس العائلية.

فيما بعد سألت «يس» عن الأسباب التي دعت والده لعدم طلب تدخل الرئيس وهو يدرك، وبغض النظر عن الصداقة التي تجمعنا، أنه سوف يستجيب لشكواه؛ فهي إنسانية ومشروعة و«إسماعيل يس» يستحق بما أسعد الشعب تقديرًا خاصًّا من الدولة.

قال لي ببساطة: «إسماعيل يس مايعملهاش».

(٨٧)

عند رحيل «إسماعيل يس» عام (١٩٧٢) ذهبت لسرادق العزاء أواسي صديقي. كانت أفواج الفنانين تدخل وتخرج من سرادق العزاء، وبعض الجموع ترقب من الخارج الوجوه الشهيرة المألوفة.

وقفت بجوار «يس» أتلقى العزاء في فنان الشعب.

فوجئت عند مغادرتي سرادق العزاء بمظاهرة تنتظرني من نحو ألف مواطن.

كانت الحملة على «جمال عبد الناصر» قد بدأت.

ذهبت أعزي صديقي، فحصلت على عزاء جديد من الشعب الذي لم ينسَ «عبد الناصر».

(٨٨)

بعد رحيل والدي أعطت شقيقتي «منى» للفنان التشكيلي «صلاح طاهر» صورة إنسانية دافئة لأبي وفي يده سيجارة قبل أن يقلع نهائيًّا عن التدخين بأوامر الأطباء.

رسمها بإحساسه، أخذتها من «منى»، فعادت تطلب من الفنان الكبير أن يرسم نفس اللوحة مرة أخرى لأجل خاطرها.

حاول ثلاث مرات، اللوحات الجديدة مستواها دون اللوحة الأولى فمزقها.

إحساسه الفني والإنساني أعطى للرسم الأول قيمة فنية بديعة، محاولة تكرار الإحساس أدى للإخفاق.

ألحت عليه واستجاب بدوافع تقديره لمشاعرها.

تعلمنا أن الفن العظيم يستحيل استنساخه.

(٨٩)

جدتي لوالدي اسمها: «فهيمة».

ماتت وهو طفل صغير، كان متعلقًا بها، لم يخبروه بوفاتها لفترة طويلة.

يبدو لي أن جرح أبي بوفاة أمه كان غائرًا، لم يحدثني مرة واحدة عنها، ولا أراد نكأ الجراح القديمة.

المرة الوحيدة التي رأيت الدموع في عيني أبي يوم زفاف شقيقتي «هدى».

(٩٠)

لكل فرد من الأسرة مكان خاص به على مأدبة الغداء في صالة الطعام بالدور الثاني من بيت منشية البكري.

كرسي الرئيس أمامه غرفة النوم وخلفه السلم.

رفض أبي أن يكون كرسيه على رأس المائدة.

الكرسي من خشب مبطن بجلد لونه أخضر.

كرسي والدتي بجواره، وأنا أمامه، و«هدى» و«منى» بجواري بالناحية المقابلة على المائدة.

و«عبد الحميد» و«عبد الحكيم» بجوار والدتي.

عندما يكون هناك ضيف على مائدة الغداء يجلس على رأس المائدة من الناحية الأخرى.

(٩١)

اصطحبنا لدور السينما العامة مرتين.

المرة الأولى كان عندي أربع سنوات بدار عرض اسمها «الفالوجا» في منشية البكري بجوار شارع قمبيز.

شاهدنا في حفلة مسائية فيلمًا بالأبيض والأسود بطولة «أنور وجدي».

لا أتذكر اسم الفيلم، ما استقر في خيالي مشهد «أنور وجدي» وهو يصعد فوق جدار أو أكوام من الحجارة.

مضت السهرة بنا كأي أسرة مصرية عادية تشاهد فيلمًا سينمائيًّا.

في المرة الثانية ذهبت العائلة بصحبته لمشاهدة فيلم «لا أنام» لـ«فاتن حمامة» في إحدى دور العرض بقلب القاهرة.

كانت الصحف المصرية تتابع الفيلم باهتمام ملحوظ، قلنا له: «عايزين نشوف معاك فيلم فاتن حمامة يا بابا».

كانت الثورة في ذروتها وعبد الناصر في قمة الصعود.

دخلنا دار العرض في حفل السادسة بهدوء دون أن نلفت انتباهًا، جلسنا والظلام يخيم على القاعة في «لوج» وسط المشاهدين.

عند خروجنا انتبه المواطنون لوجود «عبد الناصر»، وبالكاد تمكنا من اختراق الحشود التي أخذت تتزايد بالمئات، فالآلاف.

(٩٢)

في سنوات الثورة الأولى خرج أبي مع بعض رفاقه من مجلس القيادة لتناول العشاء في أحد مطاعم الإسكندرية.

جلسوا بهدوء بظن أنها جلسة خاصة لن يلتفت إليها أحد، أخذ المواطنون الذين يتناولون طعام العشاء في المطعم السكندري هذا المساء يقبلون على مائدته.

انتشر الخبر قبل أن يتمكن أبي من مغادرة المطعم، جموع بالخارج أخذت تحييه وتهتف باسمه.

اكتشف يومها أنه لم تعد لديه حياة خاصة، غير أنه استجاب لمشاعرنا في موقعة «لا أنام».

(٩٣)

لم تكن لـ«عبد الحليم حافظ»، مطرب الثورة، علاقات خاصة بأسرة الرئيس. ربما زار الرئيس مرة أو مرتين بمكتبه في الدور الأرضي بصحبة «محمد عبد الوهاب».

في أفراح بنات الرئيس شارك «حليم» بالغناء في حديقة البيت.

عندما رأينا «حليم» للمرة الأولى تدافعت مع إخوتي وأصدقائي نحوه نسلم بحرارة على أمير أحلام شباب هذا الجيل.

في عيوننا.. «حليم» ضيف فوق العادة، وأهم من أي شخصية رسمية حضرت حفل الزفاف.

أمي كانت تسمع «حليم» وتميل لصوت «فريد الأطرش»، وتقول: «الطرب ده غير ده».

(٩٤)

الأربعاء من كل أسبوع يوم البصارة، ممنوع اللحوم البيضاء والحمراء.

في هذه الأيام كانت اللحوم تباع ثلاثة أيام فقط في محال الجزارة والجمعيات الاستهلاكية لتنظيم استهلاكها الذي تزايد بصورة غير طبيعية في ظروف الحرب.

الرئيس قرر ـ كأي مواطن آخر ـ ألا تأكل أسرته أي نوع من اللحوم يوم الأربعاء حتى اللحوم البيضاء ممنوعة.

كنا نتساءل ونحن عائدون من المدارس والجامعة: «يا ترى عاملين النهارده إيه في البيت؟». البصارة كانت الطبق السائد في يوم الأربعاء.

(٩٥)

جدتي لأمي اسمها «فاطمة» كانت من طنطا. وجدي لأمي «إبراهيم كاظم» نزح من إيران لمصر، ولدينا أقارب في إيران والعراق وباكستان.

قالت لي أمي إن أباها لم يكن يتحدث العربية بفصاحة، في أيام كثيرة تطلب أمي السيارة، وتغادرنا دون أن تخبرنا إلى أين، ونفاجأ آخر النهار بعودتها بأكياس الحمص أحضرتها لنا من طنطا مسقط رأسها، كانت تزور مسجد السيد أحمد البدوي وتتبارك به.

(٩٦)

سيدنا الحسين رفيق أسرتنا الدائم في الملمات. كان الرئيس يزور مسجد الحسين من حين لآخر كلما سمحت الظروف، في الأغلب يصطحب معه سكرتيره الشخصي في الخمسينيات «محمود الجيار» في سيارة الرئاسة وخلفه سيارة حراسة واحدة.

لم تكن هناك إجراءات خاصة في هذه الزيارات، كلها زيارات مفاجئة وخارج البرامج المقررة لتحركات الرئيس.

حراسات الرئيس. ما لم تكن هناك مواكب رسمية لصحبة رؤساء الدول الذين يزورون مصر، لا تزيد أبدًا على سيارة حراسة واحدة.

أمنه الشخصي كان مكفولًا بإيمان فريق الحراسة أن حماية «عبد الناصر» تستحق شرف الموت من أجلها.

كانوا مستعدين لـ«الموت علشانه»، «قائد ومجندين» ـ كما كان ينشد وقتها «صلاح جاهين» ويغني «عبد الحليم حافظ».

عندما يخلو مسجد الحسين من المصلين والمترددين عليه، كان أبي يزوره.

يقرأ الفاتحة على روحه الطاهرة، ويصلي ركعتين لله، ويزور المقام وحجرة المخلفات.

إذا دخلت مسجد الحسين فسوف تجد في أحد جنباته لوحة رخامية تشير إلى أنه جرت توسعته في عهد الرئيس «جمال عبد الناصر».

والدتي كانت تذهب بصورة منتظمة إلى مسجد الحسين بعد صلاة العشاء بحراسة محدودة لا تثير التفاتًا، تدخل من باب جانبي مخصص للسيدات لزيارة «سيد الشهداء».

لا أتذكر أن والدتي صحبت الرئيس في زيارته للحسين.

في أعقاب رحيله واصلت أمي زياراتها.

كانت حزينة تشكو إليه وتستمد العون من صحبته.

سيدة مصرية بسيطة عاشت في الظل وجدت الأرض تميد تحت عوالمها التي كانت، وبعض الوجوه تخلع الأقنعة متنكرة لطريق «جمال عبد الناصر»، وتاريخ «جمال عبد الناصر»، وشخص «جمال عبد الناصر».

في منتصف السبعينيات، والحملة على «عبد الناصر» في عنفوانها، ذهبت إلى «الحسين» وكشفت عن شخصيتها، تجمهر حولها في دقائق الآلاف.

أرادت بطريقتها البسيطة أن تقول للرئيس السادات إن «عبد الناصر» لن يموت أبدًا، والحملة عليه فاشلة لا محال.

«تعمل إيه؟» مات «عبد الناصر» وتركها وحيدة وحزينة، لم تخلع ملابس الحداد حتى ماتت بعده بعشرين عامًا، ودفنت في حجرة بجواره داخل نفس الضريح.

(٩٧)

كان عمري سبعَ أو ثماني سنوات. الزعيم الهندي «جواهر لال نهرو» زارنا في البيت. جلس مع أبي يتحدثان في الحديقة الأمامية. كان فيها في ذلك الوقت «فسقية». رآني «نهرو» من بعيد. دعاني أبي للسلام عليه. علاقة أبي بـ«نهرو» غلبت

عليها الأفكار والمواقف المشتركة، علاقته بـ«تيتو» أوثق إنسانيًّا من أي زعيم دولي آخر.

بعد رحيل والدي تلقت والدتي في أوائل السبعينيات دعوة شخصية من «أنديرا غاندي» ابنة «نهرو» ورئيسة وزراء الهند في ذلك الوقت لزيارة بلادها. صحبتها «أنديرا» لزيارة تاج محل، واستقبلها رئيس الجمهورية الهندية. «تيتو» أيضًا ـ دعا والدتي لزيارة يوغوسلافيا، أصر أن يقود بنفسه السيارة التي تحملها كما كان يفعل بحضور «عبد الناصر».

بعد رحيل والدي: صداقات حقيقية امتدت، وأقنعة مزيفة سقطت.

(٩٨)

من عادة الرئيس في خطاباته لجماهير مصر والوطن العربي في ذروة صعود حركات التحرير الوطني أن يوجه «تحية» إثر الأخرى لكل حركة تنهض ولكل إنجاز جديد تحققه في مواجهتها للاستعمار.

أمي ببساطتها كان يُسعدها تكرار كلمة «تحية» على لسان «عبد الناصر» حتى لو اختلف السياق. أجمل عبارات الحب أن يقول لها أبي: «يا تحية».

(٩٩)

في أواخر الأربعينيات، وكنا نعيش في شارع الجلالي، خرج بصحبة أمي، ربما للذهاب إلى السينما، تقدمها بخطوتين أو ثلاث، على عادة المصريين في تلك الأيام، مر بجوارها شاب يركب دراجة وألقى عبارة «معاكسة».

تجاهل أبي الضابط العائد من ميادين القتال في الفالوجا الموقف، عاد الشاب بدراجته وألقى عبارة مماثلة، وبحركة سريعة أمسك أبي بجلبابه ولقنه درسًا لا ينسى. ظلت أمي حتى أيامها الأخيرة تستعيد معنا هذه الذكريات، وتقول: «لقد كان يحبني».

(١٠٠)

أول التسعينيات ماتت، لم أمشِ في جنازتها، كنت في يوغوسلافيا مطاردًا بتهمة تزعم تنظيم «ثورة مصر».

في هذه الجنازة هتف مواطنون مصريون في وداع زوجة «عبد الناصر»: «ثورة مصر لما هبت، مصر من وراها ردت. عاشت الإيد اللي ربت».

(١٠١)

لسنوات طويلة استغرقت السبعينيات وما بعدها دأبت على كتابة بعض خواطرها عن تقلبات الزمن والرجال.

كانت سيدة حزينة تتعزى بذكرياتها معه وإلى جواره، كتبت بعض ما شاهدت وعاينت من أحداث وتحولات كبرى جرت وقائعها في بيت «منشية البكري» عن مشاعره ومشاعرها في الأيام الحلوة والمرة، عند لحظات المجد، وفي لحظات الانكسار.

لم تكن تؤرخ لحقبة محورية في تاريخنا الحديث، ولا خطرت ببالها هذه الفكرة، ولم تكن تكتب مذكرات تتصور أن أحدًا بعدها سوف يطلع عليها، كانت تكتب عنه وله، ربما كانت تخاطبه كأنه يجلس قبالتها في صالون الدور الثاني من بيت «منشية البكري». المذكرات أقرب إلى الخواطر، والخواطر غلبت عليها أحزان السبعينيات، كتبت عنه وإليه بذات الطريقة العفوية، التي كانت تخاطبه بها في حياته.

تعمل إيه؟ مات «عبد الناصر» وتركها وحيدة حزينة. وحتى ماتت لم يرها أحد بغير ملابس الحداد.

الفصل الحادي عشر: عواصف وانقلابات

كان غياب «جمال عبد الناصر» مفاجئًا وصاعقًا، لكنه لم يحل ـ برغم مشاعر الحزن التي غمرت المصريين ـ دون أن يبدأ الصراع على السلطة.

من يخلفه في منصبه؟ وكيف تُدار الدولة بعده؟

كان ذلك أمرًا طبيعيًّا، فالسلطة ـ أي سلطة ـ لا تعرف الفراغ.

طرحت أفكار كثيرة في لحظات الحزن مثل «القيادة الجماعية»، وضرورات التماسك والانتقال السلمي للسلطة، فالبلد لا يحتمل تنازعًا عليه في وقت حرب.

كانت تلك أفكارًا نبيلة في مقصدها ونواياها لم يُكتب لها أن تستقر على أرض، فالسلطة هي السلطة.

لخص مشهد واحد في جنازة «عبد الناصر» افتراق الطرق بين رجلين وتوجهين داخل بنية النظام، أولهما ـ نائب رئيس الجمهورية «أنور السادات»، وهو يتصور أن صعوده إلى منصب الرجل الأول محفوظ بالتراتبية والأقدمية، برغم أن دوره محدود وهامشي في صنع القرار.. وثانيهما ـ أمين عام الاتحاد الاشتراكي ورئيس الوزراء السابق «علي صبري»، وهو يتصور أن صعوده إلى نفس المنصب محفوظ بحجم نفوذه داخل المؤسستين السياسية والأمنية.

في ذلك المشهد تخلف الرجلان عن المضي مع الشخصيات الدولية والعربية خلف الجثمان قبل أن تضطرها الجماهير الملتاعة إلى ترك الجنازة.

عاد «السادات» إلى مجلس قيادة الثورة بالقرب من كوبري الجلاء على كورنيش النيل مسنودًا على اثنين من مرافقيه بعد إصابته بحالة إغماء.

أدخل على الفور إلى حجرة رجال المطافئ لتلقي الإسعافات الضرورية.

بعده مباشرة جاء «علي صبري» بداعي الإرهاق الشديد وأدخل إلى الحجرة نفسها.

كان «عادل الأشوح»، مدير مكتب أمين التنظيم الطليعي «شعراوي جمعة»، الذي يتولى في الوقت نفسه حقيبة الداخلية، المكلف بالإشراف على المكان واستقبال الشخصيات الدولية وكبار المسئولين.

حسب رواية لـ«الأشوح» فإنه طلب من الدكتور «حمدي السيد» ـ نقيب الأطباء فيما بعد ـ الكشف عليهما للنظر فيما إذا كان هناك خطر على حياتهما يستوجب التصرف العاجل.

قال «حمدي السيد»: «مافيش حاجة.. مرض سياسي».

في أثناء مغادرتهما المكان قال «السادات» عند الباب الخارجي: «تعالَ يا علي أوصلك».

ـ «لا، اتفضل إنت.. طريقي غير طريقك».

كان ذلك التعبير الذي أطلقه «علي صبري»، بقصد دلالاته السياسية أو بدون قصد، مثار تعليق كل الذين استمعوا إليه، أو وصل إلى علمهم.

لم يكن «أنور السادات» شخصية مجهولة، فسجله معروف والتحفظات عليه معلنة في أروقة التنظيم السياسي ودوائر الدولة، ومع ذلك مر بسهولة نسبية إلى مقعد الرجل الأول.

باستثناء أصوات معدودة في التنظيم الطليعي، أو داخل الاتحاد الاشتراكي، لم تكن هناك ممانعة كبيرة في التقدم به رئيسًا لاستفتاء عام.

تكفلت المجموعة المهيمنة على مقاليد الأمور داخل مؤسسات الدولة بالدعوة إلى انتخابه رئيسًا.

كانت المفارقة الكبرى أن «السادات» أودعها السجون بعد زهاء سبعة أشهر بتهمة التآمر عليه، فيما سميت بـ«ثورة التصحيح»، أو «انقلاب ١٥ مايو» بتوصيف آخر.

شملت قائمة المعتقلين نائب رئيس الجمهورية «علي صبري»، والقائد العام للقوات المسلحة الفريق أول «محمد فوزي»، ووزير الداخلية «شعراوي جمعة»، ورئيس المخابرات العامة «أحمد كامل»، ووزير الإعلام «محمد فائق»، ووزير رئاسة الجمهورية «سامي شرف»، وعددًا كبيرًا من قيادات التنظيم السياسي ومنظمة الشباب الاشتراكي.

كما شملت ـ مع الذين صعدوا بـ«السادات» إلى الرئاسة ـ «فريد عبد الكريم» أمين الاتحاد الاشتراكي في الجيزة، الذي اعترض وحده ـ تقريبًا ـ على اختياره.

لم يكن اعتراض «فريد عبد الكريم»، مسألة تقدير سياسي لمدى صلاحية «السادات» لتولي المنصب الأرفع في البلاد.

لا أحد تقريبًا كان مقتنعًا بمثل هذه الصلاحية.

انصب جوهر اعتراضه في مدى نزاهة الرئيس المرشح على خلفية استيلائه على قصر «الموجي» بالجيزة،

وقد جرت مواجهة معلنة بين الرجلين.

إثر تلك المواجهة طلب «عبد الناصر» من نائبه إنهاء استيلائه على القصر والاعتكاف في قريته «ميت أبو الكوم»، لحين البت في مستقبله، غير أنه سمح له بالحضور إلى القاهرة لسبب أو لآخر والتقطت له صور مع الرئيس قبل رحيله بثلاثة أسابيع.

لعبت المقادير لعبتها، ففي لحظة الرحيل كان هو ـ وحده ـ نائبًا للرئيس وفي وضع خلافة أفضل من غيره.

أحداث مايو (١٩٧١) قد لا تعني شيئًا محددًا ـ إيجابًا أو سلبًا ـ في وعي الأجيال التي لم تعاصرها، ولا أتيحت أمامها فرصة موضوعية للتعرف على حقائقها وملابساتها والنتائج التي أفضت إليها ومازالت ماثلة في السياسات والتوجهات حتى اليوم.

أثبتت بعض استطلاعات الرأي العام، التي أجريت بعد غروب حقبة «السادات»، أن معلوماتها تكاد تتلخص في تهويمات مثل أن «السادات» قد تمكن بدهائه من إسقاط «مراكز القوى» في ليلة واحدة، أو أن هناك جسرًا في قلب العاصمة المصرية يحمل اسم (١٥ مايو).

ما حدث ـ بالضبط ـ بتداعياته ونتائجه أقرب إلى مشروع طلاق بين عصرين ونظامين.

(١)

في مراجعات ما بعد هزيمة «يونيو»، التي سجلت في محاضر رسمية، إشارات لنوع الصدام المتوقع إذا ما اختفى فجأة الرئيس «عبد الناصر».

في محضر (٣) أغسطس (١٩٦٧) لاجتماع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي، وهو كاشف أكثر من غيره لحقائق القوة وطبائع الرجال، يستلفت الانتباه مواقف ثلاثة رجال قدر لهم أن تُطرح أسماؤهم لخلافة «عبد الناصر» بعد رحيله.

الأول ـ «زكريا محيي الدين»، نائب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ووزير الداخلية الأسبق ومؤسس المخابرات العامة المصرية، الذي رشحه «عبد الناصر» لخلافته في خطاب التنحي.

كان الأكثر وضوحًا في طرح أفكاره.. فهو مع التحول إلى نظام سياسي مفتوح، وأن تكون الانتخابات غير موجهة.. وهو مع دور أكبر للقطاع الخاص في تحمل مسئولية تشغيل العمالة ورفع ما تستشعره الرأسمالية الوطنية من عدم مساواة في الحقوق والواجبات.

بتلخيص ما فإن مجمل رؤيته على يمين الخيارات الاجتماعية لـ«عبد الناصر»، لكن دون صدام كبير معها، كما تدعم توجهه الجديد لتأسيس نظام مفتوح.

في ذلك المحضر انتقد «زكريا محيي الدين» الجهاز الشعبي، الذي يقوده «علي صبري» في حضوره؛ حيث لم تحدث به تطورات تلاحق إنجازات الجهاز الحكومي، وجرت مناقشة مقتضبة بينهما لم تستبن فيها حدود الخلافات.

والثاني ـ «علي صبري» أمين عام الاتحاد الاشتراكي، الذي أشرف على الخطة الخمسية الأولى بين عامي (١٩٦٢) و(١٩٦٥)، التي وصفها تقرير البنك الدولي بأنها تجربة تنمية يحتذى بها في العالم الثالث؛ حيث بلغ متوسط النمو (٦,٧٪) ووصلت عوائد التنمية إلى أوسع قاعدة من المواطنين.

بالتكوين الفكري، فهو اشتراكي ومجمل آرائه تختلف مع «زكريا محيي الدين».

في مداخلاته اعتبر أن مشكلة الديمقراطية لا تنحصر في إجراءات الأمن القومي إذ لم تكن مانعًا في أي بلد من تحقيقها، وأنه يجب الحفاظ على ما تحقق من إنجازات.

والثالث ـ «أنور السادات» رئيس مجلس الأمة، الذي لم تسند إليه حتى ذلك الوقت أي مهام في الجهاز التنفيذي.

لم تبدُ في مداخلاته أي انتقادات لنظام الحكم قبل (٥) يونيو لها صلة بقضية الديمقراطية، مانع في اجتماعات عديدة من أي إقدام على التغيير مؤيدًا على طول الخط «عبد الناصر» بغض النظر عن طبيعة نظامه، ولا أعرب عن أي توجهات اجتماعية تُعبر عن شخصية صاحبها.

تباينت وجهات نظر الرجال الثلاثة في ملف تجاوزات اللجنة العليا لتصفية الإقطاع وإجراءات الحراسات، عندما فتحه «عبد الناصر».

«محيي الدين» ركز على ما سببته من ضرر بشيء من الوضوح، و«صبري» اعتبر «أن الخطأ الذي حدث في لجنة تصفية الإقطاع أنها لم تراعِ عند التطبيق في بعض الحالات ما قررناه من مبادئ وقواعد»، و«السادات» أعادَ إنتاج النظرة الأخيرة نفسها مع تحوط وحذر: «لا يمكن أن نقول إن إجراءات الحراسات كانت خاطئة، وإنما الخطأ كان فقط في بعض حالات فردية وليس في كلها».

لجأ إلى الصمت الكامل عندما انتقد «علي صبري» أداء مجلس الأمة، الذي يترأسه في ملف التجاوزات والحراسات؛ «إذ كان من الممكن أن يكون أكثر فائدة».

عند الرحيل المفاجئ لـ«عبد الناصر» طُرحت أسماء الرجال الثلاثة في المجال العام.

استبعد «زكريا محيي الدين» بأسرع وقت ممكن.

كان تصدر اسمه لخبر نشرته صحيفة «الأهرام» عن إجراءات الجنازة، داعيًا إلى تحركات واتصالات وتوافقات بين جماعات متعارضة على إبعاد أعضاء مجلس قيادة الثورة السابق عن أي دور.

حمل خبر «الأهرام»، الذي كتبه الأستاذ «هيكل»، نوعًا من التزكية المبكرة.

كان «زكريا محيي الدين» خياره الأول لخلافة «عبد الناصر».

بعد أن استبعد «محيي الدين»؛ بقيَ الرجلان الآخران.

في ظروف وتوازنات معقدة تقاسما السلطة، «السادات» رئيسًا و«علي صبري» نائبًا.

كان ذلك مشروع صدام محتم بالنظر إلى طبيعة الرجلين.

(٢)

حانت لحظة الصدام وافتراق الطرق.

كانت اتفاقية الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا وليبيا في بني غازي يوم (١٧) إبريل (١٩٧١) سبب الصدام لا جوهره.

عارض «علي صبري» توقيع الاتفاقية وصارح «السادات» برأيه في أثناء وجودهما معًا في بني غازي، طالبًا تأجيل النقاش حولها لحين العودة للقاهرة.

في اجتماع اللجنة التنفيذية العليا يوم (٢١) إبريل باستراحة القناطر الخيرية جرت مواجهات مباشرة بين الرئيس ونائبه، وكانت الأغلبية مع النائب.

بعد أربعة أيام نقل الصراع إلى مستوى أوسع في اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي، وخرجت أزمة السلطة إلى العلن.

طُرحت أسئلة كثيرة بينها مدى صلاحيات الرئيس، وإلى أي حد يلتزم بالقيادة الجماعية، وموعد الحرب وجاهزية الاستعداد لها.

تلاحقت مشاهد الأزمة.

عُزل «علي صبري» من منصبه نائبًا للرئيس في الأول من مايو.

دبت خلافات بين المجموعة المهيمنة على الطريقة التي يتوجب عليهم التصرف بمقتضاها.

استقر الرأي بعد وقت قصير على تقديم استقالة جماعية، أعلنت من الإذاعة يوم (١٣) مايو.

كان ذلك خطأ هائلًا في إدارة الأزمة أفضى إلى اعتقالهم واتهامهم بالتآمر.

حسب جميع الشهادات المعلنة للذين اتهموا بالتآمر لإطاحة «السادات»، فإن خطأهم الأكبر هو أنهم لم يتآمروا.

بتعبير «سامي شرف»، الوزير برئاسة الجمهورية: «لقد أخطأت وإذا كان زملائي يشاركونني الخطأ نفسه فإني اعترف بفداحة خطئي أكثر من أي أحد آخر». (يوليو ٢٠٠١).

وبتعبير «ضياء الدين داود» عضو اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي بنفس التوقيت: «ألوم نفسي؛ لأنه لم تكن هناك مؤامرة ضد السادات».

جرى وصفهم بـ«مجموعة علي صبري»، نائب رئيس الجمهورية في ذلك الوقت، لكنهم لم يبدوا حماسًا للصعود بـ«الرجل القوي» إلى موقع رئيس الجمهورية بعد رحيل «عبد الناصر»، وفضّلوا بصورة أو بأخرى «الرجل الضعيف ـ أنور السادات» بظن أنه يمكن التحكم فيه.

هذه قصة معتادة في التاريخ المصري وأثمانها معروفة.

في أحداث مايو اختلطت أوراق وتداخلت اعتبارات متناقضة.

لم تكن هناك إدارة واحدة للأزمة، ولا كان هناك تجانس بين الذين ضمهم قفص واحد في المحاكمات التي جرت.

ما هو أكثر مأساوية أنه جرى ضربهم عن طريق معاونيهم وأوثق رجالهم.

تولى «ممدوح سالم» أقرب رجال أمين عام التنظيم الطليعي ووزير الداخلية «شعراوي جمعة»، السيطرة على الملف الأمني دون أي مقاومة.

وتولى الفريق «محمد صادق»، رئيس هيئة الأركان حسم الموقف العسكري في مواجهة القائد العام، الفريق أول «محمد فوزي» بلا أي ممانعة.

وبادر «محمد عبد السلام الزيات» بالسيطرة على وزارة الإعلام، بعد أن غادرها الوزير المستقيل «محمد فائق»، دون أن يكون معه أحد يسنده.

وتقدم اللواء «الليثي ناصف»، قائد الحرس الجمهوري لاعتقال المجموعة القيادية كلها بمن فيهم «سامي شرف»، الذي كان يأخذ منه تعليماته حتى أيام قليلة مضت.

انهار كل شيء في لحظة واحدة.

لماذا، وكيف؟

السؤال يدخل في طبيعة النظام، الذي لم يستطع أن يصمد لأول عاصفة هبت عليه بعد رحيل مؤسسه.

(٢)

في قصة مايو تواترت شهادات تتبنى فرضية «الانقلاب العسكري»، غير أنها لم تثبت ولا قام عليها دليل قاطع.

أبرز من تبنى فرضية الانقلاب، وأسس عليها موقفه في صراع السلطة، الفريق أول «محمد صادق»، رئيس أركان حرب القوات المسلحة في تلك الآونة ووزير الدفاع تاليًا.

وأبرز من دحضها الفريق أول «محمد فوزي» القائد العام بعد هزيمة «يونيو»، حتى أحداث مايو (١٩٧١).

الشهادتان متناقضتان، كلتاهما حاولت أن تثبت صحتها، وكلتاهما تكشف حقائق القوة وتعقيدات السلطة وحساباتها المتعارضة في لحظة استعداد للحرب.

وفق الفريق «صادق»، فإن القائد العام استدعاه إلى مكتبه مساء (٢١) إبريل.

بدا غاضبًا، هاجم الرئيس «السادات» بعنف بالغ وألصق به كل اتهام.

تعمد أن يكون صوته مسموعًا لمن هم خارج مكتبه.

أرجع «صادق» غضبه إلى ما جرى في اجتماع اللجنة التنفيذية العليا من مواجهات بين الرئيس ومن أطلق عليهم «مجموعة فوزي»، ورجح توجههم للعمل العسكري بعدما سدت أمامهم فرص الحسم بالعمل المدني.

كان ذلك استنتاجًا عامًّا لا يتسق مع نتائج ما جرى في اللجنة التنفيذية؛ حيث خسر الرئيس المواجهة.

أردف استنتاجه العام بما اعتقد أنه دليل دامغ بخط الفريق أول «فوزي».

حسب روايته فإن «فوزي» سحب ورقة من أمامه كتب عليها أمرًا واضحًا باتخاذ إجراءات محددة تمثل استعدادًا للاستيلاء على السلطة وإزاحة الرئيس «السادات».

كانت تلك الواقعة موضوع مساجلة بين القائدين العسكريين على صفحات جريدة «الشعب» المعارضة في مايو (١٩٨٢) ـ «صادق» روى و«فوزي» رد في العدد التالي.

كان نص الأمر كالتالي:

«فريق صادق:

باكر ترتبط وتنظم وتخطط مع:

١ ـ مخابرات حربية.

٢ ـ فريق (٦) مشاة ميكانيكية.

٣ ـ لواء (٢٥) مدرع.
٤ ـ شرطة عسكرية.

لأغراض تأمين القاهرة ـ أي احتمالات ـ نظام الكود ـ أماكن التجمع ـ أركان التلفونات ـ ..إلخ.

ـ مصدر الأمر «فوزي + شعراوي + سامي».
ـ واجبات:
١ ـ الإذاعة.
٢ ـ مداخل القاهرة.
٣ ـ حرب إلكترونية، أجهزة لاسلكي. السفارات».

كتب الفريق «صادق» أنه كانت لديه قبل فترة شكوك قوية في مثل هذا السيناريو، وأنه كان يخشى من عواقبه.

لم تكن المرة الأولى ـ كما كتب ـ التي يستشعر فيها خطر العودة إلى فكرة الانقلابات العسكرية.

الخطير في شهادته ما قاله من أنه «نفذ مخططًا دقيقًا وصارمًا للسيطرة على التحركات العسكرية، وفرض الرقابة على فوزي ورجاله دون أن يكون السادات يعلم شيئًا عن ذلك كله».

كانت تلك أوضاع اضطراب اختلت فيها أي قواعد طبيعية بالمعنيين السياسي والعسكري.

لا من مهمة رئيس الأركان مراقبة القائد العام، ولا من مهمة القائد العام التدخل في الصراع السياسي.

بنص شهادة «صادق»، فإن «السادات» لم يحاول الاتصال به خلال تلك الفترة.

ربما خشية أن يعلم الطرف الأقوى وتكون ردة فعله عنيفة.

«كان ذلك من المؤشرات التي دفعت فوزي والآخرين لاستمالتي إلى جانبهم، وكان منطقهم إذا لم يكن قريبًا من السادات، فلماذا لا يكون قريبًا منا؟»،

«حاول فوزي كثيرًا معرفة أين أقف أو كيف أفكر. وكثيرًا ما طرح أسئلة غير مباشرة في البداية ثم مباشرة فيما بعد، وكنت دائمًا ما أجيب بما لا يقطع الشك باليقين. وكان هدفي أن تبقى القوات المسلحة بعيدًا عن هذا الصراع».

احتفظ «صادق» بالوثيقة الخطية لنفسه، لم يطلع عليها «السادات»، ولا قدمها للمحاكمة التي مثل أمامها الطرف الذي خسر الصراع على السلطة؛ خشية أن

تستخدم دليل إدانة لا يأتيه الشك من أي اتجاه يقضي بإعدام ثلاثة على الأقل هم، محمد فوزي وسامي شرف وشعراوي جمعة ـ كما كتب.

بشرح آخر لموقفه من أزمة «مايو»: «كنت أعمل على إحباط محاولة الانقلاب وحماية الرئيس السادات، لا من أجل شخصه؛ بل من أجل مصر والقوات المسلحة، لكني لم أكن لأفكر في إعطائه الفرصة لتصفية حساباته بقسوة مع معارضيه».

أين ذهبت الوثيقة الخطية الخطيرة؟

بعد أن رحل الرئيس «السادات» في حادثة المنصة الدموية وتغيرت البيئة العامة في مصر وفتحت ملفات كانت مغلقة، بدا للفريق «صادق» أن يطلع عليها الأستاذ «محمد حسنين هيكل».

طلب منه أن يزوره في منزله بشارع «شجرة الدر» بحي الزمالك، وبالمصادفة كان «هيكل» يسكن في خمسينيات القرن الماضي بالبناية المقابلة.

أخذه من يده إلى الشرفة حتى يكون وجودهما معًا في مكان مكشوف دليلًا أمام من يتابع ويراقب، أنها محض زيارة شخصية ولقاء بين صديقين قديمين.

ثم عادا معًا إلى صالة المنزل، وأطلعه على سره.

«في منزلي وفي إطار يضم قطعة من قماش الكعبة الشريفة معلق بغرفة الاستقبال، أخفيت الوثيقة خلف قطعة القماش، ولم يعلم أحد حتى أفراد عائلتي بوجود الوثيقة».

تضمن كتاب «هيكل» «خريف الغضب» نص الوثيقة الخطية الخطيرة.

كان ذلك داعيًا إضافيًّا للغضب الذي تضمنه رد «فوزي» على شهادة «صادق»؛ فهو «صديق هيكل»، «الذي كان يلتقيه كل أسبوع تقريبًا بعد رحيل عبد الناصر».

أفلتت عبارات على ورق كشفت مدى الفجوة الكبيرة بين الفريق أول «فوزي»، والأستاذ «محمد حسنين هيكل».

الفجوة بذاتها من تعقيدات أحداث مايو (١٩٧١)، التي لم تكشف أسرارها الكاملة حتى الآن.

كما هو معروف وشائع فإن «هيكل» هو من اقترح اتباع الخطوات الدستورية والاستقرار على شخص النائب كانتقال سلمي وآمن للسلطة في أوضاع حرب.

وكما هو معروف وشائع فإنه قال للرئيس شبه اليائس: «إن الشخصيْن الرئيسيْن في الموقف فيما يتعلق بك هما: اللواء الليثي ناصف قائد الحرس الجمهوري، والفريق محمد أحمد صادق، رئيس أركان القوات المسلحة».

لمرة واحدة التقى «السادات» «صادق» في (١٢) مايو قبل العاصفة بيوم واحد، عند زيارته لإحدى القواعد العسكرية؛ حيث انتهز الفرصة ليقول له: «نحن نفهم موقفك»، وكان في قوله هذا الكفاية.

بصورة أو بأخرى كان دور الأستاذ «هيكل» محوريًّا في إدارة الأزمة.

في نهاية شهر مارس (١٩٧١) لاحظ «فوزي» في أثناء دخوله مبنى الوزارة بكوبري القبة وجود المحرر العسكري لـ«الأهرام» «عبده مباشر»، واصل صعود السلم وانتظر بالشرفة المطلة على المدخل، ومن خلفه القادة الذين كانوا بصحبته، وما إن رأى محرر «الأهرام» يدخل من الباب، وقبل أن يتجه يمينًا بالدور الأرضي في الطريق إلى مكتب رئيس الأركان ناداه قائلًا: «يا مباشر.. قل لهيكل»... ثم أطلق عبارة تتوعد بالحساب العسير.

رد عليه: «يا سيادة الوزير أنتم ناس كبار مع بعض، وتستطيع أن تبلغه ذلك بنفسك، أما أنا فلا أستطيع نقل مثل هذه الرسائل».

قال «فوزي»: «طيب يا مباشر».

كان ذلك المشهد تعبيرًا عن اتساع الفجوات بين مجموعة مايو ورئيس تحرير «الأهرام».

في ذلك اليوم ـ حسب شهادة «صادق»، فإن القادة المرافقين للوزير فوجئوا بما حدث، وكل من في المبنى أصابتهم المفاجأة.

القصة. بذاتها. دالة على بعض خفايا وخلفيات ما جرى في أحداث مايو وتفسر بعض ما غمض فيها.

باستثناء الفريق «صادق»، لا توجد شهادات أخرى على ذات المستوى تؤكد فرضية الانقلاب العسكري، أو التآمر لقلب نظام الحكم.

وفق النص الكامل لشهادته تتبدى إشارات لها مغزى وأثر في حركة الأحداث العاصفة.

١ ـ لم يكن الرئيس «السادات» على علم بما يجري داخل القوات المسلحة، وأنه كان خلال تلك الفترة في حالة هلع وفزع.

٢ ـ لم يكن القائد العام الفريق أول «فوزي» على بينة من حقيقة موقفه؛ فقد تعمد ألا يفصح عنه.

٣ ـ وأنه تحرك بوازع شعوره بالمسئولية لمنع تورط القوات المسلحة في أي انقلابات عسكرية.

٤ ـ أنه من بادر بالاتصال بالأستاذ «هيكل» عبر مندوب «الأهرام» لإبلاغه بحقيقة موقفه من الأزمة.

٥ ـ أنه يُكن احترامًا كبيرًا لدور «فوزي» في تاريخ العسكرية المصرية، برغم تناقض المواقع في الأزمة سجله فيما بعد المساجلة المنشورة على أوراق خلّفها.

وفق شهادة الفريق أول «فوزي»، فإنه لا أساس لفرضية الانقلاب العسكري، وإن ما أطلق عليه «وثيقة إعدامي» فهي: «توجيهات عسكرية صدرت مني إلى الفريق صادق بهدف وضع خطة جديدة لتأمين القاهرة».

«توجيهات عسكرية لم تأخذ درجة سرية أصدر مثلها يوميًّا اثنيْن أو ثلاثة أو أكثر، وبالرغم من وجود أجهزة وإدارات متخصصة في مجال الأمن والتأمين فإن توجيه هذه الأجهزة ومباشرة أسلوب تنفيذها هما من مسئوليتي المباشرة».

«طالما أن هذه التوجيهات العسكرية الصادرة مني إلى الفريق صادق رئيس الأركان في ذلك الوقت بوصفه المنفذ الأول لجميع تعليمات الأمن والتأمين وبطريقة مشروعة وعلنية وليس لها قصد سوى تأمين القاهرة كما هو وارد في صلب التوجيهات، فما الداعي لإثارتها وتحريف معناها وقصدها لتكون أمر استعداد لوحدات مقاتلة من القوات المسلحة لقلب نظام الحكم بالقوة؟».

وفق شهادة الفريق أول «فوزي»، وكان بوسعه أن يؤكد أو ينفي دون محظورات كبيرة ما جاء في قضية أغلقت ملفاتها، فإنه «ليس في موقف دفاع عن موضوع مشروع هدفت من ورائه إلى صالح الدولة والقوات المسلحة ضمن اختصاصي ومسئوليتي، وهو موضوع ليس له أي علاقة مباشرة أو غير مباشرة بأي مواقف سياسية أو داخلية في ذلك الوقت».

«لم يكن هناك أي قائد أو ضابط دون رتبتي أو مركزي يمكنه اعتراض أوامري أو توجيهاتي أو يتشكك فيها أو يختلق معنى أو قصدًا غير ما هو مدون صراحة وكتابة، كما أنني عودت القادة المنفذين تذكر التفصيلات الدقيقة في مجال تنفيذهم لكل قرار يصدر مني؛ منعًا للارتجال الذي كان غالبًا قبل عام ١٩٦٧».

كانت تلك حججه في نفي فرضية الانقلاب العسكري.

لماذا ـ إذن ـ وُضِعَ اسما «سامي شرف» و«شعراوي جمعة» في نص الأمر العسكري كمصدرين آخرين له؟

كانت إجابته: «أن الفريق أول محمد أحمد صادق يعلم تمامًا أهمية موضوع الأمن والتأمين، وقد صدرت إليه تعليمات مباشرة من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بضرورة اهتمامه شخصيًّا بهذا الموضوع مع ضرورة تنسيقه وربطه مع قوات

الشرطة ومع رئاسة الجمهورية، ومن هنا جاء في توجيهاتي ذكر اسمي الوزيرين المسئولين والمشتركين مع القوات المسلحة في هذا المجال، وهما شعراوي جمعة وسامي شرف».

«لا أغالي في القول إذا ذكرت أن تعيين الفريق صادق رئيسًا لهيئة أركان حرب القوات المسلحة في سبتمبر ١٩٦٩ قد تم على أساس ودوافع أمنية، وجاء نشر هذه التوجيهات بمعرفة الفريق أول صادق في مايو ١٩٧١ مفاجأة لي؛ إذ إنها وغيرها كثير لم تكن من الأهمية التي تجعلني أعطيها مكانًا في ذاكرتي، أو في أوراق المكتبة الخاصة».

ثم طرح «فوزي» إشارتين تستدعيان التوقف عندهما بإعادة النظر، وأسئلة ربما تساعد إجاباتها على إضاءة الصورة بدرجة أكبر أمام من يبحث في التاريخ وأوراقه عن حقيقة ما جرى.

كانت الإشارة الأولى ـ إنه بعد مراجعته أوراق القضية رقم (١) أمن دولة عليا، وجد أن الادعاء المقدم ضده شمل في بنديه (٢) و(٣) محاولته المزعومة لاستقطاب أو تجنيد أو التلميح لقادة وحدات الفرقة السادسة الميكانيكية، واللواء (٢٥) مدرع، وإدارة المخابرات الحربية، ومدير الشرطة العسكرية، الذين حضروا جميعًا كشهود إثبات في المحاكمة.

«كيف يدعي الفريق أول صادق أنه تستر على هذه التوجيهات ومحتوياتها وأخفاها عن الرئيس السادات وعن المحكمة؛ لما لها من خطورة جسيمة قد تؤدي إلى إعدامي وزملائي في المحاكمة؟».

وكانت الإشارة الثانية ـ أن الفريق «صادق» لم يراجعه في اعتقاده وظنه، برغم أنهما كانا يلتقيان أكثر من مرة في اليوم الواحد، عندما تلقى الأمر العسكري يوم (٢١) إبريل (١٩٧١).

«لم يكن هناك ارتباط زمني بين هذا الأمر يوم ٢١ إبريل ١٩٧١ وبين أحداث داخلية أو سياسية تجعل الفريق صادق يفكر في تغيير هدف قراري الواضح في تفسير الأمر من تأمين القاهرة إلى تحضيرات عسكرية، تهدف إلى قلب نظام الدولة».

وكانت أسئلته:

«هل من المعقول أن يقبل الفريق أول فوزي على تدبير انقلاب عسكري، ويحرر كتابة بخط يده أمر الانقلاب أو استعدادًا له ويرسله إلى الفريق صادق للتنفيذ؟».

«هل من المعقول أن يقوم الفريق فوزي بتدبير انقلاب، مستخدمًا القوات المسلحة، ويكلف شخص الفريق صادق بتخطيطه وتنفيذه علنًا؟».

«هل يشك الفريق صادق في موقفي من تأييد الشرعية الدستورية واستمرارها في الدولة منذ البداية؟».

«هل يشك الفريق صادق في اتجاهاتي التنظيمية، ووضعي للقانون رقم ٤ لعام ١٩٦٨ في شأن تنظيم أسلوب الدفاع عن الدولة، وأسلوب القيادة والسيطرة على القوات المسلحة، التي دخلت بموجب هذا القانون في الإطار الطبيعي للدولة، أو أن ممارستي في تطبيق هذا القانون جعلت القوات المسلحة هي صمام الأمان للاحتفاظ بالشرعية الدستورية وتأمينها؟».

كانت تلك مساجلة مكتوبة بين قائدين عسكريين كبيرين حول عاصفة (١٥) مايو.

المثير في القصة كلها هو دلالاتها، لم تكن هناك قواعد مستقرة تضمن انتقالًا سلميًّا للسلطة، يحفظ للبلد تماسكه ولجيشه قدرته على خوض الحرب، ويصون في الوقت ذاته الإنجازات الاجتماعية والإستراتيجية التي تحققت.

الأكثر إثارة أن «السادات» ما إن تمكن من السلطة حتى بدأ في التخلص من جميع من ساعدوه في الصعود إليها.

أدخلت «مجموعة مايو» السجون بتهمة تآمر لم يحدث.

أقال الفريق أول «محمد صادق» بعد نحو عام.

وضع في السجن ضمن اعتقالات سبتمبر (١٩٨١) «محمد عبد السلام الزيات»، الذي اقتحم وزارة الإعلام وتولى مسئوليتها لحظة احتدام الأزمة.

خرج الأستاذ «محمد حسنين هيكل» عام (١٩٧٤) من قلعته في «الأهرام» عند افتراق الخيارات والطرق حتى وجد نفسه على رأس معتقلي سبتمبر.

ولقيَ اللواء «الليثي ناصف»، قائد الحرس الجمهوري نهاية مأساوية في صيف (١٩٧٣) بالسقوط من شرفة بناية في العاصمة البريطانية لندن دون أن تستبين الحقيقة حتى الآن.

قصة مايو واحدة من أكثر قصص التاريخ الحديث اختلاطًا في الأوراق.

ممن وقفوا مع «السادات» في «مايو» الدكتور «عزيز صدقي» رجل التصنيع، والمفكران اليساريان الدكتور «إسماعيل صبري عبد الله»، والدكتور «فؤاد مرسي» قبل أن ينتقلا إلى معارضته.

أغلب من أيدوه راجعوا مواقفهم بدرجات مختلفة.

الفريق أول «صادق» انهال عليه نقدًا في أوراق خلفها، لكنه لم يندم على دوره في أحداث مايو؛ حيث عزاه إلى المصلحة العامة لبلد في حالة حرب.

ذهب «الزيات» إلى القطيعة المعلنة في مذكرات نشرها.

ونحا «هيكل» إلى إعادة نظر كاملة وذاب جليد مع «مجموعة مايو»، دون أن يتراجع عن موقفه الذي اتخذه في حينه.

(٤)

كانت مقاليد السلطة استتبت لـ«أنور السادات» بعد إزاحة منافسيه عليها والزج بهم في السجون عندما داهمت نيران الفتنة الطائفية مصر يوم (٦) نوفمبر (١٩٧٢) في مركز «الخانكة».

لماذا هبت الفتنة في ذلك الوقت بعد عقود طويلة خمدت فيها نيرانها؟

ينسب لتجربة «عبد الناصر» أنها ضربت الأساس الاجتماعي للنخبة القبطية وجردتها من أراضٍ وممتلكات ومصانع بالقوانين الاشتراكية.

هذا اتهام شائع وله صدى، برغم أن القوانين نفسها طبقت بلا تمييز واستفادت من ثمارها الطبقة الوسطى والفئات المحرومة بغض النظر عن الانتماء الديني.

بقدر عمق التحولات وما انطوت عليه من فلسفة اجتماعية تعمل بقدر ما تستطيع على إشاعة العدالة والمساواة وإعلاء قيمة المواطنة، تأكد التماسك الوطني وخفتت النزعات الطائفية إلى حدود كبيرة.

ما الذي استدعى الفتنة من مكامنها، ولم يكن النظام الجديد قد كشف عن توجهاته في النظر إلى حقوق المواطنة والبلد يتأهب لخوض حرب تقرر مصيره؟

تبدى احتمال أن يكون هناك من طلب إرباك الوضع الداخلي، أو تفجيره بالفتن، قبل أي مواجهات عسكرية منتظرة، لكنه لم يثبت ولا قام عليه دليل.

أرجح الاحتمالات هو الجو العام نفسه.

لم يكن الرئيس الجديد مقنعًا لقطاعات كبيرة من المواطنين بقدرته على ملء فراغ سلفه الراحل، وريح المعارضة تهب عليه من داخل نظامه وخارجه على السواء.

بدأ التفكير مبكرًا، وهذا ثابت ومؤكد بشهادات واعترافات، في استخدام الورقة الدينية لضرب التيارين الناصري والماركسي.

جرت اتصالات لعودة أقطاب جماعة «الإخوان المسلمين» من الخارج والتصالح معها.

برز في الحلقة المقربة «محمد عثمان إسماعيل» محافظ أسيوط الأسبق صاحب العبارة الشهيرة: «أعداء النظام ثلاثة، الشيوعيون والناصريون والأقباط».

وكان قد شرع في تأسيس «الجماعة الإسلامية» بالجامعات المصرية لمواجهة الطلاب اليساريين الذين يعارضون «السادات».

كانت اللعبة في بدايتها لم تأخذ بعد كامل أبعادها مثل إعلان «السادات» أنه «رئيس مسلم لدولة مسلمة»، لكنها وفرت بيئة سلبية احتضنت الفتنة وزكت نيرانها، التي داهمت المصريين على غير توقع أو انتظار.

شكلت لجنة برلمانية لتقصي الحقائق ترأسها الفقيه القانوني الدكتور «جمال العطيفي»، انتهت بعد عشرين يومًا إلى استخلاصات وتوصيات لاقت قبولًا عامًّا، لكنها أودعت الأدراج إلى الأبد.

تمددت الفتن واشتعلت النيران في «سمالوط» و«أبو زعبل» (١٩٧٨) و«الزاوية الحمراء» (١٩٨١) و«شبرا» و«الزيتون» و«إمبابة» (١٩٩١) و«الكشح» (٢٠٠٠)، كما مناطق أخرى على الخريطة ربما لم يسمع باسمها أحد من قبل، حتى وصلنا في عام (٢٠١٣) إلى موجة عاتية من حرق الكنائس ارتكبتها جماعة «الإخوان المسلمين» لإضفاء طابع ديني على صراع سياسي بعد إطاحتها من الحكم.

بين عامي (٢٠١٦) و(٢٠١٨) جرت فتن جديدة في محافظات «المنيا» و«بني سويف» و«أسوان» والخيط ممدود إلى المستقبل.

«في مصر فتنة طائفية».

كانت تلك جملة قاطعة بدأ بها الأستاذ «أحمد بهاء الدين» في مارس (١٩٨٧) سلسلة أعمدة يومية استغرقت أسبوعًا عن فتنة كادت تبدد السلام النفسي قبل الاجتماعي، وتذهب بالعقل إلى ما يتجاوز الجنون.

في تلك الأيام انشغلت مصر بقصص وشائعات عن «القماش الذي يظهر الماء عليه رسم الصليب والكف، التي إذا صافحتك طبعت على يدك رسم الصليب».

«كنت أرتعد لسريان هذه الخرافات وما يترتب عليها من حقائق نفسية وعقلية ومادية مرعبة».

كان قد مضى ربع قرن على «تقرير العطيفي»، وبدا الكلام كله عودًا على بدء.

نسمع الأوصاف نفسها عبر العقود المتتالية عند كل فتنة: «الأحداث المؤسفة»، «الأحداث الفردية»، «عناصر مدسوسة»، و«أياديَ أجنبية»، كأن «الكل بريء ولا أحد مسئول ونحن جميعًا ملائكة».

في كل مرة ترتفع الأصوات مطالبة بتحرك القيادات الرسمية والسياسية من العاصمة لمواجهة جذور المشكلة لا نتائجها، كأننا لا نتعلم من تجاربنا المريرة، ولا نسعى لأن نضع أقدامنا على أول الطريق الصحيح.

التعصب هو المادة الخام لكل فتنة، و«له ميكانيكية ثابتة عبر كل العصور وكل المجتمعات، فالأزمة الاقتصادية وضيق الرزق وتوتر الحياة من أسبابه».

في ردات الفعل الاجتماعية يجرى البحث عن أكباش فداء.

كما أن «الإحباط إزاء عدو خارجي مثلًا، أو العجز عن مواجهة تحديات خارجية، يجعل الناس في عجزهم ينكفئون على صراعات داخلية لم تكن موجودة من قبل».

«فإذا كان العنصر الخارجي صعبًا فقد يهيأ للبعض أن العنصر الداخلي أسهل».. «وإذا انعدمت القدرة على مواجهة أعداء حقيقيين فالبحث يتجه تلقائيًا إلى إيجاد أعداء غير حقيقيين للتنفيس».

المعنى أن التعاسة الاجتماعية، كما العجز الوطني، من محركات الفتن، فضلًا عن إحباط الشباب الذي يعاني سوء التعليم والبطالة، والأفق مسدود أمامه، والدور السلبي الذي يلعبه الإعلام أحيانًا والجهالات التي تُنسب إلى الدين ظلمًا.

«هذه بذور التعصب التي يأتي من يصب عليها الزيت فتتحول إلى نار».

لم يكن كلام الأستاذ «بهاء» جديدًا على الحياة العامة، لكنه اكتسب تأثيره الكبير من وزن صاحبه في لحظة خاصة كادت الخرافات أن تستبد بالمشاعر.

لعل ما كتبه عام (١٩٨٧) يوفر تفسيرًا مقنعًا لاشتعال الفتن الطائفية عام (١٩٧٢).

«هذه حقائق أليمة ومريرة وقد جرى العمل على أنه لا يجوز نشرها علنًا، ولكنني أومن بالمجتمع المفتوح، وأن طرح المشكلة مهما كانت جارحة ومناقشتها علنًا هما السبيل الوحيد لحلها، وأن تجاهلها يؤدي إلى تراكمها حتى تصل إلى الانفجار».

«فن الحكم هو فن سبق المشكلات، مواجهتها وهي في المهد وليس التأخر في إطفاء الحريق بعد أن يكون قد أتى على كل شيء».

لم يكن الحكم في ذلك العام بوارد أن يستبق أي مشكلة، وبعض مؤشراته تنبئ عن تفكيك محتمل للمشروع الوطني.

(٥)

«.. عندما مات جمال عبد الناصر وأصبح السادات رئيسًا للجمهورية، أراد البيروقراطيون أن يضعوا صورة الأخير مكان صورة سلفه على جدران المكاتب الحكومية والمؤسسات المختلفة، لكن السادات رفض ذلك الإجراء؛ مقدمًا لمواطنيه درسًا قيمًا في الوفاء. فقد رويَ عنه قوله: إن الأفضل من رفع صورة عبد الناصر تركها حتى تقع من تلقاء نفسها، هكذا استقر الوجه المتبتل ذو الزبيبة إلى

جوار سلفه الباسم ذي الفودين الأشيبين حتى تحققت نبوءة السادات، وأخذت صور عبد الناصر تتساقط من تلقاء نفسها».

«وقد بدأت هذه الظاهرة في الشركات التي تأسست طبقًا لقانون الاستثمار الجديد، ثم انتقلت منه إلى بقية المؤسسات. لكن الغرفة التي تضم قسم متابعة الأخبار وتقويمها (في التلفزيون المصري)، احتفظت بالصورتين متجاورتين بفضل ذات التي كانت تتلقى زيارات ليلية من العملاق الباسم ذي الفودين الأشيبين بالتناوب مع أبيها الذي انضم إلى عبد الناصر، في السماء لا الجدار، إلى أن اغتيل السادات».

لم تكن القضية صورة على جدار بقدر ما كانت سياسات على أرض.

يعكس هذا النص لـ«صنع الله إبراهيم» في روايته «ذات» الأجواء التي كانت سائدة في السبعينيات عندما بدأت الحملة على «عبد الناصر» وكل ما يمت له بصلة.

في أعقاب حرب أكتوبر (١٩٧٣) بدا أنه قد حان الوقت وتهيأت الظروف للإعلان عن توجهات جديدة وبناء نظام آخر على أنقاض إرث «عبد الناصر» وتوجهاته وسياساته.

«أطلقوا ألسنتهم فيه على اعتبار أنه كان سبب الهزيمة بينما السادات سبب النصر، وبعد أن كانوا يهاجمونه ضمنًا في حملتهم على مراكز القوى أصبحوا يهاجمونه شخصًا، وعينًا، وتاريخًا، وإنجازات وأصبح في قفص الاتهام كل شيء قاله أو فعله وتدفقت كتب ومقالات تعفي الاستعمار وإسرائيل من مسئولية تخريب مصر، وتلقيها على عاتق الإصلاح الزراعي، والسد العالي، ومجانية التعليم، ومحاربة الاستعمار، والتطور الصناعي، والتحول الاشتراكي.. إلى آخر هذه الجرائم الفادحة!».

كان ذلك توصيفًا للحملة وضراوتها كتب عام (١٩٧٥) بقلم رئيس تحرير مجلة «روز اليوسف» «صلاح حافظ».

في ذلك الوقت نشرت «روز اليوسف» بعد طول نقاش داخل مجلس تحريرها سلسلة مقالات للدكتور «فؤاد زكريا»، انتقدت ثورة «يوليو» وتجربة «عبد الناصر»، وانضمت إلى حملات اليمين عليه.

وكان من رأي الدكتور «فؤاد زكريا» أن اليسار أخطأ فيما أسماه «تأليه عبد الناصر»، تحالف معه دون شروط، وضع نفسه في خدمته متغاضيًا عن أخطائه، وهو يخطئ مجددًا حين يستمر في الدفاع عن هذه الأخطاء وتبريرها، تاركًا لـ«اليمين شرف كشفها ومهاجمتها».

استدعت تلك الأطروحة ردودًا غاضبة من كبار كتاب اليسار على صفحات «روز اليوسف» جمعت في كتيب: «عبد الناصر واليسار المصري».

ممـن انبـروا للرد والتفنيـد «محمد عـودة» و«فيليب جلاب» و«أديـب ديمتري» و«كمال الدين رفعت» و«فتحي خليل» و«أبو سيف يوسف» و«صلاح حافظ» نفسه.

في مساجلات «يوليو» والدفاع عنها لم يتخلف كاتب واحد له قيمة وتأثير في إبداء موقفه، كـ«أحمد بهاء الدين» صاحب مقولة «موتوا بغيظكم»، و«كامل زهيري» بعبارته الشهيرة «عبد الناصر أقوى من الهزيمة والسادات أضعف من النصر».

كما دافع بقدر ما اجتهد «عبد الله إمام»، والكاتب الصحفي الشاب في ذلك الوقت «حسنين كروم».

ودخل «محمد حسنين هيكل» إلى قلب المعركة بكتابه «لمصر لا لعبد الناصر» حتى لا يُقال «إن كل رجاله خانوه».

بتوصيف الدكتور «يونان لبيب رزق» لـ«هوجة المذكرات»، التي تصدى لكتابتها في السبعينيات من لم يسمع عنهم من قبل وأسندت إلى أصحابها أدوار بطولية لم تحدث، فإنها «ظاهرة لم تعرفها مصر على هذا النحو الواسع من قبل».

«لأن ما تم في عهد عبد الناصر كان كبيرًا، فقد كان من الطبيعي أن يجيء رد الفعل بحجم الفعل، وأن تُشارك جبهات عديدة في ضرب الحقبة الناصرية» كما فسر الظاهرة.

وسط تلك الحملات الممنهجة، التي شاركت فيها صحف صدرت في لندن خصيصًا لهذا الغرض قبل غيره، وصُنعت أفلام أغلبها أقرب إلى أعمال المقاولات وأنتجت مسرحيات تجارية تشهر بالتجربة كلها، تبدى سؤالان ملغمان كأنهما طلقتا بارود.

الأول ـ هل كنا في غيبوبة سياسية وها هو الوعي يعود من جديد مع فتح «ملف عبد الناصر»؟

وقد طرحه «توفيق الحكيم» في كتابه «عودة الوعي» (١٩٧٤).

والثاني ـ هل كان «عبد الناصر» ذلك الملاك؛ يده نظيفة وذمته فوق مستوى الشبهات، أم أنه تورط في قضايا تربح دون وجه حق؟

وقد طرحه «جلال الدين الحمامصي» في كتابه «حوار وراء الأسوار» (١٩٧٦).

كان الكتاب الأول صاعقًا بقدر وزن كاتبه، والصورة التي ارتبطت به كأحد ملهمي فكرة الثورة والتغيير عند «جمال عبد الناصر»، الذي تأثر في شبابه الباكر بروايته «عودة الروح».

في ذلك الكتاب ـ (٧٦) صفحة من القطع المتوسط ـ تلخصت ثورة «يوليو» في الجرائم والهزائم والسجون والمعتقلات، هاجم أي إيجابيات منسوبة إليها مثل السد العالي وتأميم قناة السويس، الذي تسبب في العدوان الثلاثي، ومجانية التعليم والإصلاح الزراعي، حتى بدا «الحكيم» ضد «الحكيم» بتعبير الناقد الأدبي «فتحي عامر» فهو من دعا في «عودة الروح» إلى الحاكم القوي العادل، الذي يبعث مصر من رقدتها «الكل في واحد».. وهو من حكم في «يوميات نائب في الأرياف» على نظام ما قبل «يوليو» بالفساد السياسي والبرلماني والحزبي.

بالنظر إلى الصورة التي ترسخت عنه كـ«ملهم» لـ«عبد الناصر» كانت ردات الفعل بنفس قوة الصدمة.

تصدى للرد عليه الأستاذ «محمد عودة» بكتابه «الوعي المفقود».

انزعج «الحكيم» من بعض الأوصاف والتشبيهات التي لحقت به في صدر كتاب «عودة»، طلب من صديقهما المشترك الدكتور «لويس عوض» أن ينقل ذلك الانزعاج المعاتب.

لم تكن محض مساجلة حادة بين كاتبين كبيرين، بقدر ما كانت أزمة بلد لا يعرف هل استعاد وعيه أم فقده.

وكان الكتاب الثاني تجاوزًا لكل حد، نشرته «أخبار اليوم» على حلقات حتى يأخذ تأثيره أبعد مدى ممكن.

«جمال عبد الناصر اختلس لنفسه وهرّب إلى الخارج لحسابه مبلغ خمسة عشر مليونًا من الدولارات: خمسة منها قدمها الملك سعود تبرعًا للمجهود الحربي المصري، والعشرة الباقية قدمها الملك سعود أيضًا قرضًا لمصر، ولكن جمال عبد الناصر اغتصب هذا كله لمنفعته الشخصية وأودع الأموال في حسابه باسمه في الخارج.. هكذا!».

«أكثر من ذلك فإن جمال عبد الناصر أقدم على هذا التصرف في وقت محنة عربية كبرى، وهي تلك الأيام السوداء من يونيو سنة ١٩٦٧.. هكذا أيضًا».

«مع أن هذه القذيفة من السموم طاشت وأخطأت هدفها ووقعت على الأرض وانكشفت شحنتها السوداء، إلا أن المسألة مازالت تحتاج إلى كثير من التأمل والتفكير، ثم إنها تثير عديدًا من الأسئلة الحائرة:

كأن المصادفات أرادت أن تجيب بالصدق عن هذه الأسئلة الأخيرة: لماذا؟ وما هو الهدف؟ لحساب من؟

ـ ماذا إذا لم تكن غضبة جماهير الشعب في مصر وفي العالم العربي على هذا النحو الذي كانت عليه مما استوجب البحث عن الحقيقة وإظهارها في ساعات قليلة؟

ـ ماذا إذا لم يكن ثلاثة من أبرز شخصيات مصر، عاصروا موضوع تبرع الملك سعود بخمسة ملايين دولار وإقراضه لمصر عشرة ملايين أخرى، وقد عاشوا التفصيلات كلها ما زالوا قادرين على الكلام، وهم يعرفون أن هذه المبالغ جاءت في النور ووضعت في البنود التي كانت مرصودة لها: وضع مبلغ التبرع في حساب خاص بالتبرعات في بنك مصر مفتوح باسم رئيس الجمهورية وانتقل من جمال عبد الناصر إلى أنور السادات حين وليَ المنصب، ثم إن مبلغ القرض جرى تحصيله باسم البنك المركزي المصري ودخل في حساباته، والثلاثة هم: حسن عباس زكي وعبد العزيز حجازي وهما وزيران وقتها للاقتصاد والخزانة، وأحمد زندو المحافظ للبنك المركزي.

ـ ماذا لو لم تكن الوثائق في متناول يد أحمد زندو محافظ البنك المركزي، وكان الرجل يملك الشجاعة الكافية ليتقدم برغم الجو الخانق ويقول بأمانة:

ـ حرام هذا الذي يفترى به، وهذه هي الوثائق تنطق بالحقيقة؟!

ـ ماذا إذا لم يشعر رجل مثل ممدوح سالم بحسه ومسئوليته أن إخفاء الحقيقة أو تمويهها يمكن أن يؤدي إلى عواقب خطيرة داخل البلد تؤثر في أمنه؟».

كانت تلك شهادة «محمد حسنين هيكل» على رواية «جلال الدين الحمامصي»، كما سجلها في كتابه «لمصر لا لعبد الناصر».

ربما تصور الأستاذ «الحمامصي»، أنه يخوض مجددًا معركة نزاهة الحكم، فهو من صاغ «الكتاب الأسود» تحت إشراف القصر الملكي، للنيل من زعيم الوفد «مصطفى النحاس».

انفجر غضب طلابي في كلية الإعلام بجامعة القاهرة، قسم الصحافة بالخصوص، الذي كان يشرف عليه، وهو أستاذ مقتدر في مجاله.

طلب منه، أو هو قرر من تلقاء نفسه، التغيب عن إلقاء أي محاضرات داخل الكلية الغاضبة.

لم يكن ذلك مقبولًا من عميد كلية الإعلام في ذلك الوقت الدكتور «عبد الملك عودة» وتوجهاته على النقيض تمامًا.

كان الحل المؤقت، الذي أمكن التوصل إليه، نقل محاضراته إلى إحدى قاعات مؤسسة «أخبار اليوم»، الذي تولى أكثر من مرة رئاسة تحرير طبعتها اليومية «الأخبار».

في بدء المحاضرة حاول أن يشرح موقفه غير أن الأسئلة حاصرته وبدا أن هناك اتهامًا مشرعًا بأنه قد جرى توظيفه، اعترض على التعبير وغادر القاعة.

شهدت «أخبار اليوم» على سلالمها، وطلاب الصحافة يغادرونها، هتافًا جماعيًّا باسم «عبد الناصر».

بعد تلك الواقعة غادر الأستاذ «الحمامصي» كلية الإعلام للأبد.

قبل أن يغادر طلب عبر زميلتي «ليلى عبد المجيد»، عميدة كلية الإعلام فيما بعد، أن يلتقيني في بيته على كورنيش جاردن سيتي.

لم أكن مقتنعًا بجدوى الحوار، لكني غيرت رأيي بعد أن نشرت الطبعة الأولى لصحيفة «الجمهورية» قبل منتصف الليل وثائق البنك المركزي التي تفند ما تورط فيه.

في ذلك الوقت المتأخر، ذهبت مع زميليَّ «حمدين صباحي» و«محمد الشرايدي» إلى منزله وتركنا ورقة تقول إننا سوف نعود في صباح اليوم التالي للحديث معه.

جرى حوار مطول حول الواقعة وتداعياتها، طلب مساندة تلاميذه في شرح موقفه.

قلنا: «جرى توظيفك يا أستاذ جلال، والآن سوف يتخلصون منك».

اقترح مواصلة الحوار معه ونشره دون أن يُدرك أن كل شيء قد حسم بوثائق البنك المركزي.

فيما بعد أصدر جزءًا ثانيًا من كتابه ضمنه حوارًا تخيليًّا مع من أسماهم «زوار الفجر» قاصدًا طلابه الثلاثة.

«عزيزي أنور السادات

تحية واحترامًا.. وبعد

يؤسفني، أشد الأسف، أن أقدم استقالتي من عملي بدار الجمهورية تحت ضغط الإحساس المتصل بأن ما كنت أشعر به من ثقة السيد الرئيس جمال عبد الناصر قد أصبح ـ لسبب لا أعرفه ـ غير قائم.

وبعد هذا أود أن أسجل أن الفترة التي عملت فيها مع السيد الرئيس، ومعك، كانت أسعد فترات حياتي الصحفية، وسأظل أذكرها ما حييت، مؤكدًا له أني سأظل دائمًا مخلصًا للفكرة النبيلة، التي أيدتها وأنا خارج الجمهورية وداخل الجمهورية، وسأؤيدها في كل وقت لأني أومن بها.

ولك أخلص تحياتي ومحبتي».

كانت تلك رسالة خطية من «المخلص جلال الدين الحمامصي» بتاريخ (٢٢) سبتمبر (١٩٥٧) وجدها الدكتور «جمال شقرة»، عندما أُتيحت له فرصة أن يُطل على جانب من أرشيف الرئاسة المصرية في أثناء إعداده لرسالة الدكتوراه.

(٦)

كان فتح «ملف عبد الناصر» تمهيدًا لسياسات تمددت من الانفتاح الاقتصادي بالطريقة التي جرت بها إلى الصلح مع إسرائيل بالتنازلات التي انطوى عليها.

بعد عودة «السادات» من جولة في بوخارست وطهران والرياض دعا يوم (٥) نوفمبر (١٩٧٧) لاجتماع عاجل لمجلس الأمن القومي المصري.

في ذلك الاجتماع قال «السادات» بالنص: «أنا مستعد أن أذهب إلى القدس، وأن ألقي خطابًا في الكنيست الإسرائيلي، إذا كان ذلك يمكن أن يحقن دم أولادي».

كانت تلك المرة الأولى التي ترد على لسانه هذه العبارة الفارقة قبل أن يرددها بحذافيرها بعد أربعة أيام في خطاب ألقاه أمام مجلس الشعب.

ران على اجتماع مجلس الأمن القومي صمت كامل، ويبدو أن أحدًا ـ كما تؤكد مذكرات وزير الخارجية «إسماعيل فهمي» لم يأخذ هذا القول بشكل جدي، كما أن «السادات» لم يوضح تمامًا ماذا يعنيه.

ربما لأنه لم يكن قد اتخذ قرارًا نهائيًّا في هذا الموضوع.

أو ربما لأنه «لم يرَ أن يُعطينا فرصة التعليق على ما قاله، أو مناقشته».

قرار انفرادي دون أدنى مناقشة في أعلى المستويات المعنية بالأمن القومي، ودون علم وزير خارجيته الذي كان برفقته في جولته الخارجية.

كل ما جرى في ذلك الاجتماع إشارات وتلميحات وإيحاءات غامضة لما أسفرت عنه مباحثاته مع الرئيس الروماني «نيكولاي شاوشيسكو«، وإلى الإطار العام لاقتراح رئيس الوزراء الإسرائيلي «مناحم بيجين» حول الخطوط العامة للكيان الفلسطيني الجديد.

حسب مذكرات «إسماعيل فهمي»، فإن وزير الدفاع الفريق أول «عبد الغني الجمسي» قطع الصمت الذي ران على الاجتماع من فرط المفاجأة.

صاح فجأة وهو يلوح بذراعيه: «لا كنيست.. لا كنيست.. ليس هذا ضروريًّا».

كان «الجمسي» كما يصفه «إسماعيل فهمي» «من الرجال الذين يلتزمون النظام بصورة تامة، فلم يكن يتدخل في الحديث، أو يُشعل حتى سيجارته، قبل الحصول على إذن، لكنه في هذه اللحظة خشيَ أن يكون السادات يعني ما يقول».

لم ينبس أحد آخر بكلمة واحدة، ومضى «السادات» يتكلم في موضوعات أخرى، وكأنه لم يسمع ما قاله وزير الدفاع على الإطلاق.

عندما أعلن «السادات» ذات العبارة مرة أخرى من على منصة مجلس الشعب تصادف أن «الجمسي» كان بجوار «إسماعيل فهمي» على مقاعد الوزراء، فمال على وزير الخارجية هامسًا: «ها هو يقولها مرة أخرى!».

وزير الخارجية ـ مع ذلك كله ـ لم يأخذ الأمر جدًّا.. وبعد أن انتهى «السادات» من إلقاء الخطاب توجه إلى البهو الملحق بالمجلس، وهناك قال صائحًا أمام الجميع: «لقد كانت زلة لسان.. أرجوك يا إسماعيل أن تحذف هذه الجملة من الخطاب».

نفذ «إسماعيل» التعليمات فورًا.. وطلب من رؤساء تحرير الصحف أن يتجاهلوا هذه العبارة الخاصة بزيارة القدس والكنيست. غير أن «السادات» عاد بعد قليل، فور أن نشرت وكالات الأنباء والمحطات التلفزيونية العالمية الخبر، وطلب من نفس رؤساء التحرير أن يتجاهلوا تعليمات وزير الخارجية!

بمثل هذه الطريقة أديرت أخطر قرارات الصراع العربي - الإسرائيلي.

لم يكن يناسب شخصًا محترفًا في كفاءة «إسماعيل فهمي» أن يتغاضى لا عن «الأسلوب» ولا عن «المنهج».. ولا أن يغمض العين عن «النتائج الوخيمة» المتوقعة.. فاستقال.

اتهم أنصار الرئيس الراحل «إسماعيل فهمي» بأنه لم يحتمل فكرة المبادرة.. لأنه ينتمي إلى مدرسة تقليدية وقديمة!

برغم أن الدكتور «بطرس غالي»، الذي صعد إلى قمة جهاز الخارجية المصرية في أعقاب استقالتي وزيريْها «إسماعيل فهمي» ووزير الدولة للشئون الخارجية «محمد رياض»، كان مقتنعًا بما أقدم عليه «السادات»، فإنه وجد نفسه عضوًا فيمن كان يسميهم بـ«عصابة الخارجية»، أو «الميكانيكية» نسبة إلى التعبير الإنجليزي الشهير «الميكانيزم» أو «الآلية»، الذي كان يستخدم وقتها على نطاق واسع في أوساط المثقفين والدبلوماسيين!

لم يكن بوسع الدكتور «غالي» بخلفيته الأكاديمية أن يغض الطرف كما جاء في مذكراته، عن الأداء الهابط لكثير من مشاهد المفاوضات.

بتعبير «الجمسي» عن مفاوضات الكيلو (١٠١)، التي استبقت زيارة الكنيست بفترة طويلة نسبيًّا: «كنت أتفاوض مع وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر.. بينما النتيجة معدة سلفًا بينه وبين الرئيس السادات».

أكد «كيسنجر» في مذكراته ما قاله «الجمسي»: «لم أعد وسيطًا بين مصر وإسرائيل.. بل بين السادات وإسرائيل من جهة والوفد المصري من جهة أخرى».

أهدرت النتائج العسكرية لحرب أكتوبر بمقولتي: «٧٠٪ من الصراع مع إسرائيل نفسي».. و«٩٩٪ من أوراق اللعبة في يد الولايات المتحدة».

كانت النتائج وخيمة على الدور الإقليمي المصري بالانخراط في الصلح المنفرد مع إسرائيل والخروج من الصراع العربي- الإسرائيلي.

«شاهدت زيارة السادات للكنيست بالكويت.. بعد دقائق اختفت النساء. كن يبكين بالحمامات وغرف النوم».

تلخص تلك العبارة للأستاذ «أحمد بهاء الدين» شيئًا من الجو العام في العالم العربي لحظة زيارة القدس.

عالم بأكمله انهار تحت ومضات الكاميرات ومرحلة كاملة من التاريخ أغلقت بالدموع.

(٧)

في أجواء الصدام اختبرت معادن رجال وصلابة مواقف.

تصدرت مشاهد رفض اتفاقيتي «كامب ديفيد» تيارات وأحزاب يصعب أن تلتقي.

وتشاركت في رفض التطبيع مع إسرائيل أجيال ونقابات وجمعيات أهلية، وكل ما يتحرك بالحيوية في البلد.

كان من أبرز الوجوه التي تصدت لـ«كامب ديفيد» نقيب المحامين «عبد العزيز الشوربجي»، إن لم يكن أبرزها على الإطلاق.

بخلفيته السياسية فهو «وفدي» يجافي تجربة «جمال عبد الناصر» في الحكم غير أنه في لحظة «كامب ديفيد» وما تمثله من خطر على الوطنية المصرية قال بما هو نصه في محضر التحقيقات معه أمام النيابة العامة:

«والله لو استقبلت من أمري ما استدبرت لكنت من رجاله وحاربت خلفه».

فقيه قانوني آخر من أفضل من مروا على مصر من محامين كبار هو الدكتور «محمد عصفور»، وجد نفسه ـ بقوة الوطنية المصرية برغم الخلاف المعلن مع «عبد الناصر» يقول في حوار صحفي منشور: «أمريكا استغلت السادات لإجهاض مشروع ناصر».

بمضي الوقت استقرت حقائق المشروع المضاد.

تفكيك الاقتصاد الوطني باسم الانفتاح الاقتصادي أسس لطبقة جديدة وظيفتها مساندة نوع معين من السلام.

وتفكيك نظرية الأمن القومي باسم السلام مع إسرائيل أسس لتراجع المكانة المصرية في محيطها وقارتها وعالمها الثالث.

بتصدع المشروع الوطني لم يكن ممكنًا بناء اقتصاد قوي، برغم وعود الرخاء، ولا تأسيس ديمقراطية حقيقية تقوم على التعددية والتنافس الحزبي وفق أصول مدنية الدولة والاحتكام إلى القواعد الدستورية الحديثة.

لم تكن محض مصادفة، أو سوء تقدير، حملة الاعتقالات التي شنها «السادات» في سبتمبر (١٩٨١).

الضيق بالمعارضة اعتراف عملي بحجم التنازلات التي قدمت والاعتقالات الواسعة بدت علامة نهاية.

«ما هذا القرار أيها الرجل؟! تعلن ثورة في ١٥ مايو ثم تصفيها في ٥ سبتمبر؟

تزج في السجن بالمصريين جميعًا من مسلمين وأقباط، رجال أحزاب ورجال فكر؟

لم يعد في ميدان الحرية إلا الانتهازيون».

كانت تلك عبارة احتجاج على اعتقالات سبتمبر أوردها «نجيب محفوظ» على لسان الجد الوفدي «محتشمي زايد» في روايته «يوم قتل الزعيم».

«ما هو إلا ممثل فاشل».

«صديقي بيجين.. صديقي كيسنجر.. الزي هتلر والفعل شارلي شابلن».

وكانت تلك صيحة رفض أوردها على لسان الحفيد الناصري «علوان فواز محتشمي».

برغم عنوان الرواية، التي أضفت صفة الزعامة على «السادات» لا يوجد حرف واحد فيها يؤكد هذا المعنى.

بأثر النكسة ووطأة الانفتاح عجز الحفيد عن إتمام زواجه من خطيبته، التي تشاركه الأفكار نفسها ـ «أعلنت الخطوبة في عهد الناصرية وواجهتنا الحقيقة في عصر الانفتاح».

«هل ينفعنا قتل مليون؟».

«قد ينفعنا قتل واحد فقط».

بنص الحوار بين الخطيبين اليائسين.

جرت إدانة عملية اغتيال «السادات» في ذلك النص الروائي على لسان الخطيبة «راندة سليمان مبارك»: «يا للفظاعة! ألا توجد وسيلة إلا القتل».

توقفت رحلة «السادات» في حادث المنصة الدموي، غير أن خياراته حكمت مصر بعده لأزمان طويلة تالية.

لم يكن الرجل هو الموضوع بقدر ما كان مشروعه المضاد.

هناك رواية شائعة رددها «أحمد حمروش» وآخرون، أن «عبد الناصر» قرر عزل «السادات» من منصب نائب رئيس الجمهورية وتعيين «عبد اللطيف البغدادي» محله، لكنها غير مؤكدة ولا أقيم عليها دليل.

إذا كان قد قدر لهذه الرواية الافتراضية أن تحدث، فإن سيناريوهات غروب «يوليو» قد تختلف، دون أن يكون هناك أمل كبير في استطراد مشروعها وتجديد أفكارها.

«البغدادي» نفسه هاجم «عبد الناصر» في شهادات منشورة، ولم يكن هو الرجل الذي يمكن أن يجدد الثورة ويضخ دماء جديدة في شرعيتها.

لم تكن لدى «عبد الناصر» نفسه ثقة كبيرة فيما قد يحدث بعده.

في رواية مستلفتة لرجل التصنيع الدكتور «عزيز صدقي» بتاريخ (٤) يوليو (٢٠٠٥) فإن «عبد الناصر» قال له عام (١٩٦٨): «إحنا مش هنعيش كتير.. واللي جاي بعدنا معرفش هيعمل إيه.. واللي إنت بتعمله مش هيقدروا يهدوه».

كانت تلك شهادة إضافية على أزمة نظام «يوليو»، وعدم قدرته على حمل مشروعه إلى المستقبل.

لم يكن ممكنًا لثورة بحجم «يوليو» أن تستمر بالتطور والتجديد والإضافة إذا لم يكن هناك نظام أكثر انفتاحًا على قواعد دولة القانون والمؤسسات والتعددية السياسية المستقرة على دستور يضمن أهداف الثورة ويصونها.

(٨)

عند نهاية رحلة «السادات» تبدت مفارقتان.

الأولى ـ أن الذين اغتالوه في حادث المنصة هم من راهن عليهم لضرب التيارين الناصري والماركسي.

بتعبير وزير داخليته «النبوي إسماعيل» (٢٠٠٣): «الجماعات الأصولية عفريت أخرجه السادات من القمقم ولم يعرف كيف يصرفه».

والثانية ـ أن الذين شاركوا في جنازته هم أنفسهم الذين حصدوا جوائز الحرب، والذين رتبوا للأوضاع من بعده لم يكونوا أصحاب البلد.

في مطلع يناير (١٩٨١) أشارت صحيفة «الجيروزاليم بوست» الإسرائيلية إلى أن هناك تقريرًا جديدًا للاستخبارات الأمريكية يوصي بالنص: «يكفي السادات عشر سنوات».

بعد عشرة أشهر قُتل السادات في حادث المنصة.

بغض النظر عن أي أسرار وخفايا في قصة اغتياله فإنه كانت هناك مصلحة إسرائيلية وأمريكية في التخلص منه للوصول إلى نقطة استقرار مستدامة دون أي اضطرابات تتسبب فيها شخصيته مع خلفه «حسني مبارك».

الاغتيالات السياسية مدانة بذاتها، غير أنه من المثير ما تنبأ به شاعران كبيران قبل حادث المنصة الدموي في قصيدتين.

الأولى ـ قصيدة «البتاع» لـ«أحمد فؤاد نجم» في السبعينيات:

«باع البتاع بالبتاع
وعشان يعيش على طول
عين حرس بالبتاع
وبرضه مات مقتول».

والثانية ـ قصيدة «الجزر والمد» لـ«عبد الرحمن الأبنودي» أول الثمانينيات.

«ارخى وشد..
لكن.. انشف..
ممكن يعملها خروف أعجف».

مات «السادات» وبقي مشروعه يحكم.

كانت انقلاباته السياسية والإستراتيجية دليلًا على العيوب البنيوية في نظام «يوليو».

الانقلابات جرت من داخل النظام بذات الآليات التي حققت إنجازات «يوليو» ـ أدوات الدولة.

لم يتراجع المشروع الناصري في يوم وليلة.

كان انفصال الوحدة المصرية السورية (١٩٦١) ضربة أولى.

وكانت هزيمة (١٩٦٧) ضربة ثانية.

وكان رحيل «عبد الناصر» ضربة ثالثة.

وكانت أحداث مايو (١٩٧١) ضربة رابعة.

كان الانفتاح الاقتصادي (١٩٧٤) ضربة خامسة

وكانت اتفاقية «كامب ديفيد» (١٩٧٨) ضربة سادسة.

بتوالي الضربات تقوّضت ركائز وتغيرت إستراتيجيات وضاعت معانٍ دفع ثمنها عرقًا ودمًا، غير أن المشروعات الكبرى تكتسب مناعتها وإلهامها من أفكارها وقدرتها على المراجعة بالتصحيح، والتجديد بالإضافة.

الفصل الثاني عشر: موعد مع القدر

مطلع العام التالي للهزيمة العسكرية (١٩٦٨) هبت أولى موجات الغضب في مصر الجريحة.

في ذلك العام الغاضب نشأت حركات وانتفاضات طلابية بأنحاء مختلفة من العالم، وليس في مصر وحدها، أهمها وأكثرها دويًّا الانتفاضة الطلابية الفرنسية.

لكل حركة طبيعة وأسباب تختلف عن الأخرى، لكن جمع بينها الغضب على ما هو حولها وأمامها وخلفها.

انتشرت في تلك الأيام مسرحية الكاتب البريطاني «جون أوسبورن»: «انظر وراءك في غضب» برغم أنها كتبت في الخمسينيات ـ كأنها بدلالات عنوانها ثورة جامحة على الماضي بكل إرثه.

شاعت كتابات الفيلسوف الألماني «هربرت ماركوز» عن دور الطلاب في صناعة التاريخ، واحتلت صور الثائر الأممي «أرنستو تشي جيفارا» جدران المدن الجامعية رمزًا للتمرد على سطوة النظم.

واشتهرت عبارة أطلقها الأديب السكندري «محمد حافظ رجب»: «نحن جيل بلا أساتذة» تعبيرًا عن أحوال ومشاعر ضاقت بأي وصاية، أو أبوه مفترضة، دون أن تصادف الحقيقة، فلا جيل يولد من فراغ منقطع الصلة بما قبله حتى لو تمرد عليه.

بدأت تظهر مجلات الحائط على جدران الكليات الجامعية بأقلام «فلوماستر» وروح متمردة.

وقد استوحيت من الثورة الثقافية في الصين.

كانت مجلات الحائط في وقتها وظروفها ثورة في حرية التعبير عما تختلج به النفوس دون رقابة، أو مصادرة.

ثورة أتاحت أوسع فرص ممكنة للحوارات المفتوحة.

في فبراير من ذلك العام الغاضب تبدت صدمة واسعة على خلفية أحكام مخففة بحق المتسببين في هزيمة يونيو من سلاح الطيران.

خرجت تظاهرات في جامعة الإسكندرية تحتج على الأحكام.

تطورت مطالبها إلى تعبئة موارد البلاد لخوض حرب تحرير سيناء المحتلة وتوسيع المشاركة السياسية في صناعة القرار.

لم يكن الغضب على ثورة يوليو، أو رفضًا لمبادئها وإنجازاتها، بقدر ما كان احتجاجًا من أجيال جديدة نشأت في ظلها على الأسباب التي أدت إلى الهزيمة العسكرية.

نالت بعض الهتافات من «جمال عبد الناصر»، فهو المسئول ولا مسئول غيره.

مال الاتجاه الغالب في مظاهرات فبراير إلى طلب الخروج من وصاية الأب لا إنكار أبوته، أو طلب المشاركة السياسية لا التنكر لمشروعه.

أفضت انتفاضة (١٩٦٨) - أولًا - إلى إلغاء الأحكام التي صدرت وإحالة القضية إلى محكمة عسكرية أخرى.

قد ينظر إلى إلغاء الأحكام كامتصاص لغضب عام، وجد تعبيره في تلك التظاهرات، غير أنه مثَّل في ذات الوقت نوعًا من الاحترام للمشاعر العامة.

أفضت - ثانيًا - إلى توسيع مساحة الحريات السياسية داخل الجامعات، وإسناد أدوار حقيقية للاتحادات الطلابية.

وقد ينظر إلى ذلك التوسيع باعتباره نقطة تحول رئيسة أزالت جمودًا طويلًا في العمل السياسي بالجامعات المصرية سحب منها حيويتها واستقلالها.

لم يطل الوقت لاختبار جدية الالتزام بوعد التغيير.

أجريت انتخابات اتحاد طلاب الجمهورية بشفافية ونزاهة وخسر مرشح «التنظيم الطليعي» «مجدي عفيفي» بصوت واحد أمام المرشح المنافس «علاء حمروش» على منصب رئيس الاتحاد.

اعتمدت النتائج ولم يحدث أي تدخل من الدولة لإبطالها، برغم أن وزير الداخلية «شعراوي جمعة» أكد في اليوم السابق لرئيس الجمهورية فوز مرشح التنظيم الطليعي.

كان ذلك تطورًا جوهريًا في البيئة العامة داخل الجامعات ساعد على تطور الحركة الطلابية واتساع الحريات التي اكتسبتها.

وأفضت - ثالثًا - إلى سريان روح جديدة في الحياة العامة خارج أسوار الجامعات.

نشأت كتابة جديدة ومقاربات مختلفة في الإبداع وميادينه شعرًا ورواية وقصة قصيرة ومسرحًا وسينما.

برزت جمعيات وجماعات وبدأ ميلاد جيل جديد من المبدعين والنقاد.

كما أفضت ـ رابعًا ـ إلى صدور بيان (٣٠) مارس الذي تبنى دولة المؤسسات وسيادة القانون وتوسيع المشاركة السياسية.

في ذلك الوقت قال «جمال عبد الناصر»: «إن الثورة إذا ما اختلفت مع شبابها فإنها على خطأ».

(١)

في نوفمبر من نفس العام الغاضب شهدت الجامعات المصرية موجة أخرى من التظاهرات اختلفت مقدماتها عما حدث في فبراير السابق.

حسب نص محضر اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي في (٢٧) نوفمبر (١٩٦٨) تبدت مشكلة مستعصية في توصيف الاحتجاجات الجديدة التي حدثت في المنصورة والإسكندرية على خلفية نقطتين بالتحديد في قانون التعليم الجديد.

الأولى ـ تقضي بأنه يجب على الطالب أن ينجح في جميع المواد بدلًا من إجازة نجاحه مع رسوبه في مادة أو مادتين كما يسمح النظام القديم.

والثانية ـ تحدد عدد مرات الرسوب في امتحان شهادة إتمام الدراسة الثانوية.

في تلك الجلسة سأل وزير التربية والتعليم الدكتور «محمد حلمي مراد» أحد أبرز الشخصيات العامة المصرية، التي اختلفت مع «عبد الناصر» وناهضت «السادات»: «هل نريد إصلاحًا في هذا البلد؟ وهل نريد تقدمًا في هذا البلد؟ وهل نريد نهضة حقيقية؟».

لم تكن المشكلة في السؤال بقدر حقيقة الأحداث، خلفياتها وأسبابها المباشرة وغير المباشرة.

بدأت الاحتجاجات في مدرستين خاصتين بمدينة المنصورة على قانون التعليم الجديد، وحدثت اشتباكات مع الأمن سقط فيها أربعة قتلى؛ ثلاثة طلاب ومزارع بطلقات نارية وأصيب (٣٢) متظاهرًا و(٩) من ضباط الشرطة و(١٤) جنديًا ـ حسب الأرقام الرسمية التي وردت في الجلسة.

تحكمت في الدولة خشيتها من تفكك الجبهة الداخلية في وقت حرب، وتركت مهمة مواجهة الموقف للأمن وحده تقريبًا.

كشف ذلك الصدام عما داخل القدور من غليان ينتظر لحظة الإعلان عن نفسه.

انتقلت الاحتجاجات والاعتصامات إلى جامعة الإسكندرية، وبدرجة أقل إلى جامعتي القاهرة وعين شمس.

يسجل محضر اللجنة المركزية ـ بنوع من الإسهاب والتفصيل ـ مستوى إدراك الأزمة وطبيعتها التي سمحت باتساع الاحتجاجات وتجاوز موضوعها المباشر.

غلبت الإدانة على التفهم باستثناء إشارات محدودة.

بين تلك الإشارات ما قاله «فريد عبد الكريم»، أمين الاتحاد الاشتراكي في محافظة الجيزة: «إن طلاب الجامعات قد حرموا من العمل السياسي لفترة طويلة مضت، ومن هنا فلن تتأكد ولن ترسخ تقاليد سياسية جديدة لمناقشات واعية، وفعالة، وموضوعية، فليست هناك أطر على الإطلاق للمناقشات السياسية لقضايانا المصيرية داخل الجامعات».

في ذلك المحضر لا يصعب اكتشاف حيرة «عبد الناصر» بين خيارين.

أولهما ـ طلب الحقيقة والإلحاح على ذكر المعلومات الصحيحة.

وثانيهما ـ خشية تفجير الوضع الداخلي في لحظة مواجهة عسكرية، وأن يكون وراء الأحداث قوى تحرض على ذلك التفجير.

كما تبدت حيرته في توصيف الحركة الجديدة وكيفية الاقتراب من الطلاب الغاضبين، موقع منظمة الشباب ودور الاتحادات الطلابية.

لم تساعده حوارات اللجنة المركزية على أن يضع يده على مفتاح الموقف، وهو الحوار بلا وصاية مع الجيل الجديد، لكنه سرعان ما توصل إليه.

دخل بنفسه حوارًا مباشرًا مع بعض القيادات الطلابية في بيت منشية البكري، استمع بإنصات إلى صوت المستقبل، وبدا أن الحوار يمكن أن يؤسس لمرحلة جديدة بين الدولة وشبابها.

لم تكن مظاهرات (١٩٦٨) مجرد احتجاج على الأحكام المخففة بحق بعض المتسببين في الهزيمة، وإلا ما امتدت حتى (١٩٧٧) بلا انقطاع تقريبًا، برغم التغييرات العميقة في بنية الحكم بعد رحيل «عبد الناصر» (١٩٧٠) وأحداث مايو (١٩٧١)، التي سيطر «أنور السادات» بعدها على مقادير السلطة العليا، وتناقضت السياسات مع ما كان قبلها.

كانت صدمة الهزيمة داعية ـ بذاتها ـ إلى مراجعة شاملة للعيوب والثغرات في نظام الثورة، التي سمحت بأن تقع على هذا النحو المروع.

أفضل تعريف لحركة (١٩٦٨) أنها مخاض ميلاد وليست الميلاد نفسه، الذي انتظر أربع سنوات حتى استبانت ملامحه في (١٩٧٢).

ذات مرة قال «عبد الناصر» في خطاب مفتوح: «إن هذا الجيل من شعب مصر على موعد مع القدر».

كان ذلك صحيحًا بأكثر مما قدر، لكن الأقدار اختلفت طبيعتها بعد هزيمة يونيو، وما بعد رحيله من انقلابات إستراتيجية وسياسية واجتماعية.

الجيل الموعود بثمار الثورة كان هو نفسه الجيل الموجوع بالهزيمة.

(٢)

كانت التظاهرات الطلابية عام (١٩٧٢) بحجمها وأثرها إعلانًا مدويًا عن ميلاد جيل جديد.

ارتبطت لحظة الميلاد مع نداء استعادة الأراضي المحتلة بقوة السلاح ورفض المماطلة في اتخاذ قرار الحرب.

كما ارتبطت بصورة «الفدائي الفلسطيني»، الذي وجد هويته في بندقيته ـ على ما أنشدت «أم كلثوم» من كلمات «نزار قباني».

كان الرئيس «السادات» قد تعهد بأن يكون عام (١٩٧١) هو «عام الحسم»، لكنه تراجع وأطلق عليه «عام الضباب»؛ حيث الرؤية احتجبت خلف ضباب الحرب الهندية ـ الباكستانية.

بعد يومين من «خطاب الضباب» (١٥) يناير ـ تصاعدت الاحتجاجات والاعتصامات في الجامعات المصرية وسرت روح عامة غاضبة.

بدت الانتفاضة قوية ومباغتة كأن غضبًا مكتومًا قد انفجر.

بدأت الشرارة في كلية الهندسة بجامعة القاهرة وانتقلت بشرعية غضبها إلى كليات أخرى ومن جامعة القاهرة إلى جامعة الأزهر، ثم إلى جامعات ثالثة ورابعة وخامسة.

ما كان ساكنًا في الحياة العامة أخذ يزمجر بالرفض لأي «حلول سلمية»، يؤجل باسمها قرار الحرب.

صدرت بيانات دعم وتأييد من النقابات المهنية الرئيسة «الصحفيين» و«المحامين» و«المعلمين» ثم «المهندسين»، ونقابات أخرى تتابعت دعوتها لـ«حرب تحرير شاملة».

وصف «السادات» محركي الانتفاضة الطلابية بـ«القلة المندسة»، التي تضلل «القاعدة السليمة»، وهو تعبير شاع على نطاق واسع في الخطاب الرسمي، واعتمد لسنوات طويلة عند أي أحداث مماثلة حتى استهلك تمامًا.

برغم الرقابة على الصحف، فإن رياح الغضب وسعت مساحات التضامن مع الحركة الشابة بما يمكن نشره.

تحوّلت جامعة القاهرة، في ذلك الوقت، إلى مزار لكل من يبحث عن أمل في المستقبل، أو يريد أن يطل عليه بنفسه.

ولم يكن اقتحام قوات الأمن المركزي للقاعة الرئيسة في جامعة القاهرة لفض الاعتصام بالقوة، والقبض على أعداد كبيرة من القيادات الطلابية كلمة النهاية في انتفاضة (١٩٧٢).

«دقّتِ الساعةُ الخامسة
ظهر الجندُ دائرةً من دروعٍ وخُوذاتِ حربْ
ها همُ الآنَ يقتربون رويداً.. رويدًا..
يجيئون من كلّ صوبْ
والمغنّون ـ في الكعكة الحجريّة ـ ينقبضونَ
وينفرجونَ
كنبضةِ قلبْ !
يُشعلون الحناجرَ،
يستدفئون من البرد والظلمةِ القارسة
يرفعون الأناشيدَ في أوجه الحرسِ المقتربْ
يشبكونَ أياديهمُ الغضّةَ البائسة
لتصيرَ سياجاً يصدُّ الرصاصَ!"
«دقّتِ الخامسة
دقّتِ الخامسة
وتفرّق ماؤكَ ـ يا نهرُ ـ حين بلغتَ المصبْ!».

هكذا وصف الشاعر «أمل دنقل» في قصيدته «الكعكة الحجرية» عملية فض اعتصام طلابي في ميدان التحرير انتقلت إليه طاقة الغضب بعد قمعها في القاعة الرئيسة بجامعة القاهرة.

نشرت القصيدة لأول مرة في مجلة «سنابل»، أغنى المجلات الأدبية بمادتها وأفقرها في الإمكانات المتاحة.

داست خيول السلطة كل السنابل بعد نشر «الكعكة الحجرية».

غير أن صوت الشيخ «إمام عيسى» ارتفع بكلمات الشاعر «أحمد فؤاد نجم» في واحدة من أشهر أغنياته:

«أنا رحت القلعة وشفت ياسين
حواليه العسكر والزنازين
والشوم والبوم وكلاب الروم
يا خسارة يا أزهار البساتين».

(٢)

في العام التالي (١٩٧٣) تحركت في جامعة القاهرة انتفاضة طلابية جديدة، كما لو أنها استئناف لانتفاضة (١٩٧٢).

انتقلت الانتفاضة الجديدة بأجوائها إلى الجامعات المصرية الأخرى تحت نفس المطالب: تهيئة الجبهة الداخلية للحرب وتوسيع المشاركة في صنع القرار ورفض أي مشروعات تسوية سياسية.

جرت تظاهرات واعتصامات وتكرر سيناريو اقتحام قاعة الاحتفالات الكبرى بقوة الأمن المركزي واعتقال أعداد كبيرة من القيادات الطلابية، سرعان ما كان يجري الإفراج عنهم - كما جرت العادة في تلك الأيام.

في أجواء انتفاضة (١٩٧٣) حدث تطور دراماتيكي هز أركان الحكم واستدعى تساؤلات جوهرية حول المعركة والمشاركة السياسية وحرية الفكر والنقاش العام.

بصورة لا تناسب شخصيته الحذرة كتب «توفيق الحكيم» متأثرًا بحركة الشبان بيانًا تمت صياغته على عجل، كأنه سحب ورقة من على مكتبه وضع عليها ما يفكر فيه.

«.... لما كان الشباب هو الجزء الحساس في الأمة، وهو الذي يعنيه المستقبل أكثر من غيره، فهو لا يرى أمامه إلا الغد الكئيب، فهو يجتهد في دراسته ليحصل على شهاداته النهائية فإذا هي شهادة القذف به في رمال الجبهة لينسى ما تعلمه ولا يجد عدوًّا يقاتله، وهذا أيضًا هو الضياع.

أما بقية المواطنين فهم يعيشون بالنسبة إليه في حياة صعبة سيئة الخدمات العامة. وكل نقص وإهمال أو توقف أو عبث يختفي خلف صوت المعركة، وفي انتظار المعركة وتمحكًا بالمعركة، وإذا بالأمر في نظرهم ينقلب إلى مهزلة وإلى سخط وإلى قرف عام.

هذا بعض ما استقر في الضمائر هذه الأيام، ولا بد من حل سريع لهذا الوضع، ولا يمكن أن يكون هناك حل إلا في الصدق، والصدق وحده لأن الصدق هو الذي

يُنهي الحيرة ويقنع الناس ويهدئ النفوس، ولأن الغليان في باطن الإناء يهدأ إذا كشفت الغطاء، الشعب يريد أن يقتنع بشيء لأنه غير مقتنع، ولا بد لراحة باله واقتناعه من عرض حقائق الموقف أمامه واضحة.

وهذا يقتضي النظر في تغيير بعض الإجراءات التي تسير عليها الدولة اليوم، ومنها حرية الرأي والفكر وحرية المناقشة والعرض لإلقاء الضوء على كل شيء حتى تتضح الرؤية. وليكن ذلك داخل المؤسسات، إذا كانت السرية في ظروفنا الحاضرة تقتضي ذلك، على ألا يكون للدولة رأي مسبق تضغط به على أهل الرأي ويجعلهم مجرد أبواق لترديده وترويجه، بل أن تكون الدولة آخر من يبدي الرأي بعد أن تستمع وهي جادة صادقة إلى رأي مصر الحرة أولًا، وأن تصوغ هي رأيها من رأي الشعب، وممثليه، لا أن تصوغ هي الرأي وتضع الشعار وتلقي به إلى الناس وتفرضه عليهم فرضًا.

آن للدولة في هذه الظروف العصيبة أن تتخفف هي من كل العبء والمسئولية وتضعها على كاهل الأمة.

إن في ذلك مصلحتها، وصيانة لها أمام التاريخ».

بحجم ثقله وتأثيره وقّع معه على هذا البيان كُتابٌ ومثقفون كبار من بينهم «نجيب محفوظ» و«يوسف إدريس» والدكتور «لويس عوض».

وجد بيان كبار المثقفين طريقه إلى النشر في صحيفة «الأنوار» اللبنانية.

كان النشر بالخارج رسالة سلبية لمستوى حرية التعبير، الذي ضاق عن نشر بيان وقّعت عليه نخبتها الثقافية ـ كما استخلص الدكتور «غالي شكري» في كتابه «الثورة المضادة في مصر».

جاءت ردة الفعل عنيفة تأنيبًا وترهيبًا لبعض الكُتاب ونقلًا تعسفيًا لـ(٦٤) صحفيًا إلى مؤسسات عامة لا علاقة لها بالصحافة من قريب أو من بعيد ـ كأنه نفي إجباري.

ولد جيل السبعينيات وسط تساؤلات المستقبل خياراته ومعاركه.

تصدر معركة، لكنه لم يخضها وحده.

كانت الوطنية المصرية الجريحة حجر الأساس في بناء وعيه ووجدانه.

تعددت المدارس الفكرية التي انتسب إليها، لكن جمعت بينها قاعدة واحدة: طلب تحرير سيناء المحتلة والاستعداد لخوض حرب محتمة.

في عنفوان التمرد والثورة تبلورت عند جيل السبعينيات ضرورات بناء نظام ديمقراطي يتسع للتنوع السياسي.

برزت تلك الضرورات في أولى موجات الحركة الطلابية عام (١٩٦٨)، وتأكدت في الموجتين التاليتين (١٩٧٢) و(١٩٧٣)، وطرحت لأول مرة في المجال العام منذ الخمسينيات قضية التنظيم الحزبي المستقل.

(٤)

في تراجيديات السبعينيات قصص صعود وسقوط وتجارب إنسانية وسياسية بعضها تابع أدوارها لعقود متصلة وتحمَّل مسئوليتها في حفظ الحياة السياسية من أن تجرف كاملة، وبعضها انكسر وخذل بداياته، وبعضها الثالث لقيَ مصائر مأساوية.

في عام (١٩٧٢) جلجل صوت «أحمد عبد الله رزة» في قاعة المؤتمرات الكبرى بجامعة القاهرة: «كل الحرية للوطن.. كل الديمقراطية للشعب» مؤثرًا بأكثر من أي توقع قبل أن يتعرض للتهميش والإقصاء حتى مات كمدًا دون أن يحصل على شيء مما يستحق.

كان مصير «سهام صبري»، طالبة الهندسة التي قادت باقتدار اعتصام (١٩٧٣) في نفس القاعة مأساويًّا هو الآخر، انزوت لسنوات محبطة ويائسة قبل أن تغادر الحياة في حادث سير.

وكان مصير» أروى صالح» زعيمة كلية الآداب أكثر مأساوية؛ فقد انتحرت من حالق تحت شعور قاسٍ بخذلان من وضعت ثقتها بهم.

برغم التراجيديات المحزنة فإن الكتلة الرئيسة من قيادات السبعينيات حملت مسئولية العمل السياسي الوطني على مدى عقود اتصلت، وقدمت أغلب النخب السياسية والثقافية والصحفية وقدر لها أن تضطلع بمهمة أخيرة أن تكون جسرًا إلى المستقبل، رفضت سيناريو التمديد إلى غير ما أجل للرئيس الأسبق «حسني مبارك»، وتوريث السلطة إلى نجله الأصغر، أسست حركة «كفاية» وساعدت في بناء «الجمعية الوطنية للتغيير».

(٥)

كأي ارتطام مدوٍّ بدا التمرد واسعًا على كل ما هو مزيف في الفكر وكل ما هو ادعاء في السياسة والغضب، عاصفًا على نظام انقلب على أساس شرعيته، وفرط على نحو فادح في النتائج العسكرية لحرب أكتوبر.

وجد الغضب تعبيره السياسي في تيارَيْن رئيسيْن.

أولهما ـ «التيار الماركسي» الذي بدأ في إعادة ترتيب صفوفه وبناء تنظيمات جديدة على أطلال ما جرى حله في الستينيات.

كان صوته مسموعًا في الجامعات المصرية أكثر من أي تيار آخر في الفترة ما بين تظاهرات (١٩٦٨) التي احتجت على الأحكام المخففة لقادة الطيران وتظاهرات (١٩٧٣) التي ضغطت من أجل حرب تحرير الأراضي المحتلة.

وثانيهما ـ «التيار الناصري»، الذي لم يكن قد تبلورت له رؤية تتعدى المطالب الوطنية العامة.

كان جمهوره عريضًا لكن بلا تنظيم يقود طاقة غضبه.

كانت «منظمة الشباب الاشتراكي»، أفضل صيغة تنظيمية وفكرية قدمتها ثورة «يوليو»، تعاني ضغوطًا متواصلة انتهت بتصفيتها بعد أن اكتسح آخر انتخاباتها الناصريون الجدد المعارضون لخط «أنور السادات».

قرب نهاية (١٩٧٤) أُعلن لأول مرة طلاق سياسي نهائي مع أي رهانات على نظام «أنور السادات»، وخرجت قيادات جديدة من أوساط الطلاب تناهضه سياسيًّا بلا هوادة.

في لحظات التحول الحادة تصارعت توجهات وأفكار وغابت عن مسارح السياسة الصاخبة أي مساحات رمادية.

بقدر ضراوة الحملة على «يوليو»، التي حاولت هدم كل قيمة ومسخ كل إنجاز، خرجت قوة شابة من داخل الجامعات أكثر التزامًا بأفكار رجل لم تره مرة واحدة في حياتها.

لم تكن سياسات «أنور السادات» قد أخذت مداها لكن الحملات الإعلامية أشارت إلى انقلابات إستراتيجية واجتماعية أكثر خطورة تلوح في الأفق القريب.

ككل فعل في التاريخ فإن له ردة فعل.

أمام حملات الهدم تحركت روح جديدة تنتسب إلى مشروع «عبد الناصر» لا نظامه، تنظر إليه كمثل أعلى لكن لا تقدسه، وتعلمت بالوقت ضرورات نقد تجربته من موقع الالتزام بمشروعها.

لم يكن بوسع المجموعة الضيقة التي أسست «نادي الفكر الناصري» بجامعة القاهرة في ديسمبر (١٩٧٤) أن تتوقع الأثر المستقبلي بالغ الأهمية بأي معنى سياسي أو تاريخي لما قرروه.

كانوا مجموعة من الشبان اليافعين، تجاوز أغلبهم العشرين من أعمارهم بالكاد، لم تكن لهم خبرة تنظيمية سابقة تضارع ما لدى التيار الماركسي، ولا امتداد خارج أسوار الجامعة.

بدوا تعبيرًا عن حالة غضب تبحث عن طريق جديد يُنهي أي أواصر مع نظام الحكم، ويعلن انتقال الناصرية إلى الشارع.

بعد وقت قصير اتصلت حركتهم بما حملته من روح راديكالية مع نادٍ سياسي آخر في جامعة عين شمس، وهو أول نادٍ في الجامعات المصرية.

كان الناصريون في جامعة عين شمس يمسكون بمقاليد اتحادها، ويتداولون رئاسته بالنظر إلى قوة «التنظيم الطليعي» فيها.

عندما حل التنظيم بعد أحداث مايو ظلت مجموعته في جامعة عين شمس متماسكة، وواصلت أدوارها في ظروف معاكسة.

باتصال الناديين جرى أهم تطور سياسي ينتسب إلى مشروع «عبد الناصر» بعد رحيله.

تحت ضغط التحولات والحملات اتسع تأثير الروح الراديكالية الجديدة، وامتد خيار القطيعة النهائية وسادت دعوة البحث عن تنظيم سياسي مستقل.

أفضل ما يُنسب للنادي السياسي في جامعة عين شمس أنه نظم على مدى سبع سنوات متصلة ما كان يطلق عليه «لقاء ناصر الفكري».

في البداية لم يكن ذلك اللقاء السنوي أكثر من تجمع احتفالي يمتد لثلاثة أيام يتذكر «يوليو» وإنجازاتها، ويحضره كبار المسئولين في الدولة، عندما تحل ذكرى رحيل «جمال عبد الناصر» في (٢٨) سبتمبر من كل عام.

بسريان الروح الجديدة واتساع مجالها في الجامعات المصرية تغيرت طبيعته إلى منصة معارضة صريحة للسياسات التي يتبعها نظام الحكم.

أنشئت أندية مماثلة في الجامعات المصرية حملت اسم «نادي الفكر الناصري».

جرى تنسيق وحوار بين هذه الأندية شمل قيادات عمالية لها كلمة ونفوذ وقيادات في منظمة الشباب، رأت أن القطيعة محتمة، وأن حل المنظمة نفسها مسألة وقت.

لم يمضِ وقت طويل حتى أحكم الناصريون الجدد سيطرتهم على اتحاد طلاب جامعة القاهرة، وبسطوا هيمنتهم على اتحاد طلاب الجمهورية (١٩٧٦) قبل الانقضاض على لائحته الديمقراطية بعد انتفاضة «الخبز» عام (١٩٧٧).

كان أول سؤال طرحوه على أنفسهم:

من نحن.. وماذا نريد؟

سادت خطابهم نبرات الاحتجاج على ما يحدث.

بالتعريف: كانوا حركة احتجاجية، تجتمع بالاحتجاج، وتفرز بالاحتجاج، وتنظم نفسها بالاحتجاج.

كانت المعركة السياسية الأولى للتيار الوليد ما أطلق عليه: «ملف عبد الناصر» على حد التعبير الذي شاع في ذلك العام.

لم يكن ذلك خيارًا ضمن خيارات.

كان الميلاد إجباريًا بقوة رد الفعل.

هناك شهادة لافتة تستحق التوقف عندها بالتأمل للمفكر والناقد الأدبي الدكتور «لويس عوض» في كتابه «أقنعة الناصرية السبعة».

انطوى الكتاب على انتقادات جوهرية لنظام «يوليو» ومناقشات لـ«توفيق الحكيم» و«محمد حسنين هيكل» و«محمد عودة»، غير أنه سجل في مقدمته ما قد يُعطي صورة حقيقية للحملات على تجربة «عبد الناصر» من موقع النقد والاختلاف لا الدفاع والاتفاق.

حين بدأ السجال يحتد داخل مصر والحملات تأخذ مداها بين عامي (١٩٧٤ ـ ١٩٧٥)، كان الدكتور «لويس عوض» يعمل أستاذًا زائرًا بجامعة كاليفورنيا (لوس أنجيليس).

«كنت في أوقات متباعدة ألتقي فصائل من المصريين تقيم حفلات الحقد المستمر على عبد الناصر والناصرية وتردد كل سخافة تقرؤها في الصحف الأمريكية، فإذا رأت أن الجرائد الأمريكية تهلل لأن فايز حلاوة كتب مسرحية اسمها يحيا الوفد تسب الروس مجدت فايز حلاوة دون أن تعرف شيئًا عن مسرحياته».

«وكنت أهتم بأن أسأل هؤلاء النازحين هذه الأسئلة المحددة: هل صادر عبد الناصر لك أو لأسرتك أملاكًا؟ فيقول: لا. هل سجنك عبد الناصر أو سجن فردًا في أسرتك يومًا واحدًا؟! فيقول من يحاسب الناس وهو في أمريكا: لا. فيمَ إذن هذه المرارة ضد عبد الناصر؟ إنه خرب البلد بالقطاع العام والتبعية للسوفييت. كل ما فعله عبد الناصر دميم وينبغي نقده. حتى السد العالي ينبغي هدمه».

«كانت وجوههم مصرية وقلوبهم غير مصرية».

«وفي بادئ الأمر كنت أضطرب لما كنت أسمعه، ثم ما لبثت أن أدركت أن منطقهم أقوى من منطقي: ففي يوم منحهم الجنسية الأمريكية كان عليهم أن يقسموا يمين الولاء للولايات المتحدة الأمريكية».

أهمية هذه الشهادة في صاحبها، وأنه أدلى بها وهو يقف على الجانب الآخر من التجربة الناصرية وفي معرض نقده لها.

ربما أراد أن يضع نفسه في حيز مختلف حتى لا تختلط وجوه ومواقف كأنها واحدة.

«للناصرية اليوم وبعد وفاة صاحبها، نقاد بلا عدد ولكن لا تجوز مناقشة بعضهم لأنهم مجردون من الشرف الوطني أو من الشرف الشخصي» كما كتب حرفيًّا.

كانت تلك سمة مرحلة كاملة.

بطبائع الأمور كان رد الفعل بذات درجة الضراوة، لا تسامح مع الحملة وأصحابها، ولا مهادنة مع الذين نقلوا مواقعهم من ضفة إلى أخرى في ثورة مضادة كاملة.

في مثل هذه الأحوال غاب ما كانت تحتاجه مصر من حوار حول التجربة الناصرية، وسادت رغبة الانتقام من مشروعها قبل أي شيء آخر، فالنظام كان قد سقط من داخله.

مَال الناصريون الجدد إلى ما يمكن أن نطلق عليه «الدفاع النشط»؛ حيث الرد بالأرشيف وإظهار حجم التناقض في المواقف باختلاف العصور.

بالفعل ورد الفعل جرت معارك ومساجلات حول بناء السد العالي وتأميم قناة السويس، ودور القطاع العام والإصلاح الزراعي وحرب (١٩٦٧)، وسادت روح الدفاع بيانات وتجمعات الجيل الجديد.

احتاج الناصريون الجدد إلى وقت أطول لإعادة النظر في التجربة ومواطن ثغراتها، التي سمحت بالانقضاض عليها.

السياق ضروري لفهم الظاهرة الشابة.

في تلك الأيام ـ حسب أوراق الناصريين ـ استغرقتهم معركة تطوير الاتحاد الاشتراكي، التي اعتبرت ارتدادًا عن الثورة.

في توقيته وظروفه كان ذلك طبيعيًّا؛ حيث تزامن تقويض التنظيم السياسي ـ لا تطويره ـ مع الانقضاض على «يوليو» وخياراتها الاجتماعية.

بدأ الحديث يرتفع عن «تمثيل حقيقي للعمال والفلاحين»، وبدأ التساؤل عن طبيعة دور «الرأسمالية الوطنية»، وإذا ما كانت تستحق أن تدرج في «تحالف قوى الشعب العامل» أم ينبغي إسقاطها.

في أول يناير (١٩٧٥) جرت إضرابات عمالية في مصانع حلوان انتقلت إلى ميدان التحرير، وارتفع معدل الاحتجاج الاجتماعي على الإجراءات الاقتصادية الجديدة.

بدأت تظهر في أوراق الناصريين دعوات لتطبيق «قانون من أين لك هذا؟» على كل من تولى مواقع المسئولية منذ ثورة «يوليو»، وتثبيت أسعار السلع الأساسية ورفع الحد الأدنى للأجور مع تثبيت الحد الأقصى لها عند مستواه في مايو (١٩٦٧) وتأميم قطاع تجارة الجملة والمقاولات، وقصر الاستيراد على الاحتياجات اللازمة لتشغيل القطاع العام، وإسقاط جميع الديون عن كل الفلاحين.

كان مستلفتًا في ذلك البيان الذي أصدره نادي الفكر الناصري الإشارة إلى «إلغاء كل القوانين الاستثنائية المعطلة للحريات مثل قانون الوحدة الوطنية وقانون المدعي الاشتراكي وإطلاق حرية الكلمة».

الإشارة ـ بذاتها ـ تومئ إلى نوع من التزاوج الفكري والسياسي المبكر في الجيل الجديد بين طلبي العدل الاجتماعي والحريات العامة.

وقد حدث نوع من التصادم بالتمايز بين التيارين الناصري والماركسي.

أولهما ـ نقطة تركيزه القضية الاجتماعية.

وثانيهما ـ نقطة تركيزه القضية الديمقراطية.

غير أن كليهما تبنى الموقف نفسه من القضية الوطنية والصراع العربي - الإسرائيلي.

بالتدريج مال الناصريون الجدد إلى تجديد في الخطاب ونقد تجربة «يوليو» من داخلها ودمج قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان في صلب مشروعهم الفكري بجانب قيم التحرر الوطني والعدل الاجتماعي.

لم تكن تلك رحلة فكرية سهلة، لكنها كانت ضرورية في كل حال.

شغلت مسألة الرأسمالية الوطنية حيزًا كبيرًا من اهتمام ذلك الجيل، ما هي.. وما الموقف منها؟

وكان ذلك طبيعيًّا بالنظر إلى اختلاط الأوراق في الموقف من الانفتاح الاقتصادي.

في وثيقة حملت اسم «يوليو» صدرت عن مؤتمر في مدينة الزقازيق لنوادي الفكر الناصري عام (١٩٧٥) وردت العبارة التالية: «إن دور الرأسمالية الوطنية داخل التحالف في ظل وجود الثورة في السلطة كان يعني باستمرار عدم جنوحها إلى الاستغلال واللعب بمقدرات الجماهير، سواء عن طريق السوق السوداء، أو الوساطة والسمسرة، كما كان معيار وطنية النشاط الرأسمالي هو مدى كونه منتجًا وملتزمًا بدوره في خطة التنمية.. وكان المسار الاقتصادي للثورة يوضح باستمرار

الاتجاه إلى تقليص حجم ودور هذا النوع من النشاط داخل الاقتصاد الوطني، ويوضح أنه كان من الضروري بعد الانتهاء من مرحلة التحول الاشتراكي إعادة النظر في دور هذه الشريحة، إن لم يكن في وجودها كله».

بمقارنة «وثيقة يوليو» بالتعديلات التي تمت عليها في لقاء «ناصر الفكري السادس»، نكتشف حذف آخر ست كلمات من الفقرة السابقة.

كان ذلك موضوع مساجلة فكرية وسياسية ظلت تطرح نفسها بإلحاح حتى جرى الاستقرار في لقاء «ناصر الفكري الأخير» عام (١٩٧٧) على أنه «لم يعد هناك مجال للحديث عن وطنية الرأسمالية الوطنية».

الأطروحات تكتسب تاريخيتها من ظروفها وسياقها.

في ذلك الوقت كتب المفكر القومي الدكتور «عصمت سيف الدولة» مداخلة في الملف الملتهب ضمنه كتيبًا يكشف عنوانه صلب فكرته: «رأسماليون وطنيون ورأسمالية خائنة».

المساجلات الفكرية كانت من طبيعة السبعينيات.

وكانت مساجلات التيارين «الناصري» و«الماركسي» الفرصة الأكثر جدية لاكتساب مهارات الحوار والإقناع والتأثير، وأن يكون ذلك في الهواء الطلق في حلقات نقاش حول محتوى مجلات الحائط، أو في مؤتمرات طلابية.

منحت الحركات الطلابية مصر أغلب نخبتها السياسية على مدى عقود متصلة بأكثر مما ينسب للأحزاب السياسية مجتمعة، باختلاف مشاربها الفكرية.

حيث حرية التفكير والاعتقاد السياسي تبنى الكادرات عن اقتناع حقيقي، وتترسخ القيم الوطنية العامة.

بأي نظرة إلى الأصول السياسية للنخب المصرية المعاصرة، فإن غالبيتها تعود إلى إرث الحركة الطلابية المصرية.

حاول «السادات» في السبعينيات إجهاض حركة اليسار بجناحيه الناصري والماركسي، واستخدم الجماعات الإسلامية في فض التجمعات السياسية والحفلات الفنية بالمدى والجنازير، لكن الفكرة كانت أقوى من العنف والحلم أبقى من السلطة.

النخب السياسية لا تولد من فراغ ولا بقرار من سلطة.

«ضرب التيار الناصري مستحيل دون ضرب الديمقراطية داخل الجامعة وخارجها» جريدة «الطلاب» (١٠) ديسمبر (١٩٧٥).

تلخص تلك الجملة الجو العام في ذلك الوقت.

«فوز ساحق لطلاب القاهرة وعين شمس على الاتحاد الاشتراكي» «الطلاب» (٣١) ديسمبر (١٩٧٥).

وتلخص تلك الجملة حجم التحولات التي جرت، فالطلاب المقصودون هم ممثلو التيار الناصري والاتحاد الاشتراكي كان قد فقد أي أواصر مع إرث المشروع الناصري.

في صباح (٩) يناير (١٩٧٦) فوجئت الحياة الجامعية بحل «نادي الفكر الناصري» بعد أسبوع واحد من صعود أحد قياداته «حمدين صباحي» إلى رئاسة اتحاد طلاب جامعة القاهرة بقرار من مجلس الاتحاد نفسه!

«.. كل ما نتمناه ألا تكون هناك أيدٍ خفية تحرك الخيوط على مسرح الأحداث من وراء الستار» كما جاء في «صوت الطلاب» الصحيفة التي يصدرها اتحاد طلاب الجمهورية يوم (١١) يناير (١٩٧٦).

كانت حجة الإلغاء أنه من الأفضل إنشاء نادٍ سياسي واحد ينضم إليه كل الراغبين في التعبير عن آرائهم أيًّا كانت اتجاهاتهم ـ كما جاء في «صوت الجامعة» التي تصدرها كلية الإعلام جامعة القاهرة في اليوم التالي (١٢) يناير.

وكان رد الفعل حادًّا وسريعًا بتظاهرة كبيرة تندد وترفض ما أسمته «صوت الطلاب» بـ«وصاية الأجهزة الخارجية»، أو تتساءل. كما ورد في «صوت الجامعة»: «لمصلحة من؟».

أفضت المواجهة، التي حسمت سريعًا، إلى نتيجتين محوريتين.

أولاهما ـ تأكيد شرعية «التعددية السياسية» بإقرار حق إنشاء نوادٍ فكرية مماثلة للتيارات السياسية الأخرى.

تأسس «نادي الفكر الاشتراكي» بعد أسبوع واحد من عودة «نادي الفكر الناصري» بقرارين متتاليين من مجلس اتحاد طلاب جامعة القاهرة، الذي فوجئت أكثريته التي لم تحضر قرار الحل، بما جرى، وكان من بينهم رئيس اتحاد كلية الصيدلة «مجدي أحمد علي»، المخرج السينمائي المعروف فيما بعد.

وثانيتهما ـ تهيئة المناخ العام لتفاهمات أوسع بين أكبر تيارين سياسيين في الجامعات المصرية لخصت نفسها فيما عرف باسم «وثيقة نوفمبر التقدمية»، التي استبقت مباشرة انتفاضة يناير (١٩٧٧)، ولم يكتب لها أن تخرج للحياة بأثر الحوادث من ناحية وإجهاض الديمقراطية في الجامعة بعد الانتفاضة.

كانت تلك لحظة فارقة فقد أُلغيَ لقاء «ناصر الفكري»، الذي عقد بانتظام لمدة سبع سنوات في جامعة عين شمس، وكان ترمومترًا سياسيًّا لدرجة حرارة الحركة الشابة.

بدا لافتًا أن عنوان اللقاء الأخير: «ماذا بعد؟».

(٦)

برغم أن أجيالًا متعاقبة حملت السلاح داخل إطار المؤسسة العسكرية الوطنية ودخلت تجارب الحرب ـ أكثر من مرة أحيانًا في عمر الجيل الواحد، فإن جيلًا واحدًا من بينهم جميعًا يستحق أن يوصف بـ«جيل الحرب».

الجيل يُقاس بالتجربة الفكرية والسياسية والوجدانية والنظرة إلى الحياة والقيم الأساسية، التي تحكم توجهاته ومخيلته قبل أعداد السنين المسجلة على شهادات الميلاد.

باتساع مفهوم الجيل، كان هناك جناحان رئيسان في قصة الحرب.

الأول ـ قاتل بفواتير الدم على الجبهة الأمامية وضم خريجي الجامعات سنة بعد أخرى.

والثاني ـ دعا بفوائض الغضب في الجامعات المصرية إلى تعبئة الموارد العامة وراء المقاتلين وانتقد الأداء الداخلي، الذي لا يتسق مع تضحيات الدماء.

في ذلك الوقت اكتسبت مسرحية «البعض يأكلونها والعة» شعبية كبيرة وسط الطلاب.

خاطبت غضبهم وتبنت نظرتهم؛ حيث المفارقات فادحة بين جبهة القتال وأوضاع الداخل.

تندرج المسرحية تحت ما يسمى بـ«الكباريه السياسي» مجموعة إسكتشات متعاقبة تبرز حجم التناقض.

بين كل إسكتش وآخر كانت تظهر في الخلفية صورة الفريق أول الشهيد «عبد المنعم رياض»، وكان التصفيق مدويًا في كل مرة.

كانت الحرب عنصرًا جوهريًّا في تشكيل وعي جيل السبعينيات السياسي والاجتماعي والثقافي، أكثر مما فعلت تجارب الحروب السابقة في الأجيال الأخرى.

كانت تجربة الحرب، التي امتدت منذ يونيو (١٩٦٧) إلى أكتوبر (١٩٧٣) الوعاء الحي لصهره، وتشكيل معنى جديد داخله للمواطنة والوطنية.

في خنادق القتال نضجت رؤى وأفكار وقيادات، وبرزت مواهب أدبية وفنية.

أفضل ما قيل في وصف بطولات أكتوبر: إن الإنسان المصري العادي هو بطل الحرب. غير أن بطل أكتوبر لم يكن ـ من ناحية تدقيق المعاني والألفاظ ـ إنسانًا عاديًّا، بل كان جيلًا كاملًا صهرته تجربة القتال، وصاغت منه تجربة فريدة.

الفارق واضح بين نسبة النصر إلى الإنسان العادي المجرد، أو إلى صفات إيجابية مطلقة في الشخصية المصرية، وبين نسبته إلى جيل بعينه، وإلى وعي بعينه، وإلى بنى ثقافية وسياسية ونفسية بعينها.

إنه الفارق بين المطلق والتاريخ.

أغلب الذين قاتلوا في (١٩٧٣) بعد ست سنوات في الخنادق، أو في معسكرات التدريب، أو في مهمات قتالية في أثناء حرب الاستنزاف، من خريجي الجامعات المصرية، الذين أتاحت مجانية التعليم الفرصة أمامهم لاكتساب معارف العصر.

جيل الحرب هو نفسه جيل الثورة ومجانية التعليم والحق في الثروة الوطنية.

فرضت ضرورات تحديث القوات المسلحة في أعقاب الهزيمة دفع جيل بأكمله من خريجي الجامعات إلى صفوف القتال؛ للتعامل مع أحدث التقنيات العسكرية في ذلك الوقت.

المأساوي في قصة هذا الجيل أنه أرجأ طموحاته وحياته إلى ما بعد انتهاء الحرب، غير أنه عندما عاد من ميادين القتال، وجد أن ما قاتل من أجله قد تبدد، وأن عليه دفع ثمن سياسات الانفتاح الاقتصادي التي دشنت عام (١٩٧٤) من مستقبله الاجتماعي والإنساني.

ثم أن يرى بعد سنوات قليلة من انتهاء الحرب سياسات التطبيع مع العدو الذي انتظر طويلًا في الخنادق أن يواجهه.

لم تعد إسرائيل عدونا التاريخي.

«هذا كذب.. أنا لا أعرف من أنتم، ولا من أين أتيتم.. إن ما أعرفه جيدًا أن هذا البيت بيتي، وأن واجهته خمسون مترًا بالتمام، وإذا كنت لم أفكر في إعادة قياسه منذ زمن بعيد؛ فذلك لثقتي بأن الأرض لا يمكن أن تضمر بفعل الزمن».

كانت تلك نبوءة مبكرة في منتصف السبعينيات تضمنتها مسرحية «محمود دياب» «الغرباء لا يشربون القهوة»، عن حجم ما سوف يحدث من تجريف لأي معانٍ حاربت من أجلها مصر.

في ذروة الانتشاء بالنتائج العسكرية لحرب أكتوبر، كتب عام (١٩٧٤) مستفسرًا عن مسألة الحرب والسلام على لسان «رسول من قرية أتميرة».

في نبوءة ثانية استبق التطبيع مع إسرائيل بإعلان استحالته في مسرحية «أرض لا تنبت الزهور».

لم يكن «السادات» قد زار الكنيست ولا وُقِّعت اتفاقية «كامب ديفيد».

«إن الحب لا يقحم على قلوب الناس بزواج ملك من ملكة.. خذها حكمة من الزباء ولا تنسها أن أرضًا ارتوت بالدم لا تنبت زهرة حب».

«كان هو الذي رأى» بتعبير الناقد المسرحي «محمد الروبي».

لم يكن «محمود دياب» يتنبأ بما قد يحدث من فراغ؛ حيث بدأت بعض المواقف والكتابات تدعو إلى تسوية ما تنهي الصراع الدامي وتدين السياسات التحررية التي اتبعتها مصر في أوقات سابقة.

(٧)

لم تكن اتفاقيتا «كامب ديفيد»، ولا نوع الصلح الذي جرى، منعزليْن عن الأوضاع الداخلية الجديدة في مصر وسياسة الانفتاح الاقتصادي التي اتبعها الرئيس «أنور السادات».

ذهب إلى الكنيست كنوع من الهروب للأمام بعد «انتفاضة الخبز» يومي (١٨) و(١٩) يناير (١٩٧٧).

كان في حالة إنكار للحقائق التي عمت الشوارع احتجاجًا على رفع أسعار السلع الرئيسة، وأراد أن يقنع الرأي العام بأن ما جرى في شوارع القاهرة ومدن مصرية عديدة «انتفاضة حرامية»!

دعا الرئيس مجلس اتحاد طلاب الجمهورية إلى اجتماع معه نقله التلفزيون المصري على الهواء مباشرة.

«إنتوا عاملين لي مانيفستو؟ بقى بتقولوا إن فيه ملامح حل غير مشرف مع العدو الصهيوني؟ وبتقولوا إن سياسة الانفتاح ضد مصالح الشعب؟ وإن أنا بانحرف عن خط عبد الناصر يمينًا؟ أنا خليفة عبد الناصر أنا يمين؟ طب أنا بقى عاوز واحد منكم.. من الناصريين يقوم يقول لي إزاي بقى أنا بانحرف يمينًا؟».

لم يكن يتوقع أن أحدًا يجرؤ على مواجهته والاعتقالات التي أعقبت الاحتجاجات مازالت جارية بعد أن أحكمت قوات الجيش سيطرتها على القاهرة بعد فرض حظر التجوال فيها.. ولكنه فوجئ بشاب في نحو الثانية والعشرين

من عمره يرفع يده متحملًا مسئولية البيان الذي أغضب الرئيس؛ حيث وصف التظاهرات بأنها «انتفاضة شعبية».

«أنا واحد من الناصريين اللي سيادتك بتسأل عليهم».

كان هذا الطالب هو رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة «حمدين صباحي».

السادات: «برافو يا بني.. أنا أحب الشجاعة.. اتفضل بقى قولي إنتوا مختلفين معايا في إيه».

أخذ الطالب يعدد أوجه الاعتراض، فلا خطة قومية شاملة في مصر وسياسة الانفتاح الاقتصادي «أتاحت لرءوس الأموال الخاصة، ولكثير من الطفيليين أن يكتسبوا أموالًا أكثر في الوقت الذي لم ينعكس هذا بشكل مباشر على الشعب ولم يفده».

وتطرق إلى رفع الحراسات وعودة بعض الأراضي إلى من انتزعت منهم. وما تثيره من حيرة.

«نحن لا نقول إن إحنا نريد أن نعذب أحدًا ولكن نقول إن الوقت اللي يكون فيه الشعب محتاج لكل مليم لا يصح بالمرة إن إحنا نتجه إلى إثراء مجموعة محددة في هذا الشعب على حسابه».

الرئيس: «وضد رفع الحراسات بالمرة، وكل ما يتبع ذلك بالمرة!».

الطالب: «في حوادث يمكن إحنا عشناها في بعض الأماكن في القرى وحرام قوي إن إنسان يبقى عايش على أنه بيحترم تاريخه وفجأة يسقط كل تاريخه أمامه.. كل تاريخه يسقط حتى التاريخ اللي سيادتك اشتركت في صنعه، هم يسقطوه ويتصوروا أن هذا صحيح وهذا بالفعل ضرب لمصر ولتاريخها؛ ونتيجته الطبيعية إن الناس لا بد أن تتمزق لأنها مبتقاش فاهمة كويس ما الذي ينبغي أن يكون».

الرئيس ـ مقاطعًا: «كمل نقط الخلاف يا ابني في الحرية عرفنا.. في الاقتصاد عرفنا. عاوزين بقى بقية نقاط الخلاف».

الطالب: «الدعم المستمر للمقاومة الفلسطينية على وجه التحديد، وللتضامن العربي، وخطوات من أجل وحدة عربية حقيقية تحاول أن ترفع شعارًا محددًا. نحن نرى أنه ينبغي عدم التفريط فيه، وهو حق الشعب الفلسطيني في استرداد كامل وطنه. وأنه ليس مطروحًا..».

الرئيس ـ مقاطعًا: «دلوقتِ السلطة بتفرط في هذا؟!».

الطالب: «السلطة لا تفرط في هذا، ولكن السلطة في مصر تطرح الآن إمكانية وجود سلام آمن مع إسرائيل في جنيف».

الرئيس: «أنت ضد السلام في جنيف؟!».

الطالب: «أنا طبعا ضد أي حل لا يرجع جميع الحقوق العربية المشروعة لأصحابها ومنها أن الشعب الفلسطيني يرجع، ولو كان ده في جنيف فأنا ضده».

الرئيس ـ مقاطعًا: «ما تخليك يا بني محدد. إنت عارف كلامي عن جنيف لما قلته؟ إيه اللي بأعنيه بالسلام؟"

الطالب: «سيادتك قلت في معنى السلام إن: ١ ـ الأراضي العربية اللي احتلت بعد ٦٧ هترجع.. ٢ ـ هيقام كيان فلسطيني على الضفة الغربية وقطاع غزة.. دولة فلسطينية.. ٣ ـ إن الكلام ده سيتم عن طريق مؤتمر تسوية تحضره فلسطين أو منظمة التحرير الفلسطينية أو «فتح» ممثلة للشعب الفلسطيني.. ٤ ـ إنه ترتيبًا على هذا تحرص إسرائيل في المقابل على ضرورة وجود حدود آمنة ومشروعة لجميع الأطراف الموجودة في المنطقة».

الرئيس: «إذا كان بنقول أرض ٦٧، طيب مش هي كانت في الحدود دي قبل ٦٧؟».

الطالب: «طيب وأرض فلسطين الأساسية؟».

الرئيس ـ مقاطعًا: «إنت بقى عايز حاجة أكتر من دي يعني؟».

الطالب: «يعني أنا شايف..».

الرئيس ـ مقاطعًا: «بتعبر عن الناصريين في هذا؟».

الطالب: «أنا شايف إن حتى ٦٧ كنا بنحارب».

الرئيس ـ مقاطعًا: «لأ، حدود ٦٧ بترفضوها؟».

الطالب: «نحن لا نرفض حدود ٦٧، إحنا نرى أن كل مكسب يتحقق هو صحيح، لكن إذا كان من الوارد أن هذا المكسب يكون مشروطًا بالاعتراف بالكيان الصهيوني داخل الوطن العربي، فأنا اعتقد أن هذا خطأ ونحن لا نوافق عليه».

يلخص ذلك المشهد التساؤلات التي سادت مصر أعقاب انتفاضة الخبز ومدى التداخل فيها بين الاجتماعي المتذمر والإستراتيجي المنذر.

بأحجام من شاركوا في انتفاضة (١٩٧٧) واتساع أحداثها فإنها تكاد تضاهي ثورة «يناير»، غير أن مطالبها تحددت في إلغاء قرارات رفع أسعار السلع الرئيسة.

استعادت الهتافات التي دوت في الشوارع، روح «يوليو» وانحيازاتها الاجتماعية، حملت التظاهرات صور «عبد الناصر» وهتفت باسمه وعلا صوت الشيخ «إمام عيسى» من شعر «نجيب شهاب الدين»: «يا مصر قومي وشدي الحيل».

عندما ألغيت القرارات توقف الحدث كله، لكن آثاره تحكمت فيما بعده.

كان «السادات» هو «الرئيس الأوحد في العالم الذي وصف شعبه بالحرامية».. و«معارضيه بالحقد»، كأنه ينفي الصفة عن نفسه حسب استنتاج الدكتور «جلال أمين» بمقال كتبه في يناير (٢٠٠٢) عن التحليل النفسي «للسادات».

وكان هو الرئيس الذي قال: «من لم يغتنِ في عهدي فلن يغتني أبدًا»، كأنه يؤسس للنهب العام كما توصل عدد كبير من المفكرين والشخصيات العامة في ذلك الوقت.

بعد أشهر قليلة أقدم «السادات» على زيارة الكنيست الإسرائيلي.

لم يكن التوقيت مصادفة بقدر ما كان هروبًا للأمام.

الهروب إلى الأمام مسألة سلطة مهددة ورئيس يشغله البقاء فيها بغض النظر عن الأثمان المدفوعة.

عندما نزل الجيش لضبط الشوارع كانت هذه هي المرة الثانية التي يضطر فيها للعب هذا الدور بعد حريق القاهرة يوم (٢٦) يناير (١٩٥٢).

حسب شهادة «هيكل» قرر «السادات» أن يهرب تاركًا وراءه أوراقًا رسمية بدون توقيع، وكانت المفاجأة الحسنة بالنسبة إليه أن وزير دفاعه «عبد الغني الجمسي»، وهو ضابط محترف ومنضبط، أعاد السلطة إليه.

في كل مرة نزل الجيش تغيرت اللعبة السياسية.

أدرك ذلك فهرب إلى الأمام.

(٨)

الحقيقة الرئيسة من يونيو إلى أكتوبر أن مصر كلها ـ لا «جمال عبد الناصر» ولا «أنور السادات» صاحبة قرار الحرب الذي اتخذته تحت ظلال الهزيمة يومي (٩) و(١٠) يونيو (١٩٦٧).

رمزت شخصية «عادل» طالب الثانوي في المسلسل التلفزيوني الطويل «القاهرة والناس»، الذي بدأ بثه في العام التالي للهزيمة إلى بداية نشأة الجيل الجديد؛ جيل الثورة وجيل الهزيمة وجيل الحرب.

كاد الممثل «نور الشريف» أن يتماهى مع شخصية «عادل».

كلاهما شاب حول العشرينيات يعاني صدمة الهزيمة، ينتسب إلى يوليو ويعلن أنه «ناصري» دون تنازل عن حقه في نقد التجربة.

«نور» من أبناء أكثر الأحياء المصرية شعبية وعراقة «السيدة زينب»، من أسرة بسيطة لم يتنكر لأصوله ولا ادَّعى غير حقيقته.

و«عادل» من أبناء «العباسية»؛ أحد أحياء الطبقة الوسطى في النصف الثاني من الستينيات.

هناك فارق جوهري على المستوى الوجداني بين جيلين متعاقبين.

الذين عاشوا الحلم بعضهم لم يستطع أن يتحمل وطأة انكساره.

كان «صلاح جاهين» مثالًا تراجيديًّا؛ فقد أصيب باكتئاب حاد.

والذين اكتسبوا وعيهم السياسي بعد الهزيمة رفضوها ونقدوا أسبابها ودفعوا فواتير الدم على جبهات القتال قبل أن يعودوا ليجدوا ثمارها قد ذهبت لغير أصحابها.

في عام (١٩٦٨) أعلنت أجيال ما بعد الهزيمة عن حضورها فوق مسارح التاريخ، تطلب المشاركة السياسية، تؤكد إرادة القتال وتدعو إلى جبهة داخلية متماسكة لا تفسح مجالًا للصوص المال العام والمتسلقين على أكتاف السلطة.

كانت تلك شخصية «عادل» في المسلسل التلفزيوني.

لم تكن مصادفة أن أغلب الأعمال السينمائية، التي قدمت نقدًا مباشرًا لنتائج الانفتاح الاقتصادي وإهدار تضحيات المقاتلين في حرب أكتوبر، تصدرها «نور الشريف».

بقدر الموهبة الاستثنائية لـ«نجيب محفوظ» في التقاط الشخصية الدرامية من قلب التحولات الاجتماعية، بدا «زعتر النوري» في «أهل القمة» تمثيلًا من لحم ودم لبداية «عصر اللصوص».

بصورة أكثر تأثيرًا أدى «نور» دور «حسن سلطان» في «سواق الأوتوبيس».

كان ذلك الشريط السينمائي وثيقة إدانة بلغة فنية لا ادعاء فيها لعصر كامل انقلبت فيه موازين القيم، وبدت الحالة الأخلاقية والاجتماعية في انكشاف غير مسبوق.

بالقرب من هذه المنطقة المهجورة عرت أعمال سينمائية أخرى خيانة المثقفين، الذين تواطئوا على أي قيمة للعدل الاجتماعي مثل فيلم «البحث عن سيد مرزوق».

كان هو هذا الخائن «يوسف كمال».

بالقدر نفسه أدان ما بعد الحرب في «زمن حاتم زهران».

ضاعت معاني التضحية بالدم على جبهات القتال، وانتصر الزاحفون بسطوة المال.

فيلم «كتيبة الإعدام» من تأليفـ« أسامة أنور عكاشة»، تعبير مباشر عن زواج الرأسمال الطفيلي مع خيانة دم الشهداء.

وفيلم «ناجي العلي»، الذي جلب حملة صحفية غير منصفة وغير أخلاقية فرضت ما يشبه الحصار الكامل على أعماله، ترجمة فنية لعمق التزامه بالقضية الفلسطينية.

بالتعبير الفني فإن التناقض وصل مداه.

وبالتعبير التاريخي فقد ولد جيل جديد من قلب تجربة الحرب والانقلاب على مشروع «عبد الناصر».

شابت تجربة جيل السبعينيات مرارات لا شك في عمقها الوجداني، لكنها لم تكسر إرادته.

أحيانًا بعض الهزائم أشرف من بعض الانتصارات.

الفصل الثالث عشر: رجال وتاريخ

عندما تحررت جنوب إفريقيا من ربقة الفصل العنصري، بعد أن رحل «جمال عبد الناصر» بسنوات طويلة، لم تنسَ دوره في الوصول إلى هذا اليوم.

قبل إطلاق سراح «نيلسون مانديلا» من سجنه الطويل، طلبت مجلة الـ«تايم» الأمريكية من أحد فنانيها أن يرسم صورة تخيلية تتصدر غلافها لرجل اختلفت ملامحه بأثر السنين، عاش في شبه عزلة لسبعة وعشرين عامًا متصلة، لم تُنشر له صورة واحدة، وكان من الصعب على من لم يره طوال هذه السنوات أن يتوقع الصورة التي هو عليها.

لم يكن الآلاف الذين انتظروه على أبواب سجن «فيكتور فيرستير» بوسعهم أن يتعرفوا عليه بسهولة.. ما إن أطل عليهم وقيل لهم: «إنه نيلسون مانديلا» حتى تدفقت الدموع من مآقيها، وتعالت الصرخات بهستيريا: «أحرار.. أحرار».

الحقيقة فارقت الصورة التي تخيلتها المجلة الأمريكية.

بدا أكثر نحافة مما كان عليه في شبابه، لكنه حافظ على لياقته البدنية التي اكتسبها من مواظبته على ممارسة الرياضة تحت كل الظروف.

أضفت عليه السنون وسامة لم تكن له عندما التقطت له آخر صورة قبل الزج به في السجون الطويلة.

في خطوته الأولى إلى الحرية يوم (١١) فبراير (١٩٩٠) خطت الإنسانية خطوة هائلة لإنهاء نظام الفصل العنصري ـ أحد أبشع النظم في التاريخ الإنساني.

لخص بصموده قضيته وارتفع إلى مستوى تحدياتها، لكنه لم يكن وحده، ولا الخطوة الهائلة إلى المستقبل صنعها وحده.

في لحظة الانفعالات الكبرى التي سادت العالم، وقضية التحرر الإنساني من ربقة العبودية الجماعية تأخذ مداها ذَكَرَ شعبه وعالمه «لست نبيًّا ولا مسيحًا»، وذَكّرَ نفسه قبل الآخرين بالأدوار الكبرى التي لعبها رفاقه في صناعة رمزيته لقضية عادلة.

كانت تلك علامة على صلابة التكوين النفسي لرجل وجد نفسه ينتقل فجأة من عتمة السجون إلى مقدمة المسرح السياسي، تحت الأضواء الباهرة.

ربما لم يلتفت أحد بما يكفي من إجلال لرجال آخرين، امتلكوا نفس الصلابة النفسية، وقرروا بالاختيار الحر أن يتراجعوا للخلف ويتركوه يتقدم وحده لاعتبارات مصلحة قضية منحوها أعمارهم سجنًا ونفيًا، دون أن يخطر على بالهم التنازع على سلطة حان وقت الصعود إليها.

بعض التفاصيل الإنسانية في خلفية الرواية التاريخية تضفي عليها جمالًا استثنائيًّا لمعنى أن تكون هناك قضية شعب تلهم وتستحق أي تضحيات من أجلها، وأن تكون هناك صداقات استدعت إلهامًا متبادلًا بين أطرافها.

هكذا كانت علاقة «نيلسون مانديلا» بصديقيه: «أوليفر تامبو» و«وولتر سيسولو».

الرجال الثلاثة تبنوا الأفكار ذاتها وتباروا في بذل التضحيات، وتبادلوا الأسرار الشخصية، ومثلوا معًا واحدة من أفضل التجارب الإنسانية والسياسية في التاريخ الحديث.

«أوليفر تامبو»، تولى لفترة طويلة رئاسة حزب «المؤتمر الوطني الإفريقي» وكان أقوى رجل فيه بلا منازع.

في ديسمبر (١٩٩٠) عاد إلى جنوب إفريقيا لأول مرة بعد ثلاثين سنة في المنفى، ليحضر أول مؤتمر علني للحزب الذي يتزعمه قبل إعلان تحرير بلاده.

من على منصة المؤتمر وأمام العالم كله قال «مانديلا»: «ها هو أوليفر يقودنا نحو مستقبل مشرق مفعم بالأمل، إنه الرجل الذى أنقذ الحزب طوال السنوات السبع والعشرين التي قضيتها في السجن، وهو الذي انتقل به إلى منظمة عالمية لها حضورها ونفوذها».. «إنه بحق الجندي والدبلوماسي ورجل الدولة».

كانت تلك الكلمات أقرب إلى مبايعة «أوليفر تامبو» بالاضطلاع بمهمة قيادة التحول.

لم يستسلم «تامبو» لرغبة «مانديلا» في أن يخلي له ما يستحق من أدوار في المستقبل، معتقدًا بأن القضية تستحق التضحية بأي إغواءات سلطة.

كان تقديره أن الرجل الذي خرج للتو من السجن هو الآن رمز القضية، وأنه من مصلحتها أن تستخدم رمزيته وكفاءته في قيادة المفاوضات الصعبة لتفكيك النظام العنصري في جنوب إفريقيا.

في سنوات الشباب الأولى تشاركا بمكتب محاماة في جوهانسبرج، حمل اسم «تامبو مانديلا»، وكان مكتب القضاء الإفريقي الوحيد في جنوب إفريقيا في ذلك الوقت.

من موقعه في رئاسة المؤتمر الوطني الإفريقي تبنى «تامبو» حملة دولية لشرح قضية مواطنيه الأفارقة ضد سياسة الفصل العنصري والتنديد بها، والدعوة إلى الانعتاق منها، وأن يكون شعارها إطلاق سراح «مانديلا».

كانت هناك اعتراضات وحساسيات.

لم يكن «نيلسون مانديلا» هو السجين الوحيد، الذي تقادمت عليه السنون في السجن، ولا هو وحده الذي صمد في مواجهة عنت وعسف السلطات البيضاء ضد كل ما هو إفريقي أسود.

امتدت الاعتراضات والحساسيات إلى داخل السجون، وتردد على نطاق واسع أن الحملة ومنطقها أقرب إلى «شخصنة القضية» على حساب طبيعتها العامة لشعب يرزح تحت الفصل العنصري.

دافع «تامبو» باستماتة عن فكرته، ونجح في تذليل الاعتراضات عليها.

مالت نظرته إلى أن العالم يتفهم القضايا الكبرى عندما تطرح عليه بوضوح وإقناع بعدالتها، لكنها قد تلهم خياله عندما تجسد أمامه في طلب الحرية لإنسان يرمز إلى أمة مقهورة، صمد وقاوم عذابات السجون، مؤمنًا بحق شعبه في منع التمييز العنصري ضده.

في اللحظة التي خطا فيها «مانديلا» خطوته الأولى إلى الحرية في ظروف دولية أعقبت سقوط حائط برلين دعت تفاعلاتها إلى ضغوط واسعة لتفكيك نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، لم يتردد «تامبو» في أن يُفسح المجال أمام صديقه القديم لقيادة التحول الكبير؛ فقد أصبح رمزًا للقضية، وأثبت جدارة في الحديث باسمها.

كان اعتقاده بأن لكل مرحلة رجلها، و«مانديلا» هو رجل الساعة دون غيره، وأن قضيته فوق شخصه وانتصارها صلب طموحاته.

لم تكن الأحوال الصحية لـ«تامبو» مطمئنة، ولعله أراد أن يضع المستقبل في يدٍ أمينة عليه.

ذهب «مانديلا» إلى «تامبو»؛ حيث يتلقى العلاج في العاصمة السويدية «ستوكهولم» كأنه أراد أن يقول للعالم: «هذا قائدي».

بادره «أوليفر» بعبارة قاطعة: «نيلسون.. عليك الآن أن تتسلم رئاسة الحزب فقد قمت بواجبي في رعاية المقعد حتى تصل أنت إليه».. فرد عليه: «أنت الذي توليت قيادة الحزب من الخارج بأفضل مما كنت قادرًا عليه، وانتقال الرئاسة بهذا الأسلوب ليس عادلًا ولا ديمقراطيًّا».. «لقد انتخبك الحزب رئيسًا، وليس من حقك أن تسند الرئاسة إلى غيرك».

لم يتراجع «تامبو» عن موقفه وكان قراره حاسمًا ونهائيًّا.

وصفه «مانديلا» في مذكراته بأنه رجل «ذكاؤه عميق وقدراته استثنائية في الحوار والنقاش وتفنيد أفكار خصومه بأسلوب منطقي ومقنع»، وأن «أفضل ما تعلمته منه نظرته الموضوعية التي خففت من اندفاعاتي العاطفية المتسرعة».

اتسقت الحقائق الجديدة مع رؤية «تامبو»، وآلت قيادة الحزب والدولة إلى «نيلسون مانديلا».

الرؤية ذاتها تبناها رجل قوي آخر هو «وولتر سيسولو»، الذي عانى عذابات السجون الطويلة مع «مانديلا» بذات التهم.

كانت شخصية «سيسولو» ملهمة لكثيرين أولهم «مانديلا» نفسه.

بنص مذكراته: «لقد خضت مع وولتر النضال حلوه ومره.. وهو رجل عنده حكمة وعقله راجح، ولا يوجد في الدنيا كلها من يعرفني أكثر منه ولا أطمئن لرأي وأقدره أكثر مما أطمئن لرأي سيسولو وأقدره».

بلا ضجيج ولا ادعاء تراجع «سيسولو» خطوات إلى الخلف، وهو رجل وراءه أسطورة صمود كتلك التي لدى «نيلسون» بالضبط.

لم يتململ أو يتضايق من مساحة الضوء الكبيرة التي حازها صديقه القديم وحده تقريبًا.

لم تكن مجرد مسألة رفعة إنسانية بل اعتقاد راسخ بأن مصلحة قضية جنوب إفريقيا تَجُبُّ أي شيء آخر.

كان «مانديلا» مهيئًا أكثر من رفيقيه لقيادة التحول؛ فهو صاحب فكرة «الحوار مع العدو»، وهو الذي أخذ على عاتقه خلف جدران السجون اختبار جديتها والفرص المتاحة.

لم يبدِ «سيسولو» ارتياحًا للفكرة ولا اقتناعًا بجدواها عندما طرحها عليه «مانديلا» خلف أسوار السجن الذي كان يضمهما.

لم يكن ضد المفاوضات من حيث المبدأ، لكنه كان يفضل أن تبادر الحكومة البيضاء بها لا أن تأتي «من صفوفنا».

لم يبدِ «تامبو» ارتياحًا للفكرة نفسها وأرسل إلى «مانديلا» عبر محامين يسأل: «ما موضوع المحادثات السرية بالضبط؟».

بصورة أو بأخرى، أقنع «مانديلا» رفيقيه بالمضي في المحادثات لاكتشاف فرص المستقبل في الظروف الدولية الجديدة، بعد انتهاء الحرب الباردة.

في لحظة خروجه من السجن بدا أنه الوحيد القادر على إدارة التفاوض الصعب من أجل الحرية، وقد أنجز مهمته بدرجة عالية من الكفاءة وحسن تقدير الأمور.

اتسقت تجربته مع معتقداته وتسامحت روحه مع عذاباته ودعت إنسانيته سجانيه إلى الافتتان بشخصيته إلى درجة دعت حارسه الأبيض «جيمس جريجوري»، الذي توفيَ عام (٢٠٠٣)، إلى وصفه في مذكرات تحولت إلى فيلم سينمائي بـ«سجيني وصديقي».

وأنت تقرأ مذكرات «مانديلا» تجد نفسك أمام رجل يكاد يقول: إن كل ما فعلت الفضل فيه لآخرين.

قاد تجربة في «العدالة الانتقالية»، تعد مصدر إلهام لشعوب أخرى عانت من الظلم والتنكيل، حاسبت وصالحت ووضعت جنوب إفريقيا على مسار جديد في التاريخ.

لم تكن التجربة الجنوب إفريقية مثالية، فقد بقيت ثروات البلاد تحت سيطرة الأقلية البيضاء، لكنها حررت الرجل الأسود من عبوديته ومكنته من السلطة السياسية.

بنفس التوقيت الذي تحررت فيه جنوب إفريقيا من الفصل العنصري كانت هناك فرصة مماثلة إلى حد ما في مفاوضات مدريد، لإنهاء حالة عنصرية أخرى في فلسطين المحتلة.

كان من الصعب للغاية الوصول إلى أي اختراق في ظل تعهد رئيس الوزراء الإسرائيلي في ذلك الوقت «إسحاق شامير» بالتفاوض لعشر سنوات مع الفلسطينيين، دون اتفاق يعيد إليهم شيئًا من حقوقهم.

لم تكن القضية الفلسطينية فوق الرجال ولا الفصائل.

تبدت خشية شبه معلنة في قيادة منظمة التحرير الفلسطينية أن يسحب الوفد المفاوض في مدريد البساط من تحت أقدامها.

ذهبت إلى التفاوض السري في العاصمة النرويجية «أوسلو«، وقدمت تنازلات نالت من الحقوق الثابتة، كأنه اندفاع إلى الخسارة المجانية التي امتدت عقودًا.

القضايا الكبرى تنتدب رجالًا كبارًا.

كان ذلك شأن «مانديلا» ورفاقه.

في لحظة الصعود الكبير تأكدت قيمة الوفاء للتاريخ ولأدوار قادة التحرير في القارة الإفريقية.

فور إطلاق سراحه، زار «مانديلا» دولًا إفريقية في مقدمتها مصر.

طلب من بروتوكول رئاسة الجمهورية أن يكون بجواره في العشاء الرسمي على شرفه صديقه القديم «محمد فائق»، رجل «عبد الناصر» في إفريقيا، الذي تعاون معه لإزاحة الحكم العنصري قبل أن يدخل سجنه الطويل قائلًا: «بيننا موعد تأخر ٢٧ عامًا».

حسب رواية «محمد فائق» كما استمعت إليها ـ فإنه ذهب إلى منشية البكري وبصحبته المناضل الجنوب إفريقي «نيلسون مانديلا» للقاء «جمال عبد الناصر».

انتظرا معًا أن ينتهي اجتماع بين «عبد الناصر» و«تيتو»، غير أن الاجتماع طال عما كان مقررًا، وجد «مانديلا» نفسه مضطرًا للمغادرة حتى يلحق بطائرته على أن يعود مرة أخرى للقاء الزعيم العربي.

وهو لقاء لم يحدث قط.

فيما بعد قال «مانديلا» إنه في سجنه الطويل كان يحاول أن «يشب» على قدميه حتى يرى «جمال عبد الناصر» في القاهرة.

تلك إشارة تخيلية لحجم الرهان الإفريقي على الدور الذي كانت تلعبه مصر في ستينيات القرن الماضي.

عندما جاء للقاهرة زار ضريح «عبد الناصر»، وقد ولدا في عام واحد (١٩١٨)، ووصفه بأنه «زعيم زعماء إفريقيا».

قاوم «مانديلا» بقدر ما يستطيع نزعات الغرور الإنساني، ولم تستخفه مشاعر الحب التي يلقاها، حاول طوال الوقت أن يقف على الأرض ويذكِّر نفسه بأنه إنسان.

تملكته أحيانًا روح الدعابة.

سجل مشاعره عن الندوة التي حضرها في جامعة القاهرة، ولم ينسَ ـ برغم حرارة الاحتفاء ـ من أن يذكَّر: «ضاع حذائي في الزحام».

برغم استقباله الرسمي في القاهرة عندما زارها بعد تحريره، فإن نظام الحكم وقتها لم يدرك القيمة التي اكتسبها في الضمير الإنساني المعاصر، ولا ضرورات بناء علاقة خاصة مع جنوب إفريقيا الحرة، أو التوقف عن التنكر للقارة الإفريقية وقضاياها.

بعد سنوات من مغادرته الاختيارية لمقعده الرئاسي أشرف «مانديلا» على ملف بلاده لتنظيم كأس العالم لكرة القدم.

كان أسوأ ما حدث في أروقة الحكم، حيث كانت مصر قد رشحت نفسها لتنظيم ذات البطولة، وصف «مانديلا» بأنه شوية «كراكيب» على ما روى لي الأستاذ «هيكل» نقلًا عن مسئول كبير متصل بالملف في منتصف مايو (٢٠٠٤).

بدا «هيكل» منزعجًا من العبارة وحماقاتها: «الرجل وراءه أسطورة».

كان ذلك استهتارًا مروعًا بقيمته ورمزيته في العالم دفعت مصر ثمنه موجعًا في «صفر» المونديال.

من مفارقات التاريخ أن نظام الحكم، الذي استهتر به، سقط في (١١) فبراير (٢٠١١) بعد واحد وعشرين عامًا باليوم من إطلاق سراح «مانديلا».

بصياغة «محمد فائق» في كتابه «عبد الناصر والثورة الإفريقية»: «إذا كنا نسلم بأن الزعماء الذين قادوا ثورة إفريقيا هم جمال عبد الناصر وكينياتا، ونكروما، وسيكوتوري، وبن بيللا ولومومبا وفيلكس مومي، وكاوندا وجوشوا مكومو، ونيريري، ومندلاني وإميل كابرال ومحمود حربي وغيرهم، فإننا نستطيع بكل الاطمئنان أن نقول إن جمال عبد الناصر قد لعب الدور الأخطر والأعظم بشهادة التاريخ وشهادة هؤلاء أنفسهم».

«شعر كل جزء من إفريقيا بأن له سندًا قويًّا وحليفًا عنيدًا. فبرزت الثورات في القارة كما برزت في العالم العربي، واستحق عبد الناصر عن جدارة أن يلقب بمفجر الثورة الإفريقية».

«عندما كشفت مصر عن وجهها الإفريقي الصحيح لأول مرة في تاريخها الحديث بعيدًا عن فكرة الإمبراطورية التي ظلت تملأ عقول زعمائنا الوطنيين حقبًا طويلة من الزمن، وأعلن عبد الناصر انتماء مصر للحركة الإفريقية وتحملها عبء حركة التحرر الإفريقية، وأصبح هذا الانتماء جزءًا لا يتجزأ من الشخصية المصرية، كان قد أضاف بذلك حضارة مصر العريقة لتصبح رصيدًا لإفريقيا كلها بجانب حضارتها الزنجية، وهو شيء كانت إفريقيا في مسيس الحاجة إليه، وهي مازالت في مرحلة تتحسس فيها جذورها لتستقي منها ما تدفع به حركتها أمام العالم وفي مواجهة قوى الاستعمار الشرسة».

«لن نكون مبالغين إذا قلنا إن ثورة يوليو المصرية قد أحدثت من التغيير وتركت من التأثير في إفريقيا ما لا يقل بحال من الأحوال عن ذلك التغيير والتأثير الذي أحدثته وتركته الثورة الفرنسية في أوروبا.

فإذا كانت الثورة الفرنسية قد زرعت مبادئ الحرية والإخاء والمساواة عميقة بين شعوب أوروبا وقضت على الإقطاع وامتيازات النبلاء والألقاب، فإن الثورة

المصرية هي التي أعطت الشعوب الإفريقية القدرة على استخلاص حقوقها وفقًا لهذه المبادئ والمعاني العظيمة، والتي كان تطبيقها يقف دائمًا خارج حدود المستعمرات؛ حيث كان يصطدم هذا التطبيق بمصالح المستعمرين الأوروبيين».

قد تبدو مثل هذه الشهادة تحليقًا في الإنشاء السياسي، لكنها في الحقيقة تعكس بدرجة عالية من الدقة الدور الذي لعبته مصر، ولا يزال ماثلًا في ذاكرة القارة.

لم تكن مصادفة أن ترشح صحيفة «التايمز» البريطانية ـ مع مطلع القرن الحادي والعشرين ـ «عبد الناصر» و«مانديلا» مع الأديب الروسي «ليو تولستوي» للفوز بلقب «الشخصية الأعظم» في العالم.

تحت عنوان «البحث عن الأفضل»، الذي كتبه الصحفي البريطاني «آدم شروين»، تساءلت يوم (٢٣) فبراير (٢٠٠١): «من هي الشخصية الأكثر تأثيرًا وإلهامًا في التاريخ؟».

في ذلك الوقت نظمت هيئة الإذاعة البريطانية «بي بي سي» استطلاع رأي لاختيار الشخصية البريطانية الأعظم.

استقر رأي البريطانيين على أنه «ونستون تشرشل» بوصفه الأكثر احترامًا في تاريخ الأمة.

كما اختار ـ في استفتاء مماثل ـ (٣) ملايين ألماني «كونراد إديناور» مستشار ألمانيا الفدرالية بعد الحرب العالمية الثانية بوصفه تجسيدًا للعزة الوطنية.

نجاح الاستفتاءين أغرى المؤسسة الإعلامية العريقة لدعوة المشاهدين في كل أرجاء المعمورة؛ لتحديد الشخصية الأكثر تأثيرًا في التاريخ.

لم يتم الاستفتاء بتدخل من جهات عربية حتى لا تأتي النتيجة لصالح «عبد الناصر».

ما نحتاجه ـ بالضبط ـ أن ندرك الحقائق، أو ألا نهدر ما يستحق الاعتزاز به دون التخلي عن حق النقد والاختلاف.

لأي شعب موارد تاريخية تنتسب إلى معارك خاضها مع شعوب أخرى وفواتير دم دفعها من أجل قضايا بعينها.

إهدار الموارد التاريخية خطيئة لا تغتفر.

بتعبير الأستاذ «هيكل»: «لا تراهن على التاريخ وحده أيًّا كان بريقه، فالمصالح تسبقه في العلاقات بين الدول».. «قد تساعد العلاقات القديمة في التمهيد لتبادل لغة المصالح بشيء من الود، لكن لا تنسَ أنها مجرد تمهيد قبل الدخول في صلب المصالح المتبادلة».

من أسوأ ما جرى بعد «عبد الناصر» أن ما استقر عميقًا في القارة السمراء أهدر فادحًا في السياسات.

على لسان قروي إفريقي من كينيا رصد الأديب «بهاء طاهر» المفارقات التي جرت في شهادة منشورة:

«كنت في رحلة من العاصمة نيروبي إلى مدينة كينية أخرى، وتوقفت بالسيارة في قرية صغيرة على الطريق فتوجهت مع مجموعة من جنسيات مختلفة نبحث عن سجائر في ذلك المكان. دلونا على دكان صغير يشبه مثله في أي قرية من قرانا؛ حيث تتكوم أجولة السكر والدقيق في ناحية وبجوارها صفائح الزيت وقطع الصابون المرصوصة، وأوعية تضم حلوى للأطفال، ورف للسجائر.. إلخ، ووسط كل تلك الفوضى كان هناك في صدر المحل صورة مثبتة بالدبابيس في الحائط صورة ملونة قديمة لوجه يتبسم وكنت أعرفه جيدًا.

عندما اشتريت السجائر من صاحب الدكان العجوز، سألته بشكل عابر:

ـ صورة من هذه المعلقة هناك؟

فالتفت الرجل خلفه في دهشة مشيرًا إلى الصورة وهو يسألني:

ـ ألا تعرف من هو؟

ـ لا.

فقال الرجل ببساطة: هذا هو أبو إفريقيا.

لن أنسى ما حييت البساطة واليقين في لهجة هذا الرجل الأشيب وهو يقول لي بلكنته الإفريقية This is the father of Africa وقفت صامتًا للحظة. كنت قد تركت مصر وقتها وصحف العهد تتبارى في الهجوم على عبد الناصر، لم يترك الكُتاب نقيصة إلا وألصقوها به، وكان نشر صورته أيامها من المحرمات، ناهيك بالطبع عن إذاعة صوته أو الإشارة إلى أي شيء حسن فعله في حياته، حتى بحيرة ناصر خلف السد العالي، معركته الكبرى وإنجازه الباقي، شطبوا اسمه من عليها مخافة أن يذكر الناس به».

مشكلة مصر في إدارة أزماتها الإفريقية التي تنشأ من وقت لآخر أنها تتذكر التاريخ في غير موضعه وتبني عليه بغير أساس.

لا القادة الإفريقيون الحاليون من طراز قادة التحرير الوطني، ولا مصر بقيت على حالها.

الرجال اختلفوا والسياسات تناقضت والقارة كلها في أوضاع جديدة.

التاريخ حاضر في الذاكرة العامة، فالإفريقي يعتد بمعاركه للانعتاق من التمييز العنصري، ويعتز بأبطاله التاريخيين من أمثال «عبد الناصر» و«نكروما» و«لومومبا» و«نيريري» و«مانديلا»، لكنه لا يعيش في الماضي.

لديه كوابيسه وأحلامه وتساؤلات عن مستقبله.

ينظر على الخريطة فيجد مصر في موقعها، لكنه لا يشعر بأثر وجودها.

لا ينكر قيمتها التاريخية لكنه يدرك أن القضايا المشتركة والمعارك الملهمة في الماضي لا تصلح عنوانًا أبديًّا لعلاقات الدول.

موارد التاريخ ضرورية بقدر ما تبنى على ما بنيت، وأن تكون حاضرًا ومؤثرًا ومستجيبًا لتحديات عصرك.

إن لم نتصارح بالحقائق فالخطايا مرشحة للتكرار.

فإلى أي حد تدرك مصر أنها قد أخطأت في التنكر للقارة الإفريقية؟

موارد التاريخ تفسح المجال لكنها ليست المجال ذاته.

أخلينا مواقعنا عن استهتار بالغ بالمصالح المصرية العليا، وزحف آخرون على المواقع التي أخليت.

لم يكن ذلك سوء تقدير سياسي بقدر ما كان منهجًا جديدًا في الحكم.

في وقت واحد تزامن تفكيك مقومات الاقتصاد الوطني والقرار الوطني، ورهن البلد كله لخيار وحيد وضع (٩٩٪) من أوراق اللعبة في يد الولايات المتحدة.

كانت تلك دعوة لإسرائيل وغيرها أن تملأ الفراغ.

وكانت تلك مأساة كاملة لبلد قاد حركات تحريرها، ولعب الدور الأكثر جوهرية في تأسيس «منظمة الوحدة الإفريقية» «الاتحاد الإفريقي الآن».

(١)

في ذلك اليوم البعيد من عام (١٩٥٥) طالت مداولات رئيس الوزراء الصيني «شواين لاي»، ورئيس الوزراء البورمي «أونو« بأكثر مما كان مقررًا.

الأول ـ أبرز وجوه الثورة الصينية في العالم، وكان مشغولًا بالحدث الكبير الذي يوشك أن يبدأ بعد ساعات في «باندونج».

والثاني ـ بطل قومي في بلاده قادها إلى الاستقلال، وكان معنيًّا بمستقبل جنوب شرق آسيا، محاولًا أن يساعد الجار الصيني على فك الحصار عنه ودمجه في حركات التحرير الصاعدة.

استأذن «أونو« أن يغادر الاجتماع إلى مطار «رانجون» لاستقبال الرئيس المصري.

كانت طائرة «جمال عبد الناصر» في طريقها إلى الاجتماع التأسيسي لحركة عدم الانحياز و«بورما» محطة في رحلة عمل شملت باكستان والهند، والأخيرة شريك رئيس مع مصر ويوغوسلافيا في قيادة الحركة الناشئة.

باغت «شواين لاي» مضيفه: «أنا قادم معك».

بدا ذلك خروجًا على الأعراف والقواعد في العلاقات الدولية.

شرح «شواين لاي» موقفه على النحو التالي: «نحن في الصين نعتبر أن علاقاتنا مع مصر التي يمثلها هذا الرئيس الشاب أبعد وأهم من وجود سفارات وتبادل سفراء».

كان الأستاذ «محمد حسنين هيكل» شاهدًا على الواقعة التاريخية الفارقة، وأول من لمح عبر نافذة الطائرة «شواين لاي» بجوار «أونو» عند مدرج المطار.

ربما لم يطلع الرئيس الصيني الحالي «شي جين بينج» على خلفيات المصافحة بين «عبد الناصر» و«شواين لاي» تحت الكاميرات في «باندونج»، التي وصفها قبل زيارته للقاهرة بمناسبة مرور ستين سنة على العلاقات بين البلدين بـ«التاريخية».

في إقدام «عبد الناصر» حسابات غيرت التاريخ على نحو سمح للتنين الصيني أن يخرج إلى المسارح المفتوحة لاعبًا رئيسًا يكرس قدراته لاكتساب صفة «القوة العظمى».

حتى لا ننسى، كانت مصر أول دولة عربية وإفريقية تكسر الحصار على الصين.

هذه خطوة جسورة بكل حساب.

لم تكن مصادفة تأميم قناة السويس في يوليو (١٩٥٦) بعد شهرين بالضبط من الاعتراف الرسمي بالصين الشعبية، التي أيدته بقوة.

اتسقت السياسات مع طلب استقلال القرار الوطني.

كان ذلك مصدر قوة وإلهام.

في التجربة الصينية برز رجلان من طراز استثنائي، العلاقة بينهما معقدة للغاية.

أولهما ـ «ماو تسي تونج» وعنده قدرات الإلهام والحشد والتعبئة وصياغة الأفكار بصورة تجمع بين الإيديولوجية والبراجماتية.

وثانيهما ـ «شواين لاي» وعنده مهارات بناة الدول العظام، اطلع في جامعة «السوربون» الفرنسية على العصر الجديد وحقائقه عند بدايات القرن العشرين، انتسب إلى الثورة وشارك فيها لكن عينه ظلت معلقة على بناء الدولة، أسس مدرسة تنسب إليها المعجزة الاقتصادية الصينية.

في أثناء الثورة الثقافية الصينية تعرض «شواين لاي» وتلاميذه لتجربة عصيبة.

اختصرت الثورة في تعاليم مقتطعة من أفكار «ماو» ضمها «كتاب أحمر» تحول إلى كتاب مقدس يشرف على الالتزام الحرفي به «لين بياو»، الذي كان ينظر إليه كخليفة منتظر.

«لين بياو» لقيَ مصرعه في حادث طائرة غامض لم تستبن حقائقه حتى الآن، كأنها تناثرت في الجو مع حطامها وسط ضباب معلومات تقول إنه «خان ماو» دون أي تفاصيل تشرح ما حدث.

من مفارقات التاريخ أن «دينج هسياو بنج» معاون «شواين لاي» وأقرب تلاميذه ـ آلت إليه بعد نحو عقد من الزمان مقاليد السلطة والقوة بعد أن كان قد تعرض فترة الثورة الثقافية لحملات تشهير وصلت إلى تعمد الإهانة البالغة وتحقير شخصه.

الحكمة المتوارثة عند الصيني جعلته مستعدًّا، بطول نفس وقدرة على الصبر، أن ينتظر جثة عدوه طافية عند حافة النهر.

عندما تراجعت الصين عن شطط الثورة الثقافية، على عهد «ماو» بعد مقتل «لين بياو»، تولت مدرسة «شواين لاي» ضخ أفكار جديدة لرفع معدلات النمو وجذب الاستثمارات واقتحام الصناعات التكنولوجية واختراق الأسواق البعيدة، والوصول إلى منابع البترول في إفريقيا بسياسة حاولت أن تزاوج بين ضرورات الانفتاح الاقتصادي والتزامات التوجه الاجتماعي عرفت باسم «اقتصاد السوق الاشتراكي».

انتقلت الصين إلى آفاق القوى العظمى دون أن تنتقم من الماضي الثوري، أو تتنكر لمعاركه، أو تنسى فضل «ماو» في النقلة الكبرى التي وصلت إليها.

هذا عكس ما جرى في مصر.

بعد رحيل «عبد الناصر» جرى الانقلاب على ثورة يوليو والتشهير بمعاركها الكبرى، بما فيها معركة فك الحصار عن الصين.

الأمم الحية وحدها هي التي تتعلم من تجارب التاريخ، تنظر باحترام إلى تجارب الآخرين، تستلهمها دون أن تنقلها بتفاصيلها إلى دفاترها الخاصة.

هذا أهم دروس «المعجزة الصينية».

في مطلع السبعينيات كان الاقتصاد المصري في وضع أفضل من الاقتصادين الصيني والكوري الجنوبي، وفي وضع مقارب للاقتصادين الماليزي والتايلاندي، بحسب دراسات اقتصادية موثوقة.

في اعتقاد «مهاتير محمد»، الذي جاء إلى القاهرة في الستينيات يستقصي أسباب نهضتها الاقتصادية، أن الفارق بين التجربتين الماليزية والمصرية أن الأولى لم تكن على حدود إسرائيل!

ما جرى في مصر يتجاوز فكرة الانفتاح الاقتصادي.. فقد جرى اتباع نهج انفتاحي في الصين بتوقيت متقارب من السبعينيات.

القضية تصفية المشروع الوطني ذاته والانخراط في التبعية الاقتصادية وإهدار الأموال والموارد والأصول العامة.

تنكرت مصر لقضايا عالمها العربي وقارتها الإفريقية، وقطعت أواصر صداقاتها في آسيا وأمريكا اللاتينية.

أخلت مواقعها تمامًا ونجحت إسرائيل في مد خيوطها إلى الشرق؛ حيث أصدقاؤنا التاريخيون في الصين والهند.

أخذنا نقول إنهم نسوا مواقفنا في نصرة قضاياهم دون أن نذكر أنفسنا بأننا أول من خان قضايانا.

حيث تراكمت الخبرات والسياسات في الصين جرفت هنا في مصر.

عند رحيل «ماو»، مرت الصين بفترة اضطراب قبل أن تحدد بوصلتها إلى المستقبل.

بعد صراع على السلطة مع مَنْ سميت بـ«عصابة الأربعة»؛ بينهم أرملة «ماو»، أمسك «دينج هسياو بنج» بمقاليد السلطة والقوة.

كان «شواين لاي» قد رحل قبل «ماو» بوقت قصير.

لم يتولَّ «دينج هسياو بنج» أي منصب رسمي، لا رئيس جمهورية ولا رئيس وزراء، مكتفيًا برئاسته للجنة العسكرية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني.

بقدر ما كان معنيًّا بالملف الاقتصادي وضرورات التقدم فيه بثبات، فإنه رسخ فكرة المؤسسة.

أخطر ما نعانيه في مصر والعالم العربي غياب التفكير المؤسسي، الذي يضبط الأداء العام بالتراكم والإضافة والتصحيح دون انقلابات حادة، أو عشوائيات سياسة.

(٢)

لم يكن «جواهر لال نهرو»، رئيس وزراء الهند وبطل استقلالها وأهم شخصية سياسية في تاريخها الحديث، مقتنعًا بمقاطعة إسرائيل وعزلها عن حركة العالم الثالث.

بمبادرة مفاجئة، أرسل دعوة لإسرائيل للمشاركة في مؤتمر «باندونج» عام (١٩٥٥).

بدا الأمر محرجًا أمام اعتراض الرئيس المصري «جمال عبد الناصر».

تساءل: «أليست إسرائيل دولة آسيوية؟».

بدا معتقدًا بأن مصر باعتراضها تتمسك بشكليات لا تقتضيها طبيعة الحقائق، ثم إنها تخلط بين مشكلة داخلية وبين قضية عالمية يمثلها مؤتمر، يستهدف مواجهة الاستعمار والقضاء عليه، وفتح الطريق أمام حركة التحرر الوطني.

وفق رواية «محمد حسنين هيكل»، الذي حاوره في القضية الشائكة كصحفي مقرب من قائد «يوليو»: «لنقل إنها تحتل رقعة أرض في آسيا، لكنها ليست آسيوية بالقطع».

«إسرائيل ليست غير رأس جسر للاستعمار على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض ومشاركتها ضد الطبيعة، طبيعة باندونج وطبيعة إسرائيل».

في أثناء المباحثات الرسمية بالقاهرة، حسم «عبد الناصر» كل سجال. إما مصر والعالم العربي وإما إسرائيل.

بلا اقتناع حقيقي، استجاب «نهرو» وسحب دعوته خشية تفكك حركة عدم الانحياز قبل أن تولد في «باندونج».

بحكم السياسات العملية قبل الصداقات الشخصية، لم يكن ممكنًا تجاهل الدور المحوري المصري في قيادة تلك الحركة ولا مغبة خروج العالم العربي منها.

لم يكن «عبد الناصر» صاحب فكرة «عدم الانحياز»، التي تعود في الأصل إلى الزعيم الهندي، غير أنه أعطاها «الديناميكية» التي نجحت بفضل صورته التحررية في ربط نضال شعوب العالم الثالث.

بقوة الحقائق، استجاب «نهرو» لاعتراض «عبد الناصر».

فيما بعد أبدت الهند ارتباطًا قويًا بقضية العرب المركزية في ظروف ما بعد هزيمة (١٩٦٧)، وقفت مع مصر في محنتها، كأن المصير واحد والهزيمة مشتركة، ووصلت العلاقات بين البلدين إلى ما يشبه التوءمة الإستراتيجية.

القصة تكاد تكون مجهولة، كأن الشرق الآسيوي كان يوافقنا في النظر إلى الموقف من إسرائيل دون أن يكون لنا دور ومعنا أوراق توضع على المائدة.

ذات مرة سأل «نهرو» «عبد الناصر»: «لماذا تصف مصر بأنها دولة نامية؟ مصر دولة كبرى يا سيادة الرئيس».. فأجابه: «دولة كبرى بعالمها العربي».

لخصت تلك الإجابة رؤيته لمصر ومكانتها في عالمها؛ فمصر داخل حدودها بلد منكشف في أمنه القومي، ومصر منفتحة على عالمها العربي بلد قوي ومُهاب.

هذا المعنى هو صلب ما أهدرناه في إدارة العلاقات الدولية.

عندما تغيب حقائق التاريخ لا ندرك ما الذي جرى بالضبط، تهدر المعاني في السياسة وتبهت الدروس في الذاكرة.

الحقيقة التي يجب ألا ننساها أن أحدًا لا يدافع بالنيابة عن قضايا الآخرين، إذا لم يدافعوا هم عنها ويعرضوها بكل وضوح واستقامة.

عندما تتنكر لقضاياك، لن يحترمها أحد آخر.

هذا ما حدث في العلاقات المصرية ــ الهندية فيما آلت إليه بعد تقويض إرث التاريخ وأدواره التي كانت.

لم يكن ممكنًا أن تطلب من الأصدقاء السابقين الالتزام بأي مصالح أو حقوق عربية إذا كنت قد تخليت عنها، وأخذت تسفه بنفسك من عدالتها بعد توقيع اتفاقيتي «كامب ديفيد» عام (١٩٧٨).

في أجواء التخلي جرى اندفاع هندي إلى مد الجسور مع إسرائيل، وارتفعت بنسب عالية مستويات التعاون الاقتصادي والتقني والعسكري، ولم تكن الهند وحدها.

صداقات الدول تنشأ على قواعد المصالح الإستراتيجية، لا هي رحلات خلوية في أمسيات صيف، ولا مصافحات عابرة في عرض طريق.

المصالح الإستراتيجية تفوق كلمتها أي كلمة أخرى ـ كما هي العادة دائمًا.

تلك القاعدة سرت على طبيعة العلاقات مع الصين ودول أخرى.

نحن نتحدث عن صين ناهضة وقوية تتطلع في مدى سنوات إلى تصدر التصنيف الدولي كأقوى اقتصاد في العالم، لا عن بلد محاصرٍ يعاني عزلة دبلوماسية، وصداماته الإيديولوجية مع الاتحاد السوفيتي تنهك حركته.

ونحن نتحدث عن هند جديدة تنازع بقوة التنين الصيني على معدلات التفوق والقوة، لا عن بلد يعاني بقسوة من الفقر والحرمان وتبعات الاستعمار البريطاني الطويل.

كلا الرجلين «جواهر لال نهرو» و«شواين لاي»، تمكن في ظروف مختلفة تحت العباءة الروحية لـ«المهاتما غاندي» والسياسية لـ«ماو تسي تونج» من إعادة هندسة الدورين الهندي والصيني على نحو سمح بتوفير قاعدة صلبة للانطلاق المستدام.

لم يحدث شيء من ذلك في مصر، فمن مقتضيات أي تقدم ممكن استطراد التراكم في الخبرات والتجارب.

أهدرت الموارد التاريخية في علاقات مصر الخارجية، كما أهدرت مواردها الاقتصادية.

ما الذي جرى؟ وماذا فعلنا بأنفسنا؟

حضور المشروع ضرورة أولى، والحفاظ على قوة الدفع ضرورة ثانية، والتعلم من دروس الماضي ضرورة ثالثة.

إذا لم يكن هناك نظام حديث وديمقراطي يجدد في مشروع «يوليو» دون ثغرات نظامه، فإنه يصعب التعويل على أي نجاح.

في مستجدات الشرق الآسيوي أن الصين عيونها مفتوحة على الهند أكثر من أي بلد آخر في آسيا، بما في ذلك اليابان ومن يسمون بالنمور، والهند تتابع بالتفاصيل ما يجرى في جارتها القوية وتنظر فيما يمكن أن تتبناه من سياسات تسمح بملاحقتها إلى القمة.

وفي مستجدات اللعبة الدولية، فإن الولايات المتحدة الأمريكية ـ القوة الأولى حتى الآن ـ تسعى إلى نقل مركز ثقل إستراتيجيتها إلى الشرق الآسيوي؛ حيث المصالح الكبرى والتحديات الهائلة في القرن الحادي والعشرين.

هذه حقائق اليوم، فإذا لم ندركها فاتنا قطار القرن الجديد.

عند إعلان الرئيس «أنور السادات» أن «٩٩٪ من أوراق اللعبة في يد الولايات المتحدة»، بدت مصر أمام انحدار إستراتيجي.

عكس ذلك الإعلان نوع الإستراتيجيات والسياسات المصرية الجديدة، كأنه دعوة مفتوحة للأصدقاء السابقين في الشرق الآسيوي إلى تنحية مصر من على أولويات تحالفاتها الدولية، والانفتاح على إسرائيل بصورة لم تكن متصورة.

نفس الإعلان بمنطقه وتداعياته أفضى إلى ابتعاد إفريقي عن الدولة التي لعبت أكبر الأدوار في تحريرها والانفتاح على إسرائيل بدرجة تجاوزت ما كان يطلق عليه الاختراق إلى تعاون عسكري واقتصادي واستخباراتي فاق كل توقع.

عندما لا تنظر لبلدك باعتبار لن يضعها أحد في أي اعتبار.

المأساة الحقيقية في سياسة مصر الآسيوية إهدار أي معنى للتراكم بإهدار فلسفة الحركة نفسها.

بصياغة الدكتور «محمد السيد سليم»، وهو واحد من أفضل من أنجبت مصر إلمامًا ومعرفة بالعالم الآسيوي:

«اتسمت السياسة المصرية في عهد ثورة يوليو تجاه آسيا بطابعها السياسي؛ حيث إنها كانت تتم في إطار منظور الحرب الباردة. ركزت على قضايا دعم حركات التحرر في آسيا وتصفية الاستعمار.

لم تبلور علاقات قوية مع الدول التي كانت قد دخلت الكتلة الغربية، أو اتسمت سياستها بالولاء لتلك الكتلة، ومنها اليابان، وباكستان، وسنغافورة، وكوريا الجنوبية، وماليزيا، وإيران».

حسب روايته فإن «لي كوان يو»، أول رئيس وزراء لسنغافورة، طلب من «عبد الناصر» عندما التقاه عام (١٩٦٤)، مساعدة مصر في بناء ميناء سنغافورة.

لم يستجب «عبد الناصر» لذلك الطلب؛ نظرًا إلى ما كان معروفًا عن «لي كوان يو» من الولاء للغرب.

«برغم أن باكستان وماليزيا وإيران دول إسلامية، فإن منظور ثورة يوليو كان هو منظور موقف تلك الدول من الهيمنة الغربية وليس منظور الدين فقط».

لماذا لم تكن القضايا الاقتصادية هي نقطة التركيز المصرية في إدارة سياساتها الآسيوية؟

ـ لأن المستوى الاقتصادي لمصر كان يفوق مثيله في معظم الدول الآسيوية.

«في عام ١٩٦٠، كان متوسط الدخل الفردي في مصر حوالي ٢٠٠ دولار سنويًّا، بينما كان في كوريا الجنوبية ٧٠ دولارًا، كذلك كان الميزان التجاري بين مصر والصين الشعبية يميل بشدة لصالح مصر، ولم يبدأ هذا الميزان في التحول بشدة إلى صالح الصين إلا منذ سنة ١٩٨١؛ نتيجة سياسة الانفتاح الاستهلاكي التي اتبعتها مصر منذ منتصف السبعينيات، وعدم التركيز على التنمية المستقلة».

كان ذلك هو السبب الجوهري في انقلاب الموازين الاقتصادية مع الشرق الآسيوي.

(٢)

لم تكن زيارة الرئيس الكوبي «راءول كاسترو» رسمية للقاهرة، وصلها في صمت وغادرها في صمت.

طرأت فكرة زيارتها في أثناء مشاركته في أعمال قمة «عدم الانحياز» بشرم الشيخ عام (٢٠٠٩).

ذكرياته القديمة دعته إلى العاصمة المصرية.

تذكر إلهام حرب السويس عام (١٩٥٦)، وهو يتأهب مع «فيدل» و«تشي» من فوق جبال «سيرا ماستيرا» لدخول العاصمة «هافانا»، وفي وجدانه صدى صوت «جمال عبد الناصر»: «سنقاتل».

كان النموذج المصري موحيًا بالأمل، فقد تمكنت دولة من العالم الثالث، استقلت بالكاد، من أن تؤمم «قناة السويس» وأن تتحدى الإرادات الغربية، وأن تصمد في المواجهات العسكرية، وأن تخرج المستعمرة القديمة إلى العالم لاعبًا رئيسًا على مسارحه تمتلك قرارها ومصيرها.

كانت القاهرة هذه المرة مختلفة، السياسات تناقضت والأحلام تراجعت، لكنه ظل مسكونًا بمجدها الذي كان، وذكرياته التي لا تغادره.

عندما التقيته في أحد فنادق القاهرة المطلة على النيل بادرني بكلمة واحدة رددها مرتين بصوت مدوٍّ تغلبه المشاعر، على طريقة التعبير اللاتينية: «ناصريانو».

بدا الرئيس الكوبي في ذلك الوقت «راءول كاسترو»، محتفيًا بالمعنى والتاريخ والدور الذي لعبه «جمال عبد الناصر».

الرؤى ذاتها سكنت رجلين آخرين من طراز استثنائي: «فيدل كاسترو» و«تشي جيفارا».

كان «فيدل» هو قائد الثورة الكوبية، و«تشي» أيقونتها، و«راءول» مسئولها العسكري الأول.

الثلاثة الكبار التقوا «ناصر»، كل في ظرف مختلف ولمرة واحدة.

«فيدل» في نيويورك على هامش اجتماع للجمعية العامة للأمم المتحدة، وكان اللقاء بتوقيته ومكانه حدثًا مدويًا بذاته.

و«تشي» في القاهرة والحوار امتد حول الثورة وفلسفتها ووحدة المصير الإنساني.

و«راءول» في القاهرة منتقلًا مع الزعيم المصري إلى الإسكندرية للاحتفال بالعيد العاشر لثورة (٢٣) يوليو.

يستلفت الانتباه ـ أولًا ـ في القصة اللاتينية أن صورة «جيفارا» في التاريخ فاقت حجم دوره.

لم يكن دوره بحجم «فيدل كاسترو» في الثورة الكوبية، ولا يقارن تأثيره بالأدوار الكبرى التي لعبها «فلاديمير لينين» في الثورة السوفيتية، أو «ماو تسي تونج» في الثورة الصينية، أو «هوشي منه» في الثورة الفيتنامية، والقائمة تطول وتمتد إلى شخصيات دولية أخرى لعبت أدوارًا أكثر تأثيرًا وأوسع نفاذًا.

لماذا عاش «تشي جيفارا» أطول من غيره في الذاكرة الإنسانية؟

ربما لأنه لخص في شخصه وتجربته «قوة النموذج الإنساني»؛ فهو أرجنتيني دعته فكرة الثورة إلى الحرب في كوبا، وعندما انتصرت غادر السلطة سريعًا.

فكر أن يقاتل في إفريقيا و«ناصر» نصحه ألا يفعل ذلك حتى لا يبدو طرزانًا جديدًا.

حاول أن ينظم حروب عصابات في أكثر من بلد لاتيني حتى استقرت به مقاديره في أحراش بوليفيا التي لقيَ مصرعه فيها.

تماهت صورته الأخيرة مع فكرة «المسيح يصلب من جديد»، التي تمثلها الروائي اليوناني «نيكوس كازنتزاكيس»، وألهمت أجيالًا متعاقبة.

أسطورته استندت على قوة النموذج الإنساني ـ قبل أي شيء آخر ـ لرجل آمن بقضيته لم يساوم عليها، وترك السلطة بمغانمها المفترضة إلى أحراش الغابات حتى مات في سبيلها.

ويستلفت الانتباه ــ ثانيًا ــ في القصة اللاتينية أن الثورة الكوبية ألهمت حرب العصابات الثورية وبدت نموذجًا في لحظات أخرى للتطور التقني والعلمي والطبي، غير أن التطورات التي لحقتها تجاوزت فعل السلاح إلى طلب الديمقراطية ومازجتها مع العدالة الاجتماعية ووحدة القارة وتحررها.

الخروج من التبعية الأمريكية أكثر الأفكار هيمنة على الفكرين السياسي والاقتصادي اللاتيني.

لم تكن مصادفة أن تعود أغلب إسهامات «نظريات التبعية»، التي سادت الجامعات الغربية لسنوات طويلة إلى اقتصاديين لاتينيين.

كانوا كبلدانهم وأدبائهم مسكونين بوطأة الانقلابات العسكرية، التي ترعاها الاستخبارات الأمريكية، وما ترتكبه من مجازر دموية كالتي حدثت في «تشيلي» على يد الجنرال «أوجستو بينوشيه» ضد أنصار الرئيس «سلفادور الليندي»، أو بالنهب المنظم الذي ترتكبه الشركات الدولية بالتعاون مع شبكة فساد تتحكم في مقاليد السلطة.

إنه إذن التحول التدريجي البطيء الراسخ من حرب العصابات إلى الدولة الديمقراطية الحديثة.

حرب العصابات استدعتها الأنظمة الفاشية والوسائل الديمقراطية تهيأت لها ظروف استجدت، مكنت اليسار اللاتيني من الوصول إلى السلطة في دول عديدة.

ويستلفت الانتباه ـ ثالثًا ـ في القصة اللاتينية، أن التأثير الناصري بدا عميقًا في قوى اليسار التي عانت طويلًا ومريرًا من الانقلابات العسكرية، دون أن تستشعر تناقضًا، فهي تدرك أن الدور الذي لعبه الجيش المصري في «يوليو» يناقض أدوار

الجيوش اللاتينية في انقلاباتها العسكرية التي جرت باتفاقات وصفقات مع الإدارات الأمريكية لقمع شعوبها ونهب مواردها.

ويستلفت الانتباه ـ رابعًا ـ الوصف الذي أطلقه الزعيم الفنزويلي «هوجو شافيز» على نفسه أمام الكاميرات «أنا ناصري».

ما الذي كان يقصده بالضبط؟

ولماذا لم ينسب نفسه إلى صديقه وأستاذه «فيدل كاسترو»، برغم أن التجربة الكوبية تنتسب إلى القارة اللاتينية وتناصره في مواقفه؟

على الأغلب فإنه يقصد وحدة القارة، وهذه مسألة كانت على رأس مشاغله، والخروج من الهيمنة الأمريكية، وهذه مسألة يتشارك فيها اليسار اللاتيني كله، وبناء تجربة اشتراكية مستقلة على نحو ما جرى في مصر الستينيات من القرن الماضي.

شيء أقرب إلى استلهام «يوليو» لا احتذاء تفاصيلها.

ربما أكثر ما ألهمه من التجربة المصرية ما قاله في حوار صحفي: «تعلمت من عبد الناصر أن التصميم يهزم الوقت».

قوة النموذج الإنساني لـ«جمال عبد الناصر» أضفت عليه منزلة كبرى في قصة القرن العشرين.

إلهام النموذج يقتضي إيمانًا بوحدة المصير الإنساني.

(٤)

عندما صعد «يفجيني بريماكوف» إلى رئاسة الحكومة الروسية في سبتمبر (١٩٩٨) بدا كأقوى مرشح محتمل لخلافة «بوريس يلتسين» على مقعد الرجل الأول في الكرملين.

كان «يلتسين» يترنح وحياته السياسية توشك على الغروب.

أحد الأسباب الجوهرية في تزكية «بريماكوف» لمنصب الرجل الأول خلفيته كرئيس للاستخبارات الروسية في بلد تتحلل قوته وعناصر تماسكه.

كان «يوري أندربوف» أول من صعد بهذه الصفة، أعطى إشارة تغيير في بنية السلطة بعد سنوات طويلة من جمود سلفه «ليونيد بريجنيف»، لكنه رحل بعد أقل من سنتين.

وكان «بريماكوف» هو الرجل الثاني المحتمل، الذي يصعد بهذه الصفة، لكن «يلتسين» أطاحه خشية قوة شخصيته وراهن علي رجل ثالث أكثر شبابًا وطموحًا وغموضًا من نفس المدرسة هو «فلاديمير بوتين».

«بوتين» تأثر بـ«بريماكوف» بذات قدر تأثر الأخير بـ«أندربوف».

مع صعود «بريماكوف» شاعت قصص وحكايات عن صداقاته بالقاهرة.

وكانت مادة صحفية رائجة ومثيرة للاهتمام العام.

برغم ذلك لم يحدث أن فكر أحد في توظيف صداقاته الحميمة مع عدد من كبار الصحفيين المصريين لصالح تطوير المواقف الروسية تجاه القضايا العربية الملحة والضاغطة.. أو على الأقل لاستكشاف: «ماذا يحدث بالضبط في الكرملين؟» أو «ما حدود التغيير الممكن؟».

القصص الإنسانية لها ـ باليقين ـ جاذبيتها المهنية.. فمن لا يريد أن يقرأ عن حياة الرجل القوي المحتمل في روسيا في أثناء إقامته الطويلة بالقاهرة، أو جلساته ومحاوراته في مقاهي الحسين؟

الأهم مما هو شخصي وإنساني الإطلال على تفكيره، أو كيف سوف يتصرف في الملفات التي تخصنا وتدخل في صميم مصالحنا الإستراتيجية؟

لم يحدث شيء من ذلك بالاهتمام الذي يستحقه.

في تلك اللحظة، كان مراسل صحيفة «برافدا» السابق في العاصمة المصرية رجلًا غير عادي في ظروف غير عادية وفي دولة، مهما تعاظمت عليها عواصف الإنهاك السياسي والاقتصادي، غير عادية.

بنوع من الاختزال انتمى «بريماكوف» في جانب مهم من تجربته الإنسانية والسياسية إلى تفاعلات ومعارك «يوليو».

كانت أيامه في القاهرة ـ كما كتب في مذكراته ـ أجمل سنوات العمر.

عاين التجربة عن قرب وكتب عنها واحدًا من أهم الكتب السوفيتية ذات الاعتبار مع زميله «إيجور بيلايف».

كلاهما حمل درجة الدكتوراه واقترب من المثقفين والصحفيين والسياسيين، بمن فيهم الرئيس «عبد الناصر» نفسه، إلى حدود تسمح لهما ببناء تصور موضوعي عن تجربة «يوليو».. بكل زخمها وتناقضاتها.. إنجازاتها وصراعاتها.

في كلمة واحدة لخص التجربة: «الكرامة».

بوصف «بريماكوف» كان «عبد الناصر» إنسانًا ذا مزاج حار يسهل استثارته إذا لمس أحد كرامته الشخصية أو السياسية.

وبروايته حدث أن اشتكى في أثناء مأدبة عشاء عام (١٩٥٧) السفير الأمريكي في القاهرة «بايروود» للرئيس «عبد الناصر» أن بعض المصريين ضربوا أمريكيًّا في منطقة قناة السويس.

قال «عبد الناصر»: «إن هذا الأمريكي كان يتصرف مع الأسف، بحيث اعتقد أبناء الشعب بأنه جاسوس».

أجاب «بايروود» منفعلا: «إنه يأسف على اعتقاده السابق بأنه موجود في بلاد متحضرة».

غادر «عبد الناصر» قاعة الطعام على الفور، ولم تصلح كلمات الاعتذار في إرجاعه إليها.

لم يعنِ ذلك. وفق «بريماكوف» أن عواطفه تتحكم فيه، فقد كان يتخذ قراراته السياسية بعد مقارنات عميقة وتحليل للتجارب ودراسة الإمكانات والفرص.

بتوصيف ثانٍ: كان تكتيكيًّا بارعًا في السياسة.. لكنه لم يكن قط ذرائعيًّا.

وبتوصيف ثالث: فإنه سياسي حاسم وباسل بدرجة كافية، غير أنه كان يفضل تنفيذ بعض ضرباته الكبرى بالتدريج ـ إذا كان يعقب شوط التأرجح يسارًا تأرجح آخر إلى اليمين.

هذا يتعلق بالخطوات التكتيكية لا الإستراتيجية.

كان مثل هذا التكتيك يضعف بدرجة ما القوى المضادة للثورة، بل كثيرًا ما كان يجهز عليها تمامًا، غير أنه حمل أيضًا فيما يرى «بريماكوف» أخطارًا جمة.. حتى على «عبد الناصر» نفسه!

ثمة نوع من الافتتان بـ«عبد الناصر» وتجربته عن رؤية واقتراب ودراسة وحوارات مفتوحة مع صحفيين مطلعين ومؤثرين مثل «محمد حسنين هيكل» و«محمد سيد أحمد» و«محمد عودة» و«لطفي الخولي».

وفق «بريماكوف» فإن «عبد الناصر» لم يكن ينظر إلى السلطة كمغنم له، أو لعائلته ـ فهو ابن موظف صغير، عاش في منزل متواضع، ولم تكن لديه حسابات جارية في البنوك الأجنبية، ولم يعلق بثوبه غبار.. عمل دون إجازات بواقع ثماني عشرة ساعة في اليوم.

طوال مذكرات «بريماكوف» تشعر أنك أمام كاتب يلتزم بالتوجهات الرئيسة العامة للقيادة السوفيتية في ذلك الوقت، غير أن حماسه في الرد على خصوم «يوليو» وتفنيد بعض أطروحات نقادها الغربيين مثل «فاتيكيوتس»، لا يمكن أن يكون عملًا وظيفيًّا صدرت به تعليمات.

انطوت مذكرات «بريماكوف» على مقولتين رئيستين، كان لهما في السبعينيات وقع وأثر في الجدل السياسي الدائر والساخن وقتها.

الأولى ـ أن تنظيم «الضباط الأحرار» لم يسرق الثورة من الحركات الشيوعية الضعيفة المفتتة، والعاجزة عن التطور الفكري.

كان من رأي «بريماكوف» أن تنظيم «الضباط الأحرار» نقيض للمؤسسة العسكرية التقليدية وضدها، وأنه سليل إرث الوطنية المصرية وثورة «أحمد عرابي» ضد تزايد دور الأجانب وتسلط الخديو.

الذين قرءوا كتاب «محمد عودة» «ميلاد ثورة» عن تاريخ ودور العسكرية الوطنية المصرية في ثورات وحروب مصر لا بد أن يلاحظوا مدى تـأثيره في رؤية «بريماكوف».

والثانية ـ توصيفه للتحولات الاجتماعية التي جرت في مصر الستينيات بأنها تطور لا رأسمالي أدى إلى تقويض السيطرة السياسية والاقتصادية الأجنبية في مصر، وأن وصف هذه التحولات بأنها «رأسمالية دولة»، كما دأب عدد كبير من الشيوعيين المصريين ليس أكثر من نزق إيديولوجي.

«عبد الناصر» اشتراكي حقيقي، ارتقى وعيه في قلب المعركة.. ومن مرحلة إلى أخرى ـ كما رآه «بريماكوف».

صاغ فكرة «عبد الناصر» المركزية على النحو التالي: «مصر بلد مفتوح وإسرائيل تهديد وجودي يمكن أن تطعن به من كل جانب، وأنه لا يمكنها أن تلعب دورها في المنطقة أو في العالم دون أن تحفظ أمنها ذاته، أو دون أن يكون لديها جيش قوي».

وفق هذه الفكرة المركزية اتجه إلى كسر احتكار السلاح الغربي وبناء علاقة قوية مع الاتحاد السوفيتي، ورفض أن تدخل مصر «الحزام الجنوبي»، الذي كان يأمل وزير خارجية الولايات المتحدة في خمسينيات القرن الماضي «جون فوستر دالاس» في بنائه على الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتي ـ بصياغة الرجل الذي لاح تحت قباب الكرملين لوقت قصير كخليفة محتمل لمقاديره.

الفصل الرابع عشر: المتمردون الجدد

الحق في التمرد مكفول لكل جيل بقوانين الحياة.

بعض التمرد غضب مجاني، وبعضه الآخر يصنع التاريخ.

نفي الحق في التمرد يفضي إلى جمود لا يحتمل في الفكر والروح والخيال، وتقويض أي أمل في المستقبل.

ليس من حق أي جيل، أيًّا كان إسهامه في تاريخ بلاده، أن يَحجب عن الأجيال التالية حقها في الخروج عن المألوف والمعروف والموصوف.

لا يستطيع أحد أن «يفرمل» التاريخ عند لحظة لا يتعداها وتجربة لا يتجاوزها.

هذا وهم كامل.

ولا يستطيع أحد أن يُلغي إرث ما قبله بجرة قلم، كأنه لم يكن.

هذا وهم كامل آخر.

بين الوهمين تتأكد أهمية الإصغاء بلا تعالٍ والحوار بلا وصاية.

أسوأ اقتراب ممكن من شواغل الأجيال الشابة النظر إليها من فوق، وإملاء الأحكام النهائية عليها كآلهة الأوليمب في الأساطير الإغريقية.

هناك فارق بين المصارحة والوصاية.

ثمة شعور عميق شبه جماعي لدى الأجيال الجديدة، بأن تطلعاتهم حطمت وتضحياتهم راحت هدرًا.

للخذلان تجلياته على شبكة التواصل الاجتماعي، والغضب عنوان لا تخطئه عين على الوجوه.

في تاريخ الأجيال المصرية الحديثة حدثت إحباطات وتراجعات، لكنها لم تصل إلى حد إطلاق الرصاص العشوائي على كل ما قبلها، ونفي أي صلة بإرث الثورات المصرية، كأنها ولدت فجأة لتبدأ التاريخ من جديد.

أحيانًا يأخذ الغضب أصحابه إلى حيث يريد خصومه.

(١)

لكل جيل تجربته مع الغضب بحسب سياق التاريخ وتحدياته.

لا يوجد جيل واحد لعب أدوارًا جوهرية في التاريخ الحديث لم يرتبط صعوده بأسباب غضبه.

روح الغضب ليست تعبيرًا طارئًا على ظاهر الحوادث، إنما جوهر الصعود إلى مسارح التاريخ.

هناك فارق بين الغضب عن رؤية والجموح عن انفعال.

جميع الانتقاضات والثورات المصرية لخصت «قوة الغضب العام» على أوضاع لا يمكن احتمالها ولا يقبل استمرارها.

لكل ثورة أسباب تمردها، فـ«الثورة العرابية» كانت تعبيرًا عن الضيق البالغ بالتمييز ضد المصريين.

لخصت صرخة زعيمها «أحمد عرابي»: «لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارًا»، معنى الثورة وقوتها الكامنة قبل أن يجرى إجهاضها بالتدخل العسكري البريطاني عام (١٨٨٢).

ولخصت عبارات بليغة أخرى للزعيم الشاب «مصطفى كامل» بعد نحو عقدين مثل «من يفرط في حقوق بلاده ولو لمرة واحدة في حياته يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان»، روحًا جديدة ولدت من تحت ركام هزيمة الثورة العرابية.

كانت الحركة الوطنية بزعامة «مصطفى كامل» تمهيدًا تاريخيًّا لا شك فيه لـ«ثورة ١٩١٩»، بزعامة «سعد زغلول»، التي جاءت استجابة لحقائق ما بعد الحرب العالمية الأولى ونداءات حق تقرير المصير.

كانت ثورة (١٩١٩) طلاقًا نهائيًّا مع «العثمانية»، وتوجهًا لدخول العصور الجديدة بهدفي «الاستقلال» و«الدستور».

وكانت ثورة «يوليو» بزعامة «جمال عبد الناصر» استجابة أخرى لحقائق ما بعد الحرب العالمية الثانية في طلب الاستقلال الوطني والعدل الاجتماعي.

كما كانت ثورة «يناير» عام (٢٠١١) استجابة ثالثة لحقائق عصر المعلومات والاتصالات والسماوات المفتوحة في طلب التحول إلى دولة ديمقراطية حديثة.

التمرد هو روح الثورات، والثوار متمردون يلمسون حقائق ومتطلبات عصورهم، يعرفون أهدافهم ووسائلهم ويخاطبون المواطنين بما يلهم المخيلة ويستدعي التضحية.

نجح جيل «يناير» في استدعاء الإلهام إلى الشوارع المفتوحة، تصدر الصفوف لكنه لم يدرك بما هو كافٍ أن القوى الجماهيرية هي التي حسمت، كسر نظام «حسني مبارك» دون أن يكون في وسعه تأسيس أوضاع جديدة تعلن القطيعة مع الماضي.

كانت لحظة الثورة التي تصدروها ذروة الدور قبل أن تستوفي الرؤى والتصورات نضجها.

هذه مشكلة لم يتعرض لها جيل سابق.

جيل (١٩٤٦) أخذ وقته في إنضاج أفكاره وخياراته، التي تمردت على السياسات التقليدية، بعد أن وصلت إلى حائط مسدود في طلب الاستقلال بالمفاوضات.

حمل السلاح في قناة السويس ضد معسكرات الجيش البريطاني، وشاعت داخله التوجهات الاشتراكية، وخرجت المرأة بصورة غير مألوفة للعمل الوطني، وبدا أن مصر على موعد مع تغيير يعصف بقواعد اللعبة المستهلكة ـ وهو ما حدث بعد ست سنوات في «يوليو» (١٩٥٢).

وجيل السبعينيات أخذ وقتًا في بلورة شخصيته وذائقته الخاصة، التي امتدت من الأفكار والنظريات الكبرى إلى الثياب والهيئة العامة.

صنع أطول حركة طلابية في التاريخ بين عامي (١٩٦٨) أثر الهزيمة العسكرية و(١٩٧٧) الذي شهد تظاهرات الخبز في (١٨) و(١٩) يناير، التي كادت تطيح حكم الرئيس الأسبق «أنور السادات».

انتفاضة الخبز ثورة ناقصة.

هذه حقيقة يصعب إنكارها.

لم يكن لدى المتمردين الجدد مبادئ فكرية، ولا برامج معروفة، ولا كادرات أخذت وقتها في اكتساب الخبرة اللازمة.

لم تكن هناك أي أدوار يعتد بها لأي حزب سياسي، ولا كانت هناك جماعة واحدة على قدر من التماسك التنظيمي باستثناء «الإخوان المسلمين».

تصدرت المشهد جماعات شابة واحتجاجية غضبها يسبق برامجها وعضويتها عابرة لما هو حزبي أو إيديولوجي، وأي مراجعة لانتماءات قيادات «كفاية»، التي أخذت زمام المبادرة في تحدي «التوريث» و«التمديد»، أو «الجمعية الوطنية للتغيير»، التي احتوت الغضب نفسه في مرحلة تالية، أو «ائتلاف شباب الثورة»، الذي أعلن عن حضوره في ميدان التحرير تثبت دون شك تنوعها السياسي بحثًا عن شيء من القوة في مواجهة تغول النظام.

كان الانضمام فرديًا لا جماعيًا، شخصيًا لا إيديولوجيًا، والأهداف العامة سادت الموقف كله.

طبيعة النشأة وفرت حيوية تفتقدها الإطارات السياسية المتهالكة وساعدت على نمو موجات الغضب، وألهمت التغيير، غير أنها عجزت عن أن توفر أي قيادة، أو تصوغ أي برنامج.

وقفت قوة الدفع في منتصف الطريق، لا حطمت كل قديم مستهلك، ولا أسست لأي جديد ثابت يليق بما طلبته من أهداف وبذلته من تضحيات.

جماعات الغضب حملت التغيير إلى الميادين، لكنها عجزت عن أن توفر طبقة سياسية جديدة تزيح ركام الماضي، أو تحفظ الثورة من الانقضاض عليها.

الخروج عن السياق طبيعة ثورة وتأسيس القواعد قضية مستقبل.

هكذا اختطفت جوائز الثورة، ودخل جيلها دوامات الإحباط المبكر.

الإحباط، مهما علا سقفه، ليس كلمة النهاية.

الحجر على ما في الصدور خرافة.

كشأن كل جديد الخيال مختلف والذائقة العامة لها خصوصيتها.

في الإبداعات الأدبية والفنية نزوع قوي لفكرة «الحرية» والتعلق بها مسألة وجود.

هذه القيمة جوهر أي رهان مستقبلي على بناء دولة حديثة، حرة وعادلة.

في الإنكار صدام مؤكد مع المستقبل.

(٢)

لم يسر تاريخنا الحديث من مرحلة إلى أخرى، ومن تطور إلى آخر بطريقة طبيعية.

كل ولاداته «عمليات قيصرية»، وكل هزائمه «عمليات إجهاض».

بعض الأسباب تعزى إلى التدخلات الخارجية الضاغطة على هذه المنطقة الحيوية من العالم، لكنه يصعب فهمها بالتدخلات الخارجية لوحدها.

فلا بد أن هناك مواطن أخرى للخلل في المجتمع السياسي نفسه حتى باتت انتفاضاته وثوراته متصادمة ومتصارعة.

ثورة عرابي أولى حلقات الثورة الوطنية المصرية الحديثة، توصف وتنعت بأقسى التعبيرات السياسية إلى حدود الاغتيال السياسي لا من قبل سلطات الاحتلال البريطاني التي واجهته عسكريًا، ولا من أسرة «محمد علي»، التي هددت وجودها في الصميم..

وإنما أيضًا من قيادات ذات وزن وتأثير واحترام في التاريخ الحديث مثل الإمام «محمد عبده»، وأمير الشعراء «أحمد شوقي»، والزعيم الوطني «مصطفى كامل».

عندما تخفق ثورة في تحقيق أهدافها بأخطاء ارتكبتها، أو بالعمل المسلح الخارجي ضدها، فإن من يصعدون بعدها ينتقدون قادتها وينسبون إليهم أسباب الإخفاق.

هذه طبائع ثورات، لكنها في الحالة المصرية استحالت إلى تصفية حسابات تجاوزت كل منطق.

من طبيعة الأمور أن تكون هناك أكثر من قراءة للتاريخ، غير أن ثمة فارقًا بين أن تكون هناك قراءات مختلفة من مواقع مختلفة لأحداث التاريخ وبين ردم التاريخ نفسه وإهدار تضحياته الكبيرة وإنجازاته المؤكدة.

تجاهلت ثورة (١٩١٩) «أحمد عرابي»، ولم ترَ نفسها امتدادًا وتطويرًا في ظروف مختلفة دوليًّا وإقليميًّا لثورته التي جسدتها المؤسسة العسكرية المصرية الوليدة.

لم يرد اعتبار ثورة «عرابي» بصورة كاملة إلا بعد قيام ثورة (١٩٥٢).

قيل إن ثورة «يوليو» قد فعلت ذلك؛ لأنها أيضًا ثورة عسكرية!

كان ذلك إهدارًا بالتعسف لقيمة الثورة العرابية وحقها في رد الاعتبار.

لم تكن الثورة العرابية عملًا مثاليًّا، شأن أي ثورة أخرى، لكنها مثلت في زمانها محاولة للانتقال من وضع إلى آخر أكثر عدلًا ومساواة.

بذات القدر تبدت مساجلات استهلكت زمنًا طويلًا بين نقاد تجربة «أحمد عرابي» حول ثورة (١٩١٩).

تلخصت وجهة نظر «الحزب الوطني»، الذي أسسه «مصطفى كامل»، في حملات وانتقادات، بعضها صحيح وموثق لـ«سعد زغلول»، غير أن منهج النقد الذي اتبعه كتابه ومؤرخوه افتقد إلى حقيقة كادت تضيع في زحام التنافس السياسي، وهي أنه أعطى ثورة (١٩١٩) رمزيتها الملهمة وتجسيدها الحي، برغم ما هو منسوب إليه من صلات وثيقة سابقة مع سلطات الاحتلال البريطاني، وأن الثورة فاجأته.

عندما جاءت «لجنة ملنر» لتقصي آراء المصريين في الاستقلال كانت إجابة الفلاحين في الحقول واحدة: «اسألوا سعد باشا».

في تلك اللحظة الحاسمة من تاريخ مصر، وبعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى تجسدت إرادة الاستقلال حول ذلك الرجل الستيني.

لا يليق بأي منطق تاريخي أن يُقال إن «سعد زغلول» سرق الثورة من الحزب الوطني حزب «مصطفى كامل» وخليفته «محمد فريد».

الأدعى أن نناقش لماذا أخفق الحزب الوطني في قيادة مصر ـ بعد «مصطفى كامل» إلى الثورة التي كانت بشائرها في الأفق؟

ـ هل لأن «محمد فريد» خليفة «مصطفى كامل»، وهو زعيم وطني مستنير وقيمته الأساسية في قوته الأخلاقية، قد غادر إلى ألمانيا هروبًا من حملات الاعتقال، أم لأن الحزب الوطني نفسه لم يكن مهيئًا بطبيعة أفكاره وبرامجه لأن يقود ثورة تبلورت دواعيها في عالم ما بعد الحرب العالمية الأولى ونداءات التحرر الوطني وتقوض الإمبراطورية العثمانية؟!

ثورة «يوليو» تعرضت لاتهام من نفس النوع بأنها سرقت الثورة من الشيوعيين، أو من الإخوان المسلمين، وهو كلام مرسل لا يسنده دليل وتعوزه الأسباب الحقيقية لصعود تيارات وقيادات بعينها وإخفاق أخرى.

ثم إنه لا يمكن إنكار حجم شعبية «سعد زغلول» وارتفاعه إلى مستوى الحدث التاريخي في سياق مفاهيم العصر؛ فأغلب الانتقادات تنصب على مرحلة ما قبل الثورة لا ما بعدها.

السؤال الأول: في أي قراءة موضوعية ومنصفة لتاريخنا الحديث: أين المجرى الرئيسي؟

والسؤال الثاني: لماذا غاب عنه التراكم وتصادمت حلقاته؟ «مصطفى كامل» ضد «عرابي».. و«سعد زغلول» ضد «مصطفى كامل» و«عرابي».. و«جمال عبد الناصر» ضد «سعد زغلول»، حتى وصلنا إلى تصور أن «يناير» تناهض «يوليو»، برغم أن أهدافها العامة تكاد تكون طبعة جديدة في ظروف مختلفة لما طمحت إليه الثورة الأم، مع إضافة الحريات السياسية ثغرتها الرئيسة.

الحقيقة ـ برغم أي مساجلات ـ إنها ثورة واحدة متعددة الحلقات، أضافت في العمق كل منها للأخرى ومهدت لها.

أسوأ ما في القصة كلها إهدار الإرث الوطني باختلاف مدارسه وتجاربه، وإهدار خبرة التاريخ نفسه.. وهو أمر انتهى بنا في نهاية المطاف إلى اعتلال في الذاكرة الجماعية، حتى كادت تبهت المعاني الاستقلالية الحقيقية التي تراكمت ودُفع ثمنَها دمٌ.

لا يعني ذلك إغفال التباينات أو الأخطاء الفادحة التي وقعت، أو التمويه على التناقضات، وإنما وضعها في إطار موضوعي تتعدد القراءات فيه دون نفي ما هو ثابت من التاريخ بالضرورة من تحولات ومعارك وقيم جرى الدفاع عنها.

لا شيء يولد من فراغ ولا مستقبل يتأسس على فجوات.

اختلاف العصور والأجيال شيء، ونفي أي صلات شيء آخر.

من حق الجيل الجديد أن يقرأ التاريخ على النحو الذي يتسق مع تطلعاته وأحلامه بلا قوة قمع، أو قهر روح.

عند كل انعطاف تاريخي مرت به مصر لخص غضبها أنبل ما فيها.

الحق في الخطأ من طبيعة أي تقدم، فالذين لا يخطئون لا يتعلمون.

بعد أثمانٍ فادحة استقر في الوعي العام تكامل حلقات الوطنية المصرية، وجرى رد اعتبار جميع ثوراتها.

في النهاية يصحح التاريخ نفسه ويرد اعتبار تضحياته وتجاربه، أيًّا كانت المثالب والأخطاء.

عندما لا نصحح فإننا نظلم الذين ضحوا بشرف لصالح من صعدوا بلا استحقاق.

غضب أي جيل جديد ليس جريمة، فهو جوهر أي حركة للمستقبل.

إذا لم يكن هناك غضب على أسباب التخلف والفساد والاستبداد فلا أمل لأي مجتمع.

نقيض الغضب المشروع الاستكانة لخيبات الأمل.

(٢)

في ذروة ثورة «يناير» أطلق الشاعر «عبد الرحمن الأبنودي» تعبير «دولة العواجيز».

بعدد السنين كان أبعد من أن يُحسب على أجيال الشباب.

بغضب الثورة، كان ضد «عواجيز شداد مسعورين أكلوا بلدنا أكل».

في صرخته: «شوف مصر تحت الشمس.. آن الأوان ترحلي يا دولة العواجيز»، إيمان بالمستقبل وأجياله الجديدة «مش دول شبابنا اللي قالوا كرهوا أوطانهم»، «هما اللي قاموا النهارده يشعلوا الثورة».

لكنه لم يدعُ إلى أي قطيعة مع الأجيال التي سبقت وأعطت وضحت في سبيل المعاني نفسها «يرجعلها صوتها.. مصر تعود ملامحها»، «تاخد مكانها القديم والكون يصالحها».

لم يكن قصده أن يصفي أي حسابات مع كل من تقدم في العمر، أو أن يدعو إلى «قتل كل أب» وإلغاء أي تاريخ.

ضايقه استخدام تعبيره لغير أسبابه في النيل من أي قيمة ثقافية وأدبية، أو صحفية وسياسية، لمجرد تقدمها في العمر.

في ذلك الاستخدام «تفكير عجوز»، يتصور أن إزاحتها من الحياة يفتح المجال لآخرين في الصعود دون استحقاق.

التفكير العجوز صلب دولة العواجيز.

لم تكن دولة «مبارك» عجوزًا بأعمار مسئوليها الكبار، الذين بقيَ بعضهم على مقاعد السلطة لما يقارب ربع القرن، بقدر ما كانت في أفكارها وخيالها ووسائلها وخياراتها، تعاكس مجتمعها وتناقض احتياجاته منعزلة عن حقائقه في منتجعات الأثرياء.

«قول إنت مين اللي باعوا حلمنا وباعوك.. أهانوك وذلوك ولعبوا قمار بأحلامك».

لو كان نظام «مبارك» كله من الشباب فإن السقوط كان محتمًا.

السياسات قبل الأعمار.

(٤)

الهزيمة محتملة دائمًا في أي ثورات دون أن يعني ذلك انكسارًا لأهدافها، أو تخليًا عن أحلامها.

التاريخ يصحح نفسه مهما طال الأمد، والأحلام الكبرى تستعصي على الكسر.

إذا كان هناك من يتصور أن قضية الجيل الجديد انقضت بالانكفاء على جراحه فهو واهم.

بعبارة بليغة للروائي الأمريكي «إرنست هيمنجواي» في «العجوز والبحر»: «قد يهزم الرجل دون أن ينكسر».

جيل الأربعينيات حارب في قناة السويس ضد معسكرات الاحتلال البريطاني، وتظاهر في الجامعات والميادين ولوحق وطورد، لكنه لم ينكسر برغم ذلك كله.

تأثر بعصره في طلب العدل الاجتماعي، ووصلت ريح التغيير إلى حزب الأغلبية وتبنى زعيمه «مصطفى النحاس» «الطليعة الوفدية» بنزعتها اليسارية الصريحة على عكس التوجه العام للحزب.

في المسافة بين عامي (١٩٤٦) و(١٩٥٢) نضجت تجربة جيل الأربعينيات.

بتلخيص ما فإن ما تأسس في هذه المسافة من تطلعات ومشروعات وجد طريقه إلى التنفيذ بعد ثورة «يوليو».

بعبارة أخرى، فإنها ثورة جيل الأربعينيات.

ولحقت هزائم أفدح بجيل السبعينيات، فكل ما حلم به تقوض، وكل ما دفع ثمنه تراجع.

حارب كما لم يحارب جيل آخر على جبهات القتال بعد هزيمة (١٩٦٧)، غير أن الجوائز كلها ذهبت إلى غير أصحابها.

صدمته أوسع عملية نهب للمقدرات العامة، بينما إرث «يوليو» في مخيلته يلهم قواه الحية.

تطلع إلى مصر جديدة تستأنف أدوارها في محيطها وقارتها، فإذا بأدوارها تتهمش وأوراقها تضعها كاملة في «السلة الأمريكية».

تجرع جيل السبعينيات هزيمة بعد أخرى غير أنه لم ينكسر.

عارض بدأب الرئيس الأسبق «أنور السادات» في خياراته الرئيسة من الإدارة السياسية لحرب أكتوبر إلى الانفتاح الاقتصادي، وتفكيك القطاع العام، حتى «كامب ديفيد» والصلح المنفرد مع إسرائيل.

كانت انتفاضة «يناير» (١٩٧٧) ثورته الناقصة.

خسر الرجل الذي تحمل مسئولية قرار الحرب شعبيته وكاد أن يطيحه شعبه بعد أكثر قليلًا من ثلاث سنوات من نصر أكتوبر، لولا إلغاء قرارات رفع أسعار الخبز وبعض السلع الأساسية الأخرى التي أفضت إلى الغضب.

الشعبية رصيد يؤخذ منه ويضاف إليه.

عندما داست السياسات الاقتصادية على الطبقة الوسطى والفئات الأكثر فقرًا لصالح «القطط السمان»، حدث ما حدث.

جيل «يناير» يستشعر شيئًا مما تعرض له أسلافه من مرارة التراجعات.

هو جيل صلب على ما أثبتت التجربة، فقد واجه آلة بوليسية متوحشة بصدوره المفتوحة.

غير أن الصلابة وحدها لا تكفي لإثبات جدارته وفرض كلمته على التاريخ.

لكل جيل قضية تلهم مخيلته، برغم أي إحباطات.

الحرية قضية هذا الجيل.

مشكلته أن الثورة التي تصدر مشاهدها المهيبة سبقت تجربته، وشعاراتها غلبت مبادئها.

على عكس جيلي الأربعينيات والسبعينيات افتقد إلى أي بنية فكرية تحدد ما يقصده من حرية وعدل اجتماعي، فأصبح ممكنًا لكل من يطلب خطف الثورة أن يفعلها بسهولة كاملة.

كأي جيل آخر فهو يحتاج إلى وقت تنضج فيها الأفكار، وخبرة تساعده على تجنب المطبات.

أمامه فسحة من الزمن لكي يرفع كل الركام الذي يحاول أن يقطع طريقه.

قصة الجيل الجديد بالكاد بدأت.

بحكم السن فإن (٦٠٪) من المصريين تحت الخامسة والثلاثين.

هذا يستدعي الحوار لا الصدام، التفهم لا التعالي، فتح قنوات المستقبل لا الزج خلف جدران السجون.

إذا كان هناك من يضايقه تمرد الجيل الجديد، فكل الأجيال التي سبقته تمردت.

الرهان على المستقبل إذا لم يكن تمردًا على كل ما هو مختل أو فاسد ومستبد فلا أثر له ولا معنى.

برغم انكسار ثورة «يناير» فإن ما خلفته تحت الجلد السياسي يستحيل تجاوزه. أيًّا كانت مستويات التراجع عما طالبت به.

بالتعريف: «يناير» جذر الشرعية الدستورية، ولا توجد شرعيات معلقة في الفضاء بلا أرض تقف عليها.

وبالأثر: فإنها. كأي ثورة أخرى في التاريخ. ليست جملة عابرة تذهب إلى حال سبيلها بالنسيان، أو التجاهل.

هناك فارق جوهري بين قوة الدفع والقوة الكامنة.

قد تتوقف قوة الدفع قبل أن تحقق الثورات أهدافها، ذلك حدث مرارًا في تجارب تاريخية مماثلة، غير أنه لا يعني موتها سريريًّا.

بقدر القوة الكامنة في بنية الوعي العام وعمق المجتمع، فإنها قد تتجلى على غير انتظار خارج كل التوقعات والسيناريوهات.

من مصادر تلك القوة ما استقر لدى الأجيال الجديدة ـ كأصحاب الحق في المستقبل ـ من نظر إلى فعل الثورة بنوع من التماهي، فالمس بها إلغاء لهم.

ومن مصادرها ارتباط «يناير» بعصر المعلومات وثورة الاتصالات، بما يجعل مستحيلًا فصم العلاقة بين الأجيال الجديدة، وطلب الدولة الحديثة الديمقراطية والعادلة، وما ترسب عميقًا في الذاكرة الجماعية عن أجواء الثورة وأحلامها، مشاهد الجموع وهي تتدافع في طريق واحد، صلوات المسلمين في ميدان التحرير تحت حماية الأقباط خشية الاعتداء عليهم، والاستعداد للتضحية بالروح دون وجل، والغناء الجماعي ورسوم الجرافيتي.

كل المواجهات الكبرى والتفاصيل الصغيرة مصادر قوة كامنة يصعب تحديها في أي مستقبل.

كانت «يناير» ثورة شعبية حقيقية تقدمت مشاهدها الأجيال الجديدة.

في أول العرض التاريخي جرى ما يشبه «التقديس» للفعل الثوري شاملًا جماعات الشباب، فهم «أفضل جيل في التاريخ المصري الحديث»، «لا قبلهم ولا بعدهم».

كان ذلك نفيًا لتواصل الحركة الوطنية المصرية جيلًا بعد آخر، وتسطيحًا في الوقت نفسه لطبيعة الثورة.

ثم جرى بعد ذلك تفكيك وحدة الجيل قبل أن ينكل به ويشهر بسمعته باعتبار رموزهم طابورًا خامسًا يتآمر على الدولة.

كان ذلك قمة المأساة في القصة كلها.

(٥)

لم تكن «يناير» أول ثورة تُختطف مبكرًا، أو تُجهض مؤقتًا، فقد لقيت الثورة الفرنسية المصير ذاته دون أن تفقد قدرتها على الإلهام حتى حققت أهدافها بعد رحلة معاناة طويلة ومؤلمة.

الكلام المبكر عن انقضاء أثرها فيه إنكار لدروس التجربة المصرية على مدى مائة عام، عرفت التراجعات قبل النهوض من جديد.

في ثورة (١٩١٩) سقط نحو (٨٠٠) شهيد وأصيب (٦٠٠) جريح.

تلك الأرقام تقارب بصورة كاملة أعداد الشهداء في ثورة «يناير»، لكن أرقام الجرحى والمصابين تتضاعف فيها.

لم تكن وسائل الإعلام الحديثة قد نشأت بعد، ولا عرفت مصر الإذاعة وقتها.. كانت الصحف الوطنية محدودة التوزيع والتأثير في مجتمع تتفشى فيه الأمية، ولكنه قرر أن يثور، وأن يدخل القرن العشرين من بوابة الاستقلال والدستور.

لم تكن هناك. في ذلك الوقت. منظمات حقوقية، ولا نقابات مهنية تدافع عن حرية الرأي وحق التظاهر السلمي.

في «يناير» جرى توسيع مجال المشاركة السياسية إلى حدود غير مسبوقة تحت ضغط المليونيات ووسائل الاتصال الحديثة، وطرحت قضية العدالة الاجتماعية

بصورة جديدة على رأي عام لم يعد يتقبل أو يستسيغ تنكيل السلطات بالمواطنين وإهدار الكرامة الإنسانية.

الإنجازات الفعلية ليست كبيرة بالنظر إلى حجم التضحيات التي بُذلت، لكن شيئًا ما تحرك في عمق المجتمع يصعب أن يعود مرة أخرى إلى المربع رقم واحد.

في ثورة (١٩١٩) كان حجم التضحيات مقيسًا بحجم السكان، كاشفًا لعمق تجربتها وصلابة شعبها الذي خرج طالبًا الاستقلال والدستور.

غير أن مسارها السياسي ارتبك ونتائجها تعثرت لأربع سنوات كاملة، حتى وضع دستور (١٩٢٣)، ثم جرى بعد ذلك الالتفاف على الحكم الدستوري، وإقصاء حزب «الوفد» عن السلطة لأغلب سنوات ما بين ثورتي (١٩١٩) و(١٩٥٢).

نفس التحدي في أوضاع مختلفة يعترض ما طالبت به «يناير»؛ حيث إنجازها الرئيس دستور (٢٠١٤)، الذي يعد من أفضل الدساتير المصرية على مدى العصر الحديث.

لا يمكن الادعاء بأن هناك احترامًا للدستور، أو إنفاذًا لالتزاماته.

ثورة «يناير» تعني اليوم: الدفاع عن الدستور قبل أي شيء آخر، فجوهره الانتقال إلى دولة مدنية ديمقراطية حديثة تحفظ الحريات العامة وتصون حقوق المواطنة.

أحد أسباب السهولة النسبية التي اختطفت بها «يناير» أنها لم تدرك موقعها في التاريخ المصري، ولا تراكم خبرة ثوراتها.

في ثورة (١٩١٩) برزت شخصية «سعد زغلول»، الذي تمكن بقدراته السياسية والخطابية أن يعبر عنها، وأن يكون رمزها الأكبر.

عندما أخفقت ثورة (١٩١٩) في أن تحقق هدفيْها الرئيسيْن: الاستقلال والدستور؛ فالأول أُجهض عمليًّا والثاني جرى الانقلاب عليه، بدأت مصر تنتفض من جديد.

في عام (١٩٣٥)، خرجت مظاهرات حاشدة تحتج على تصريح بريطاني بأن مصر لا يصلح لها دستور (١٩٢٣) ولا دستور (١٩٣٠).

في هذه المظاهرات تواصل عطاء الدم المصري.

وفي عام (١٩٤٦)، خرجت مظاهرات حاشدة أخرى؛ من أجل مطلب الاستقلال، أفضت إلى شهداء جدد من بينهم (٢٣) شهيدًا في ميدان «الإسماعيلية»، وهو ذاته الميدان المعروف الآن باسم «التحرير»، وأصيب في هذه الموقعة (١٢١) جريحًا. بعد أيام في الإسكندرية سقط (٢٨) شهيدًا و(٣٤٢) جريحًا.. المدينة ذاتها قدمت شهداء آخرين في ثورة يناير.

كانت تلك التضحيات إيذانًا بميلاد جيل جديد، وهو واحد من أهم الأجيال في تاريخ مصر المعاصرة، حمل السلاح في منطقة قناة السويس ضد قوات الاحتلال، ساهم في تطوير الخريطة الفكرية والسياسية، وقام بثورة جديدة في «يوليو» (١٩٥٢) كان في طليعتها هذه المرة تنظيم «الضباط الأحرار»، وهي واحدة من أعظم الثورات المصرية وأبعدها تأثيرًا، غير أن ثغرات نظامها السياسي الفادحة خذلت الأحلام الكبرى التي أطلقتها.

تراجيديا الثورات ـ بالآمال العريضة التي تسقط من حالق ـ لم يمنع في أي وقت اتصال فعل الحركة الوطنية جيلًا بعد آخر للتصحيح وتعلم الدروس، وهذا ما يجب أن تحتذيه الأجيال الجديدة.

وسط تلك التراجيديا التاريخية فالأمل أقوى من اليأس، و«المستقبل ملك الذي يصنعونه» كما قال ذات يوم «جمال عبد الناصر».

(٦)

فكرة العودة تغري بالتفكير الأسطوري، إلا أن ثلاث روايات تجنبت المحظور وربطتها بالحاضر المأزوم ـ «أمام العرش» لـ«نجيب محفوظ» (١٩٨٤)، و«قائع ما حدث في يوم القيامة بمصر» لـ«بكر الشرقاوي» (١٩٨٧)، و«كتاب التجليات» لـ«جمال الغيطاني» (١٩٩٧).

في «قاعة العدل بجدرانها العالية المنقوشة بالرموز الإلهية وسقفها المذهب تسبح في سمائه أحلام البشر»، جرت محاكمة افتراضية لـ«جمال عبد الناصر» ترأسها «أوزوريس».

المحاكمة شملت كل من أسبغت عليه الرواية صفة الخلود من حكام مصر منذ «مينا» موحد القطرين.

على طريقة «مارك أنطونيو» في رثاء «يوليوس قيصر»، مازج نص «نجيب محفوظ» بين المدح والقدح.

فهو «يشع عظمة تملأ الوطن وتتجاوز حدوده»، وهو «نجح في أن يجعل هزيمته تفوق كل نصر»، و«الفقراء لم ينعموا بالأمان والأمل، كما حدث في عهده»، لكنه «شطب اسم مصر الخالد بجرة قلم»، و«فاق اهتمامه بالوحدة العربية على الوحدة المصرية»، و«اضطر العديد من أبناء مصر إلى الهجرة، التي لم يمارسوها إلا فترات قهر عابرة!».

«على الرغم من نشأته العسكرية، فقد أثبت قدرة فائقة في كثير من المجالات إلا العسكرية، بل لم يكن قائدًا ذا شأن بأي حال من الأحوال!».

ثم إنه حاول محو اسم «سعد زغلول» من الوجود ـ كما جاء الكلام منسوبًا إلى زعيم ثورة (١٩١٩) في المحاكمة التخيلية.

«جاءت ثورتك فتخلصت من الأعداء، وأتمت رسالة ثورتي عرابي و١٩١٩ وبالرغم من أنها بدأت كانقلاب عسكري، فإن الشعب باركها ومنحها تأييده، وكان بوسعك أن تجعل من الشعب قاعدتها، وأن تقيم حكمًا ديمقراطيًّا رشيدًا لكنك انتهجت حكمًا استبداديًّا هو المسئول عن جميع ما حل من سلبيات ونكبات».

كأي عمل فانتازي فإنه يحمل آراء وتصورات مؤلفه في النظر إلى التاريخ ووقائعه وأبطاله.

بالتكوين الفكري لـ«نجيب محفوظ»، فهو وفدي الميول.

لم يكن بالغ الإعجاب بـ«سعد زغلول»، الذي نسب إليه في محاكمة أخرى بذات الرواية، أنه قد تعامل مع الاحتلال بعد هزيمة الثورة العرابية، وأن ثورة (١٩١٩) قد باغتته دون أن يكون له دور كبير في إطلاقها.

كان «مصطفى النحاس» خليفة «سعد» هو مثله الأعلى، وفي محاكمته الافتراضية لم يوجه له أي نقد من أي نوع، ولا بأي درجة وأدخله سجل الخالدين بلا أي سؤال عن حادث (٤) فبراير (١٩٤٢) الذي قبل به الحكم على أسنة الحراب البريطانية، أو حول ما هو منسوب إلى عائلته من تجاوزات وردت في «الكتاب الأسود»، أو ما هو منسوب إليه من تقبيل يد الملك عند تكليفه بآخر حكومة تولاها بضغط من أصحاب المصالح حتى يبقى في الحكم لأطول فترة ممكنة.

يتمتع «النحاس» بمحبة معاصريه، وهو «زعيم الأمة بلا منازع حتى معاهدة ١٩٣٦»، ويستحق بحجم دوره أن يدخل في الخالدين، غير أن الملاحظة لافتة.

مضت أغلب محاكمات حكام العصور الحديثة بشيء من التوازن أحيانًا، والتحامل أحيانًا أخرى.

تقتضي الفانتازيات الالتزام بالوقائع التاريخية دون تحريف وإطلاق الحوارات الافتراضية بما يتسق مع الطبيعة المعروفة للشخصيات لبناء تصورات جديدة لها.

بدت شخصية «عبد الناصر» في «أمام العرش»، كما لو كانت مرآة للعمل كله، تفسره وتفك ألغازه، كما بدا العمل نفسه مرآة أخرى لأعمال «نجيب محفوظ».

في رواية «بكر الشرقاوي»، «وقائع ما حدث في يوم القيامة بمصر»، استلهام آخر للإرث الفرعوني، فـ«عبد الناصر» هو «أوزوريس»، الذي مزقه «ست» في الأسطورة المصرية القديمة إلى أشلاء وناضلت «إيزيس» من أجل تجميع جسده الممزق.

«سيادة الرئيس.. لماذا اختفيت فجأة..؟

ـ ومن قال إني اختفيت.. إني مازلت موجودًا في مصر، في عمق مصر، في كل أعماقها».

السؤال والجواب كانا موضوعًا لأعمال روائية تخيلت عودة «عبد الناصر»، وأسقطت على ما تخيلته رؤيتها وانحيازاتها ونظرتها إلى الواقع وتحدياته.

الفكرة في ذاتها تعبير عن قوة الحنين إليه، إلى شيء من عصره انقضى فعله.

من موقعه القديم في ميدان «باب الحديد»، تحرك تمثال «رمسيس الثاني»، كأنه اكتسب صفته الإنسانية، متجهًا وسط ذهول الناس إلى «كوبري القبة»، حيث دُفن «جمال عبد الناصر».

أمام الضريح يقول في بطء مهيب: «السلام عليك يـا عبد الناصـر يا عــدو أعداء مصر ومحاربهم».

«قم يا عدو بني إسرائيل فأنت تعرفهم أنت آخرنا، أول القادمين.. قم إليهم.. قم إلى مصر والعالم كله».

تبدأ بعودته قصة جديدة افتراضية في المواجهة.

ينتقل «عبد الناصر» إلى حلوان أهم مناطق مصر الصناعية، وإلى الريف والجامعات يخطب ويحرض على «الثورة»، ويجدد في فكرها ويضيف الديمقراطية السياسية إلى مشروعه، ويبدأ في كتابة الجزء الثاني من «فلسفة الثورة».

عندما نشرت هذه الرواية عام (١٩٨٧) وصفها الناقد الأدبي الدكتور «لويس عوض»، برغم انتقاداته لـ«يوليو»، في مقال نشرته «الأهرام» بأنها أفضل رواية في السنوات العشر الأخيرة.

وفي «تجليات الغيطاني» فاجأت «عبد الناصر» العائد «أعلام العدو فأمر بتنكيس الأعلام وإزالتها من فضاء القاهرة، وأمر بإلقاء القبض على جميع أفراده المتواجدين في الديار من سفير وأعضاء سفارة، و.. لم يجد قلمًا وشعارًا يوقع به فطاف بالميادين يزعق ويصيح، فالوسائل معدومة والحيلة واهية، والقدرة قصية، والوجوه غريبة، والسحن غير معتادة، والأيام غير الأيام والزمن خلاف الزمن».

«من الحواري خرجت النسوة حاسرات ومصفقات ضارعات شاكيات ارتجفت صدور وأينعت قلوب واختفى آخرون، وفجأة خرج جند كثر يقودهم ضابط صغير

يرتدي حلة سوداء غريبة مليئة بالجيوب والطلقات أشهر خنجرًا دفع عبد الناصر في صدره، وأومأ فتدافع الجند اقتدوه فتفرق الخلق، ونزل صمت بغيض ثقيل فأينعت الهموم وتدفقت مّياه جديدة في أنهار البلوى».

من فرعونية «بكر الشرقاوي»، إلى صوفية «جمال الغيطاني»، بدا حضور «عبد الناصر» قويًا إلى درجة استدعائه لإبداء رأي فيما هو جارٍ من أحداث وتحولات.

الأول ـ بدا كما لو كان يتنبأ بثورة.. والثاني ـ توقع إجهاضها.

(٧)

لا يقدر أحد أن يصادر حقائق التاريخ وفق انفعالات عابرة أو تصفية حسابات مستعصية.

المراجعة غير الإنكار، والنقد غير التدليس.

بمقاييس التأثير في حركة التاريخ فإن «يوليو» واحدة من الثورات الكبرى ـ بتعبير الدكتور «غالي شكري».

الثورة الأولى، الفرنسية وقد ألهمت الجيل الأول من حقوق الإنسان ـ الحقوق المدنية والسياسية.

والثورة الثانية، البلشفية وقد ألهمت الجيل الثاني من حقوق الإنسان ـ الحقوق الاجتماعية والاقتصادية.

والثورة الثالثة، الصينية وقد ردت اعتبار المارد الآسيوي وغيرت وجه التاريخ الإنساني.

والثورة الرابعة، «يوليو»، وقد قادت زخم حركات التحرير الوطني في العالم الثالث، وألهمت الجيل الثالث من حقوق الإنسان ـ حقوق التحرر الوطني والسيادة الوطنية والاستقلال وحق تقرير المصير.

على الرغم من مرور أكثر من قرنين على الثورة الفرنسية، فإن السجال الحاد حول وقائعها وتحولاتها وأبطالها لم يمنع الإقرار العام بدورها الجوهري في تغيير مسار التاريخ الإنساني.

يعزى للثورة الفرنسية أنها أطلقت الأفكار الأساسية في الحقوق والحريات العامة إلى آفاق لم تكن متخيلة بمعايير القرون الوسطى، والعالم بعدها اختلف بصورة جذرية عما كان قبلها.

في الحصاد الأخير بقيت قيمها الكبرى تؤثر وتلهم حكم الشعوب، وتوارت صفحاتها الدموية، وقصص المقاصل التي أطاحت بالرءوس والردات التي أعقبتها.

بالقدر ذاته لعبت الثورة البلشفية أدوارًا لا يمكن التهوين منها في إلهام فكرة بناء عالم جديد أكثر عدلًا.

على الرغم من أي مثالب قاتلة في بنية نظامها، يعزى لتلك الثورة أنها نقلت الوعي الإنساني بقضية العدل الاجتماعي إلى مستويات غير مسبوقة.

لا يمكن النظر إلى التطورات الجوهرية التي لحقت بمفاهيم الرعاية الاجتماعية داخل النظم الرأسمالية الغربية دون الإقرار بتأثيراتها.

على منوال مماثل لعبت الثورة الصينية أكثر الأدوار أهمية في الشرق الآسيوي؛ حيث الكتل البشرية الهائلة التي ترزح تحت فقر مدقع وحروب بلا نهاية مع الأفيون والذباب.

نجح الصينيون في الانتقال من الثورة إلى الدولة، ومن التخطيط المركزي الصارم إلى الانفتاح الاقتصادي المحسوب، بأقل كلفة سياسية ممكنة، وأسسوا واحدة من أكثر التجارب استقرارًا بزخم التراكم.

بكل التجارب لم تكن هناك ثورة مثالية ولا خالدة.

الأخطاء الفادحة من طبيعة التحولات العاصفة.

الثورات بنات عصورها، وأسوأ قراءة ممكنة لأي ثورة نزعها من سياقها التاريخي، أو إضفاء قداسة على أحداثها.

كل حدث قابل للمراجعة، وكل سياسة قابلة للنقد.

الأمر نفسه ينسحب على ثورة «يوليو»، التي لا يتوقف السؤال حولها من حقبة سياسية إلى أخرى.

حدة السجال الممتد شهادة لـ«يوليو» بقوة النفوذ على الرغم من انقضاء الأزمان والرجال.

يعزى لثورة «يوليو» إلهام فكرة الاستقلال وحق تقرير المصير للشعوب المغلوبة على أمرها، وتجربتها الاجتماعية أهم ملامحها.

قوة «يوليو» في مشروعها الذي غيّر خريطة مجتمعها وتجاوز حدودها إلى عالمها.

بقوة الأثر التاريخي فإنها مازالت حاضرة في السجال العام.

ما هو تحرري بنى صورتها.

وما هو اجتماعي أكد شرعيتها.

(٨)

لا يصح لأحد أن يتحدث عن استنساخ تاريخ، أو استعادة تجربة، فـ«يوليو» ولدتها تحديات ما بعد الحرب العالمية الثانية، خاضت معاركها في موازين قوى دولية مختلفة وتبنت نظامًا سياسيًّا تعبويًّا كان الخيار المعتمد في ذلك الوقت داخل حركات التحرير الوطني في العالم بأسره.

الاستنساخ فعل انقلاب على جوهر تجربة «يوليو»، وهو وهم كامل إذ يستحيل أن تقيس تحديات عصر على عصر آخر.

أمام عالم جديد تتبقى من التاريخ دروسه الأساسية وأفكاره وقيمه، التي صاغت مشروعات بعينها.

قوة أي مشروع في قدرته على بناء أفكار وتصورات وسياسات جديدة وفق قيمه الرئيسة بالنقد والتجديد والإضافة، وإلا فإنه يدخل في موت سريري لا قومة منه.

أهم قيم مشروع «يوليو»: استقلال القرار الوطني وانتماء مصر العربي والانفتاح على العالم الثالث وقضاياه والعدالة الاجتماعية ومناهضة التبعية في السياسة والاقتصاد.

تختلف المقاربات والسياسات باختلاف العصور.

اكتسبت «يوليو»» قوتها من تفاعلها مع حقائق عالمها، تحدت وحاربت واجتهدت في بناء صيغة جديدة لوحدة دول العالم الثالث خارج الخيار، الذي أعقب الحرب العالمية الثانية، فإما أن تكون داخل المعسكر الغربي الرأسمالي وإما داخل المعسكر الشرقي الشيوعي.

هكذا ولدت حركة عدم الانحياز.

كل تفاعل يكتسب معناه من خياراته الرئيسة.

هناك فارق بين التفاعل بالعشوائية والتخبط والتفاعل بالخيارات والأهداف.

المشروعات التاريخية الكبرى ليست نصوصًا ولا دراسات أكاديمية، وإنما تفاعل بين الفكر والواقع.

استوعب «عبد الناصر» في مشروعه أفضل ما كان مطروحًا من خيارات عصره، دمج التحرر الوطني بالالتزام القومي العربي وبفكرة التغيير الاجتماعي والانحياز للطبقات الفقيرة.

كانت العدالة الاجتماعية صلب قاعدة شرعيته؛ حيث تعلقت باحتياجات البشر في الصحة والتعليم والخدمات الأساسية، وقبل ذلك الحق في العمل وفي عائد الناتج القومي، أن يكون إنسانًا كريمًا في وطنه وآمنًا على مستقبله.

وكانت توجهاته العروبية أفق حركته في محيطه.

أي توجهات تكتسب قيمتها من مستويات التزامها.

هناك حاجة حقيقية على مستوى الفكر إلى دمج قيم التعددية والديمقراطية السياسية وحقوق الإنسان، لا تحتمل أي التواء في صلب المشروع الوحدوي العربي.

لا يمكن الحديث عن أي استنساخ لـ«حركة عدم الانحياز»، أو الوحدة العربية على النحو الذي جرى في الخمسينيات.

الاستلهام غير الاستنساخ.

قيم المشروع وحدها هي التي تربط بين الإرث والمستقبل، حتى يكون ممكنًا أن يقف من جديد على أرض صلبة.

«يوليو» لا تمثل نظرية يقاس على نصوصها بقدر ما تلخص مشروعًا يقاس على قيمه.

بصورة أو بأخرى، فإن هناك سؤالين متداخلين، كلًّا منهما ينتمي إلى ثورة.

الأول ـ «يوليو» وسؤالها في العدالة الاجتماعية، وهذه مسألة شرعية في بلد أنهك شعبه.

والثاني ـ «يناير» وسؤالها في الحرية السياسية، وهذه مسألة قواعد الخروج عنها صدام مع العصر.

إنكار العدالة الاجتماعية انتقاص من فكرة الحرية نفسها.

الكلام المرسل عن العدالة الاجتماعية في أثناء ثورة «يناير» سهل على الأيدي الخفيفة أن تلتقطه، وتذهب به إلى حيث تريد.

عندما افتقدنا تراكم التاريخ خسرت فكرة الثورة اتصالها بحقائق مجتمعها وتاريخها، وأفقدت نفسها مرجعيات ترشد دعوتها إلى العدالة الاجتماعية من واقع تجربة مصرية معاصرة.

(٩)

لسنوات طويلة كان السؤال الرئيس: «ماذا تبقى من ثورة يوليو؟».

السؤال ـ بذاته ـ يعني أن نظامها انتهى وتوجهاتها جرى الانقضاض عليها.

مع بداية الانفتاح الاقتصادي عام (١٩٧٤) تردد في السجال العام سؤال العدالة الاجتماعية وطبيعة الانقلابات الجارية في البنية الطبقية للمجتمع، التي نظر إليها على نطاق واسع بأنها قطيعة عند الجذور مع شرعية «يوليو».

كانت انتفاضة الخبز في يناير (١٩٧٧) ذروة الصدام الاجتماعي، فالسياسات تناقضت وتناحرت قبل أن تفترق الطرق إلى الأبد بتوقيع اتفاقيتي «كامب ديفيد» عام (١٩٧٨).

في بداية عهد «مبارك» نجح في وضع كمادات ثلج فوق الرأس المحموم، لكنه مال بالوقت إلى جمود طويل لا صلة له بدعاوى الخمسين سنة ـ حسب التعبير الذي تردد في مطلع القرن.

في «يناير» عاد الكلام مجددًا عن «يوليو» من منظور جديد.

هناك من حاول أن يصور «يناير» كأنها ثورة على الستين سنة التي تلت «يوليو»، بزعم ــ لا يمكن إثباته ــ أنها حقبة سياسية متصلة، شرعية واحدة ونظام واحد.

كان ذلك استخفافًا بحقائق التاريخ وهزلًا في مقام الجد.

بحيثيات جديدة أضيفت سنوات أخرى إلى تلك الدعاوى، من بينها تحميله مسئولية ما أطلق عليه «حكم العسكر».

بحركة الزمن يمكن توقع إضافات جديدة تمنع التعرف على مناطق القوة والضعف وفرص التصحيح والإضافة، كأن يحمل «عبد الناصر» مسئولية «السبعين سنة»، ثم «الثمانين سنة».. وهكذا بلا نهاية دون إدراك لمغبة ذلك على سلامة النظر إلى المستقبل.

من طبائع الأمور أن تختلف التقديرات السياسية بشأن الأحداث الكبرى وأدوار الثورات وإرثها في حياة الشعوب، غير أنه لا يصح أن تمضي بعض التقديرات إلى حد إهدار الذاكرة الوطنية، وإطلاق أحكام تفتقر إلى أدنى احترام لوقائع التاريخ الثابتة، مستبدة بها ثأرات تاريخ أو أفكار.

بقوة التاريخ المشترك ثورة «يوليو» إرث عام، لا يخص تيارًا سياسيًّا دون آخر، ولا جيلًا دون آخر، ومن حق جميع الأطراف الوطنية أن تبدي وجهة نظرها فيها، وأن تختلف معها في موضع أو آخر، لكن بشرط ألا تزيف التاريخ وحقائقه الأساسية، أو أن تقول كلامًا عامًّا مرسلًا لا يستند إلى دليل ولا منطق.

ثورة «يوليو» انتهت تمامًا في السبعينيات، والرئيس السابق «أنور السادات» يعلن نهاية «الشرعية الثورية» والانتقال إلى «الشرعية الدستورية».

لم يكن «السادات» جادًّا في الالتزام بالدستور وقواعده الملزمة، وكان اعتقاده أن الدستور يحكم من بعده، وأنه آخر الفراعين الذين لا يحكمهم دستور!

أنهيت الشرعية الثورية دون أن تتأسس شرعية دستورية.

استخدمت الثورة أدوات الدولة لإحداث أكبر تغيير اجتماعي.

بنفس الأدوات جرت الثورة المضادة.

إرث «يوليو» الوطني والاجتماعي تقوض تمامًا، وإرثها في إدارة الدولة وتأكيد سطوتها امتد بعدها.

الانقلاب على «يوليو» وشرعيتها وإنجازاتها وخياراتها الاقتصادية والاجتماعية والإستراتيجية لم يلحقه انقلاب على طبيعة النظام السياسي، بصورة تسمح بانتقال واسع لدولة مؤسسات حقيقية، يحكمها القانون والتوازن بين السلطات.

كأي نظام ثوري فهو فعل استثنائي انتقالي، قاد أوسع عملية تغيير في البنية الاجتماعية، وأخرج طبقات رئيسة إلى الحياة وتطلعاتها في التعليم والصحة والرعاية الاجتماعية وحقوق العمل وتكافؤ الفرص، وخاض في الوقت ذاته معارك مفتوحة في إقليمه وعالمه، ودخل حروبًا طاحنة في الصراع على المنطقة.

لا يصح أن نحاسب الثورات بغير قوانين حركتها، أو بأهداف غير التي تبنتها، أو خارج السياق التي عملت فيها والعصر الذي احتضن تفاعلاتها.

هذه هي الأصول العلمية في النقاش العام، أما إهدارها واعتبار كل ما جرى بعدها يدخل في مسئوليتها، ففيه اعتداء صارخ على الحقائق الرئيسة التي ترتبت على الانقلاب عليها، وفيه تحميل للثورة بأكثر مما تطيقه الحقائق، فالثورة انتهت منذ عقود طويلة، وشرعيتها طويت صفحاتها، والنظم التي تلتها انقلبت على خياراتها السياسية والإستراتيجية.

بعض الكلام ينطوي على تعميم عشوائي دمج بين نظم وعصور متناقضة وأغلبه استهدف التشهير بالتاريخ لإغلاق صفحة «عبد الناصر»، وما تمثله من قيم أهدرت وأحلام أجهضت.

بعبارة بليغة لشاعر العامية المتمرد «أحمد فؤاد نجم»، فإننا «نعاتب عبد الناصر فيما لا نعاتب فيه غيره»؛ باعتقاد أنه كان مرشحًا لتغيير أوسع وأعمق بفوائض الشعبية التي حازها، وأن الفرصة التي فاتت يصعب تعويضها.

هذا عتاب على «عبد الناصر» في محله بقدر كبر الأمل فيه ـ إذا كان العتاب يجدي.

شيء من ذلك العتاب سجله بطريقة أخرى الدكتور «سعيد أبو الريش»، الأمريكي من أصل فلسطيني، في كتابه «آخر العرب»؛ حيث زاوج بين حدة الانتقاد لتجربته وعمق الإعجاب بنموذجه، فهو «الشخصية العربية الأهم منذ صلاح الدين الأيوبي».

القضية ليست الاتفاق على قراءة واحدة للتاريخ، هذا مستحيل تمامًا.

القضية أن تكون هناك موضوعية في القراءة حتى يمكن أن يتحدد مجرى رئيس للنقاش العام يساعد مصر على استيعاب أهم تجاربها السياسية وتجديد مشروعها ـ الذي هو المشروع الوطني والقومي المتجدد وفق احتياجات العصور الجديدة.

أخيل جريحًا

إرث جمال عبد الناصر

تقول رواية متواترة إن الطالب «جمال عبد الناصر» لعب دور «يوليوس قيصر» في مسرحية «وليم شكسبير»، التي تحمل الاسم نفسه على مسرح مدرسته الثانوية.

لم يكن ممكنًا لمن شاهدوا ذلك العرض المسرحي المدرسي أن يخطر ببالهم أن الطالب الذي يُمثِّل دور «يوليوس قيصر»، أو يصرخ متألمًا بعبارته الشهيرة: «حتى أنت يا بروتس»، سوف يلقى مصيرًا مماثلًا في قابل الأيام؛ حين يتنكر له بعض رجاله ويطعنون فيه.

لماذا صعد مشروعه، وكيف خذله نظامه؟

السؤال ضروري بأي نظر جِديٍّ إلى المستقبل.

بصياغة أخرى لنفس السؤال: إلى أيِّ حدٍّ يتحمَّل «عبد الناصر» مسئولية ما انتهت إليه تجربته، وما تبناه من آليات حكم ناقضت مشروعه؟

هذا الكتاب محاولة لإعادة قراءة التجربة مشروعًا ونظامًا وإرثًا وصراعًا، امتدَّ عبر العقود حتى ثورة «يناير» وما بعدها إلى عقود أخرى لا يعرف أحد عددها.

قراءة وليست تأريخًا، رؤية لمستقبل وليست تحليقًا في ماضٍ.

التاريخ هو مادة المستقبل بقدر ما تساعد قراءته على بناء التصوُّرات وإحكامها بأكبر قدر ممكن من الموضوعية دون تبرير لخطأ، أو اندفاع بمشاعر.

الموضوعية طريقة نظر تقدر وتنصف وفق حقائق العصر الذي جرت فيه الحوادث.

بالوثائق والشهادات وبعضها شبه مجهول، وبعضها الآخر ليس في العِلْم العام أنه موجود، حاولت بناء رؤية جديدة في عصر جديد لأهم تجربة عربية في التاريخ الحديث، وأكثرها إثارة للجدل ـ كأنه نظرة في المرآة لقوتها وتجاعيدها.

9 789770 935774

دار الشروق
www.shorouk.com